





الجزء الأول تأليف: فترحى رضوان



لوحة الفلاف من أعمال الفنان : حامد عويس

كإضافة جديدة لكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تمبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

رضوان ، فتحى

عصر ورجال/ فتحى رضوان - القاهرة: الهيشة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

مج ۲۸۲ ص ؛ ۲۶ سم.

تدمك : ٩ - ١٨٦ - ٢٠٠ - ٧٧٩ - ٨٧٨.

١ \_ مصدر - تاريخ - العصير الحديث - تورة ١٩١٩م.

٢ - الأدباء العرب - مصبر.

أ - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٧٤٧ / ٢٠٠٨

I.S.B.N 978 - 977- 420 -381 - 9 نیوی ۸۱۰٬۰۱۸

## تقديم

أما العصر فهو الفترة ما بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ والأحداث السياسية التى حدثت فيها مثل إعلان الدستور، ووفاة سعد زغلول، ثم معاهدة ١٩٣٦، وإعلان الحرب العالمية الثانية، وحرب فلسطين، وما صاحب هذه الأحداث من انعكاسات على الناحية الاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

أما الرجال فهم أولئك الذين شاركوا في صناعة هذه الأحداث أو كانوا شهودًا عليها سواء كانوا أدباءً أو مفكرين، حيث يرصد المؤلف في كتابه الذي يقع في جزءين الحياة الخاصة لتلك الشخصيات كمرآة للحياة العامة، وقد ساعدته معرفته الشخصية بهم والتعامل معهم عن قرب على سبر أغوارهم وترجمة أفكارهم التي ساهمت في تشكيل وجدان الشعب المصرى في هذه الفترة الحافلة بالأحداث الوطنية والتاريخية، حيث يصف لنا في الجزء الأول من الكتاب لقاءاته مع أحمد شوقي أمير الشعراء ثم حافظ إبراهيم والألقاب التي أطلقت كشاعر النيل، وشاعر اللواء، وشاعر الوطنية، وشاعر الحزب الوطني ثم إبراهيم عبدالقادر المازني ومقالاته في جريدة السياسة وجريدة البلاغ ثم عباس محمود العقاد واشتغاله بالصحافة بعد أن استقال من وظيفته الحكومية، وسلامة موسى الكاتب القبطي الذي أخذ على عاتقه التعبير عن هموم المجتمع المصرى

كله من ناحية وهموم المجتمع القبطى من ناحية أخرى، وقد أدى دوره بتوازن شديد، ثم «على الغاياتي» وتاريخه فهو صاحب ديوان «وطنيتي» الذى يعد وثيقة من وثائق الحركة الوطنية، ويختتم الجزء الأول بالحديث عن الآنسة اللبنانية «مي» التي كانت تعقد في منزلها ندوة يوم الثلاثاء من كل أسبوع يحضرها الأدباء ورجال الفكر والسياسة، أما الجزء الثاني فيتضمن دراسات عن يوسف حلمي الشاب المصرى الذي جمع في نفسه وتاريخه كل مزايا وعيوب عصره، وأحمد لطفي السيد الذي كان وزيرًا للمعارف في الوزارة التي أوقفت دستور ١٩٢٣ وعطلت الحياة النيابية، والدكتور محمد حسين هيكل الأديب الكبير ورئيس تحرير جريدة السياسة، ثم أحمد أمين أستاذ القانون، وأخيرًا عبدالحميد الديب الذي كان صورة لمجتمع فيه مواهب تنقصها الإرادة، وفيه توثب وتهيؤ للتمرد والثورة.

اختارت مكتبة الأسرة هذا الكتاب لمؤلفه فتحى رضوان الكاتب والمفكر السياسي لتقدمه هذا العام عن طبعته الأولى الصادرة في ٢٠٠٣.

لكم أحببت هذا الكتاب، وهو بعد فكرة فى رأسى، لم تتخاق ، ولم يصبح لها رأس، ولم تظهر لها قدم . ولكم زدت له حباً ، وهو مشروع كتاب ، اتضحت معالله وظهرت ملامحه . ولكم أمتعنى وأسعدنى ، وأنا أعيش له ، وأقرأ الكتب ، والصحف، من أجله ولكم أضاء حياتى ، وقوى إيمانى ببلدى ولفتى وأنا أكتب محائفه صفحة بعد صفحة بل سطراً بعد سطر . لا لأن ما كتبته فيه حقق بالضبط ما أردته ، بل لأنه أتاح لى أن أعيش مع أمحاب الأسماء التى صنعت تاريخنا الأدبى الحديث ، وأن أزداد منهم قربا ، ولهم فهماً .

\* \* \*

وما من كتاب تقفز فكرته إلى رأس صاحبه ، أو تولد فى قلبه ، إلا ويرتبط به المؤلف كا يرتبط الأب بابنه ، بل بأ كثر بما يرتبط الوالد بالمولود . فإن الفكرة أشد مكراً من الحسناء اللموب . لاتبدو إلا فى حالة من الغموض والإستخفاء ، ثم هى لاتكف عن معابثة صاحبها ، تقـ ترب منه حتى يحسب أنها مل عديه ، وطوع إرادته ، ثم يمد يدة نحوها فإذا هى بعيدة ، فييئس منها ويدعها ، وهو يحسبها وهما من أوهام العقل ، لكنها تعود إليه ، أكثر جمالا، وأشد فتنة ، وأقل غموضاً ، وأقرب منالا . فيهيأ لاستقبالها ، بروح الواثن المطمئن ، وأله بدت عند الاقتراب منها أقل جمالا ، أو شوها الا تطاق فإذا عادت تحصن بتجربته القريبة ، واصطنع الثبات ، ولم يحفل بندائها الملح ، فإذا عادت تحصن بتجربته القريبة ، واصطنع الثبات ، ولم يحفل بندائها الملح ،

وهو يحسب أنه نفض يده منها ، واستراح من عبثها المفرى ، ودلالها الممض وهو يحسب أنه نفض يده منها ، واستراح من عبثها المفرة ، ثم يرى نفسه فجأة فى قبضتها القوية المتمكنة ، لاتريد أن تفلت خناقة ، فيستسلم ، ويقبل منها الأمر ويعلن الإذعان والطاعة. فإذاهى خرساه صامتة ، لا تنطق ، ولا توحى ، ولا تأمر ولا تنهى .. فينظر إليها ، وقداستحال الحبلها كرها ، والإعجاب بها ، سخطا ، والترحيب بمقدمها عزوفا وصدودا .

وهكذا دواليك حتى يتم بين الفكرة والعقل الذى راودته ، التزاوج ، فاذاها شيء واحد: لاندرى أيهما يسيطر على الآخر ، وأيهما يخضع لصاحبه ، حتى يتم الميلاد ، فتخرج للناس قصيده ، أو مقالا ، أو قصة أو كتاباً . وقد تأتى بعد هذا العناء كلمه شوهاء أو عرجاء ، أو حولاء ، أو عياء . وإن لم يكن من المستحيل أن تأتى حسناء ، أو نجلاء . وفي الحالتين ، لايستطيع صاحبها أن ينكرها . قد يحزن لما يشوهها من عيب أو عيوب ، ولكنها آخر الأمر ابنته ، إن لم يفخر بها ، فهو يشفق عليها في دنيا لسانها طويل ، و نقدها ثقيل ، و رضاؤها الكامل مستحيل .

\* \* \*

وقد فعل بي هذا الكتاب كل ذلك.

ولكن لماذا أطلت في الحديث عن علية الخلق الفني و تطور أنها ومتاعبها؟ لعله لم يأت ذلك اعتباطاً فان موضوع الكتاب الذي أقدم له بهده السعاور، موالخلق الأدبى كاتمر ضه حياة بضعة عشر كاتباً وشاعراً من أكبر كتابنا وشعر اثنا. قلت لك أنني أحببت هذه الفكرة، لأن إخراجها إلى عالم الحيساة كان

يقتضينيأن أعيش مع الأدباء الذي اقترح على الخاطر الأول للكتاب أن أجمامهم موضوعه . ولكم أحب أن أعيش مع الذين فكروا وأبدعوا . فإن الدخول إلى دنيا حياتهم ، أمتع كثيراً من الدخول إلى عالم أفكارهم . الأول يفضي إلى سياحة تتعلم منها ، وأنت تشاهد و تتفرج و تسمع و تلهو ، والثابي يؤدي رحلة تعلم وإرشاد ، ووقار و تزمت ، لابد لك من أن تحصر لها الذهن و تجهد الفكر ، وتمسك ورقاً وقلماً لتقيد و تسجل .

والدخول إلى حياة العالم الأديب والشاعر ، يقربك من الإنسان ، مجرداً من جلال أفكاره ، ومظاهر شهرته ، ويحردك من سيطرة شخصيت الآمرة أو الناهية ، أو الضاحكة الساخرة ، أو المتجهمة المتعالية ، ف ترى كم تضنى آثار الإنسان عليه الصفات والأضواء ، ما يكاد يخرجه عن حقيقة أصله ، فيبدو لنا إلما أو أقرب ما يكون من الإله ، أو شيطاناً مريداً ، أو أقرب ما يكون من الشيطان المريد ، ثم ترى كيف يعانى الإنسان الخالق المبدع من عصره وماور ثه عن أهله ، مما يعطل أحياناً موهبته ، أو بضعف من آثارها . ثم ترى الصراع المجيد بين الإنسان ، وبين كل نوازع الضعف ، وبواعث الاستسلام ، فتهولك انتصاراته وتأسى لمرائمه ، وأنت لا تملك نفسك في الحالين من التساؤل كيف انتصر وكل شيء يدعو إلى المربحة ؟ ولماذا أنهزم وكل شيء يدل على أنه جمع عزمه على الانتصار . .

والحق أنى لم أجعل من همى أن أصف حياة كبار أدبائنا أو مفكرينا الخاصة بقدر ما أردت أن أصف حياة العصر الذى بدأ ببدء ثورة سنة ١٩١٩ والذى انتهى ببدء ثورة سنة ١٩٥٦ .

ولكن كيف أصف هذا العصر ؟ هذا هو العنهاء الذي وصفت لك طرفاً منه . كان أماى أكثر من أسلوب . كان من هذه الأساليب ، أن أروى الأحداث البارزة في العهد مابين الثورتين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٧

كذكريات لى منذ اتصلت بالحياة الأدبية والفكرية ، متابعاً فى السرد والرواية أدوار حياتى أناكا فعل ستيفان زفايح فى كتابه « عالم الأمس » والحق أنى وقفت طويلا مأخوذاً بهذا المنهج . وبدالى أن أقسم هذه الحقبة التى بلغت ثلاثين عاماً أو يزيد إلى أقسام حسب الأحداث السياسية الكبرى فاجعل قسها للثورة حتى إعلان الدستور حتى وفاة سعد سنة ١٩٣٥ ثم من وفاة سعد حتى إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ . ثم من المعاهدة إلى إعلان الحرب العالمية الثانية ، ومن نهايتها حتى حرب فلسطين وأروى فى كل حقبة من هذه الحقب ، أحداثها الأدبية ، ودور كل أديب من الأدباء فيهاولكنى مالبثت حتى تبينت ضخامة هذا المشروع فعدلت عنه .

انتهيت آخرالأم إلى أن أروى قصة العصر وأصوره ، من خلال رواية حياة كبار أدبائه . فليس أصدق في رواية التاريخ ، وتحديد خصائصه ، من قصص حياة الأشخاص اللذين صنعوا هذا التاريخ ، وليس أصدق في رواية الحياة العامة من الحياة الخاصة لمن خلقوا هذه الحياة العامة ولعبوا على مسرحها وأدوا الأدوار الكبرى فيها . فالحياة الخاصة للكبار ، هي الصورة الخالية من التزييف ، لعصر الذي ينتمون إليه ، أو الذي ينتمي إليهم ، الحجبة إلى القلب السهلة التناول . .

الحياة الخاصة إن رواها صاحبها، أو رواها صديق، أو عدو ، تنضع بالصدق، أكثر بما تنصح الحياة العامة . فالحياة العامة فسيحة متشابكة ، ولها أكثر من جانب، وفرص التزييف فيها والغرض والمحاباة لانهاية لها . أما الحياة الخاصة مهما علا قدر صاحبها محدودة ، والقدر المناح للحركة فيها لمن يريدون الاصطناع والتلفيق أقل بكثير منه في الحياة العامة .

على أننا إذا لم نشغل فقط بالصدق والتزييف ، وجدنا أن الحياة الخاصة على أننا إذا لم نشغل فقط بالصدق والتزييف ، ومثات الكتب والمجلدات:

فرب خطاب شخصى ، أو زى شائع فى عصر ، أو دعابات أو فـكاهات متداولة فيه ، أو أنواع مآكل ومشارب مفضلة عند أهله ، أو فضائح غرامية وقعت لمشاهيره ، أبلغ فى بيان حياة الشعب فى فترة من فتراته من مجلدات ضخمة يسهر على كتابتها مؤرخ ، ويجمع لها الوثائق ، ويراجع لها المصادر .

ففضيحة عقد اللكة في عهدما قبل الثورة الفرنسية ، تروى من أسر ارهذا المهد وحقائق تاريخه ،أكثر مماتروى لنا نصوص دستور ١٧٩٣ ، كا أن زواج شقيقات الملك فاروق في أمريكا أيضاً تروى لنا عن عصر ما قبل ثورة سنة ١٩٥٢، أكثر مما ترويه مناقشات مجلس النواب والشيوخ في خمس سنوات كاملة .

ولكن ما هي الحياة الخاصة التي قصدت أن أروى قصة هذه الفترة عن طريقها؟هلهي هذه الحياة التي لاتخص إلا الإنسان وحده والتي تدور حول طعام وشراب،وحب وزواج ، ونزوات لا تمارس إلاوراء الستأثر المسدلة ، ولذائذ لاتتعاطى إلاف الأركان المظلمة؟ وبعبارة أخرى ، هل قررت أن أتعقب الجوانب المظلمة الحميمة من حياة مفكرينا وأدبائنا ، وأن أحصى عليهم سقطاتهم وأكشف الستر عن زلاتهم ، لأرسم صورة العصر الذي عاشوا فيه ، وساهموا في بنائه ؟

إذا كان شيء من هذا قد تبادر إلى الذهن ، فهو جدير بأن ينفي بأسرع وبأقوى ما يستطاع ، ذلك لأن مثل هذه الزلات والسقطات في رأبي ، لا تمثل عصراً ، ولا تؤرخ عهداً ، فللإ نسان جانبه الحيواني ، وهو جانب لا يختلف فيه الناس في عهد من عهد . إنما الحياة الخاصة التي أعنيها ، هي هذه الطبقة التي تأتى بعد الحياة العامة مباشرة ، وتعلو الحياة الداخلية اليومية مباشرة .

فإذا أحب الأديب وانعكس هذا الحب في أدبه وشعره ، فهذا هو الجانب العام الخاص الذي يرينامن حياة الأديب وفكره ، ومن حياة أهله وعصره ، مالا ترينا القصائد التي نظمها في هذا الحب ذاته . وقد يبيع الكاتب قلمه لحزب ، أو لشخص ، فهذا الجانب من حياته ، يرينا من شخصيته ومن أسلوب العصر ، ما لارينا مجلدات المؤرخين ، ومجموعات المقالات . ولكن كيف نصل إلى هذه الحياة الخاصة لأدبائنا وكبار مفكرينا ؟ ليس هناك إلا واحد من سبيلين إماأن نقع على ترجمة حياة كتبها الأديب لنفسه ، وإما ترجمة حياة كتبها صديق يعرف الأديب معرفة حميمة ، والخير كل الخير في أن تتوافر لنا الوسيلتان . فنجد بين أيدينا ما كتبه الأديب عن حياته ، ونجد ما كتبه الصديق عن هذه الحياة ذاتها .

والحق أن هذه التراجم الذاتية قليلة في أدبنا الحديث ، ولكنها بدأت تتزايد في الأيام الأخيرة ، ولم نمد نجد الأديب الكبير الذي يفارق دنيانا ، دون أن يخرج عنه كتاب أو أكثر يروى حياته ، ويصف دخائل معيشته ، يفتح لنا أبواب دنياه التي كانت تغلقها تقاليد المجتمع في وجوهنا . صحيح أن هذه التراجم مع قلتها لا تزال تنقصها الجرأة التي تجدها عند كتاب مثل هذه التراجم في الأدب الغربي ، كا ينقص بعضها الشمول والاتساع ، حتى كأنها عجالة لا تتناول الحياة كلها ، ولكنها على أية حال خير من لاشيء ، وهي بداية سنتبعها قطعاً أعمال أكبر ، وأكثر جرأة ، فأول الغيث قطر .

وكا بدأت تراجم الحياة التي يؤلفها أصدقاء الأدباء الممروفين تقكائر ، كذلك بدأت تتكاثر التراجم الذاتية التي يؤلفها هؤلاء الأدباء عن أنفسهم وحياتهم فني السنوات الأخيرة مثلا ، أخرج الدكتور محمد حسين هيكل مذكرانه ، كا نشر الدكتور أحمدأمين كتابه « حياتي » ثم سلامه موسى كتابه

« تربیة سلامة موسی » ثم أخرج العقاد کتابین هما « أنا » و «وحیاة قلم » ، فی حلقتین ما مناب الحلال ، والفضل فی نشر ها تین الحلقتین للأستاذ طاهمالطناحی الذی قام كذلك علی نشر كتابی « قصة حیاتی » « وهذه حیاتی » للا ستاذین لطنی السید ، وعبد العزیز فهمی .

وبغضل هذه الكتب وأمثالها أصبح بمكنا أن نستخرج صورة للمصر الذي تنيت أن أصوره وأن نكل إلى حياة هؤلاء الأدباء، أن تخلق الصورة الشاملة له، بما تسام به كل منها على حدة . وهذه الصورة بعد اكتمالها تكون أقرب الصور إلى الصدق ، وأحفلها بالحياة ، وأقدرها على إثارة الخيال .

على أننى إلتزمت ألا أترجم حياة إلا من عرفتهم شخصياً ، أتيحت لى فرصة الإختلاط بهم ، والوقوف على جوانب من أخلاقهم .

أما من عرفتهم ، ولم أوفق إلى العثور على ترجمة حياة كاملة لهم ، فقد اضطررت أن أجمعهم فى فصل واحد ، رويت فيه ما سمعته عنهم ، أو رأيته منهم لم ينسم له هذاالكتاب .

. . .

والوفاء يقتضينى أن أعبر مرة أخرى عن شعورى بالدين العبيق لمسذا الكتاب الذى جمع أرواح وعقول هؤلاء الكبار حولى والذى أتاح لى أن أتأملهم واحداً بعد واحد. وأن أنأملهم جميعاً ، وأن أبتعد عن صورتهم لأراها أكثر وضوحاً ، ثم أقترب منهالأدقق النظر في تفصيلات الصورة وأنا بين الابتعاد والاقتراب ، وبين النظر إليهم مجتمعين والنظر إليهم متفرقين ، ثم بين انتقال من النظر خلالهم إلى العصر الذى ولدوا فيه ، وحاربوافي ميدانه ، إلى النظر إليهم من من فسه ، نشأت بيني وبينهم مودة أكثر إدراكا ومعرفة من خلال ذلك العصر نفسه ، نشأت بيني وبينهم مودة أكثر إدراكا ومعرفة

وأ كثروداً ومحبة، فليس أدعى إلى نشوء الصداقة من الاقتراب الودود، ومن التأمل الذي يبحث ليفهم، لا ليقع على العيوب، ولا ليفمض المين عنها .

لقد استطعت أن أرى هؤلاء الكتاب، وهم يبنون أنفسهم، ويبنون في الرقت نفسه وطنهم: منهم من كان يحمل الأحجار الثقيلة فوق كتفه، ومنهم من كان يحمل بين كفيه حفنة من تراب، المرة بعد المرة، ومنهم من يحب أن يشارك في البناء على (الصقالات) التي تركب خارج البناء، ومنهم من يفضل أن يعمل في (التوصيلات الداخلية)، ومنهم من تشغله زخارف البناء ونقوشه أن يعمل في (التوصيلات الداخلية)، ومنهم من تشغله زخارف البناء ونقوشه أكثر ممايشفله الأساس الذي يقوم عليه. ولكنهم جميعاً كانوا يودون أن يعيشوا حتى يروا باعينهم بناء شامحاً لأمنهم. لاأستشى حتى من لاجلد لهمنهم على العمل، أو من كان يحب أن يلهو وهو يعمل.

وقد كانواني مجوعهم عثلون مصر ، فهذاالفلاح الذى تنزح عائلته من الريف فراراً من ظلم السخرة والكرباج ، مضحية بأرضها في القرية ، وهذا الذى ترجع يتركه أبوه في كفالة خاله دون أن يخلف له مالا أو عقاراً ، وهذا الذى ترجع أصوله إلى شعوب غيرشعب مصر ، وغيرالشعوب العربية ، وهذا الذى ينتسب إلى طبقة الأغنياء ، وإن لم يكن غنياً ، أو الذى يرث عن والديه الثروة ، وإن لم تكن عريقة كل هؤلاء عثلون العناصر العديدة التي كونت الشعب المصرى . كدلك مثل كل منهم جانباً من الثقافة المصرية فمنهم من بدأ تعليمه في الأزهر، ثم أكله في مصروأوربا . ومنهم من حصل قليلا من العلم في المدارس أوالمعاهد النظامية ثم علم نفسه بالقراءة والكتابة ، والاستماع ، والتردد على المجالس . ومنهم من تلقي علماً نظامياً حديثاً في مراحل التعليم كلها ، ومنهم من تعلم في مدارس مصر، ثم أكل تعليمه في معاهد الغرب . وقد كانت ثقافة المصريين خليطاً من هذه الدراسات والنقافات: منهاما هو أزهرى قح ، ومنها ما هو أزهرى انتهى

بالتعليم النظامي الحديث، ومنها ما هو مصرى بحت، ومنها ما هو مصرى اتصل بالثقافة الأوربية، ومنها ما هو ثمرة الاجتهاد لم يبدأ في مدرسة، ولم يسر على خطة، إنما جادت به الموهبة مع الإرادة. وفي هؤلاء الكتاب من احتمى بالحكومات، وعمل لحساب الأحزاب. وفيهم من عمل مع الأحزاب، ولم يعمل لها: وجد العمل في جريدة الحزب، فكتب في الجريدة، وكتبما أراده أصحاب الجريدة، لا اقتناعاً بما يكتب، ولكن اقتناعاً بأن هذا هو سبيل العيش المفتوح. وأن الأدب وحده لا يؤكل طعاماً، ولا يقيم أوداً.

وفيهم أيضاً من نأى عن الأحزاب ، ولم يحتم بحكومة ناقباً عليها جميعاً وعلى الحكومات قاطبة ، وفيهم من كان يتعفف ويقتصد فى التماس الرزق وأسباب الشهرة — وفيهم من كان يبذل نفسه بلا تحفظ ولا احتياط بغير حاجة أو ضيق رزق .

ومن هذا كله تـكونت ملامح العصر وخصائصهوصفاته.

ولقد حرصت على ألا أقدم فى الكتاب إلا الذين أتموا رسالتهم فى هذه الدنيا ، وأ كابوا رحلتهم فى عالمنا ، ثم لحقوا بالرفيق الأعلى ، فإن الأحياء لاتعتبر حياتهم كاملة ، حتى يتوفاهم الله ، فرب رجل تقدم به السن ، وتوالت أعماله حتى حسب الناس أنه لا مزيد فى جعبته يقدمه للناس ، فإذا هو وأقدامه على عتبة الآخرة ، قد اهتزت نفسه بخاطر جديد ، يكسبه شباباً وفتوة ، ويكسب أدبه نضارة وحيوية ، وكأنه يبدأ حياته .

وكم من تطور ، وقع للشيوخ فى أخريات أيامهم ، جعل الخاتمة أروع من البداية ومن أو اسط العمر . وكم من داع جليل ، انتكس وهو على أبو اب الأبدية فكفر بكل ما دعى إليه ، وتنكر لكل ما بشر به . فلندع الأحياء إذن ، بتابعون جهادهم ، ويو اصلون عملهم ، حتى تحين الساعة التي يجسد مؤرخ

الأدبأومؤرخ السياسة ،أنه قادر على أن يصور حياتهم، ويصدر عليهم أحكامه .
والخسارة بتخطى الحديث عن الأحياء قليلة ، ذلك لأن فى شخصيات هذا الكتاب
من التنوع والتعدد ، والاتساع والشمول ،ما جعل حياتهم مرآة انمكست الحياة
المصرية فيها انمكاسا كاملا .هذا إلى أن أكثر أبناء هذا العصر الذى نصوره في
هذا الكتاب اشتبكت علاقتهم، وتوثقت صلاتهم بعضهم ببعض ، بحيث أصبح
من المستحيل أن نتحدث عن الكتاب الذين فارقونا ، دون أن نشير فى أكثر
من موضع إلى الأحياء الذين يؤنسون حياتنا ويمتعوننا بما يكتبون ويقولون.

\* \* \*

## ولكن ما هدف هذا التاريخ ؟

أهو تقويم لأعمال هذه الصفوة المختارة من أهل الفكر والقلم ؟ أم هو دراسة مقارنة نضع فيها الكاتب وقرينه في «مصر » مع أقرانه في الخارج؟أهي دراسة أدبية تمرض المذاهب المختلفة ، والمدارس المتعارضة في الأدب والصحافة مثلا ؟ أو هو تاريخ سياسي يتناول الأدباء من حيث نشاطهم في ميدان السياسة والأحزاب؟

الواقع أن هذه الأهداف جيماً عرضت نفسها على ، وحاولت إغرائى ، ولاسيا ما اتصل منها بالحديث عن المذاهب الصحفية التى توزعت المصريين فى بداية القرن العشرين ، والتى كانت صحيفة الجريدة ، لسان حال واحد منها ، واللواء صوت النانى ، والمؤيد ، منبر المذهب الثالث . وهى مذاهب ومدارس وإن كانت لاتدخل فى الحقبة المحدودة لهذا السكتاب ، إلا أن آثارها بقيت حتى قامت تورة سنة ١٩١٩ ، واستمرت حتى تم الإجهاض الوطنى فى أعقاب تلك الثورة .

لكنى لم ألبث حتى نجحت فى مقاومة هذا الإغراء ، والإفلات من قبضته ، ذلك لأننى بعد طول التفكير عقدت العزم على أن أقدم صورة العصر ، من خلال صور حياة هؤلاء الكتاب الأربعة عشر مع تعليقات هنا وهناك ، لأن هذا الجع ، لا بد منه كتوطئة وتمهيد ، لدراسات أخرى تفصيلية ، فنى الراجع أنه لم يتفق لأبناء الجيل الناشىء ، أن قرأ عن هؤلاء جيما ، وإن كان من المحتمل أنه قرأ عن بعضهم ، أو عن أكثرهم ، فإن أتيحت له فرصة القراءة عنهم جميعاً فى كتاب واحد ، فقد يسهل بعد ذلك أن نشعب القول ونشقة فى هذه الحقبة من حياتنا ، فنتناولها بأكثر من أسلوب ، ومن أكثر من ناحية ، ولأكثر من هدف .

ولكنى لا أكتم القارى، أنى خرجت أحيانًا عن خطة الكتاب، فقد أغر انى بعض آرا، هؤلا، الكتاب أو مسلكهم فى موقف معين على المقارنة بينهم وبين سواهم، أو تقدير شى، من آثارهم، أو تقويم أعمالهم، ولكن هذه المخالفة كانت الاستثناء الذى يدل على القاعدة، ولا يدل على انهيارها.

فقد كان غاية الكتاب التأمل في حياة هؤلاء الكبار ذاتها ، لا فيما أثمرته من كتب، ولا فيما جادت به من أعمال أدبية ، أو ما بذرته من بذور إلا بوصف هذه الكتب وتلك الأعمال ، والبذور ، من جوانب هذه الحياة . كان ذلك التأمل ، غاية ممتعة ومغرية ، فسعيت جهدى إلى الوصول إليها وتحقيقها .

ولست أدرى إلى أى حد نجحت في الإقتراب منها .

\* \* \*

بق أن أفدم بين بدى هذا الكتاب باعتراف ، لا يكافنى القيام به جهداً كبيراً. فلست أحب أن أزعم أننى كنت محايداً وأنا أقدم هذه الشخصيات ، فإنى لم أحد مايدعونى إلى أن أتجرد من ميولى وأذواقى ونظراتى فى السياسة ، وفي التاريخ الوطني لبلدى . ولكن الشيء الذي تحريته ، ما وسعني الجهد والإخلاص ، هو أني لم أخف شيئًا وقمت عليه في مصدر أو مرجع من المصادر أو المراجع التاريخية لهذه الحقبة ، وما نسبت لأحد كلاماً لم يقله أو أوردته ناقصاً ، أو أوردته في غير عبارته التي بقيت في رأسى . على أن ما جاء في الكتاب على لساني ، رواية لبعض الوقائع قليل محيث لو حذف لما تغير قدر الكتاب بالزيادة أو بالنقص ، أما آرائي التي جهرت بها ، فن حق من يسمعها أن يأخذ بها أو يطرحها ، أو يزبها بميزانه قبل أن يفعل شيئاً من ذلك .

\* \* \*

وبعد ، فهذا الكتاب محاولة بمكن أن تزداد على الأيام كالاً و نضجاً ، ولبس حمّا أن يتم ذلك على يدى ، وإن كنت أتمنىأن تسمح الظروف بذلك. ولكن إن ساهم في هذه المحاولة سواى ، وحاولها غيرى ، ممن يكونون أكثر علماً بهذا العصر ، وأعظم جلداً على العمل ، وأقدر على التعبير والإبانة ، وأعرف بهؤلاء العظماء ، فلن أكون أقل سعادة أو غبطة . فهذا عصر جدير بأن تمكثر الأقلام في رواية أحداثه ، وتصوير شخصياته ، وتحقيق آثاره م

فتحى رمنوال

1 V Cor

## روح العصر

أى عصر هذا المصر الذي نؤرخ له ؟

أهو حقيقة عصر ذهبي كما تردد على خاطرى فترة ، وأنا أتهيأ للتفكير فىالكتابة عنه ؟

أم هو عصر انحلال وفساد ، وخيانة ومساومة ؟ أهو عصر محالقة الشعر ، وكبار الكتاب، وبذر بذور النهضة ، والتحضير لها ، وإعداد خائرها ؟ أم هو عصر أقزام لم يقولوا قولاً ذا قيمة ، ولم يفعلوا شيئاً ذا جدوى، وأضاعوا على بلادهم فرصاً ثمينة ؟ أهو عصر اضطراب وقلق وتمرد ، حاول أن يثور على الاستمار وعلى الملكية ، وعلى حكومات الأقلية ، واحتضن ما استطاع قضية العال ، ودافع ما وسعه الدفاع عن الحريات الدستورية ، والحقوق الأساسية للشعب ؟ أم هو عصر ، أطفأ جذوة ثورة سنة ١٩١٩ ، ونقلها من الكفاح الجميد الذى بدأته ضد الإنجليز ، وكفاح الفلاحين في القرى ، والعال في المدن ، والطلبة والمثقفين في طول البلاد وعر فها ، إلى منازعات حزبية صغيرة تافهة استهدفت أكثر ما استعملت حقوق الشعب، ومبادى والدستور ، ونزاهة الحكم ، وسائل ووسائط لتحقيق المآرب الشعب، ومبادى والشاع الحزبية ؟

أهو العصر الذي ترجمت فيه الكتب الغربية وبدأت حركة التنوير ، وتلاحقت على مدى سنيه مؤلفات لم يشهد العصر الذي قبله ، بل العصور التي سبقته شيئًا بماثلاً لما .

أم هو العصر الذى اتسمت مؤلفاته الكبرى بأنها مجموعة مقالات فاتسمت بالتالى أكثر آثاره بالطابع الصحفى الذى يميل إلى العجلة ، والخفة ، وإشباع حاجيات الساعة بلا تعمق ولا تخصص ، ولا أناة ؟

أهو المصر الذي يتصف مفكروه بالشجاعة في إبداء الرأى، والعزم على مواجهة ميراث الماضي من الأفكار التقليدية، والقيود المكبلة للأذهان، والخوف من رجال الدين، ومن رجال الدولة، ومن الجماهير؟ أم هو العهد الذي لمعت في سمائه بوارق خاطفة أوهمت الناس أنهم على أبواب حركة تحرر لا يعرف أبطالها الخوف ثم لم تلبث أن انطفأت ولاذ الذين أرغوا وأز بدوا والذين أبرقوا وأرعدوا، بالصعت، وابتلعوا أفكاره، وأخلدوا إلى ما كان جارياً وسارياً من الأفكار والمبادىء، لم يرفعوا صوتاً ولم يمتشقوا سيفاً ولم يخوضوا معركة؟

أنحسبه عصر العظائم: أعلن فيه الدستور، وبنيت فيه الجامعة، ووقعت حركة سنة ١٩٣٥ و كثرت فيه الصحف، وبدأت فيه فكرة الوحدة العربية تعلن عن نفسها، وتطل برأسها، وعرضت فيه قضية مصر فى الأمم المتحدة، وألفيت المعاهدة؟ أم هو العصر الذى عطل فيه الدستور، فلم ينفذ حكمه طوال ثلاثين عاماً، عاماً واحداً، فهو إما موقوف، وإما ملغى، وإما محل لعبث حكومات الأكثرية والأقلية معاً. والعصر الذى أعلنت فيه الأحكام العرفية فاستمرت واتصلت، يتذرع لإعلانها، بأوهى الأسباب، حزب بعد حزب، وحاكم بعد حاكم، حتى أصبعت هذه الأحكام هى الأصل، والحرية هى الاستثناء، وكتابنا الكبار، يهاجمونها باسم حزب، حينا يكون حزبهم فى المعارضة، ويدافعون عنها حينا يكونون فى السلطان؟

أهو عهد الصحافة الكبيرة التي زادت صفحاتها، وزاد قراءها، وزاد

محروها وارتفع أجره ، كا ارتفع قدره ،أم هو العهد الذي كان فيه الصحفيون سلماً معروضة في الأسواق يشتريها من بدفع أكثر ، أو كالمثلين في المسارح، يغيرون كل يوم ثيابهم ، ويخفون وجوههم ، ويرتدون ماشاء المخرجون والمؤلفون من أثواب ، ويرددون ما أختير لهم من ألفاظ وأقوال ، ومافرض عليهم من مواقف وأوضاع ؟ أهو عهد الصحافة التي كانت تهز مقالاتها الرأى العام ، وتثير أخبارها الحكومات والحكام ، أم هو عهد الصحافة التي هبطت باللغة إلى السوقية والعامية ، وهجرت المقال إلى الخبر ، وهبطت بالخبر من عليائه السياسية والأدبية ، إلى تفاهات أنباء المخادع ، وعلى قات سيء السعة من الرجال والنساء ، ثم إلى ترويج الإشاعات ، وتلفيق الحكام ، والطامعين في الحكم ، واطن السلطة والنفوذ عن طريق استرضاء الحكام ، والطامعين في الحكم ، واسباغ هالات المجدعليهم ؟ .

أهو العهد الذي تحرر فيه الشبان من سيطرة الزعماء التقليديين ، وخرجوا على الأحزاب التي أنهكها الصراع الحزبي ، فأصبح لهم نشاطهم ، وكيانهم ، وصدرت عنهم أفكار جديدة ، بعثت دما جديداً في الكيان الوطني الذي شاخ ودب إلى الضعف ، وخرجت من صفوفهم قيادات شابة أعلى صوتاً ، وأشجع قلباً ، وأثبت قدماً ، من الشيوخ الفائين ، أم هو العهد الذي خانت فيه الحركات الشابة مبدأها ، فربطت نفسها بهذا الحزب وذاك، وجرت في أعقاب زعيم بعد زعيم ، و تداولتها الجاعات السياسية القديمة فأفسدتها وأتلفتها ، ثم تفرقت مفوفها ، وتبعثر أنصارها ، فلم تنجح في أن تقود الشعب ، ولم تستطيع أن تغير مجرى الأحداث وكان ذلك في وسعها ؟

أهو العهد الذي وضع حد فيه للمعارك الكلامية التي تصدع الرؤوس وتضيع الوقت ، وتطير مع الهواء كرغاء الصابون ، ليبدأ الجهساد المسلح

السرى، الذى يعيد عقول الخونة وأعداء الشعب والمثلين إلى روسهم، ويحملهم على أن يأخذوا الحركة الوطنية مأخذ الجد، وأن يحسبوا للأمة، وعناصرها الشابة كل حساب، أم هو العهد الذى سددت فيه المسالك أمام الشباب والشيوخ معاً، فطاشت العقول، فأصبح الرصاص يضرب عبثاً، يميناً ويساراً بلا هدف واضح ولاخطة مرسومة، كانت كفيلة بأن تجعل من هذا العمل السرى، قوى فعالة ضاغطة على أعداء الشعب وخصومه ؟

ولندع التعميم لندخل إلى شيء من التفصيل: ما هي الأسماء التي لمعت في سماء هذا العصر؟ عرفت مصر من الشعراء في هذا العصر.

أحمد شوقى ، حافظ إبراهيم ، خليل مطران ، أحمد محرم ، أحمد نسيم ، محمد عبد المطلب ، على الجارم .

ثم جاء فى أعقابهم جيل قوامه عباس العقاد ، عبد الرحمن شكرى ، ابراهيم المازنى .

وتلاه جيل قوامه أحمد رامى، أحمد زكى أبو شادى ، إبراهيم ناجى ، على محمود طه ، محمود حسن اسماعيل، حسن القاياتي ، محمد الأسمر ، محمد أبو الوفا ، محمد عبدالغنى حسن، محمد الهراوى ، حسن كامل الصير فى ، عبدالرحمن صدقى و الهمشرى.

فهل عرفت مصر قبل هذا العهد مثل هذا العدد الكبير من الشعراء على اختلاف مدارس الشعر ؟ من عهد محمد على إلى عهد الثورة العرابية وعهد الاحتلال كانت الأسماء التى أضاءت أسماء الشعر لا تزيد عن خمسة يتقدمها محمود سامى البارودى ثم يلحق به شوقى ثم حافظ ثم اسماعيل باشا صبرى.

وقد بقى شوقى وحافظ لينضموا إلى حملة ألوية الشمر فى عهد ما بمد ثورة سنة ١٩١٩ حتى ثورة سنة ١٩٥٧ .

فهوعهد غنى بشعرائه قطعاً ، وقد كان الشعر من أكبر متع الناس فيه ؛ فلم تكن القصيدة عملا فنياً أدبياً يحتنى به الأدباء ورجال الفكر وحدهم بلكانت حدثاً قومياً بشغل الأدبب وغير الأدبب ويتحدث عنه الناس في دو اوين الحكومة وعلى المقاهى وفي عربات الترام ، وكان الشعر الذي تتداوله الأفواه ، وتنشره الصحف ؛ وتذيعه على الناس شعراً اجتماعياً يصور كفاح المصريين في سبيل أهدافهم القومية فكان الشعر يتغذى من معين الوطنية ، ثم يغنيه .

وكانت معارك الشعر ، معارك عامة ، ينفعل بها وجدان الشعب ، فيتحزب لمسكر الها في حماسة وعنف .

كان لشوق أنصاره ، ولحافظ أنصاره ، وكان لمطران من الصفوة المثقفة من يعلى قدره على زعيمى الشعر ، فلما خرج العقاد ومدرسة الديوان وحملت على الشعر التقليدى وبشرت بشعر جديدكان ذلك فى نظر بعض الناس شيئا أقرب إلى التجديف بالله ، والتشكيك فى الكتب المنزلة . وكان فى رأى الآخرين عملية تطهير أو تحرير لحياننا العقلية وقيمنا الأدبية جديرة بأن يقف المصريون إجلالاً لأصحابها ، وأن يبذلوا لأهداف المعركة نفسها ، التأييد والمظاهرة .

إذن كان هذا العصر عصراً متحركاً حياً ولم يأخذ الشمر مأخذ الإممال أو عدم الاكتراث.

ولكن كان الشعر في المرحلة الأولى من العصر الذي نؤرخ له ، شعراً يخاطب الجماهير ، ويصف ما يدور في نفوس الناس ، ويترضام ، ويجرى إلى ما يتجهون ، فلم تكن نفس الشاعر في هذا الشعر ، هي التي تظهر في أبياته ، وإنما كان رأية ومذهبه السياسي أو المذهب الذي يدافع عنه ، وقدرته في النظم، وحظه من جزالة اللفظ ، وجلال الديباجة ، فكان أقرب ما يكون من المقال السياسي أو الخطبة أو النشيد ، ولم يكن هذا وحده عيب الشعر في هذه للرحلة ، السياسي أو الخطبة أو النشيد ، ولم يكن هذا وحده عيب الشعر في هذه للرحلة ،

بل أنه انطوى على عيب أكبر ، ذلك أنه أصبح بضاعة يتكسب منها الشاعر الرزق ، ويحميه ، كان شوقى شاعر القصر ، وكان حافظ في حمساية محد عبده ، ثم الوزير حشمت ، ثم ييت محمود باشا سليمان وأبنائه ، والأباظية ، ثم سعد والوفد . فن لم يجد من الشعراء من ينشر شعره ، ويروج له ، بتى خاملا وإن كان شعره جيداً ، فنسيم ومحرم لم يذع شعرها ذيوع شعر شوقى وحافظ لأنه لم يكن لما ما لشوقي من جاه ، وما كان عند حافظ من موهبة الحديث المتم، والفكاهة الخلابة، وذرابة اللسان، والميل إلى المجتمعات، مما فتم له أبواب البيوت الكبيرة ، وأكسبه عطف أصحابها . وقد انعكس هذا كله على شعر هؤلاء ، فأنت تقع على قصائد لهم اقتضتها الظروف العابرة ، وميلهم إلى تملق الأقوياء ، وترضى ذوى السلطان ، تعجب كيف لم يلمهم الرأى العام عنها ويشتد في اللوم ، وكيف بقى صوتهم مسموعا وإسمهم ذائعا وشعرهم مقروءاً . فقد مدح حافظ الإنجليز ، ومدح شوقي أعوان الإنجليز وعملاءهم من أمثال مصطنى فهمي وأضرابه ، وروجا لأقبح ما يروج له ناطق فى بلد محتل، يحارب أعداءه ويناضلهم .

ولكن هذا الشعر الذى كان يسعى بشعر المناسبات الذى كان يطلع به الشعراء التقليديون الكبار حتى العقد الثالث من القرن العشرين أى حتى سنة ١٩٣٠ وما بعدها بقليل، أعنى السنوات التى مات فيها حافظ ثم شوقى، اختفى ولم يعد هناك شاعر واحد تحتفل الصحف بنشر قصيدته فى صدرها، أو يلتفت إليه الناس وإلى ماينظم، إذا مات عظيم، أو وقعت مناسبة وطنية سارة أو محزنة فقد قامت مدرسة الديوان، جماعة الشعراء المجددين – أو الذين كانوا يسمون المجددين – العقاد وشكرى والمازنى بالحلة على مدرسة شوقى وحافظ

وعابت عليهم أمهم لا يصدرون عن عاطقة ، وأنهم يقلدون شعراء الملقات وحدة والعهدين الأموى والعباسى ، ويحاكون ماقالوا ، وأن قصائدهم ليست وحدة متكاملة، وإنما هى مجوعة متفرقة من المعانى، يمكن أن تتقدم فى القصيدة أو تتأخر أو تحذف كلية ، دون أن تصاب القصيدة بخلل ، ودون أن يتعطل فيها السياق أو يضطرب . ثم نظموا هم أشعارهم ، وقدموها للناس ، فلم يكتب لها النجاح الذى كتب لفصائد التقليديين ، وكف أحد زعاء المدرسة عن نظم الشعر ، واختنى الثانى لفترة طويلة عن الحياة الأدبية ، وواصل الثالث وحده نظم الشعر حتى منح لقب أمير الشعراء ، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ به ، ولعله زهد فيه ، إذ لم يحدى عند الناس ولا إيماناً به ، فلم يعد أحد يناديه به ،أو يخلعه عليه ، أو حتى يفكر فيه .

ونشأت جمية أبولو، برياسة الدكتور زكى أبوشادى المحلل الكياوى والشاعر الكاتب. وقد أتاحت مجلةهذه الجمية لعدد غير قليل من الشعراء الشبان أن ينشروا شعرم، وأن يكون في هذا النشر ، دعوة لذهبهم الجديد في الشبان أن ينشروا شعرم، وأن يكون في هذا النشر ، دعوة للدرسة القديمة ، فقد الشعر وهو شعر رومانسى ، ذاتى ، كأنه النقيض من شعر المدرسة القديمة ، فقد شغلوا بدنيا نفوسهم ، وأداروا شعرم كله على وصف مشاعرهم وعواطفهم ، ووساوسهم وهواجسهم ، وأحزانهم وآلامهم . شعر يعبر عن أصحابه تعبيراً كاملا ، لاتشفله في الأغلب الأعم الأحداث الكبرى ولا تستوقفه معارك السياسة ، ولا يوجه الخطاب إلى الجاهير ، وهو شعر تغلب عليه الرقة و الحزن والانطواء ، فأكثر أصحابه من المثقفين الذين لم واتهم الدنيا بثروة ولا بشهرة ولا بمنصب، فأكثر أصحابه من المثقفين الذين لم واتهم الدنيا بثروة ولا بشهرة ولا بمنصب، وزعيمهم نفسه الدكتور زكى أبوشادى كان طي تعدد ما يشغله من شعر و تربية نحل، وترجمة و تأليف ، لم يعل مكانة في المجتمع ، ولم يقر له بعبقرية ولا تفرد أو امتياز حتى هاجر من مصر وقضى بعيداً المجتمع ، ولم يقر له بعبقرية ولا تفرد أو امتياز حتى هاجر من مصر وقضى بعيداً

عنها – كانوا موظفين قضت عليهم قيود الوظيفة أن ينأوا، ما استطاعوا ، عن مهاب رياح السياسة ، وعصف أعاصيرها .

ولقد روى سلامه موسى أنه رشح نفسه يوماً لعضوية المجمع العلمى ، فاعترض وكيل الوزارة على ترشيحه وكان أبو شادى عضواً فى المجمع فلم يجرؤ على الدفاع عن سلامه موسى احتراماً لوكيل الوازرة أو للوزير ، واعتذر لسلامه موسى بذلك .

ولذلك لم تستطع جماعة أبولو ومن لف لف أعضائها ، وجرى على منهجهم أن يحتلوا مكانة الشعراء القدامي ، وصغر شأن الشعر في المجتمع شيئاً فشيئاً .

غير أن المدرسة القديمة، لم تسلم لواءها للجيل الجديد من الشعراء إلا بعد أن أضفت على الشعر رواءاً جديداً ، وبعد أن اقتحمت به ميداناً بكراً لم تطأه قدم شاعر عن من قبل ، ذلك هوميدان المسرحية الشعرية ، وقد كانت مسرحيسة شوق ، مهما قيل فى ضعف حبكتها المسرحية ، وفى خلوها من أخطر عناصر المسرحية وهو الحركة ، واعتمادها على القصيدة ، فقد كانت بداية ، وكان فى وسع الشعراء الشبان ، أن يضيفوا إلى ذلك البداية ، ويعلوا فوقها البناء ، وأن يستكلوا النقص ويعززوا أسباب النجاح ، ولكنهم لم يفعلوا ، حتى جاء عزيز أباظه بمسرحياته التي احتذى فيها شوق ، وقد كان أبناء مدرسة أبولو أولى أن يسلكوا هذا الدرب الذي فتحه شوق لهم .

وإذا أردنا أن نقوم رصيد االشعر في تلك الحقبة من حياتنا ، كنا مضطرين أن نقول أن الشعر بعد أن بدأ مزدهراً غنياً انقطعت صلة الناس به في بلادنا ، انقطاعاً يكاد يكون تاماً ، فلم يعد أحد يتذوق الشعر ، إلا من كان من للتخصصين والأدباء ، وتزداد القطيعة إنساعاً بين الشعر والناس يوماً بعد يوم

حتى يكاد يخرج من حياتنا ، ولا يدرى أحد ماذا سيفمل الشمر الحديث ، هل سيقدر له أن يحيا ، وأن يحتل مكانة الشعر القديم ، وأن يكون شاغلا من شواغل الناس ، وزاداً روحياً وفنياً لهم ؟ .

\* \* \*

وقد اجتمع فی ذلك العصر ، من الكتاب عدد ضخم ، فكان المنفلوطی، مم العقاد والمازنی و هیكل و طه حسین و عبد العزیز البشری ، و منصور فهمی، و محمد عبدالله عنان ، ثم مصطفی صادق الرافعی ، و أحمد حسن الزیات ، و أحمد أمین، و زكی مبارك، و محمد مندور .

وكان فى جانب آخر من حياتنا الأدبية محمود تيمور، وتوفيق الحكيم، وحسن محمود، وأحمد خيرى سعيد، ومحمود طاهر لاشين، ويحيى حتى، وحسين فوزى يؤلفون القصص أو يكتبون للمسرح أو عن الموسيقى أو يترجمون عن الأدب الغربى. ويتناولون من الأغراض ما لا يتناوله أبناء الطبقة الأولى ولا أبناء الطبقة الثانية.

وكان فى جانب ثالث أدباء لا تدرى أتنسبهم إلى مدرسة المقامات القديمة أم إلى مدرسة الأدب الشعبى ، منهم حسين شفيق المصرى ، ومحمد ابراهيم هلال ، ومحمد المهياوى .

وكان هناك صخيون على آثارهم مسحة أدب كـداود بركات وعبــد القادر حمزة وأنطون الجيل وأمين الرافعي.

ثم وأخيراً تجد محامين ومؤرخين وأساتذة جامعات يساهمون في الحيساة الأدبية بجهد غير قليل في مقدمتهم جيعاً عبد الرحمن الرافعي ، ثم لطني جمعه المحامى ، والدكتور محمد صبرى السربوني والدكتور محمد كامل حسين (الطبيب) وأمين الخولي وعبد الوهاب عزام .

وكان فى خلفية المسرح الأدبى أناس كتبوا فى أوائل الحركة الأدبية قبيل الحرب العالمية الأولى وبعدها ثم كفوا عن الكتابة ، وفى مقدمة هؤلاء ابراهيم رمزى صاحب كتاب (باب القمر) فى تاريخ البعثة المحمدية وصاحب المسرحية الأولى (عزة بنت الخليفة) و (الخروج من الحمام مش ذى دخموله) و (شجرة الدر).

وكان هناك صحفيون جددوا أسلوب الكتابة ووزعوا نشاطهم بين السياسة والأدب وبين مهن يرتزقون منها كالحاماة والطب. ومن أعلام هؤلاء فكرى أباظه وسعيد عبده. اشتفل كلاها بالصحافة وبالأدب الصحنى السهل الخفيف السريع وامتهن أولها المحاماة والثانى الطب.

ماذا فعل هذا العدد العديد من الكتاب بأساليبهم المختلفة وأمزجتهم المتباينة . ماذا تركوا لنا ! كم يساوى أدبهم ! وكم تساوى آثارهم ! .

لسنا نستطيع أن نعتبر هؤلاء رواداً ، فلقد عبد الطريق أمامهم كتاب العصر الذى سبق عصرهم ، عصر نهضة صحافة المقالة في عهد مصطفى كامل بألويته الثلاثة العربية والإنجليزية والفرنسية ، وباللواء الشهرى، وبمدرسته الكبرى في التحرير، التي تغذت بشبابه وفتوته ، وببلاغته الخطابية ، وبأسلوبه الجديد ، في تناول أمور السياسة الداخلية والسياسة الخارجية : أسلوب الحرارة ، والتدفق، والبساطة والتصميم ، وللتحدى .

هذه النهضة قد فتحت أبواب الفكر للشباب ، وقد نشأت مقابلها ، المؤيد والجريدة ، وكانت كل منهما مدرسة للكتابة ، جلت فيها اللغة العربية نفسها ، واستعادت شبابها ، وتخلصت نهائياً من الأغلل التي كانت تكبل أقدامها ، وتغشى عينيها : أغلال وسلاسل السجع المرزول والحسنسات

اللفظية الثقيلة ، والمترادفات التي تقتل المعنى وتستنفد العسب . وانطلقت سهلة خفيفة تقناول الموضوعات التي تهم الجموع التي استيقظت على صوت مصطفى كامل الجميل الأخاذ ، ونفات ندائه المتصل ، الذي يمس شفاف القلوب ويحرك الخيال ويثيره .

واتصل الشبان الذين يكتبون فى الصحف الثلاثة بأدب الغرب. وعرفوا روسو وبنتام وقرأوا كارليل وديكنز، وداروين ونيتشه وآنس خطام الأولى فرح أنطون، فى مجلة الجامعة، وشبلى شميل بصوته الجمورى، وأحاديثه المتصلة عن مذهب النشوء والارتقاء فى الصالونات الأدبية، وعلى المقاهى وفى غرف رؤساء التحرير.

ففضل الزيادة لم يكن للعقاد ولا للمازنى ولا لهيكل ولا لشكرى ، ولا لمنصور فهمى أو أحمد أمين أو سلامه موسى . كل الذى قاله هؤلاء ، كان قد سبقهم إليه جيل ماقبل سنة ١٩١٤ ، فماذا فعل هذا الجيل إذن عندما انتهت إليهم القيادة الفكرية . بعد أن مات مصطفى كامل وعلى يوسف ، وخرج من ميدان الصحافة والسياسة لطفى السيد ، و بعد أن اختفى فرح أنطون وشبلى شميلى ؟

أول ما يستوقف النظر في إنتاج هؤلاء الكتاب، إنه كان جزئياً لا يتكامل لم يجرؤ أحدهم في الفالب على إخراج كتاب إلا بعد أن تقدم العمر وطال عليهم في الكتابة والصحافة المطال. كل ما أخرجوه في النصف الطويل الأول من حياتهم مجوعات تضم مقالاتهم (في أوقات الفراغ) لميكل يقابله عند العقاد (مطالعات في الكتب والحياة) و (ساعات بين الكتب)، و (مراجعات في الكتب والحياة) و (ساعات بين الكتب)، و (مراجعات في الكتب والحياة) و (صندوق

ولم بكن تأليف الكتب بطريق تجميع مقالات متفرقة مجرد مرحلة من مراحل الحياة الفكرية لمؤلاء الكتاب بل كان ذلك صفة من صفاتهم العقلية، تكشف عن طبيعة تكوينهم، وعن حدود قدر أنهم ومواهبهم.

فقد كانوا منذ البداية عاجزين عن أن تكون لهم نظرة شاملة لأمر من الأمور السياسية أو الأدبية .

كان الأمر عندهم تنقلا بين الشخصيات والأفكار والكتب . وكان ما يصدر عنهم انطباعات سريعة ، من قراءات لا تستولى عليهم ، ولا تملأ حياتهم ولا وجدانهم . وإنما أقصى ما تستطيعه لهذه القراءات أن تدخل إلى نفوسهم نشوة الإعجاب بفكرة أو بشخص ، ولكنها لا تلبث أن تنطفى لتحل محلها إعجاب بفكرة أخرى وشخصية تالية . فهيكل الذى ألف كتابًا جيداً عن (روسو) من جزئين، لا يكاد يذكر روسو فياكتب بعد ذلك وكأنه لم يقرأ له أو يقرأ عنه ، دع عنك أنه ألف كتابًا طويلا عن حياته وأفكاره . والمقالات التي تقرأها في كتب العقاد والمازني عن نيشته ودور كايم وغيرها ، أشبه شيء بقاعات في متحف صور ، تجد فيها إنتاج كل الفنانين في حياد يقف من الجميع على بعد واحد تقريباً .

ولذلك إذا فرغت من قراءة كل ما كتبه العقاد والمازني وهيكل فعلا ، لا تعرف الفارق بين الواحد منهم والآخر، فيا عدا الفوارق للادية من حيث الوضوح والغموض، أو جزالة الأسلوب ورخاوته ، فإنهم في واقع الأمر أبناء مدرسة واحدة ، وقد انتقلوا جيما إلى التأريخ للإسلام ، والدفاع عنه، وختموا حياتهم الفكرية بهذا التطور . وكأنهم كانوا جيما على موعد في كل خطوة يخطونها . ويسوغ لك أن تساءل، بعد أن تقرأ كتب العقاد في عبقريات عمد وعمر وأبو بكر والصديقة بنت الصديق والإمام على والحسين وعن الإسلام بين حقائقه وأ باطيل خصومه ، وكتب

هيكل عن محمد وأبي بكر وعمر ومنزل الوحي ، وكتب غيرهم ممن ينتسبون إلى نفس المصر، ونفس المدرسة، عن الإسلام، لك أن تتساءل بعد أن تفرغ من قراءة هذه الكتب الكثيرة ما الفارق بين هيكل والعقاد وغيرها حيمًا لم يكونوا يذكرون الإسلام إلا نادراً وهيكل والعقاد وزملاؤهم حينما وجهوا جهدهم الأدبى ، ووقفوا دراساتهم أوكادوا ، على الإسلام وأبطاله وأحكامه ، ومواقع معاركه ، وأثره في الفكر الإنساني ؟ وقد لايروقك أن تعلم أنه لاشيء مطلقاً أو لاشيء تقريباً ، فكما كانوا يؤلفون في الماضي عن روسو وجيته وبيكون كتبًا ، وكما كانوا يكتبون مقالات عن فرانس ونيشته وعن الفلسفة الغربية ، وعن زعماء الفكر الأوروبي ،كتبوا عن الإسلام ونبيه وصحابة رسوله ، وعن أثره وفلسفته ، فما من شيء في حياتهم تغير بتغير موضوع دراستهم وكتاباتهم، وما من شيء تأثر في أسلوب تفكيرهم، وكان الطبيعي، وقد بلغ الإعجاب عندهم بالإسلام إلى هذا الحد الكبير ، أن ينعكس على مسلكهم في الحياة العامة وعلى تفكيرهم السياسي وهم رجال سياسة وصحافة ، هذا القدر من الإعجاب، ولكنك لا ترى له أثراً، وليس هذا إلا مظهراً كاشفاً عن موقف كتاب هذا الجيل كله . فالكتابة عندهم ، لم تكن معاناه روحية ، ولم تكن إعلانًا عن إيمان، وعقيدة ، ولا ارتباط وتصميم ، وقد عجل هذا التحلل الروحي بنهاية هذا العهد، وبالكارثة التي ختم بها .

بدأ هؤلاء الشبان حياتهم الفكرية ، وهم يتمنون أن يكونوا طليعة فكر (علماني). لاديني . طليعة حرة ، لمدرسة من الأحرار ، لا تخيفهم التقاليد الموروثة ، ولا القيم التي أسبغ عليها الخوف والكسل والتراخي العقلي والوجداني هالات قداسة لا تستحقها بل لعلهم تاقوا إلى الذهاب إلى أكثر من ذلك ، بالدعوة من التحرر من الدين كله أو الإقلال من شأنه ولكنهم لم يجرؤوا من البداية على التصريح بشيء من هذا ، وتركوا للجمهور أن يستنتج

من مسلكهم العام ، أنهم لا دينيون وأنهم بريدون أن يخلقوا حركة فكرية لاتهاب عمائم الشيوخ ولا الخرافات الشائعة بين الناس ، وأن يقتصوا قلاع الرجمية الفكرية ، فاذا فعلوا ؟ كان أقصى ما استطاعوا أن يفعلوه أن يذكروا اسم الرسول مجرداً من لقب سيدنا ، وألا يتبعوه بالصلاة عليه ، فسيدنا محد ، هو عندهم محمد ، كما أن سيدنا أبا بكر وسيدنا عمر ، ليسا سوى أبى بكر وعمر وقنعوا بهذا وكفى الله المؤمنين القتال .

أما ما هم به طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) من الدعوة إلى استبعاد القرآن والكتب المنزلة كرجع تاريخي ، عند تحقيق العصور التي تعرض لها في آياته ، فقد حذفه طه من كتابه في الأدب الجاهلي ، فقد قامت قيامة علماء الأزهر وشيوخه ، وقامت قيامة زعماء المدرسة التقليدية ، فألفوا في الرد عليه عشرات الكتب والمقالات ، أمسك بعدها عن هذا القول ، ولم يعد إليه ، وأعلن على الملا أجمعين أنه يؤمن بالله وكتبه وملائكته ورسله .

وقد نهج نفس النهج على عبد الرازق ، حينها أصدر كتابه « الإسلام وأصول الحكم » والذى قال فيه أن الخلافة لم تكن أصلا من أصول العقيدة الإسلامية ، ولا عنصراً من عناصر رسالة الرسول عليه السلام وأن القرآن والسنة لم يبينا أصول الحكم . فقد عزل من القضاء ، بعد أن حوكم أمام هيئة كبار العلماء ، فكان كتابه هذا بيضة الديك ، لم يكتب بعده ، كا لم يكتب قبله ، العلماء ، فكان كتابه هذا بيضة الديك ، لم يكتب بعده ، كا لم يكتب قبله ، سوى « الأمالي » وأمسك عن القول في الإسلام والخلافة ، وفي أي شيء آخر ،

وكان المنتظر من هذه الجماعة التي أرادت أن توهمنا، أنهامتو ثبة ومتحررة أن تقف موقفاً لاهو ادة فيه من عدوين خطيرين، يهددان مصر وأهل مصر، هما الإحتلال البربطاني، والملكية المصرية، فماذا كان موقفهما منهما ؟ كان العقاد أول الأص، أعنف

فى مخاطبة الإنجليز وفى مخاصمة الملك . لكن مخاصمته للانجليز ، كانت تآتى عادة فى المرتبة الثانية بعد العراك مع خصوم الوفد وخصوم سعد ، بل أن مخاصمة الإنجليز والتصدى لهم، كان فرعاً عن مخاصمة عدلى. فالإنجليز ليسوا مكروهين لأنهم يسندون عدلى ، وهم فى الواقع يداولون الحكم لذاتهم ، بل مكروهين لأنهم يسندون عدلى ، وهم فى الواقع يداولون الحكم بين سعد وعدلى ، يسندون هذا حيناً وذاك حيناً ، ويؤججون بينهم نار المعارك .

أما هيكل فكان بحكم كونه المتحدث باسم الأحرار الدستوريين، أضعف صوتاً في مخاصة الإنجليز، وإن لم يتورط قطف الثناء عليهم، أو في مهادنة الإحتلال أو التسليم به من حيث المبدأ، أما الملك فتمد كان الدستوريون بوصفهم ورثة حزب الأمة خصومه الرسميين وقد كان عبد العزيز فهمي أسبق إلى مهاجمة الملك في شخص رئيس ديوان الملك حسن نشأت، بكلمات عنيفة غاية العنف من العقاد ومن الوفد كله، كما كان أحمد عبد الغفار أكثر النواب جرءة حيما هاجم مخصصات الملك في برلمان سنة ١٩٢٦، وهو برلمان الائتلاف. ولكن طبع عباس العقاد، ومزاجه أتاحا له شرف القولة المشهورة في البرلمان، سنة ١٩٢٨ عباس العقاد، ومزاجه أتاحا له شرف القولة المشهورة في البرلمان، سنة ١٩٢٨ هذا إننا مستعدون أن نحطم أكبر رأس تتآم، على الدستور» وقد دفع عي هذا الموقف الجليل تسعة أشهر في السجن.

ولكن ماذا انتهى إليه هذا الجيل من المفكرين في شأن الإنجليز والملك، لقد هدأت المعركة مع الإنجليز . فقد استحال النضال الوطني ، حرباً أهلية بين الأحزاب يصيب الإنجليز خلالها بعض الرشاش . ولكن السهام والحراب ، والقذائف والمدافع توجه كلما إلى المدو الداخلي ، ولذلك هبطت الوطنية المصرية إلى مستوى كان له أسوأ الأثر على الفكر .

لم يكن الناس يسمعون ولا يرون شيئاً يثير طموحهم الروحى ، ولا يحرك عواطفهم إلى مثل أعلى ولا يتودهم إلى تضحية نبيلة ، أو مغامرة جليلة . كان الصراع تافهاً وضئيلا ، وكانت أسلحته ضعيفة وصغيرة ، وكان كل ما يقال أو يكتب مكرراً معاداً ، فلم يؤثر عن كتابنا جميعاً في هذه المرحلة كلام يستحق أن يخلد . كتب العقاد وهيكل والمازني وعزى وغيرهم من أمثال عباهل حافظ وحفني محود ، آلاف بل عشرات الآلاف من المقالات السياسية الحزبية ، فلم يبق منها شي مطلقاً . لم يذكر العقاد ولا المازني ولا هيكل فيا كتبوه عن أنفسهم ، مقالا سياسياً ذا قيمة أدبية أو فكرية ، حين احتدم الصراع الحزبي واشتعل أدواره . بل إني أذكر أن العقاد شكا لي يوماً في بيته بمصر الجديدة أنه يشعر بأن ما يكتبه ، كأنما يلتي به في بئر .

قارن هذا بما أثمرته الحركة الوطنية الهندية . من آثار أدبية كبيرة وراثعة . لقد كان غاندى ونهرو وساروجينى نايدو وأبو الكلام أزاد وشوكت على ومحمد على، وغيرهم وغيرهم من العشرات والمئات ، مفكرين ، وخطباء ، وفلاسفة وشعراء ، أوحت لهم الفلسفة الغاندية أو الإسلام ، ومستوى النصال الرفيع الذى التزمته الحركة الهندية ، بالأفكار والقصائد والكتب وقد خلا أكثر ما قاله غاندى، وجمع في كتب، ودرس، وتناقله الناس في أنحاء العالم يعلقون ويدرسون . وأبي لأدعوك أن تراجع كل ما قاله سعد زغلول وعدلي يكن وعبد الخالق ثروت — وأن تقرأه — فإن وقعت على معنى إنساني ذي قيمة أو على فكرة كبيرة ، تتجاوز أحداث اليوم ، فإني لأكون من السعداء .

ولذلك لم يكن غريباً ألا ترتسم فى الذهن صورة المناصل العنيد للانجليز، إذا ما ذكر إسم واحد من كتاب العصر الذى نؤرخ له قال كل منهم كلاماً حاداً أو ليناً ، متصلاً أو متقطعاً ضد الإنجليز حسب مقتضيات ظروف الساعة ، فلما

انقضت هذه الظروف . لم يبق في الذهن أثر لها فلم تكن مخاصمة الإنجليز وإجلاؤهم عن البلاد شغلا شاغلا لواحد من كبار كتابنا بل أن العقاد خلال الحرب كان يذيع من الإذاعة المصرية لصالح الحلفاء ، وتوج جهوده بإصدار كتاب ضد هتلر ، فلما قربت جيوش الألمان من الإسكندرية هاجر إلى السودان .

أما الملك فقد تغير الوضع منه بعد وفاة الملك فؤاد، إذ لم يعد الملك عدواً للشعب ، لفترة طويلة ، بل أن العقاد ثار حينا منح الملك فاروق لبعض الصحفيين رتباً وألقاباً ، ولم يشمله العطف الملكى الكريم ، وبتى الأمرعلى هذا المستوى حتى وقعت حادثة فبراير سنة ١٩٤٢، فكسب الملك عطفاً شعبياً جديدا ، بقى متقداً ومتجدداً حتى أوشكت الحرب على الانتهاء ومالت كفة الإنجليز إلى النصر فأخذ الملك يتقرب إليهم شيئا فشيئاً ، حتى أصبح جنرالا في جيشهم، ونفض بده من محاولات الوطنية إلى غير رجعة .

ولما فسد الملك وفسدت بطانته ، و توالت الفضائح وأخذ الناس يتملمون مما يجرى وراء الستار ، وأحياناً أمامه وعلى المسرح ذاته من أمور شائنة تمس كرامة الشعب ومصالحه حيناً ، وتمس نزاهة الحمم أحياناً ، لم نسبع لكبار كتابنا شيئاذا قيمة في هذه الكارثة القومية . وقد كان المنتظر من العقاد الذي بدأ حياته متنمراً يتوثب لمنازلة الملك ويهدد بتعطيم رأسه إن هو فكر في المساس بالدستور أن يقود حملة ضد الملك فاروق فلم يفعل ، بل إن الحملة بدأها غيره ، وحمى وطيسها ، وتوالت مواقعها ، والعقاد لاصوت له فيها ، وكبار كتابنا لا يساهمون بقليل أو كثير ، لتندفع إلى الأمام ويتسع نطاقها . لقد سقط اللواء من أيدى هؤلاء الكتاب الكبار ، فتلقفته أيدى جيل اخر ، مضى إلى غايته ، شجاعاً لا يلوى على شيء .

بل أن بعض كباركتا بنا ضفروا أكاليل الغار فوق رأس الملك فاروق ،

وأحرقوا من بين يديه البخور ، الأمر الذي لا تزال ذكراه عالقة في الأذهان تسجل كيف أفلس هذا المصر إفلاساً مروعاً.

وجملة القول أن كبار كتابنا في عصر ما بين الثورتين ، وعدوا بالتحرر ، وبالثورة، وبقلب الأوضاع الفاسدة، وبإطلاق المقول من أسارها، ومجابهة دعاة القديم اثرث البالي ، فلم يفعلوا من هذا كله شيئًا ، ساروا على القديم ، وأيدوه في بعض الأحيان ، كفروا بالثورة ، وداروا دورة طويلة ثم عادوا إلى حيث بدأ عهدم .

ولذلك أصبح من المين أن يجتمع كبار الكتاب في معسكر واحد. فقد كانوا منذ البداية متشابهين متقاربين ، فلم يفرقهم إلا النضال بين أحزاب لم يكن في الواقع الأمر بينها خلاف في الطبيعة ولا في الأسلوب ، ولا في الهدف. كانوا جميعاً ينتمون إلى مدرسة واحدة ، هي مدرسة حزب الأمة ، ثم باعد بينهم حينا تنافس على الحكم، ثم عاودا كاكانوا .

وأنى لأقطع بأن مجرى التاريخ كان يتغير ، لو أن هؤلاء الكتاب ،أدركو ا رسالتهم على صورة أخرى. ولو أن الوقت اتسع لهم ليقرأوا ويستوعبوا ما قرأوه ويقفوا عند شيء من هذا الذي قرأوه وقفة تأمل ودراسة، لأفضى ذلك إلى عقيدة متكاملة كانت خليقة أن تدفعهم قطعًا إلى أن يلعبوا دور المناضل المستسبل. ولكن هذا التنقل بين الثقافات والدراسات جعل الأمر عندهم نزهة فكرية ، أو سياحة عقلية ، تتوالى فيها الصور وتتعاقب دون أن يقوم بين إحداها و بينهم ارتباط أو التزام .

على أن صورة هذا المهدلا تكل إلاإذا وقفنا طويلا أمام شخصية أدبية كبيرة هي مصطفى لطني المنفلوطي فلست أحسب أن النجاح كتب لـكاتب مصرى مثلما كتب للمنفلوطي . بل أنى أعتقد أن الفترة التالية لنهاية الحرب

العالمية الأولى . يمكن أن تسمى عهد المنفلوطى . فلم يكن ثمة بيت يخلو من كتاب له ضم مقالاته هو (النظرات) أو من واحسدة من الروايات الأربع أو الخس التي عربها عن الفرنسية فأقبل الشباب عليها إقبالا حماسيا ، وتخاطفوها ، وتسربت وحفظوا فقرات منها عن ظهر قلب ، وطبعت بأسلوبها أسلوبهم ، وتسربت ألفاظها وعباراتها وتشبيهاتها إلى ما يكتبون . وفي تاريخ الآداب ، يحدث أن يقبل الشباب — من الفتيان — والفتيات — على كاتب ، بينما يظهر الشيوخ والرجال النقمة عليه ، والكره له . كما يحدث العكس . يعلى الآباء من قدركاتب وينصحون أولادهم بأن يقرأوه ويتتلمذوا عليه . ويرفض الشباب هذه النصيحة إما لأن أسلوبه صعب لا يفهم ، وإما لأن أفكاره جامدة لا تساير القطور ، وإما لأنه يتحدث فيالا يعنيهم ولا يشغل بالهم . ولكن هذه القاعدة لم تنطبق على المنفلوطي فقد أحبه الشبان والشيوخ معاً ، قرأه الأوائل في إعجاب وحرارة ، وقرأه الأواخر في تقدير واحترام .

وكان المنفلوطي أغرب من ترجم إلى اللغة العربية ، فقد كان لا يعرف الفرنسية التي ترجم عنها ولا يعرف غيرها من اللغات الأجنبية ، ولم يحاول أن يعرف ولكنه كان يتلقى من أصدقائه الذين يجيدون هذه اللغة ، ترجمة روايات وقصص فرنسية ، فيقرأ هو هذه الترجمة ، ويحيط بما جاء فيها ، ويتذوقها ، ثم يعيد كتابتها فكا نه ينشؤها بقلمه ، أو يخرجها من قلبه .

ولكن بأية لغة يكتب هذه القصص والروايات ؟ لغة هى البساطة بعينها تقسلسل ألغاظها فى اتساق عجيب. وتتوالى فى يسر أخاذ. ومع ذلك هى فى أعلى مراتب البيان العربى: لغة خالية من البديع الثقيل، وبهرج الحسنات اللفظية الفليظة، تمتاز بالرقة، وبالوضوح، وتسودها روح من الحزن أثرت فى قلوب شباب أمة خرجت من حرب عالمية دون أن تحقق أملها فى الحرية، ثم من ثورة

لم تلبث حتى بردت وجمدت فى مكانها . شباب أمة كان لا يزال نصفه راسخا فى قيود الحجاب يتطلع إلى السفور فى خجل واستحياء وتردد . وكان النصف الثانى حائراً لايدرى ماذا يفعل ، بعد أن خيل إليه أن ولسون رئيس الولايات المتحدة قد فتح باب الحرية للشعوب الضعيفة المضطهدة ، ثم بعد أن خيل إليه أن قادر على أن ينتزع حقوقه بيده عنوة ، فثار وبذل دمه وحياته فى سخاه و شجاعة . ثم الني نفسه فى موضعه كما كان ، لم يتقدم .

ولذلك كان التوافق شديداً بين الأحزان التي صورها المنفلوطي فيرواياته التي عربها . والأحزان التي كانت تجيش بها صدور فتيان الأمة وفتياتها . أحزان مصدرها دائما مثالية مخفقة ، وآمال خائبة ، وفضيلة تتوثب وتريد أن تصارع وتناضل ، في مجتمع مسلح بالتقاليد والعقائد البالية يدوس بقدمه في غير رحمة المواطف الرقيقة التي تتحرك في قلوب بريئة و نفوس طاهرة ، لا تطمع في أكثر من حقها، ولا تمتد يدها إلى سلاح ولا تجنح إلى عنف .

کانت (ماجدولین) لالفونس کار وکانت (فی سبیل التاج) لفر انسو کو بیه (والفضیلة) لبرنادین دوسان بیپر ، و کان (الشاعر) لأدمون روستان ، وجوها متمددة لشخصیة واحدة : شخصیة المثالی الذی یواجه المجتمع المتصلب ، المثالی الذی یؤثر التضحیة فی صمت ، والذی ینکر ذاته غسیر ناظر إلی الجزاء أو الثواب . فاجدولین و بول و فرجینی و سیر انودی برجر الته ، و روکسان . کل هؤلاه أنقیاء طاهرون ، و کلهم مثالیون لاتستهویهم متع الحجتمع ، و لا أبهته ، ولا مظاهر جاهه . ماجدولین انتجرت لأن حبیبها أساء الظن بها وهی مظلومة و بولوفرچینی ماتا غرقاً لأن الفضیلة حالت بینهماو بین النجاة ، و قسطنطین قتل به به به این الفیلی الله و سیتحق ذلك و آکثر منه . وسیرانو ، قنع من الحب، بأن یعبر عنه ، و یبلغ فی هذا التعبیر أسمی مایصل إلیه الشاعر ، ثم لا یجنی من الحب ، إلا مرارته و خیبة .

كان المنفلوطي في حياة الأدب المصرى العربي مرحلة هامة ، في الحدود التي أنتج فيها ثماره . فهو لم يزعم لنفسه أنه صاحب رأى ، إلا أن يكون رأيه في الحياة ، هو ما يخرج به القارى من كل ما يقدمه من دعوة مستبسلة إلى الفضيلة ، وإن لم تكن الفضيلة قادرة على أن تثيب المتسكين بها ، السائرين في طريقها ، والدعوة إلى المثل الأعلى المجرد ، وإن لم يكن هذا المثل الأعلى في متناول الأيدى ، والدعوة إلى الجهر بالحق ، ولو كان هذا الحق مغلوباً على أمره يائساً من النصر ، موقنا بالهزيمة .

كانت الأساليب العربية قد تحررت قبل المنفلوطي من السجع ومن الحسات اللفظية التي تقتل المعنى ، وتحيل الكتابة صناعة بلا روح ، ولا هسدف فالمنفلوطي لم يحررها . وكانت الآداب الغربية قد بدأت تدخل في حياة المصريين مترجمة — وإن كان ما ترجم مها قليلا — فالمنفلوطي لا فضل له في لفت شباب المتأدبين إليها . ولكن المنفلوطي فعل أكثر من ذلك . ذلك لأنه وضع بين يدى الشباب سبعة أو ثمانية كتب ، في لفة عربية صحيحة سليمة ، وحببهم في القراءة ، ونقل إلى جموعهم صوراً مما يفكر به كتاب الغرب ، ورسم لهم صورة مجتمع لم يكونوا يعرفون الكثير عنه . وقد كانت اللفة العربية — وقد بدأت الأيام الأولى لتجديد شبابها — في حاجة إلى عدد ضخم من القراء يرتبطون بها ، ويحبونها ، ويعرفون أنها أداة تعبير ، وليست مجالا لإظهار لاتروة البيانية ، ولا ميدانا للعب بالألفاظ ، ولا مباراة في الجرى في دهاليز تلتف حول نفسها كأنها (المقرنصات) التي تحلي المساجد والبيوت القديمة ، وقوامها خطوط كوفيه تستدير وتتداخل ولا تقرأ ...

أحب الشباب لغة المنفلوطي السهلة ، الذاهبة إلى هدفها بلا تردد ، فأحبوا لغة بلادم وجاشت في نفس وقلب مئات منهم الرغبة في أن يكتبوا ، فحاول لغة بلادم وجاشت في نفس وقلب مئات منهم الرغبة في أن يكتبوا ، فحاول )

أكثرهم الكتابة ، مدفوعاً بيد المنفلوطي ، متأثراً بأدبه ، ولم يكن في وسم أى كاتب من كتاب ذلك العصر ، غير المنفلوطي أن يحقق هذا الأثر ، فلم يكن لأى منهم هذه الموسيقي الهادئة الرائعة — ولم يكن في مقدورهم جميعاً أن يشنفوا أسماع الشباب بهذه الأنفام البيانية التي لا ينفر منها الذوق ، ولا تجني على المقل.

ولقد كان من حسن حظ اللغة العربية ، والأدب العربي في مصر – أن المنفلوطي لم يتجه إلى روايات الرعب أو روايات الإثارة البوليسية ، فقد كانت إثارة كلما تمجيداً للمثل الأعلى ، وإعزازاً للوطن ، وإكباراً للفضيلة .

ولسنا نزعم للمنفلوطي ، أنه واصف ماهر لخلجات النفس الإنسانية ، ولا محلل صادق للملاقات البشرية . فلم يكن هذا عنصراً من عناصر الرسالة التي اختير لما وأداها على أحسن وجه . لقد وصف كثيراً نفوس الناس ، ومواقف بؤسهم وشقائهم ، وتصدى لبواعث أزماتهم ومحنهم ، ولكنه كان يقنع دائمًا بالظاهر الواضح من اضطرابات تلك النفوس ، وكان تصويره لها ، تصويراً لا يتعمق ، فلم تكن ثقافته ، ولا دراسته ولا مزاجه ، مما يمينه على الوصول في هذا الصدد إلى شيء ذي قيمة ، ولكن ماكان يقوله وهو يصف الناس ونفوسهم ، وحزنهم وشقاءهم ، دعوة رقيقة لقرائه لأن يقرأوا المزيد من الكتب ، وأن يبذلوا الكثير من وقتهم ليتأملوا ذاتهم ، وليتأملوا الآخرين .

هذا هو النفلوطي ، وهذا هو دوره : واحد من ذوى الآثار الجميلة في تاريخ أدبنا، سابق – بمنهجه وأسلوبه – لكثيرين ساروا على دربه، ثم تناولم الزمن بالتغيير والتطوير .

وقد كان من سمات هذا العصر أيضاً ، جورجى زيدان ، ولو أنه ينتسب

بتاريخه \_ مولداً ووفاة \_ إلى العهد الذى يسبق عصر ما بين الثورتين . إلا أن آثاره بقيت مقروءة ، في هذا العصر الأخير ، فأصبح من حقه أن يعد من رجاله .

لقد نهض جورجی زیدان بأعباء أدبیة كثیرة . أخرج مجلة (الهلال) الشهریة ، ثم كتاب تاریخ التمدن الإسلامی فی خمسة أجزاء ، ثم سلسلة روایات التاریخ الإسلامی إبتداء من عهد ما قبل البعثة المحمدیة ، حتی عهد محمد علی . فا بین فتاة غسان إلی أسیر المتمهدی ، من روایات ، هو التاریخ الإسلامی حقمة حقمة .

لم يكن جورجى زيدان روائياً عالى الكعب — ولم تكن رواياته عملا أدبياً بالمعايير الحديثة للرواية أو القصة ، ولم يكن مؤرحاً تهيأ لعمله وتوافر عليه كا ينهيأ ويتوافر المؤرخ الذي يجعل تحقيق التاريخ هدفه . بل كان في كل ما كتب من هؤلاء الذين يذللون العلم ويقربونه للناس . لا يتحيفون الحقائق ولا يطمسونها ، ولا يأخذون الوقائع مأخدذ الإستهانة والعبث ، ولكن لا يتابعونها ويتعقبونها تعقب العالم الذي يعتبر أن تحقيق كل جزئية هي الوديعة الكبرى التي أؤتمن عليها . ومن هنا استطاع شبابنا أن يقرأ تاريخه العربي في كتاب تاريخ المدن الإسلامي ، وأن يلم إلىاماً طيباً بالوقائع الكبرى في التاريخ المربى في الإسلامي في رواياته التي بلغت نحواً من عشرين رواية .

ولم يخل عمل جورجى زيدان من الطعن ، فقد رماه الكثيرون بأن رواياته التى ألفها عن العهود الإسلامية — كتبت بروح متعصب للمسيحية ، كاره للإسلام ، وأنه دس فيها ما يجعل للمسيحيين فى كل دور من أدوار الإسلام أكبر مما كان لهم ، وغمز خلفاء المسلمين وأمراءهم هنا وهناك غمزات قد تخنى على غير المتمكن العارف بتاريخ حضارته ودينه ، ولكنها واضحة جلية للعلماء الجهابذة .

وقد یکون بمض هذا صحیحاً ، فجورجی زیدان مسیحی ، ولم یزعم لنفسه

أنه كتب هذه الحلقات التاريخية ليروج للإسلام ، ولا لينتصف له من المسيحين، ولا ليحمل على المسيحية . واسمه ناطق بمسيحيته ينبه القارى وليكون على حذر ولكننى أشهد بأن إخوانى وأنا قد قرأنا هذه الكتب، وقرأتها من قبلنا غيرنا فلم ينطبع فى نفوسنا إلا الحب للإسلام والإعجاب به ، ولما شببنا عن الطوق وأدركنا شيئا من تاريخ الإسلام وعن مواقف أعدائه منه ، ولم نجد فياكتبه جورجى زيدان مآخذ تهدر عمله ، أو تؤهله للحرق أو الاستبعاد .

بور بى ريد الله المعمد كانت تشغل، ولا تزال تشغل ذمة كتابنا لقد اضطلع جورجى زيدان بمهمة كانت تشغل، ولا تزال تشغل ذمة كتابنا ومؤرخينا وأدبائنا . فنهض بها في همة ومثابرة ، يستحق عليهما الإعجاب .

والروايات الإسلامية التي كتبها جورجي زيدان ، وإن لم تكن كبيرة الحظ من الحبكة القصصية ، وكانت في الأغلب الأعم تدور في قالب واحد ، وتجرى في أسلوب متشابه ، إلا أنها كانت واضحة ، لا يعيبها البطء ، ولا الإطالة في غير مةتض ، ولا الخروج عن السياق . فلا ينقصها عنصر الحركة ، وإن كانت حركة هادئة ، والحوار فيها قليل ، ولا ير تفع إلى مستوى الإجادة ، ولكنه يؤدى دوره المتواضع في رواية تاريخية . جملة القول أن روايات جورجي زيدان هي خامات لا بأس بها إلى اليوم ، وكانت في درجة الجودة بالأمس ، وهي تنتظر في الحالين ، قلم الروائي الموهوب ، ليخرج منها سلسلة حارة حية ، تعرض التاريخ الإسلامي ، في يسر وسهولة ، وببساطة ووضوح .

أما تاريخ التمدن الإسلامى بأجزائه الخمسة ، فقيمته أنه أول عمل متكامل في موضوعه ، كتب باللغة العربية الحديثة وحاول أن يجمع شتات تاريخ الحضارة الإسلامية ، وقد بتى هذا العمل معلقاً ، حتى نهض به ، أو بجزء منه الأستاذ أحمد أمين في سلسلة فجر وضحى وظهر الإسلام بعد أن قام الأستاذ محمد كرد على ببعض هذا الواجب .

ومن سمات هذا العصر ، سمتان أخريان .

في نحو سنة ١٩٣٧ ظهرت سلسلة (كتاب الشهر) وكانت عملا من أعمال شباب حزب مصر الفتاة، ومن أبق هسده الأعال أثرا، ومن أكثرها نفعاً. وأهمية هذه السلسلة أنها أرادت أن تجعل من نشر الثقافة السياسية والتاريخية هدفاً من أهداف العمل السياسي الوطني بعد أن كانت السياسة في مصر، جهدا مجدبا لا يمد الشباب بزاد فكرى، أو روحى، وفي أن هذه السلسلة كانت النموذج الذي إحتذته بقية السلاسل التي جاءت على أثرها، وقد كثرت هذه السلاسل، فمنها من عمر ومنها من عاجلته الوفاة — ومن السلاسل التي عمرت، سلسلة (إقرأ) التي أصدرتها دار المعارف، ومن السلاسل التي توقفت عن الصدور (كتب للجميع) بعد أن أخرجت نحو ماثتي كتاب شم سلسلة (كتابي) ولم يسبق هذه السلاسل جميعاً إلا السلسلة المجيدة (مسامرات الشعب) التي كان يصدرها خليل صادق والتي أدت خدمة جليلة في عهد ما قبل الحرب العالمية الأولى.

أما السمة الثانية فهى هذا الجهد العظيم الذى قام به الأستاذ كامل الكيلانى في إخراج مكتبة الأطفال ، وسلاسلها المتنوعة ، متعاونا مع دار المعارف حيناً ، ومستقلا بنفسه حيناً آخر ، فهذا العمل كان بلاشك تطوراً في نظرة المجتمع العربى، إلى أساليب نشر الثقافة ، من جهة ، وإلى حق الطفل في هذا النشر ، وحظه منه.

فالطفل هو أبو الرجل ، والأطفال الذين ينشأون بعيدين عن الكتاب ، والذين لا تولد ملكة القراءة عندهم وهم في مراحل الحياة الأولى يصعب عليهم أن يقتربوا من الكتاب ، وأن يحبوه ، بل أن تعويدهم القراءة يصبح شاقاعليهم وعلى المربين . ولقد ذهب الأستاذكامل الكيلاني ، في إنشاء مكتبة الأطفال إلى مدى بعيد، ومثابرته في هذا الإنشاء سنة بعد سنة، جديرة بأن تذكر كحسنة من الحصر الذي نؤر خه، وكفضل لكامل الكيلاني، من الجحرد، عدم التنويه به

وقد كان للمسرح دور في هذا المصر ، بعد تمضير وتمهيد رائع من أبناء المصر الذي سبقه .

والحق إن تاريخ السرح في بلادنا كان دامياً. سقطت في ميدانه ضعايا كثيرون ، وضعايا حقيقية ، لا مجازية . فقدطوت المحن بعض أبطاله ، وكأنما ابتلعهم ماء البحر ، فلم يذكرهم أحد حتى اليوم . واستبسل بعضهم في جهاده ، حتى ضربه للرض الجسيم ، ضربات متواليات ، فاحتمل وثبت ، واستمر يعمل مشلولا أو مقعدا حتى جاءه الموت ، وهو يستعد للصعود إلى المسرح وخرج أكثرهم من الحياة فقيرا معدما منسياً .

نهم ، إنه تاريخ مجيد ، يشبه كفاحنا الوطنى فى أعلى صوره . من منا يذكر عبد الرازق عنايت ، هذا البطل المجهول ، الذى أحب المسرح حتى ملك عليه لبه ، وحتى بذل فى سبيله كل شى • ؟

بلاثك إن هذا الرجل ، يستحق أن نفردله صفحة كاملة بل فصلا كاملا فى كتاب المسرح المصرى فى الفترة التى بدأت مع مطالع القرن العشرين \_ من سنة ١٩٠٤ حتى سنة ١٩١٨ أو ما حولها .

فقد شيد هذا المجاهد المؤمن أول مسرح حديث من حر ماله ، على أرض سوق الخضار الحالى بميدان العتبة الخضراء \_ ووضعه فى خدمة مسرح (أحمد أبو خليل القبابى) الرائد الثانى للمسرح العربى بعد مارون نقاش وأخويه نقولا وسليم نقاش ولكن هذا المسرح لم يلبث حتى احترق عن آخره وكان قدبذل فى سبيل بنائه وتأثيثه مالا كثيراً ولكن عبد الرازق عنايت لم تهزه الصدمة على شدتها ، فأسس مسرحاً جديداً فى شارع الباب البحرى لحديقة الأزبكية غير بعيد عن ميدان الخاز ندرا وشارع الجمهورية (ابراهيم سابقاً) واطاق على هذا المسرح اسمدار التمثيل العربى ، وهو اسم اقترن بالكثير من أدوار وتاريخ

المسرح فى بلادنا وشهد الكثير من أيام ازدهاره ، كا شهد الكثير من محنه.
وفى هذا المسرح أقيمت لأول مرة المقاصير ( البناوير ) للسيدات وخصص فيمباب لهن ، واقتنى للمسرح الكثير من المناظر الفخمة والثياب الغالبة والممدات الفنية . وعلى هذا المسرح تألق الشيخ سلامه حجازى وبتى يجلجل صوته عليه حتى أصيب بالفالج فى ١٨ من يوليو سنة ١٩٠٩ وهو يصطاف فى لبنان .

وسلامه حجازى هو أيضاً بطل من أبطال المسرح المصرى جدير بكل تقدير واحترام ، كان أبوه محاراً من أهل رشيد ، وحصل شيئاً من العلم فى كتاب وحفظ القرآن ، ثم اشتغل مؤذناً فى مسجد هناك ، ثم انتقل إلى الإسكندرية حتى عمل مؤذناً فى مسجد الأباصيرى ، فذاع صيته كمؤذن ، ثم سمع صوته أحد مؤسسى الفرق المسرحية الأولى فى بلادنا هو (يوسف خياط) فألحقه بفرقته ، ومنها انتقل إلى فرق الرواد الأوائل للمسرح كالقرداحي والقبائي واسكندر فرح . وقد استطاع صوته أن بحذب إلى المسرح المئات ، فى وقت كانت فيه المواصلات شاقة ، إذ لم تزد فى الأغلب الأعم عن ظهور الحير ، فلم يكن فى وسع الأكثرية أن يركبوا العربات التى تجرها الجياد . و بفضل صوته شهد المصريون روايات مقتبسة ومعدة لتتفق مع ذوق المصريين عن شعراء أوربا مثل شكسبير وراسين مقتبسة ومعدة لتتفق مع ذوق المصريين عن شعراء أوربا مثل شكسبير وراسين الشيخ سلامه حجازى يعزز صوته الجيل ، وأثره الأخاذ على الأسماع والقلوب ، ومسيقية ولا تقيد ألحانه فى ( نوته ) .

وقد كانت أغانيه كلها بالعربية الفصيحة ،كذلك كانت رواياته بهذه اللغة، وما يزخرنها فى ذلك الحين من أسجاع ومحسنات بديمية أخرى .

هذا الصوت الجميل العميق الجليل ، قفز بالفناء المصرى ، تفزة أقامته على

قدميه ، بعد أن كان جالساً على التخت يدندن ويهوم ، ويكرر القطع عشرات المرات ، ويقطع الأغنية إلى أشلاء . كان يجتمع فى صوت سلامه حجازى ، صوت الخطيب وصوت الشاعر ، وصوت المؤذن . فأصبح الغناء فنا سليما يحدد قوى الساممين ، ويرتفع بنفوسهم ، ويرفه عنهم فى الوقت نفسه . لم يكن تخديراً ولا تنويماً .

ولما أصيب بالمرض ، لم يستكن ، بل أنه عاد إلى المسرح ، وكان يدع أدواره للمثلين آخرين يقومون بها ، فإذا جاء دور الفناء ، أطفئت الأنوار فأظلمت خشبة المسرح ثم يدخل هو ، يصوب إليه النور – فيغنى غناء بنسى معه النظارة أن هذا المنشد المجلجل مريض لا يقوى على السير . وقد بتى على هذا الحال من الجهاد حتى يوم ٤ أكتوبر سنة ١٩١٧ ، وكانت فرقته قد سبقته إلى المنسورة ، وكان قد وعد باللحاق بها ، وينما تنتظره هناك ومعها جاهيره التى تعشق فنه جاء النبأ يحمل نعيه .

\* \* \*

فى سنة ١٩١٢ جا، (جورج أبيض) بعد أن درس التمثيل فى باريس على يد المثل الكبير (سوليفان) مبعوثاً من الخديو عباس. بدأ حياته فى مصر ناظراً لمحطة سيدى جابر، إذ كان قد تعلم استعمال التلغراف فى بيروت. وبعد أن مثل روايات بالفرنسية على مسرح الأوبرا، مثل فى مارس سنة ١٩١٢ على نفس المسرح رواياته الثلاثة التى اشتهر بها، والتى لم ينجح فى غيرها، نجاحه فيها، ونعنى بها أوديب. ولويس الحادى عشر، وعطيل.

وفى سنة ١٩١٣، ظهرت أول رواية مصرية ، باسم « مصر الجديدة » كتبهافرح أنطون أحد أفراد الجماعة اللبنانية التي حملت على أكتافها عب الدور

الأول من أدوار المسرح المصرى ، أمثال اسكندر فرح ، وأولاد نقاش ( مارون وسليم و نقولا ) ثم قرداحي وقباني . ومن الكتاب خليل مطران ، وطانيوس عبده ، ونجيب الحداد ، وإلياس فياض .

وقد قام عزیز عید بمحاولات متصلة لیحول الجمهور المصری من المسرح الفنائی ، ثم المسرح التراجیدی ، الذی ترعمه سلامه حجازی ، وجورج أبیض و كانا قد اتحدا لفترة ما مماً فی فرقة واحدة \_ فلم یستطع مع كل ما بذله من جهد و ما وضع فی خدمة هذه المحاولات من كفایة فنیة كبیرة . فروایاته الفودفیلیة مثل (ضربة مقرعة ) ، (خللی بالك من أمیلی ) و (یاست ما تمشیش كده عریانه) مع ماكان فیها من إثارة حسیة ومفاجآت و فكاهات ، ومواقف محرجة أخفقت جمیماً . و بقی الشعب المصری مقشبناً بالروایات المأسویة ، وبالفناء حتی جاءت الحرب ، و أعلنت الأحكام العرفیة و أظلمت الشوارع وساد حتی جاءت الحرب ، و أعلنت الأحكام العرفیة و أظلمت الشوارع وساد الاكتئاب النفوس ، و توالت المتاعب و المصاعب ، فمال الناس إلى الخفیف السهل و التمسوا أسباب الترویح و الترفیه ، فظهر علی المسرح نجیب الریحانی باسم (كشكش بك ) \_ و كان قد ظهر من قبله علی الكسار باسم « بربری مصر الوحید » \_ یؤلف له أمین صدق .

وفي هذه الأثناء بدأ سيد درويش يشق طريقه إلى الضوء ، فلحن أول ما لحن رواية لم يسمع باسمها أحد ، لفرقة لم تظفر من تاريخ المسرح المصرى بسطر واحد ، تلك هي فرقة عمر وصفي ، أما الرواية فهي « بنات الشيخ والسكهرباء » تأليف فرح أنطون . ثم لحن أو بريت (شهر زاد) لفرقة جورج أبيض وإخراج عزيز عيد ففشلت كذلك ، ثم لحن أو بريت « ولو » لفرقة نجيب الريحاني ، على مسرح الرينسانس ، فنجعت .

ولم بنجح عزيز عيد في شيء مقدار نجاحه في إبراز (منيرة المهدية) فقد

أعلن فى سنة ١٩١٥ وهو يحاول تقديم رواياته الفكاهية أنه سيسند هذه الروايات بالفناء الذى بعرف مدى تعلق المصريين به ، وكان قد عثر فى بعض المقاهى على مطربة مصرية ، أعجبه صوتها فقدمها معلنا أنه سيقدم للجمهور أول ممثلة مصرية ، وقد كان لهضة المطربة ، ذات الصوت القوى الشجى دور يستحق الذكر فى تاريخ البهضة المسرحية ، بدأت حياتها الفنية بأداء أدوار الشيخ سلامه حجازى ، مرتدية ثوب الرجال ، فحلبت ألباب السامعين مم كونت فرقة لها ، ومثلت روايات الشيخ سلامه حجازى « صلاح الدين — روميو وجولييت — عايده — على نور الدين — صدق الاخاء » .

والحق أن صوتها كان قوياً متعدد الطبقات ، عميقاً ، مرناً ، وقد خطت خطوة كانت في عهدها شيئاً كبيراً جداً ذلك هو تقديمها أو براكارمين ، ترجها لها فرح أنطون ، بعد تعديل وتبديل كبيرين على عادة المقتبسين والمترجين في تلك الأيام . وقد كان فرح أنطون أول من استعمل لفظ (الاقتباس) . ثم قام بتلحين هذه الأو براكامل الخلعي ، وقدمت لأول مرة في ١٩ من مارس سنة ١٩٢٧ – فاستقبلها الجمهور استقبالا حماسياً إذ اشترى جميع التذاكر قبل الحفلة بأسبوع ، ولم يكن شيء من هذا معروفاً في بلادنا ، وبقى الجمهور حريصاً على مشاهدة هذا الهمل الفنى الجديد ، حتى كانت إدارة السرح مضطرة في بعض الأحيان إلى الاستعانة بالبوليس . وقد كانت ألحان هذه (الأوبرا) إن جاز تسميتها بذلك ، مضبوطة (بالنوتة) .

ثم أخرجت منبرة المدية رواية غنائية ثانية هي الغندورة من تأليف الشيخ يونس القاضي، ثم أخرجت بعد أن وضعت الحرب أوزارها رواية كليو باترة ومارك أنطوان التي بدأ تلحينها سيد درويش، ثم أكله عبد الوهاب.

كان إخراج رواية غنائية – ودع عنك ما إذا كانت أوبرا أو أوبريت

أو شيئا ينهما — منذ خمسن عاماً عملا يبشر بأن الخطوات في طريق السداد، وأنه مجرد مقدمة متواضعة لجهد كامل يزداد مع الأيام نضجاً . ولكن ما لبثت الجهود أن توقفت ، وعدنا إلى (التخت) وبقيت ألحاننا وأغانينا تدور في حلقة مفرغة ، وفي مستوى بدأتي ، بعيد عن الأسس العلمية والقوالب العلمية يستفرق الغناء الفردى البسيط كل نشاطنا الفني ، ونبذل له من الوقت والجهد والمال ، وكأنه غاية الجهسد الفني ، وهو في الواقع أدني المراحل ، وأقلها استحقاقاً للعناية ، لأن وظيفة الغناء الفردى ، هو الترفيه السريع والخفيف عن الناس .

\* \* \*

ساد المسرح الاستمراضي « الفنائي » الحياة الفنية في مصر منذ بدأت سنو الحرب، واستمر هذا الطراز من الفنون المسرحية هو الغالب حتى كانت سنة ١٩٢٣ ـ سنة عاد يوسف وهبى من رحلة في إيطاليا، وكان والده قد توفى فورث عنه مالاً قيل إنه لم يكن قليلا فأقنعه عزيز عيد، بإنشاء فرقة مسرحية، فاستجاب لهذه الدعوة، وأنشأ مسرحاً على أرض كانت تستعمل (جراجاً) أو نحزناً بشارع عاد الدين ثم حملت الفرقة اسم ( رمسيس ) فكان اسماً فريداً بين أسماء المسارح وصالات الغناء فقد كانت جميعاً باستثناء دار التمثيل العربي - أسماء أجنبية فهى بين كازينودى بارى إلى البرنتانيا، والأجبسيانا والأبي دى روز والرينسانس والكوزمو - وقد امتازت الفرقة بشىء آخر ومنتظمة، كانت تدار كالحصص في المدارس. وقد انمكست هذه الشدة في المحافظة على مواعيد ( البروفات ) ، على دقة مواعيد بدء الحفلات المسرحية في المحافظة على مواعيد ( البروفات ) ، على دقة مواعيد بدء الحفلات المسرحية

فقد كان مسرح رمسيس مضرب الأمثال في المحافظة على المواعيد \_ كان المسرح نفسه آبة من آبات النظام . وكان المشاون جيماً من الشبل المثنف الذي أحب المثيل وانقطع له لا بحثاً عن الرزق ، بل إشباعاً للهواية فقد كان من أبطال هذه الفرقة حسين رياض ، وأحمد علام ، وزكى رسم ، وفتوح نشاطى ، ثم كان من الممثلات روز اليوسف ، وزينب صدق ، وفاطمة رشدى ، وأمينه رزق . وقدمت السنة الأولى لهذه الفرقة عملافنيا نظيفاً متقناً ، فأقبل الناس على مسرح رمسيس ، معجبين و فورين . ولكن نظيفاً متقناً ، فأقبل الناس على مسرح رمسيس ، معجبين و فورين . ولكن الروايات الميادرامية ذات اللون الصارخ رجعت كفتها في برنامج مسرح رمسيس، ثم جاءت نقطة التحول الحاسمة ، بنجاح رواية (عاصفة في بيت) التي قدمها مجورج أبيض ، وكانت بقلم أنطون يزبك المحامى اللبناني الأصل ، وقد شجع جورج أبيض ، وكانت بقلم أنطون يزبك المحامى اللبناني الأصل ، وقد شجع ما يسفكه أبطالها من دموع ، وضخامة ما يطلقو نه من صراخ . وقدم الرواية الجسديدة هذه المرة مسرح رمسيس باسم ( الذبائح ) فتجعت نجساحا ساحقا .

وكان نجاحها بداية عهد المسرحيات المصرية المكتوبة باللفة العامية القائمة على إثارة عواطف الحزن في قلوب المتفرجين ، واستدرار دموعهم .

وختم هذا كله بالخاتمة التي كانت متوقعة ، وهي إفلاس المسرح نهائياً ، وانصراف الناس عنه كلية ، فقد جاءت الحرب العالمية الثانية ، بموجة طاغية من الإنتاج السيمائي الرخيص الذي وجد مجال الكسب والنجاح المادي فيه ، مفتوحاً على المصاريع بسبب صعوبة إستيراد أفلام أفضل من الخارج . لم يكن هذا الإنتاج بطبيعته ، عسلا أدبياً أو ثقافياً ، بل كان عملا تجارياً بحتاً أزهني

الروح الغنية ، وأقام فى طريق الحياة الأدبية السليمة فى بلادنا صمابا جمة ، لا تزال قائمة إلى اليوم . ولما كسد المسرح ، وضعف مقامه عنسد الناس ، واستولت السيما على أبطاله ، فكرت الحكومة أن تنشىء فرقة حكومية تضم أبطال المسرح ، وقد أنشئت فعلا هذه الفرقة بإسم الفرقة القومية فى سنة ١٩٣٠ فاولت ما استطاعت أن تقيم المسرح على قدميه وأشرف على إدارتها أول الأمر الشاعر خليل مطران ولكن لم توضع لها سياسة واضعة المعالم تعين على بعث المسرح وتستعيد جمهوره ، ولكنها كانت علامة على وجود المسرح ، ودليلا على عدم اندثاره ، وقد شفع هذا العمل بعمل آخر لا يقل عنه قيمة ، وهو إنشاء معهد للتمثيل ، فقد قرر الأستاذ مراد سيد أحمد وزير المسارف إنشاء المعهد ، ولكنه حيما ترك مكانه لحلى عيسى من بعده ، ألغى الجانب التجريبي من دراسات المعهد ، بحجة أن ذلك القسم يؤدى إلى اختسلاط الشبان والشابات .

\* \* \*

على أن الحرب لم تكد تضع أوزارها حتى بدأ نجيب الريحانى دوراً جديداً من حياته ، بفرقة كتب لما النجاح والاستمرار على الوجه الذى لم يكتب لفرقة غيرها . بدأ نجاح نجيب الريحانى برواياته الاستعراضية التى عرف فيها هو بإسم فيكش بك . ) وقد كانت هذه الروايات ، وروايات زميله على الكسار أليق ماتكون بظروف الحرب التى لا تحتمل فناً جاداً ، ولا مسرحاً وقوراً . وقد رفهت الفرقتان فعلا عن أعصاب الشعب المرهقة ، وخففت من متاعب وأحزان الناس فى خلال سنوات الحرب القائمة القاسية ، ولما انتهت الحرب ، وأحزان الناس فى خلال سنوات الحرب القائمة القاسية ، ولما انتهت الحرب ، متلور الفرقتان نفسيهما ، فعجزتا عن تقديم شىء ذى قيمة ، يستلفت الأنظار فانتهتا عماما . إلا أن نجيب الريحانى عاد قبل نهاية الحرب العالمية الثانية ، بفرقة فانتهتا عماما . إلا أن نجيب الريحانى عاد قبل نهاية الحرب العالمية الثانية ، بفرقة

قدمت سلسلة من الروايات الفرنسية التي مصرها الأستاذ بديع خيرى ، وطمعت بمشاهد تصور بعض مايقع في حياتنا العامة من عيوب فوجد فيها النظارة ، بمشاهد تصور بعض مايقع في حياتنا العامة من عواجهه كلا اتجه إلى ناحية من نواحي تمويضاً عن الفراغ المروع الذي كان الإنسان يواجهه كلا اتجه إلى ناحية من نواحي حياتنا الفنية . لكن لا نظنن أن هذه الروايات كانت تصور دائماً حياتنا تصويراً أميناً ، أو قريباً من الواقع ، فقد نقلت عن المسرح الفرنسي ، فخرجت في أحيان كثيرة أبعد ماتكون عن حياتنا وعاداتنا و تقاليدنا ، و اتخمت بشتائم مسرفة ، لا بعل حد كبير . واعتمدت في معظم الأحيان لإضحاك الجمهور على أسماء غريبة لأبطال الرواية ، ولكن لم يكن هناك منافس لهذه الفرقة ، وكان الناس أكثر ما يكونون جوعاً إلى فن مصرى يخاطبهم في شئونهم وينقد عيوبهم ، ويصور ملم حياتهم ، فوجدوا فيه ما يتوقون إليه عند هذه الفرقة ، فمنعوها تأييداً والفنان الخالد ، والمثل الخلاق ، على (نجيب الريحاني)

. . .

والكلام عن المسرح لا يكمل إلا إذا تحدثنا عن مجلة المسرح التى صاحبت نهضة للسرح في السنين الثلاث الأولى من حياة فرقة رمسيس، فقد أخرج هذه المجلة الأستاذ محمد عبد المجيد حلى وهو شاب من أهل الصعيد — كان يحرر في جريدة كوكب الشرق التي كان يصدرها أحمد حافظ عوض النائب الوفدى، والصحني الذي كان من محررى الجريدة، وكان بعد ذلك المستشار السياسي للخديو عباس.

وكانت الجلة قطعة حارة من النقد المسرحى، استطاعت بفضل حدة أسلوب كانبها، وشدة حسسلاته على ما كان يراه من عيوب المسرح في ذلك الحين، أن تشيع حب المسرح في قلوب الشبساب، فأصبح في كل مدرسة فرقة

تمثيلية ، وكان أبطال المسرح المصرى هم أبطال الشياب ونماذجه الحجبة . فقد كسفت شمس المسرح ، شموس الفنون والهوايات الأخرى ، فانسحب أبطال الكرة وفتر الاهتمام بالفناء . ولكن أصيب عبد الججيد حلمى صاحب المجلة بذات الصدر فمات شابا بعد أن نشر مجموعة من الرسائل الملتعبة ، ووجهها إلى حييبة لم يكشف عن اسمها ولكن عرف فيا بعد أنها كانت نجمة الفناء في ذلك العبد — منيرة المهدية .

وقد يكون هنا موضع للاشارة إلى بطل منأ بطال المسرح المدرسي في بلادنا ذلكهو الأستاذ محمود مراد مدرسالتاريخ بمدرسة الخديوية، الذي مات شابا بمد أن بذرفي قلوب تلاميذه حب المسرح، و بعد أن ألف لهم رو اية « مجدر مسيس » وغيرها. ولكن ماذا يكون رصيد الحركة الفنية ، عند مطلع ثورة ١٩٥٢ ، وكم يساوى ؟؟ أحسب أننا بعد هذا العرض ، لسنا في حاجة إلى رد على هذا السوّال. كنا في ميدان الفنون التعبيرية: فنون المسرح والغناء والموسيقي بلاحياة فنية .كانت المحاولات السابقة على حرب سنة ١٩١٤ ، لبناء المسرح ، ولتطوير الموسيقى والتي اضطلع بأعبائها الشيخ سلامه حجازى ، مع عبد الرازق عنايت وجورج أبيض والحامي عبد الرحمن رشدي ، ومنيرة المهدية ، تبشر بحياة أفضل وأكثر سلامة لو اضطردت خطواتها على نفس الطريق الذي بدأته ، ولووجدت لمن يقومها ويزيدها سداداً ، وينفق عليها . قلت أن عبد الرازق أنشأ في وقت مبكر أى في سنة ١٩٠٥ مسرح دار التمثيل ، بعد أن احترق له مسرح على أرض سوق الخضار ، وانشأ طلعت حرب سنة ١٩١٩ شركة ترقية التمثيل العربي ، وبنى مسرح الأزبكية لتؤدى عليه فرقة أولاد عكاشة أوبراتها أو اوترتاتها مثل « شمشون ودلیله » و « هدی » و « عبد الرحمن الناصر » و « الدرة » ومن هذه الأبروتات ما كتبه توفيق الحكيم وحسين فوزى فما الذي حذث حتى قضى على هذه الأعمال الجميلة فماتت في المهدد ما الذي صرفنا عن الأعمال الغنائية الكبيرة إلى الفناء الفردى ، الذى يدور في حلقة ضيقة لايخرج منها ؟ لقد كانسيد درويش بالأبريتات التي لحنها (كا لعشرة الطيبة) و (الباروكة) و (شهر زاد) زادا جديداً للحركة الفنية، فقد أدخل فى غنائنا، غناء الجاميع، والفناء الثنائى، واستلهم لألحانه ألحان الشعب الموروثه وجعل التلحين وسيلة تعبير، تماماً كلفظ الأغنية، ونص القصيدة. وصور بألحانه حياة الطوائف الحتلفة ونهيأ لهذه الألحان العذبة الحية النجاح بفضل مشاركة بديع خيرى فيها بنصه الجيل، وأزجاله المتقده ومعانيه الوطنية.

ولكن ما الذى حدث حتى عدنا إلى الوراء بظهـورنا فلم نقو على بعث الروايات الفنائية حتى بعد وفاة سيد درويش فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٣، بنحو أربعين عاماً بل أننا لم نستطع أن نعيد عرض أعمال سيد درويش فى سنة ١٩٦١، ما مدها؟

لاشك فى أن العيب فى ذلك روحى ، فلقد كانت حياتنا العامة كلها ارتحالا ابتداء من السياسة وانتهاء بالأدب ، مارا بالاقتصاد .

كانت النهضة الفنية التي رأينا بواكيرها في سنة ١٩٠٥ ومابعدها مواكبة لبعث البعث الوطنية التي أشعل جذوتها مصطفى كامل فقد صدر اللواء سنة ١٩٠٠ فتحركت كل عناصر الحياة في نفس الشعب ، غنى الشعراء ، وألف الكتاب و كثرت الصحف ، و تعددت الأندية الأدبيسة و نشطت حركة الترجمة ، والتفتت الأذهان إلى الحركات الفكرية والسياسية في أوروبا ، وازدادت هذه والعناصر النشيطة احتداماً حتى انفجرت سنة ١٩١٩ فشمر الشعب عن سواعده ، وأصبح له هدف واضح يسعى إليه ، ومعركة يتهيأ لخوضها ، بل معركة خاضها بالفعل ، وعلى صوت الرصاص المدوى ، وهتافات الجماهير العالية ، وتدافع بالفعل ، وعلى صوت الرصاص المدوى ، وهتافات الجماهير العالية ، وتدافع عرف الفن طريقه . فلما أحسفت هذه الحركة الوطنية ، وفقدت المعركة حرارتها وجلالها ، انقطع الوحى عن الفن لتتلقفه التجارة . فأصبح غناء جنسياً حرارتها وجلالها ، انقطع الوحى عن الفن لتتلقفه التجارة . فأصبح غناء جنسياً

صارخاً ، ثم هذب بعض الشيء حينها ظهر الغناء الرومانسي ، غناء الدموع ، والتدلل والفناء في الحجوب . والانقياد له ، وهو غناء كان يتفقمع روح المصر الذي نفض يده من سلاحه منذ و ثدت ثورة سنة ١٩١٩ ، فلم يبق أمامــه إلا الشكوى والتأوهات

ولم يتغير الأمر في الفناء ، بوقوف المطربين والمطربات أثناء الأداء ، بدلاً من الجلوس مع أفراد التخت ، فان تقاليد التخت بقيت مرعية . فالمغني يكرر الفقرة الواحدة من الأغنية الواحدة عشرين مرة ، ثم يمزق الأغنية أشلاء ببدأ بالقطع الأول ثم ينتقل إلى ما يليه ثم يعود إليه ، تم يتركه إلى الثالث ثم إلى الرابع ثم إلى الثاني وهكذا حتى يصاب السامع بدوار ، يسلم نفسه بعده إلى شيء يقرب من النوم مع حشرجة هي في الأصل تأوه واستجابة للمناء ، وهي في النهاية إيذان بنفاد طاقة الصراخ والتشنج عند المستمعين ، إلا جماعة منهم تزود بالمنبهات والمثيرات التي تعينها على العربدة والصخب إلى نهاية السهرة .

نعم، لقد أصبحت حفلاتنا الغنائية، نسخة من حلقات الزار التي تقفز فيها المريضات بأعصابهن، في حركات دائرية، أو رأسية، مع التطــــاول والتقاصر، والتثنى والتلوى، التماساً لتخفيف الضغط الداخلي ولا يزال الحال على هذا المنوال.

والغناء شقيق الموسيق ، ولو صلح حال الموسيق — لصلح — لكنها تركت بغير تقويم على ، ولم نقنع بترك موسيقانا على حالها ، بل زدناها سوء إذ خلطناها بالموسيقى الفربية ، باسم التجديد \_ فحرجت موسيقانا الحديثة ، مسخاً لا هى شرقية ولا هى غربية ، فأفسدنا الأذواق ، وسددنا طريق التطور السلم . طريق تعلم الموسيقى الفربية على أصولها الحديثة ، وحفظ موسيقانا القديمة نقية ، ومحاولة الانتقال من تراثنا اللحنى العريق مصبوباً فى قوالب الفن الغربى نقية ، ومحاولة الانتقال من تراثنا اللحنى العربق مصبوباً فى قوالب الفن الغربى

المتمارف عليها، وذات الحدود والضوابط الواضحة، إلى الأساليب العالمية

وبما يدل على أن ما أصاب فنو ننا التعبيرية من بوار ، سببه نضوب المين الروحى في حياتنا ، بعد إخفاق ثورة سنة ١٩١٩ ، وشمول الحيرة لأبناء الشعب إننا نجد توثباً في مجال الفنون التشكيلية ( الرسم والنحت والحفر ) في أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ ، شبيها بما رأيناه في مجال الفنون التعبيرية فإن أول تمثال نحته محود مختار ، كان في تلك الفترة ، ولكن ما الذي أنقذ الفنون التشكيلية في بلادنا من التردى في الهوة التي تردت فيها فنو ننا التعبيرية ؟ أول ما أنقذ الفنون التشكيلية من السوقية والابتذال ، إنها بطبيعتها لا تتأثر كثيراً باعتبارات التجارة ودواعيها ، الأمر الذي نجده قوياً وواضحاً في مجسال فنون الفناء والموسيقي والمسرح ، فالأخيرة توجه إلى الجموع ، والربح الذي ينتجه مستغلو الفنون إذا أحسنوا الاستغلال ، ربح ضخم جداً .

والأمر الثانى أننا بدأنا في مجال فنون الرسم والحفر بداية سليمة فقد أنشئت في مصر مدرسة للفنون الجيلة استقدم لها الأمير يوسف كال أساتذة أجانب، فتلقى أولادنا على أيديهم الأصول الحديثة لهذه الفنون القديمة ، وبعد أن أتموا دراستهم في مصر ، أ كلوها في الخارج ، فلما عادوا كانوا أساتذة للجيل الذي يليهم – فتلقى العلم مثلهم وسافر أيضاً إلى أوروبا ، وهكذا . فوجدت نواة سليمة للفن على أصوله الحديثة ، نشرت حولها ، تقاليده في بلادنا بناها الفنانون الأوائل وتركوها لغيرهم ليعلوا عليها البناء .

و بقول حامد سعيد في كتاب الفن المعاصر في مصر \_ عن اتصال ظهور مختار بحالة الامتلاء التي صاحبته الثورة .

«كان مختار في الفن بشرى « العصر الجديد » الذي عاد فيه حنين هذه الكتلة البشرية إلى الحياة الخلاقة \_ بعد أن طالت عليها الآماد تحيا كما تحبا

النباتات فى البذور . كان هو النبت أو رمزه ــ وفى صحبة هذا التشبيه يرى نحته في ضوء مفيد : فالريح رمز الروح تلعب دوراً فيه وكأنها الإشارة إلى عـــودة الحياة ، داخل البذرة إلى النور والهواء . »

ويقول برنارد شو عن بتهوفن «كان بتهوفنموجة طامية فى تلك الماصفة الموجاء التى هبت من أعماق الروح الانسانية وأنتجت الثورة الفرنسية ، . فلا بد من ثورة مجيدة لخلق فن مجيد .

\* \* \*

أما الصحافة \_ وتعنينا هنا الصحافة الأدبية \_ فقد كانت أكثر الأجهزة الأدبية تأثراً بالجدب الروحى الذى أصاب حياتنا فى أعقاب فشل ثورة سنة ١٩١٩ . كانت الصحافة سلاحاً من أسلحة الثورة ، تأثرت بها ، فى حالتى الازدهار والفشل . دبت إليها الحياة دافقة حارة ، حيما كانت الثورة منطلقة ، فلما تعثرت فى أوحال الحلاف الحزبى ، أصبحت سلاحاً لهذه المعركة الداخلية الضئيلة المعنى .

ظهرت فى فترة الحرب مجلة « السفور » للا ستاذ عبد الحميد حمدى، و تعاون على التحرير فيها محمد حسين هيكل ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى وطه حسين وأحمد أمين ، ثم ظهرت مجلة الشباب حوالى سنة ١٩١٩ لأحمد خيرى سعيد ، وكان يكتب فيها ويكتب فيها معه الدكتور حسين فوزى وعمد تيمور ثم مجلة الفجر التي عاونه فى تحريرها محمود طاهر لاشين ومحمود تيمور . وكان من كتب هاتين المجلتين أيضا ابراهيم المصرى وحسن محمود وأحمد شوق حسن من كتب هاتين المجلتين أيضا ابراهيم المصرى وحسن محمود وأحمد شوق حسن وفايق رياض وأندريا جبريل (١).

<sup>(</sup>١) مقال للدكتور حسين فوزى في عدد الأمرام الأدبي يوم الجمعة ٠ ٢/٤/٥ ١٩٦٥

كانهؤلاء حيماً نواة المدرسة الادبية الحديثة ، قرأ أكثرهم الأدبالعربي القديم ، وقد حدثنا الدكتور هيكل والأستاذ أحمد أمين عن ذلك كا حدثنا للديم غيرها ، فأحبوا الجاحظ وآمالي القالي ، وأمثال الميداني ، وعرفوا العقد الغريد لابن عبد ربه ، والأغاني للأصفهاني ، ثم ما لبنوا حتى عرفوا الأدب الإنجليزي ثم الأدب الروسي فشغفوا به ، وتأثروا بمهجه ، وتتلذوا على ديستفسكي وتشيكوف وتورجنيف ، وألف بعضهم القصص القصيرة ، والبعض الآخر كتب للمسرح ، ونقدوا مؤلفات بعضهم البعض واستمعوا إلى مطالعات في الآداب الغربية لمختارات تعجب الواحد منهم ، فيأبي إلا أن يشرك الاصدقاء والاخوان في التمتم بها .

ولكن تبحث عن هؤلاء بعد أن لفظت الثورة أنفاسها فلا تجدم أو تكاد ـ المجلات اختفت ، وتفرق شمَلهم وعين بعضهم فى وظائف، وسافر فريق منهم إلى الخارج .

وبقيت البلاد بلا جريدة أدبية تقريباً حتى ظهرت السياسة الأسبوعية فكانت امتداداً لجلة السفور ، فأكثر الذين كتبوا فيها ، شاركوا في تحرير السياسة الأسبوعية عن مسرحية السياسة الأسبوعية عن مسرحية واحدة بقلم واحد من هؤلاء أو من غيرهم ، فلا تجد ، كا لا تجد قصة ، ولا نقد الكتاب إلا في النادر بل لا تشهد على صفحاتها معركة واحدة ، حول قضية من قضايا الأدب. وظهرت بعد ذلك البلاغ الأسبوعي لتكون نظيراً للسياسة الأسبوعية، قام على تحريرها إبراهيم المصرى ، ولكنها كانت أقل لماناً من السياسة ، وأن أشتركا سوياً في صفة الهدوء ، وفي انعدام المنهج في كليهما — فلم تضع إحداها لنفسها سياسة التعريف المنتظم المستقر بالأدب الفربي والجديد من آثاره — ولا تقرب الأدب – العربي القديم والكشف عن كنوزه — فحديث الاربعاء تقربب الأدب – العربي القديم والكشف عن كنوزه — فحديث الاربعاء

الذي كان فصولًا بقلم طه حسين في الأدب العربي القديم ــــ لم ينشر في السياسة الأسبوعية بل في السياسة اليومية ، كل أربعاء — كما يدل عليه إسمه \_ ومع ذلك اختنى البلاغ واختفت السياسة الأسبوعية بعد سنين قليــــلة . لتظهر بعد ذلك الرسالة تم الثقافة ، فيشترك في تحريرهما أحمد أمين أحد أعضاء أسرة السفور، وإن كان محرروها هم أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر . وقد أديتا دوراً كبيراً وأتاحتا فرصة الظهور لمدد من الكتاب الشبان الذين رسخت أقدامهم فها بعد ، وتلقوا اللواء من الجيل، الذي سبقهم . ولكن لم تكن الرسالة ولا الثقافة أوفى حظاً من السياسة أو البلاغ في المنهج والخطة ، فالمقالات تأتى من الكتَّــاب اعتباطاً ،و تنشر اعتباطاً. فالحجلتان لاتدعوان إلى شيء واضح محدد في الأدب \_ ولا في الحياة ، وهما عاجزتان عن إعطاء صورة للنشاط الأدبي في بلادنا أو في بلاد المرب. فما يصدر في مصر من الكتب لا يقدم للقراء ولا ينقد إلا عندما تقضى المصادفة ، وما يجرى في سوريا والعراق وفلسطين — دع عنك تونس والمغرب — لا يحتفل به ، ولا يشار إليه . وما يجد في إنجلترا وفرنسا أو ألمانيا من المذاهب والأفكار، وما يولد من المدارس الفكرية ، لا يجد من يتتبعه ، مع أن أكثر الذين حرروا في المجالين ، تعلم في أوروبا — وأتقن إحدى لغاتها . ولكن هذا أو بعضه يقتضي تلك المجلات جهداً وعناء ، وكان التحرير فيها ، أقرب إلى الهواية منه إلى الإحتراف، وأدنى إلى إزجاء الفراغ منه إلى العمل الجاد أو الرواية أو التراجم . فالعنصر الفالب فيها جميماً هو عنصر المقالة ومن هنا كانت قصص مممود تيمور وطاهر لاشين و يحيى حتى كالواحة في صحراء.

وبالجملة كانت الحياة الادبية عملا إضافياً على أعمال المشتغلين بالسياسة أو الموظفين أيا كانت سواء فى الجامعة أو فى وزارة المعارف أو فى غيرهما. فكانت بذلك نشاطاً سطحياً ، شابه الحياة العامة . فكان فيها فتور تلك الحياة

وعثوائيتها، واتصافها بالجزئية . فحلت مما يهز أو يثير، ومن حرارة الإيمان الراغب في التغيير : والحق أنه لم يكن هناك شعور بالضيق بما يجرى، ولم تكن هناك الرغبة أو الإرادة في التغيير، ولذلك كانت المعارك الادبية شجاراً مفتملا، الصخب المفرقع فيه أكثر من الفضب الصادق . وحيما تقوم هذه المعارك، تقوم كالحرائق التي تشب عن إهمال أو عن غير عمد ، ثم لا تلبث أن تنطني، فلا تدرى لماذا شبت ، ولماذا أطفئت ، ثم لا تقبين لها أثر بعسد إندلاعها والإحاطة بها ثم إخادها أنها لا نترك شيئانهم لا تترك شيئامطلقا، فلكم تشاجر العقاد مع صادق الرافعي ، ولكن على أى شيء ؟

كان المجتمع الأدبى في مصر كالمجتمع كله — في ذلك العصر ، راضياً لا تؤرقه مشكلات حقيقية ، ولا ينبض بحياة جديدة، ولا تقوى على الإصطدام بمراكز القوة الأساسية فيه — لذلك تأخر ظهور المسرح وتأخر ظهور القصة الطويلة ، وتأخر التأثر بالقصة القصيرة أو الإلتفات إليها ، فالمسرح والقصة ، ها أداتان من أدوات التعبير يتغذيان بالصراع ويعيشان على مشكلات المجتمع الملحة السكاوية — وهما التفريج عن الضيق المكبوت ، أو المتفجر من المجتمع القائم بتصوير مجتمع سواه ، أو بتصويره هو ، للتنديد به ، ووخزه ، وإظهار معايبه ومثالبه . لقد كتب محمد الموبلحي حديث عيسى بن هشام ، ليهوى معارقه على المجتمع ، قدر ما أستطاعت يداه أن تحمل من المطارق ، وكتب محمكل زينب — وهو في فرنسا ، يحن إلى وطنه ، ويقارن بينه و بين المجتمع هيكل زينب — وهو في فرنسا ، يحن إلى وطنه ، ويقارن بينه و بين المجتمع الذي انتقل إليه — ورآه ، فتفجر الحنين ، والضيق بما يجرى في الريف ، بهذه القصة التي تحسى فيها بأمل حائر ، وحيرة آملة .

كان لا بد من أزمات عامة يحس بها الكتّاب ، ويشعرون أنها أزماتهم الخاصة ، فيسهدون لها ، ويشقون بسببها ولا يرون سبيلا إلى الفرار منها \_ إلا بالكتابة .

ولكنك قد تسأل ما الذي جعل الحياة العامة بين الثورتين فاترة ، وجعل أهل مصر بعيشون في انبساط ودعة ، كأنهم يمرون في عصر السعادة والرخاء ؟ أن الشعوب لا تشعر بالضيق ، ولا تمر بالأزمة ، إلا حيما تعانى كلها من يحنة تسحقها أو خطر يهدد أمنها . وفي الفترة ما بين الثورتين لم يكن في مصر ، ما يدعو إلى هذا الشعور . فشكلة الإحتلال تراجعت إلى الخلف . ولم تعد تؤرق أحداً بالقدر الذي يبعث الألم والحزن في النفوس ، فالإنجليز قنعوا بإدارة دفةالسياسة من وراء ستار، وقد أعانهم على ذلك تصريح ٢٨ فبر ايرسنة ١٩٣٢ أولا ، ومعاهد سنة ١٩٣٦ ثانيا ، وبقى التنافس على الدستور والحكم ، هو وحده مصدر الصراع بين الاحزاب ، ولم يكن أحد يخسر كثيراً بسبب هذا الصراع ، فالاحزاب إن كانت في الحكم إغترفت من خيراته ما أستطاعت ، وإن كانت في المعارضة وجدت في ادعائها الدفاع عن الحرية والدستور و تراهة الحكام ما يرضي شعورها الادبي ومن خيرات الشركات والدفاع في الفضايا الحكيم ، وإدارة المشروعات التي تسدر الارباح ، ما يرضي طمعها المادي .

وقد كانت الطبقات التي تكون العنصر الاساسي في الجاهير وهم الفلاحون والعال في درجة من الضعف السياسي بحيث لم تكن لتخيف أحدا ، وإن كان العال قد بدأوا يكونون النقابات ، وبدأت النقابات تلعب دورها في الدفاع عن حقوقهم ، وتنتزع شيئا فشيئا بعض هذه الحقوق . ولكن كان هذا التطور في جملته أبعد ما يكون عن دور الازمة وعن مرحلة الاحتقان .

ومن هنا كان الشعور الذى يسود المجتمع ، هو شعور الاسترخاء ، وكانت السمات الظاهرة أينما أدار الانسان نظره ، سمات الدعة وخلو البال . فقد انتشرت في القاهرة مثلا ندوات ، كان يجتمع فيها أهل الفكر من صحفيين وشعراء وأدباء

ومتأدبين ، ومتصيدى الاخبار ، وعيون الاحزاب ورقباء الحكومات ، ومندوبى قلم المخابرات البريطانية وغيرهم . فإذا دخلت إلى إحدى هذه الندوات أحست فى التو ، كم يستمتع روادها بالحياة ، وكم يظفرون بالسمادة والرغد . فنشاط هذه الندوات جميعا ، الإسماع إلى الفكاهات والمداعبات وأخبار المقالب والمكاثد ، وأبناء الفضائح ، فإذا جد الحد ، استمع هؤلاه الرواد إلى قصيدة من الشعراء الخفيف، فإذا احتدم الامر، كانت مناقشة في مسألة حزبية وسط ضعكات تكاد تكون فرقعات ، بينا يرفع بعض الحاضرين كؤوس الخر إلى ضعكات تكاد تكون فرقعات ، بينا يرفع بعض الحاضرين كؤوس الخر إلى أفواههم فى تلذذ واستمتاع باديين ، فى حين يلتهم واحد أو اثنان طعاما دسما يتكون من الفراخ أو الكباب ، أو من أطباق المكرونة والارز المحشو بقطع اللحم .

وكانت ندوة جريدة الاهرام في مقدمة تلك الندوات ثم ندوة أمام جريدة الاهرام في بار اللواء ، وثالثة غير بعيدة من الاثنين على مقربة من البنك الاهلى الآن ، هي ندوة بار الأنجلو ، ورابعة في قهوة متاتيا ، وخامسة في قهوة (كافية دى لابيه) في ميدان الاوبرا وسادسة في قهوة بر بجبينا وقبل ذلك بسنتين كانت هناك ندوة رائجة تعقد في بار (صوات) بشارع قصر النيل . ولما أصدر الاستاذ عمد توفيق دياب جريدة الجهاد في دار قريبة من ضريح سعد ، كانت حجرته ، ندوة من هذه الندوات في شيء ندوة من هذه الندوات . وقد كنت أحب أن أصور لك هذه الندوات في شيء من التفصيل والأفاضة لانها كانت في واقع الامر مراكز أدبية في ذلك العصر ، لا تشع فكراً ، ولا يصدر عنها شيء ذو قيمة ، ولا يحقق خيرا ؛ ولكنها كانت وحدها الاماكن التي يتواصي المفكرون وكبار الكتباب والصحفيين بالالتقاء ومدها الاماكن التي يتواصي المفكرون وكبار الكتباب والصحفيين بالالتقاء فيها . وعن أخبارها، وألم يحد على الحظ إلا بالتردد على مكتبر ئيس تحرير الاهرام في عهدى داود بركات وأنظون الجميل ، فقد كنت أسمع عنها ، وعن أخبارها، وأنظون الجميل ، فقد كنت ألم بها بين الحين والحين ، فأرى وأسمع قليلا ثم وأنظون الجميل ، فقد كنت ألم بها بين الحين والحين ، فأرى وأسمع قليلا ثم

أنصرف، وفى كل مرة كنت أحس بالغربة والوحشة، فلم أكن بمن يحسنون المشاركة في هذا للنتدى الذى يحتاج إلى جعبة مليئة بالفكاهات والقدرة على المديث الممتع الشهى، والرغبة فى الضحك، أو التظاهر به، أو الاستمتاع بمنظر الذى يضحكون.

كان باب رئيس تحرير الاهرام مفتوحا لكل من يدفعه ، وكان رئيس التعرير—سواء في عهد داود بركات أو أنطون الجميل منصرفا دائما إلى عمله يقرأ أصول المقالات ، في سرعة ، ويؤشر عليها في سرعة كذلك ، ويرفع رأسه بين الحين والحين فيقول كلمة أو يضحك لكلة ، أو يهز رأسه . وقد كنت أرى حوله شعر و كبار منهم شوق ، وموظفون كبار منهم الوزراء الذين يحكمون ، والوزراء الذين تركوا الوزارة، وفي فترة كان رئيس الديوان الملكي ، يقضى سهرته كل ليلة هناك وقد كان داود بركات أكثر مشاركة في الحديث ، وكان صوته جهوريا ، ينهاكان أنطون الجميل مقلاً زاهدا في الكلام . وقبل وفاة أنطون الجميل ، بدأت أرى في مكتبه صحون الاكل وأذكر أنى رأيت أحد المحرين المشهورين يلتهم فرخة كاملة ، ويتكلم ويتناثر الأكل من فه .

وكنت أرى فى ندوة بار اللواء العديد مشاهير المجتمع بينهم حفى محود الوزير الدستورى ، وكان من أبرز شخصيات هذه الندوة الشيح أحمد عبد الحليم العسكرى ، وقد كان نجماً من نجوم هذا المجتمع السعيد الحالى البال وكان عبد الحيد الديب الشاعر بمن يرتادون هذه الندوة . وعلى رصيف قهوة أو بار الأنجلو ، كنت أرى حافظ إبراهيم أحياناً والشيخ عبد العزيز البشرى كثيرا ، وخليل مطران دائماً ، فقد كان مكتبه فى النقابة الزراعية أمام هذا المقهى .

وفى قهوة متاتيا كنت أرى الشيخ عبد العزيز الثمالبي ذعيم تونس،

وكانت الصحف تسميه دائما ( زعيم تونس الأكبر ) وكان يجالسه في الغالب الأستاذ محمد لطني جمعه المحامى والشيخ عبد الحليم طارة وهو قاضى شرعى، وكان الشيخ الثعالبي يدعو أصحابه هؤلاء إلى مأدبة كسكسى في منزله بشبرا يصنعه بيده هو ، كأحسن ما يكون هذا الصنف المغربي الشهى .

وكانت ثمة شخصيات تطوف بهذه الندوات جبيماً . وفي مقدمة تلك الشخصيات الدكتور محجوب ثابت ، الذي كان اسمه ورسمه ، وما يحكى عنه ، وما يحكى له ، مادة لا تنفذ في الصحف والجالس . كان الدكتور محجوب طبيباً ولكنه اشتغل بالسياسة ، ثم بكل نشاط اجتماعي في البلاد — بدأ يجمع التبرعات للوفد عندما تكون الوفد في سنة ١٩١٩ ، ثم بقي عاملا نشيطا متحركا في السياسة بتكلم عن السودان ويدعو إلى وحدة وادى النيل ، كلما خطب أو كتب أو تناقش فأصبح حديثه المسرف عن السودان نقطة ضعف في شخصيته يداعبه أصدقاؤه ويسرفون في المداعبة معه من أجلها ، وكان يملأ أحاديثه بقافات ، ويروى الشعر ، وهو يداعب عثنونه ، وكان في يده عصا ثقيلة لا تفارقه ، يلوح بها إذا غضب وكثيرا ما يغضب دون أن يؤذى . ثم يخوض في الحديث فيتناول شئون العال وكان من أوائل العاملين للحركة العالية ثم في شئون الطيران ، ثم في شئون الجامعة والتدريب العسكرى وزيادة قوة الجيش ؛ وتاريخ العربوما ثرهم على الحضارة والإنسانية وهكذا وهكذا

وكان من شخصيات ذلك المجتمع الشيخ التفتاز ابى وهو شيخ طريقة: تعلم أصلا في المدارس الثانوية ولم يتم تعليمه، وكان يلبس طربوشا، ويلف حوله شال عملمته، ثم يرتدى السكاكولة، ولا يدع مجالا من مجالات السمر، إلا وقصده، ولا داراً من دور السياسة إلا اتصل بها، وكان يدعى مع شيوخ الأرهر إلى دار المندوب السامى كل ليلة قدر.

وكان من نجوم هذا العهد الأستاذ محمد وحيد الأيوبي له ندوة في قهوة (كافيه دى لابيه)، وقد ألف حزباً في سنة ١٩٠٧ عندما نشأت الأحزاب أسماه الحزب ( الوطني الحر ) وقد كان هو كل الحزب رئيساً وأعضاء وأمانة صندوق وأمانة سر ، ولم يسمع عن هذا الحزب شيء ، ولم يؤثر عنه حركة ، وكان من دعاة التحالف مع الإنجليز ، والتعاون معهم والإشادة بفضلهم على البلاد (١) ، وقد انتهى به الأمر إلى الاكتفاء بمطالعة القراء في الأهرام أو في المقطم أو في الاخبار بطرفه نحوية لا تزيد عن خسة أسطر ممهورة بتوقيعه « وحيد » يصحح فيها خطأ شائماً ، أو يكشف عن حقيقة لغوية مهجورة . وقد كانت هذه العارف لقلة سطورها شيئاً طريفاً يبتسم له الناس .

وقد كان في مصر في تلك الآونة شخصيتان غريبتان أولمها الشيخ صالح روتر، وهو شيخ عرف بالارتزاق من نقل الاخبار السياسية قبل أن تذاع — وكثرة تنقله بين أندية السياسة، لما يحبوه به ذوو النفوس من العطف، وما ينفحونه من مال، لأنه يروج الاشاءات التي يحبون رواجها، ويكذب الانباء التي يغضبون لانتشارها، ولانه يحمل إليهم في مجالس الأصدقاء والأعداء على السواء. وهو سريع الحركة، نحيل الجسم، وقد يكون عند بعض الناس خفيف الظل، وعادة يخف ظل الانسان على غيره، إذا أسرفوا في مداعبته ولم يغضب وإذا أمتعهم بالحبر السار، وإذا خدمهم، في غير مماحكة ولا ترفع.

وكان صالح عيسى السوداني شخصية تراها أغلب ما تراها مع حلمي عيسى وزير المعارف الاسبق على شرفة فندق الـكوننتال ، وهو شاب سوداني اشتغل

المادة الأولى من برنامج هذا الحزب تنس على مسالمة المحتلين والسمى في نيل ثقتهم ثم مسالمة الأجانب ( المقطم في ١٦ يولية سنة ١٩٢١ ) .

بالسياسة ، وكان من تلاميذ المرحوم محجوب ثابت ومن دعاته ، وقد ألف عنه بعد وفاته كتاباً باسم الاسرار السياسية ، وقد كان صالح عيسى ، على النقيض من شخصيات تلك الندوات والمجالس ، فقد اختار لنفسه الشدة والفظاظة والمهام الناس ، وإخافتهم بنقده ولسانه ، أسلوباً حقق له بعض الاهمية – عند أصحاب الندوات والمجالس السياسية فالحياة الاجتماعية الرخية الهينة ، حياة المكانئة الصغيرة ، والاشاعات والفكاهات ، ومجالس السمر ، واستماع الشم الخفيف ، ونقد الزغماء في راحة بال . في حاجة إلى الحريف والحامض ، كا أنها في حاجة إلى الحلو والبارد ، وقد كان صالح السوداني هو الصنف الحريف بعض الاحيان حتى يثور . .

\* \* \*

ومن الندوات التي كدت أغفاها ، هي ندوة دار الكتب . وتعليات دار الكتب كانت ولاتزال تمنع موظفيها من شرب الدخان في مكاتبهم ، فكانو اينزلون إلى حجرة صغيرة مجاورة لمدخل الدار ، بعد الباب الرئيسي مباشرة ، وهناك لا يشربون السجائر فقط ، بل يتجاذبون أطراف الحديث ، ويشهد حواره عسدد من أصدقائهم ، ويشاركون فيه . وقد ترددت على هذه الندوة عشرات المرات ، ورأيت فيهارامي ، والحاج محمد الهراوي الشاعر الذي كان أول من نظم الشعر للأطفال ، وطبع منظوماته في كتاب . وقد كان كثير من الأدباء بتفكهون بالاستشهاد مهذه الأبيات السهلة مثل :

هذی الکرة کالسکرة هیا اصدی هزی بدی.

ولونسج على منوال الهراوى آخرون ، لأفاد أولادنا كثيرا ، فان من أحسن وسائل التربية والتثقيف للأطفال الأغانى المنظومة ، والشعر السهل.

ولا يكمل الحديث عن الصحافة والصحف في عهد مابين الثورتين إلا إذا تحدثنا عن أربع مجلات . أولها مجلة الكشكول؛ التي أصدرها سليمان فوزى، وقد كان سليمان من الصحفيين الاوائل الذين عملوا مع الشيخ على يوسف في جريدة المؤيد ولم نستطع أن نعرف رصيده من التعليم أو الثقافة ، إلا أن الذي نعلمه على وجه اليقين أن مجلته التي كانت من أقوى خصوم سمد زغلول والوفد ، وأنها حققت لنفسها مكانة بين صحف المعارضة بأكثر من وسيلة . فالكشكول كانت صفحة جديدة في الصحافة المصرية هي صفحة الصحافة الفكاهة النقديةأي التي تتخذ من الفكاهة والدعابة ، سبيلا للنقد السياسي . فلم بكن هناك صحيفة غيرها في عهدها تنقد الشخصيات السياسية أو تعلق على الحوادث الجارية ، بأسلوب فكه . وقد نوعت في أساليبها النقدية ، فاستعانت بأقلام أدباء كبار كمحمد الهمياوى ، وعبد العزيز البشرى ، ومحمد إبراهيم هلال وحسين شفيق المصرى فتباروا في إشاعة روح الفكاهة في أعمدة المجلة ، في لغة جذلة ، وعلى طريقة المقامات حينا ، وبشعر هزلي حينا ، تجده رصيناً كشعر الجاهاية أو الشعر الأموى والعباسي ، ثم تعززه مع ذلك فتحشوه حشواً باللذعات والقفشات البلدية . وقد ابتدع الكشكول باباً كان ينشر فيه قصائد لشاعر أسماه « الشاعر إياه » وكان يرمزون بهذا إلى الوزير الوفدى محمد نجيب الفرابلي ، فقد عرف عنه أنه يقرض الشعر ، وكانت قصائد (الشاعر إياه) في كثير من الأحيان من آيات الشعر الفكاهي النقدي، وقد تداولت الألسن العديد من قصائد هذا الباب، واستشهدوا بها في المناسبات السياسية ، وجنوبهم تكاد تتفجر من كثرة الضحك – كما ابتدع الكشكول باباً طريفاً غاية الطرافة ،هو باب (دائرة الممارف الوفدية ) وكانت الألفاظ ترد في هذه الدائرة على ترتيب الحروف الأبجدية ، ولكنها لا تدور إلا على الشخصيات الوفدية فتشبعها نقداً وسخرية ، في لغة هي غاية الرصانة. 7

وقد كان الشائع وقتذاك أن من كتاب الكشكول كبار الساسة الدستوريين أمثال — إسماعيل صدق وعبد الحميد بدوى .

إلا أن فضل الكشكول على الصحافة المصرية فى ذلك ألحين أنها أدخلت الرسم الكاريكاتورى ، وجعاته أساساً من أسس التحرير فيها ، وقد وفقت إلى رسام أسبانى هو (سانتز) فرسم للشخصيات المصرية كثيراً من الرسوم التى جعلت الكشكول مجلة مقروءة حتى فى الفترات التى كانت فيها حلاتها على سعد زغلول كأقسى ماتكون والتى كان فيها سعد فى القة من حب الشعب وتأييده والالتفاف حوله \_ ولقد تعرضت جريدة الكشكول لملات عنيفة من مظاهرات الشباب الوفدى ، اقتحمت بعضها داره وأحرقته ، ولكن سلمان فوزى بقى صامدا .

لم تكن الكشكول مجلة سياسية فحسب ، بلكانت بأسلوبها ولفتها ، ويعلو كعب محرريها ، مجلة أدبية دفعت بحرارة جديدة إلى اللغة العربية ، وجملتها أداة نقد وتعبير عن الأمور الجارية ، والشئون الحيوية ، فخر جت اللغة من عزلتها ، ومن رصانتها الجامدة ، وزاد انطلاقها .

وباقى الجلات الأربعة، هى المحاسن المصورة ثم المعرفة والعصور. أما المحاسن المصورة فعى – بقدر مانعلم – أول جريدة أدبية ظهرت للناس بعد ثورة ١٩١٩، واقتصرت على الجوانب الأدبية والفنية، فى تبويب حديث اوعلى ورق مصقول. ظهرت فى نحو سنة ١٩٢٢، ولم تعمر، وأفردت للآداب والتاريخ والفنون أبوابابه وحلت كل باب، بعنوان كتب بالخط الجليل، وزين برسوم تتفق مع موضوعه، وكانت فى حجم طويل شبيه بحجم مجلة آخر ساعة الآن، ولم يكن من المكن لمجلة تكرب والفن وحدها أن تعمر – وهى لا يؤيدها حزب، ولا ينفق عليها رجل قادر على تحمل الخسائر حتى يثبت قدمها، ويعرفها القراء ويقبلون رجل قادر على تحمل الخسائر حتى يثبت قدمها، ويعرفها القراء ويقبلون

عليها، وقد كان أكثر الذين بكتبون فيها شبانًا لم تذع أسماؤهم بعد ، وقد كنت أقرأ لأحدهم ، فأرى اسمه فى ذيل المقال مقروفًا بعبارة « بكالوريوس آداب من أمريكا » وكان مثل هذا اللقب غير معروف فى مصر ، إذ لم تكن الجامعة قد أنشئت بعد ، وكانت الألقاب العلمية المعروفة عندنا هى : الليسانس ، والدبلوم – ولم يكن لقب الدكتور يطلق إلا على الأطباء . ومرت أيام وإذا بى أرى فى إحدى الحاكم محضراً ينادى على أسماء أصحاب القضايا، واسمه كاسم صاحب المقالات الأدبية فى المحاسن للصورة وصاحب لقب البكالوريوس ، فسألته أيكون هو كاتب تلك المقالات فأجاب بنعم ، ومنذ ذلك اليوم فسألته أيكون هو كاتب تلك المقالات فأجاب بنعم ، ومنذ ذلك اليوم فسألته أكن أراه ألا ونتحدث مليًا فى الأدب ، وأظهر له فى كل مرة مجبى من أنه قانع بوظيفة لايحاول أن يستأنف الكتابة الأدبية فلا يزيد عن قوله « ربنا قانع بوظيفة لايحاول أن يستأنف الكتابة الأدبية فلا يزيد عن قوله « ربنا يسهل . . . »

وقد علمت منه أن صاحب المحاسن المصورة ، كان رجلا ضعيف النظر ، فعاد يوماً إلى إدارة جريدته فكاد يصطدم بأكداس من الورق صفت أعمدة الواحد بعد الآخر ، فمسح نظارته ، وتأمل فيها ، وسأل ماذا يكون كل هذا الورق فقيل له أعداد المحاسن المصورة ، التي ردت بغير بيع ، نخرج من دار الجريدة لايلوى على شي ، ولم يعد إليها إلا بعد أن سوى حسابات الديون ، أم قفل باب الجريدة بالضبة والمفتاح وإلى الأبد . . .

أما المجلتان الأخريان: فهى المعرفة والعصور – أصدر (المعرفة) الأستاذ عبدالعزيز الاسلامبولى سنوات غير قليلة وقد كانت تعنى بالفلسفة الاسلامية وما يتصل بها، وقد ختمت حياتها، دون أن تلفت الأنظار كثيراً – وقد كان ينقصها الورق الجيد، والتنسيق الحديث، والموضوعات المتصلة بالتطورات الجارية، والأقلام

المقرورة ، ولكمها كانت جهاداً في سبيل نشر طراز من المعرفة كان من الخير أن تقوم عليه مجلة من المجلات ، وأن تجد بمن يمد لها يده لتتطور ، وتقدم ، وتستكل نقصها أما مجلة المصور التي أصدرها الاستاذ إسماعيل مظهر فقد كانت مجلة علمية ، على نسق المقتطف و إن كانت أكثر جفافاً ، ولم يكن للمصور ماكان لأسحاب المقطم الذين يصدرون المقتطف من النفوذ وكثرة الملاقات والثراء والخبرة الصحفية . وقد كشفت الوثائق التي نشرت أخيراً عن الأحراب أن الاستاذ إسماعيل مظهر صاحب المصور فكر في إنشاء حرب الفلاحين ، على أن يكون فرعاً من فروع حزب الوفد، على غرار الحزب التعاوني المتفرع من حزب المعال البريطاني ، وقد وجه خطاباً بهذا المعني إلى رئيس الوفد، وقد و ثدت فكر ته بطبيعة الحال ولم يذكرها وجه خطاباً بهذا المعني إلى رئيس الوفد، وقد و ثدت فكر ته بطبيعة الحال ولم يذكرها أحد حتى نبش في الأوراق القديمة ، و نشرت هذه المحاولات القديمة ؟ الدالة على حيرة الناس في أعقاب إجهاض ثورة في سنة ١٩١٩ \_ في اختيار الطريق الذي سلكونه .

وقد كانت العصور جديرة بأن تخلق من حولها اتباعاً وأشياعاً للتفكير العلى ، وأن يكون صاحبها صاحب مدرسة في الفكر المصرى الحديث ، لابيا أنه كان من أسبق المصريين إلى التعريف بنظرية داروين ، وقد ترجم أصل الأنواع فعلا لصاحب هذه النظرية ، في وقت جد مبكر . ولكن العصور ، ختمت حياتها أيضاً في غير ضحيج .

\* \* \*

من شخصیات العصر الذی نؤرخ له ذات الدلالات الممیزة ، بیرم التونسی فقد کان شابا صغیرا عندما أنفجرت ثورة سنة ۱۹۱۹ ، و کان السلطان فؤاد من خصوم هذه الحركة و كان الشائع على ألسنة الناس ، أن السلطان أكره على الزواج من السیده نازلی عبد الرحیم صبری، و کان قد و عدها بالزواج ثم عدل عن و عده ولى العرش ، حتى شكا والدها إلى المندوب السامى البريطاني أو المعتمد

البريطانى من ذلك ، فرأت السلطات البريطانيه أنه مما يسى و اليهم سياسياً أن تبتى هذه الشكوى محلقة فوق رأس الرجل الذى اختاروه لمرش مصر ، فأرغم على الزواج منها ، وأتخذ بيرم من هذه الأشاعة موضوعاً لزجلين قال فيهما :

البنت ماشية من زمان تتمخط والغفلة زارع في الديوان قرع أخضر ياراكب الفيتون وقلبك حامى أسبق على القبة وطير قدامى تلقي العروسة محمل شامى وجوزها يشبه في الشوارب عنبتر وحط زهر الفل فوتها وفوقك وهات لها الشبشب يكون على ذوقك ونزل النونو القيديم من طوقك يطلع في طوعيك لا الولد يتكبر العطفة من قبيل الفرح مدبوحيه والوزه من قبل الفرح مدبوحيه

وقال في الزجل الثاني .

الباميه في البستان تهـز القرون وجنبها القرع الملوكي اللطيف شوف الميران حصل ولاد البطون والديدبان يرمح يجيب الرغيف ودخـــل الأغراب فاميلية على

یا با دیشاه وأنت ابنك ظهر ربك یبارك فی عمر الفلام نزل یلملط تحت برج القمر یا خساره بسالشهر کان مشتمام (م • – عصر ورجال) وقد تناقلت الألسن هذه الأزجال ، ورددتها على طريقة تناقل الأقوال المنوعة ، في عهود الثورات والساعات الحرجة في حياة الأمم .

فقبضت السلطات على «بيرم»، ولما كان غير متمتع بالجنسية المصرية، لكونه من التونسيين المشمولين بالحماية الفرنسية، فقد أضطرت إلى ترحيله من مصر، فلجأ إلى فرنساء وقضى وقتاً من أسوأ ما مربه في حياته، عانى فيه الجوع و البرد، و التشرد و المرض، و للجاء سعد إلى باريس على رأس الوفد، لجأ إليه ليعينه، فأقفل سعد بابه فى وجه، خوفاً من أن يصل إلى السلطان فؤاد أن الوفد مديده إلى بيرم، وبعد سنين طويلة، وبعد أن مات السلطان فؤاد استطاع بيرم أن يعود إلى بلاده، وأن يتبوأ فيها أمارة النن الشعبى، وفن المقامات الأدبية الشعبية، والأدوار الننائب سبوأ فيها أمارة النن الشعبى، وفن المقامات الأدبية الشعبية، والأدوار الننائب والطقاطيق. وقد جرت ألفاظه و عبارته على الألسن، جميلة المعنى، رشية المبنى، مناظر الشعر التقليدى فى أروع وأعلى مراتبه.

ومن معالم الحياة الأدبية أيضا — في فترة ما بين الثورتين — مقالات فكرى أباظة السياسة التي كان يكتبها في جريدة الأهرام ، ويوقعها بامضاه « فكرى أباظة المحامى » فقد كانت بلا شك شيئاً جديداً في الصحافة السياسية . إذ كانت مقالات سريعة خفيفة ، تملؤها عسلامات الاستعجاب والإستفهام ، وتفصل بين كل جملة والأخرى فيها ، نقط عديدة . ولكن هذه العلامات والنقط أضفت على هسذه المقالات طابعا خاصاً بها ، جملت القراء يقبلون على مطالعتها ، وقد حوت من النقد السياسي الخفيف ، والمتحرر من النبعة يقبلون على مطالعتها ، وقد حوت من النقد السياسي الخفيف ، والمتحرر من النبعة للحزبين الكبيرين : الوفد والأحرار الدستوريين . وبفضل الشهرة التي كبها فكرى من هذه المقالات ، استطاع أن يكون مذيعا منتظا في الإذاعة وكان هذه الأحاديث بما أحتوته من نقد إجتماعي لونا جديدا في أحاديث الإذاعة .

صورة هذه الحقبة لا تكمل أيضا إلا بذكر ( محمد مصطنى حمام ) فقد لمب درراً فريدا في السياسة والأدب. فقد كان إنسانا موهوبا ، حسن الأسلوب يقرض الشمرويرويه، وتمتلى ، جمبته بالنو ادروالفكاهات، وينتقل بين الندوات وأهم الأدوار التي عرفت عنه ، أو نسبت إليه ، إنه كان يؤلف الخطاب لأحد كبار زعاء ذلك العهد ، ثم لا يدع لا فرصة من الفرص تمر ، حتى يثخن هذا الزعيم ذاته ، بالنقد اللاذع أو الجارح ، مقلدا إياه في خطبه ، وفي مفارقاته الفريبة ، تقليداً مضحكا . وقد كان (حمام) موهبة مبددة ، لو توفر على عمسل أدبى متصل في الصحافة أو التأليف ، لترك أثر المحموداً ، ولكن شاءت له شخصيته القلقة ، أن يكون أديباً متجولا ، وأن يضحك من الحياة ، ويتحمل شظفها أحيانا كثيرة .

وفى أخريات أيامه سافر إلى البكويت واشتفل باذاعتها ، وقد توفى وهو يعمل بها فى سنة ١٩٦٤

\* \* \*

وكانت المحاماة ، جزء هاما في حياتنا الأدبية . كان الكتاب يحتبون المقالات ، فلا تلبث حتى تصبح موضوعاً لقضية ، فتتسلمها أيدى المحامين ، ثم يتناولونها ببيانهم يترافعون في الجلسة ويكتبون المذكرات ويستخرجون منها أكثر مما أودعه فيها كتابها من معنى ثم يضفون عليها، بأسلوبهم البراق ، وعبارتهم الوهاجة ، وأصواتهم الرنانة ، وإشاراتهم الرشيقة الأخاذه ، قيمة وطرافه .

والحق أن هذا العهد ، الذى نؤرخ له ، عرف عدداً كبيراً من المحامين الذين ارتفع بيانهم إلى درجات رفيعة ، والذين تسلحوا لمهنتهم من الثقافة والإطلاع والدراسات الأدبية والفقهية ، بزاد واسع ، وعدة عظيمة .

ولم نكن ندرى هل القانونيون هم الذين صنعوا الحياة الأدبية وقادوها أم الأدباء هم الذين صنعوا الحياة القانونية وأغنوها، فقد أوشك الأدباء أن يكونوا من القانونيين، أو أوشك القانونيون أن يكونوا من أدباء الصدر.

كان محد حسين هيكل طالبقانون في فرنسا ، منح أجازة — الدكتوراه من كلية الحقوق في باريس ، واشتغل محامياً عشر سنوات متصلة في المنصورة ، وكان لطني السيد من قبل وكيلا للنيابة ومحامياً . وكان من الكتاب في مختلف فروع الثقافة والفكر ، ومؤلني الكتب ، من رجال القانون ، فمحمود عزى ، وأمين وعبدالرحن الرافعي وعبد القادر حمزة ومحمد لطفي جمعه ، ومحمد عبدالله عنان متم توفيق الحكيم في الجيل التالي كانوا جميعاً من رجال القانون ، إوذا عدنا أحمد ماهر من رجال الصحافة لاشتغاله بتحرير كوكب الشرق اليومية ما ، وكان زمنا ، جاز لنا أن نعده من القانونيين الذين اشتغلوا بالأدب السياسي . وكان الدكتور محمد مندور ، الذي فقدناه أخيراً ، أديباً ومحامياً في وقت واحمد .. وكان كتاب الحزب الوطني جميعاً من رجال القانون فاحمد وجدى ، وأحمد وفيق ، واسماعيل شيمي فضلا عن مصطفي كامل ومحمد فريد كلهم قانونيين .

ونحن نعتبر عبد العزيز البشرى ، والشيخ أحد أمين ، والشيخ الخضرى وأمين الخولى وعبد الوهاب عزام وكل الذين أسدوا إلى الأدب المصرى فى الفترة التى نتحدت عنها، من رجال القانون، وإن درسوا فى الأزهر أو القضاء الشرعى، فدراسة الشريعة الاسلامية ، هى دراسة قانونية ، وكتب القانون الإسلامية ، هى فى الذروة من الأدب : جزالة اسلوب ، ورقة عبارة ، وانجازا معجزا، وحرصاً على تطابق اللفظ مع المهنى ، ووزنا للتعابير بميز ان الذهب . ولذلك ما اتصل إحدمن الأزهريين بالحياة العامة ، وجرب قلمه فى مناقشة شئون الدنيا ، وما جريات الإحداث ، وإصناف إلى ثقافته الأزهرية شيئاً من الثقافة الحديثة ، ونهج فى الإحداث ، وإصناف إلى ثقافته الأزهرية شيئاً من الثقافة الحديثة ، ونهج فى

تنظيم تفكيره ، وتبويب بحثه ، على الأساليب الأدبية حتى تفجرت مواهبه ، وتدفقت آثاره .

أما المرافعات والأحكام البليغة والرصينة ، التي سجلت أحداث حياتنا في تلك الحقبة ، فأكثر من أن تعد ، وقد كان في مقدمة من نهضوا بهذا الجانب في حياتنا الأدبية بعد مصطفى كامل ومحد فريد القانو نيين، ولطنى السيد وطلعت حرب المحاميين، فابراهيم الهلباوى ، وأحد لطفى ومحمد على علوية ومصطفى الشوريجي ، وتوفيق دوس ، ووهيب دوس ، واحد وجدى ، ومرقب فهمى ، ولقد كانت قاعات المحاكم أثناء مرافعاتهم ندوات أدبية يتقاطر عليها الأدباء ، والصحفيون والجمهور يفترفون منها وينتشون .

وقد كان عبد المزيز فهمى ، وحامد فهمى وعبد الخالق ثروت من هؤلاء الذين سنوا اللا دب القضائى سننه ، فكانت أحكام عبد العزيز فهمى ، وحامد فهمى ، ومرافعات عبد الخالق ثروت ، شيئاً جديداً فى حياة اللغة العربية : قوموا لفة الأحكام ، وجملوها ، فى رصانة ووقار ، جعل أدبنا القانونى ، قادرا على الإستقلال بنفسه ، عن مصادر القانون التى كانت أجنبية صرفه .

وقد كان الفقيه أحمد أمين ، صديقاً لسميه الأديب احمد أمين ، وكانا يدرسان سويا كتاب الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك ، ويطبقان مافى الكتاب على الآثار التي يشرحها ، ويسرد تاريخها ، ويروى ماطرأ عليها على مر الزمان من تغييرات فذلك لأن الاديب والفقيه كانا شاعرين بالإنسجام والألف، من تغييرات فذلك لأن الاديب والفقيه كانا شاعرين بالإنسجام والألف، لأنهما في واقع الأمر ينتسبان إلى فرع واحد هو من فروع الثقافة والنشاط الذهني الإنساني فالأدب والقانون شقيقان توأمان ، وسيلتهما التعبير وميدانهما النفس الإنسانية في مختلف علاقاتها .

ولذلك ليس غريباأن يدرس شوقى القانون في فرنسا ، وأن يشتغل حافظ

ابراهيم بالمعاماة حيناً في صدر شبابه ، فالثقافة القانونية التي صاحبت الإنسان من فجر حياته ، زاملت الأدب والفن ، في هذه المصاحبة ، فراح برتقي درجات حضارته ، درجة بعد درجة ، وحضارة بعد حضارة ، وهو بعتمد بأحدى ذراعيه على الأدب ، وبالثانية على القانون . وإذا كان الأدب والقانون توأمين ، فإن القانون والسياسة ، توأمان كذلك ، ولهذا كان المحامون ورجال القانون ، ينتقلون من أحدهما إلى الآخر ، بلا كلفة أو عناه ، بل كانا أحيانا عارسان القانون والسياسة في وقت واحد ، وكأ بما يمارسان شيئاً واحداً .

والأمثلة على ذلك في الفترة التي نتحدث عنها كثيرة ، فقد كان سعد زغلول ، يشتغل بالسياسة والقانون ، وهو على رأس الشورة المصرية ، حتى توفاه الله ، ويؤكد الذين يعرفون دخائل حياته ، أنه كان يعد المرافعة للمحامين في قضية نصيريه ماهر والنقراشي ، وكانت معارك مكرم عبيد السياسية ، الكبرى في ساحات المحاكم ، أكثر منها على منابر الإجتماعات السياسية ، وقد كان سجعه الذي أطرب انصار الوفد زمناً طويلا يزين مرافعاته ، ويزخرفها كا نربن خطبة ويزخرفها .

وقد كانت هذه المرافعات والخطب اللسجوعة ، ظاهرة أدبية في حياتنا في فترة مابين الثورتين ، فقد كان سر إعباب المعجبين الأكبر به ، قدرته في اللعب بعواطف قرائه وسامعيه بهذا السجع الذي كان في الغالب ، خفيفًا على السمع ، كأنه خال من التكلف والاصطناع .

وقد كان من خطباء هذا العمهد من رجال القانون المتأدبين حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى الذى ألف فى أخريات حياته كتأبا عنوانه « أبو الهول قال لى »

وقد كان حافظ رمضان من أبلغ خطبائنا ، وأجملهم إشارة ، وأوسمهم

علماً بتاریخ مصر السیاسی الحدیث ، وأحلام سمتا علی منصة الخطابة ، وكانت عبارته فوق رصانتها ، سهلة ، ومقنمة وممتمة.

ومادمنا قد ذكرنا الخطباء، باعتبار الخطابة سمة من سمات الحياة الأدبية في كل عهد فنحن لايمكن أن نغفل خطيباً من خطباء الثورة ، لم في سماتها لمع الشهاب، وكان خليقا بان تستفيض شهرته، بعد أن انتهت الثورة، وخدت جذوتها ، إن لم يكن في ميدان السياسة ، فني ميدان المحاماه ، ذلك هو محمد شكرى كيرشاه ، فقــدكان يتفجر ، ويندفع في خطبــه ، اندفاع السيل العرم ، لا تكاد تلاحقه الآذان ، وإن كانت النفوس ، مشدودة اليه، والعيون مسلطة عليه ، والأيدى والأذرع متصلبة متشنجة من فرط التأثر به . وهو مع سرعة ارتجاله ، وحضور بديهته ، ينتقى الفاظه ، فتأتى عالية ، وأحيانا غير مألوفة ولكنه لم يكن بالخطيب الذي يؤثر بلفظ فيجملة ، ولا بجملة في السياق، ولكن بالخطبة كلها ، ومحرارة عاطفته ، وصدق إيمانه بما يقول ، فكان أشبه بالعاصفة ، فمسكان خطيب ثورة سنة ١٩١٩ ، خطيب جماهيرها والمحرض لها، والمؤجج لنيرانها، على منبر الأزهر بخاصة، وعلىمنابرالمساجدوالكنائس بمامة محجوزاله ، غير مدافع ولا منازع ، وإن كان بعض معاصريه ، يؤثرون عليه الأستاذ إبراهيم عبد الهادي الذي ولى الوزارة ثم رأسها سنة ١٩٥٠ . وقد زامل شكرى على منبر الثورة - أثنان هم الأب سرجيوس والشيخ مصطنى القاياتي ويأتي بعد هؤلاء الشيخ محمود أبو العيون.

\* \* \*

فى الجانب الشرق من القاهرة ، قريبا من الأزهر ، حيث نشأت قاهرة المعز لدين الله ، وجوهر الصقلى ، كانت تعقد ندوات ، لا تبدأ عادة إلا بعد العشاء ، وتستمر حتى الفجر . تلك هى سهرات سيدنا الحسين ، حيث يشرب الناس الشاى الأخضر المغربى . وتدور الشيشة بالتمباك الحى ، على رواد قهوة

النيشاوى . وقد تناول هؤلاء عشاءهم قبل السهرة عند الدهان أو العجائى ، من الكباب والنيفة والطرب والكفته ، مع أطباق السلطات الخضراء ، وسلطات اللبن الزبادى والطحينة ، ثم يشربون منها وبعدها أكوابا كثيرة من الماء المثلج فى الصيف حيث تعقد عادة هذه الندوات ، ثم يتجشأون بأصوات مسموعة ، فتفوح رائحة اللحم المشوى، والمشهيات الحريفه ، ثم يبدأون هزلا متصلا إلى هذا الحى يتقاطر الأدباء الكبار والصفار ، ولا يتعبون من سماع النوادر ، وتبادل المداعبات الخفيفة والثقيلة ، وإقامة الحفلات المزلية ، للعبث من بعض الشخصيات التي يعج بها هذا الحى ، من أدعياء الأدب ، وأنصاف من بعض الشخصيات التي يعج بها هذا الحى ، من أدعياء الأدب ، وأنصاف البلهاء ، والمشعوذين ، والدجالين ومرضى العقول ، ومدعى المرض ، والمصابين بأوهام العظمة ، والمتصوفين حقاً ، والمتجرين بالتصوف ، وطالبي اللذة الجسدية الصارخة ، شاذة وطبيعية ، وطالبي اللذة الروحية ، وطالبي اللذتين معا ، في جو بعيد عن القاهرة التي أسلمت نفسها لحضارة الغرب ، وفها المعارى ، ومقاهيها التي يديرها أخواننا — الوافدون من الشاطيء الآخر لبحر الروم .

إلى هذا الحى كان بأتى شوق ، وحافظ ، والبشرى ، كا كان يهيش عبد الحيد الديب ، وعشرات من الشعراء والمتشاعرين ، والصحفيين والفنانين بلهمهم جو هذا الحى المتشبث بأهداب الماضى ، والمعتز بالأزهر ومقام الحسين ، والمتحدى لسير الزمن ، وكأن الزمن صديق خان الصداقة ، فترك حى الحسين ، وراح يمتع عينيه ، ويشبع حواسه من حضارة الغرب ، وطرائف حياتها ، زاهدا في أسلوب حياة المصريين في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، معتبراً هذا الأسلوب ، من ألفه إلى بائه ، أثراً قد يزين متحفا ، ولكنه لا يصلح للذين يدفعهم الزمن بكلتا يديه ، وأحيانا بكلتا رجليه ، وقد نفد صبره .

ولم يبق في ذاكرتي من شخصيات هذا الحي ، إلا رجل كان يسمى

الدكتور على المنزلاوى رأيته يوماً مهزوز الأعصاب ، يرتدى بذلة لا قديمة ولاجديدة ، وينظر بعيون واسعة ، نظرات ثابتة ، ولست أذكر ما إذا كان هذا البطل ، قد أسبغ على نفسه لقب الدكتور في الطب أو في الفلسفة ، ولكن الذي أذكره أنه أشبع هواية السخرية في النفوس شياطين حي الحسين ، وأشيائه هواة العبث ، فلكم أقاموا له حفلات تكريم ، وألقوا فيها خطباً وقصائد وأزجالا ، ووزعوا فيها المشروبات ، ووقفت لجنة التكريم على باب القهوة ، تستقبل المدعويين وتجلسهم في أماكنهم . وقد كان في هؤلاء المدعويين بعض رجال الأدب من ذوى المقام جاءوا ليرفهوا عن أنفسهم ، ويضحكوا ما استطاعوا إلى الضحك سبيلا والدكتور المنزلاوي ، فرح بالحفلة ، وبالخطب بالقصائد ، عاجزا عن أن يفهم ما فيها من عبث عنيف ، وتشبيهات وبالخطب بالقصائد ، عاجزا عن أن يفهم ما فيها من عبث عنيف ، وتشبيهات مهينه ، وأوصاف مقلوبة . فلما آذنت الحفلة بالانتهاء وقف هو آخر الحفلة يخطب، جاداً ، متأثراً ، والمحتفلون به ، والمدعوون يكادون يقعون على الأرض أعياء من فرط الضحك .

وهل يمكن أن نتحدث عن حياتنا الأدبية دون أن نقف أمام الجامعة ودورها في تلك الحياة ؟

لقد كانت الجامعة أملا من آمال المصريين ، ولما أراد المصريون الإحتفال بتكريم مصطفى كامل بمناسبة عودته من أوروبا بعد حملة صحفية وسياسية ناجحة ، أشار على القائمين على الإحتفال بأن يوجهوا المال الذي جمعوه لهذا الغرض إلى مشروع إنشاء الجامعة وكانت تسمى وقتذاك بالكلية .

وقد بقيت هذه الجامعة خيالا محبباً إلى المصريين ، وشبحاً مخيفاً للانجليز ، حتى أن كرومر رأى أن خير وسيلة للقضاء عليه هو الترويج للمشروع الذى عرف بمشروع الكتاتيب ، وقامت على أثر ذلك مناقشة طويلة وعقيمة حول أى التعليمين أحوج إليه مصر: أهو التعليم الجامعي ، أم التعليم الأولى . وبذل

فى تلك المناقشة جهد كبير ، وأريق حبر كثير ، مع أن المناظرة بيسها أشبه شى، بالمناظرة بين الخبز والماء مثلا ، وأيهما أهم كأن أحدهما يتمارض مع الثانى ، أو كان أحدهما يغنى عن الآخر .

ثم نشأت الجامعة الأهلية ، وكانت بلا جدال تجربة ناجعة ، وتوطئة اللحياة الجامعية الشمرة ، ثم احتضنت الحكومة الجامعة ، ونزل مجلس إدارة الجامعة الأهلية ، للحكومة عما بتى من هذه الجامعة من مقومات وعناصر ذمة ، ثم بنيت هذه المبانى الانيقة لكليات الحقوق والآداب فى الجيزة ، وابتدأ الطلاب يفدون إلى قاعاتها ، وهم يكادون يقفزون فرحاً بأنهم وصلوا إلى هذه الرحلة الجيلة من مراحل التعليم : مرحلة التعليم الذى يتحرر فيه الطالب من التبعية للدرس والإعماد عليه ، والذى يخرج فيه الطالب عن تحصيل الما من كتاب بعينه أو بطريقة محددة — إلى البحث فى كل مرجع يطوله ، والإعماد على النفس فى التحصيل ، وإتخاذ الأستاذ مرشداً ومعيناً ، ثم أخاكبيراً وصديقاً : لا يرهبه ، بل محبه . كانت هذه الصور الأخاذه ترد على خاطرنا ومحن تخطو درجات سلم الكلية ، ثم ونحن مدخل إلى مدرجاتها الأنيقة الفسيعة ومحن تعطو درجات سلم الكلية ، ثم ونحن مدخل إلى مدرجاتها الأنيقة الفسيعة من بعيد كفيلا بأن يبعث فى أوصالنا رعدة خفيفة ، هى رعدة السرور من بعيد كفيلا بأن يبعث فى أوصالنا رعدة خفيفة ، هى رعدة السرور والتعللع معاً .

لم يكن هناك من يراقب حضورنا وإنصرافنا أول الأمر ، وكنا نشعر بالحرية في حضور المحاضرات ، أو في الإنصراف عنها ، ولكن ألزمنا بعد ذلك بأن نوقع على دفاتر للحضور توضع على أبواب المدرجات كا كان ينادى على أسمائنا في الأقسام التي كنا نتوزع عليها ، حتى يتاح للمدرسين الشبان أن يتعلوا بنا ، وأن يراجعوا معنا المحاضرات ، ويجروا لنا الامتحانات ، ومع

ذلك كان في إمكاننا أن نوقع على دفتر الحضور ولا ندخل المحاضرة ، بل كان في الإمكان أن يتفق الواحد منا مع زميل له أن يوقع أمام إسمه نيابة عنه ، وكان يمكن أن يجيب طالب إذا نودى على اسم زميله إذا أراد مساعدته أو إذا طلبت منه هده المساعدة وأذكر أنى وددت أن أسحب بعض طلبة كلية الطب فى زيارتهم لمستشفى الأمراض العقلية ، بدافع الفضول ، فتقدم إلى بومها طالب ورجانى أن أنتحل أسمه عندما ينادى عليه الأستاذ ، ولكن السيارة التي كانت ستنقل هذا الفريق من الطلبة إلى المستشفى تعطات وأعفيت من هذا التربيف المألوف بين الزملاء .

ومع ذلك فقد بقى لنا قدر غير قليل من الحرية فقد كانت الدراسة نصف يوم ، وكانت تقع أحيانا في المساء ، وكان عدد المحاضرات في بعض الأيام يقل حتى لا يتجاوز أثنتين . فالفراغ الطويل كان أمامنا ، لو أردنا أن نملاً. بالعمل الفيد. ولكنا لم نجد من يقودنا إلى المكتبة ، وكان النشاط الأدبي والفني ضعيفاً ، وكانت الرياضة البدنية ، أوفر حظاً من غيرها من وجوه النشاط ولكنها مع ذلك بقيت هواية عدد قليل جداً من الطلاب ، وكانت الصلة بين الأساتذة والطلبة ضعيفة ، ولكنها لم تكن معدومة ، وقد استطاع بعض الأساتذة أن يصطنعوا لهم تلاميذ ، يقربونهم ويخصونهم بالرعاية ، ويفتحون لمم الأبواب. وإنى لأذكر أن الدكتور عبد الرزاق السنهورى كان واحداً من هؤلاء ، فقد ألفت زيارته في بيته ، وكان أستاذي حلمي بهجت بدوی و محمد مصطفی القالی صدیقین ، وربما یسر علیهم الإتصال بنا ، والتودد الينا ، أن فارق السن كان غير كبير ، فقد كانا من النابهين الذين أتموا تعليمهم مبكرين، وحصلو على أجازة الدكتوراه من فرنسا، قبل بلوغ الثلاثين، وقد ذادت صلتنا مع الأيام بالاستاذين المرحوم محمــد حامد فهمى وعبد الحكيم الرفاعي . وكم كنت سميداً إذ جمعتنى الظروف بالعمل مع أكثرهم فزدت منهم قربا ، وزادوا في نفسي قدرا. ولكن ماذا فعلت الجامعة ، هل حققت للبلاد أكثر مما حققت مدرمة المعقوق ومدرسة المعلمين العليا قبل نشوء الجامعة ؟ هل تجاوزت الجامعة السوارها ، وخرجت إلى الناس ، تقرب السيهم العلم ، وتحب لمم المعرفة ،وتحرك في رءوسهم خواطر جديدة ، وتدفهم إلى مناهج في المياة غير مطروقة ؟ هل ولد البحث الحر في قاعاتها ، وهسل فتحت أبوان ونوافذ الفكر الأجنبي ، فعرف الناس مالم يعرفوا ، وفكروا فيا لم بألغوا التفكير فيه ؟

## أنى أوثر الصمت .

, قد لا تكون الجامعة مسئولة عن القصور أو العيب الذي شاب نشاطها فقدكان في مصر الاحتلال ونكبت الجامعة وخصوصاً كلية الآداب بالمراع يين الدول المتكالبة على خلق مناطق نفوذ أدبى وسياسي في الشرق كله ، عامة والشرق المربى خاصة • فقد كان هناك الإنجلىز والفرنسيون وكان هناك أحيانا البلجيكيون والطليان . وكان على رأس كل قسم أستاذ أجنبي يحاول أن بملا. بأبناء جلدته ، وأهل عشيرته . وقد حدثنا في ذلك أحمد أمين كما سنرى حبًّا نعرض لحياته في أحد الفصول القادمة من هذا الكتاب . ولا شك أن بعض هؤلاء الأساتذة كانوا من الكبار ذوى المقام غير المنكور ، ولكن بعضهم الآخر كان ممن لايحملون إلا لقب البكالوريوس أو الليسانس من جامعامهم وممن لم يسهموا في العلم أو الأدب بشيء عظيم ٠٠ ومع ذلك فان استقدام كبار الأساتذة إلى الجامعة لم يكن إلا من قبيل مباهاة « محدث النعمة » من ج « والمصابين بمركب النقص » من جهة أخرى · فالفرح بأننا استقدمنا للجامعة الاستاذ الكبير. لامعنى له إلا إذا كان أولادنا قادرين على الافادة من " والتأثر بد ٠٠ وأولادنا لايصلحون للأخذ من الاساتذة الكبار الاجانب إلا إذا أتقنوا لفتهم. والجامعة لم تبذل جهداً خاصاً فى تلقين تلاميذها فى السنين الأولى اللغات الأجنبية التى سيتلقون بها محاضرات هؤلاء الأساتذة الكبار ولذلك كان وجود بعض هؤلاء الأساتذة الأجانب الكبار عبثاً مالياً على الدولة ، دون نفع كبير منه للعلم والثقافة فى بلادنا.

وإذا كان الاحتلال قد جعل الجامعة ميداناً للصراع بين الأساتذة الأجانب وكان قد حدد الدول التي يمكن لنا أن نستقدم منها الأساتذة ، فإن الأحزاب جعلت الجامعة ، ميداناً للعب الكرة الشراب . أى ميداناً للعبة لاضوابط لها ، ولا قواعد ، تجرى فى أى وقت ، وفى أية حارة ، مع صراخ شديد ، وتلويح بالأبدى ، وتراشق بالحجارة . دخلت السياسة الحزبية الوضيعة الجامعة ، فأفسدتها وأتلفت قيمها ، وأصبح بعض الأساتذة ، مشغولا عن للتدريس والأستاذية ، والتأليف ، واصطناع التلاميذ ، بالجرى فى أعقاب الزعماء والمتزعين، والمرشحين والتأليف ، والدعوة للأحزاب ، والتمسح فى أعتابها . ولست أنسى ليلة رأيت فيها أستاذاً بكاية الآداب عند محمد محمود باشارئيس الوززاه ، جاء فى صحبة تلميذ من تلاميذه ، المشتغلين بالسياسة ، ليقدم كتاباً . ويقتضيني الإنصاف أن أذ كر أن محمد بم الأثيارة ، ولعله خجل من وجودى الذى لم يكن عسوباً حسابه ، فقد ظهر على الاشمئز از والتقزز من هذا الهبوط الذى لا يمكن السكوت عليه ، أو التجاوز عنه .

وقد كان من الشائع أن يكون الأستاذ محسوباً على تلميذ من التلاميذ المشتغلين بالسياسة الحزبية وهم فى الأغلب من أسوأ التلاميذ أخلاقاً ، ومن أضعفهم مادة ، ومن أقلهم صبراً على التعليم . كاكان شائعاً أن يهجر الأساتذة الجامعة بحثاً عن وظيفة إدارية ، كوظيفة فى وزارة الداخلية ، أو وظيفة فى القضاء ، أو فى السلك السياسى ، لأن فى شغل الوظيفة الجديدة ، زيادة بضعة جنيهات فى للرتب ، أو ممارسة السلطة ، أو كسباً للوجاهة ، أو قرباً من الزعيم : أقفرت

الجامعة ، فقد شغرت صفوف الأساتذة ، صفاً بعد صف ، فلم يبق من الأساتذة القدامى إلا أقل القليل ، فوصل إلى كراسى الأستاذية ، الأحدث سنا ، والأقل تجربة . مع أن الجامعة هي حصن الأمة الحصين ، ومعينها العلمي والروحي الذي إن نضب ، أجدبت حياتها ، وهبطت روحها ، وسسسدت سبل الخير أمامها .

وقد انمكس هذا كله على إنتاج ونشاط الأسانذه ، فقل أن نجد لواحد منهم كتابا غير المذكرات التى يلقيها على الطلبة فى المنهج القرر . ومو كتاب واحد أو كتابان لاثالث لهما ، وعليهما يعيش ، مكتفيا باللقب العلمى ، وبالوظيفة ، شاغلا نفسه بالبحث عن وظيفة أخرى خير منها .

وأساتذة هـذه حالهم لاتنتظر منهم أن ينظموا للناس سلاسل المحاضرات تتناول الشئون العامة للتصلة بفروع معرفتهم التى تخصصوا لها ، فقد تركت الجامعة هـذا الميدان ميدان تذليل المعرفة وتبسيطها ، وتقريبها إلى الناس، وتناول الشئون العامة الحارية ، من زاوية المعرفة الجامعيه وفى ظلها . تركوا هذا كله للجامعة الأمريكية ، فقد ألفت أن تنظم سلاسل سنوية لمحاضرات تتناول موضوعا واحداً من زوايا مختلفة ، وتدعو إلى المحاضرة فيها أساتذة الجامعة ، وقد كانت هذا السلاسل ناجحة نجاحا عظيا وإن كان يعيبها أنها لانخوض إلا فعا لا يزعج الإنجليز و الأمر مكان .

إن الأزهر هوأبو الجامعات الحديثة، وقد كانت هيئة كبار العلماء فيه، بمثابته بنه الأساتذة في تلك الجامعات الحديثة ، وقد كان قانون هيئة كبار العلماء في الأزهر ينص على أن الأستاذ يبقى في الهيئة «ما دام في عقله» ، أي ما دام يعقل ويقلر على السكلام المفهوم ذلك لأن الأستاذ لا يقوم بمال ، ولا يستغنى عنه بغيره، ولو كان في مثل إجتهاده و كفايته ومقامه. فلكل أستاذ روحه و منهجه وطابعه و تلاميذه ، ولا ترال الحياة العلمية في بلادنا تضطرب و تتقهقر ، حتى ننقل عن الأزهر القديم الإيمان بعرف ترال الحياة العلمية في بلادنا تضطرب و تتقهقر ، حتى ننقل عن الأزهر القديم الإيمان بعرف

بأن لأستاذا لجامعة قدره، فلاننزع الأستاذ من الجامعة حتى ولا لمنصب الوزير أو المدير فتلك وظائف سياسية وإدارية ، ويمكن أن يقوم بها غير المتخصصين في المعرفة ويمكن للاستاذ أن يرشد ويوصى ويكتب التقارير ويلقى المحاضرات، دون أن يترك مكانه في الحامعة.

وإني أبعثها صبحة عالية ، أن أعيدوا أساتذة الجامعة إلى كراسيهم ومناصبهم ، وتوسعوا في الإفادة من الأساتذة الذين بلغوا سن المعاش ولا يزالون يتمتعون بالصحةوبالقدرة على الإنتاج، بنظام الأساتذة غير المتفرغين وأرفعوا مرتب الأستاذ حتى يصل إلى مرتب الوزير ، ونصوا في قانون الجامعة أنه لا يترك منصب الجامعة إلا و احد من إثنين مطرود منها لخطأ جسيم، أومريض لا يقوى على العمل ، وكلاهما لا يسمح له بالعمل في منصب حكومي آخر ، سداً لباب التأويل والاجتهاد ، — الذي سيلجه أصحاب الأغراض ، فينقلون أستاذ الجامعة إلى الوظيفة الإدارية بدعوى أن صحته لا تسمح له بالعمل في الجامعة تحايلاعلى القانون. لقدأخر جتمدرسة الملين العليا، ومدرسة الحقوق، ومدرسة القضاء الشرعى والأزهر ودار العلوم، للبلاد قبل الجامعة المازني، وعبد الرحمن شكري ، وأحمد أمين أمين ، من الأدباء كما أخرجت لنا سليم حسن وشفيق غربال ، وشفيق جبره من المورخين والأثريين ومحمد فريد وأحمد لطني وعبدالحميد أبو هيف وأحمد أمين، وأمين الرافعي ، وحافظ رمضان ومحمــــــــد حسين هيكل ، ولطني السيد وعبدالعزيز فهيى وعبد الخالق ثروت وأحمدوجدي ومرقس فهيى الفقهاء والساسه والشرعين والحجامين فهل أخرجت لنا الجامعة مثلهم، أو عدداً يقارب عددهم أوثر الصمت للمرة الثانية

ولكنى استطيعأن أقول إن مكان الجامعة ، لا يز الشاغراً ، ولا يز ال الأمل الذى عقد عليها ، معلقاً في حاجة إلى من ينهض بتحقيقه ، فهل يكون غد الجامعة خيراً من أمسها ؟ نرجــــــو . .

وإذا فرغنا من الحديث عن الجامعة ، رأينا أنفسنا أمام الحسديث عن الإذاعه ، فقد كانت الإذاعة التي بدأت حياتها في مصر في السنين الأولى من العقد الثالث ( ١٩٣٠ وما بعدها ) عاملا من أقوى العوامل الثقافية في حياتها ، تعلو على الصحافة ، أو على الأقل تنافسها ، في الخير والشر معا .

## فماذا فعلت في حياتنا هذه الإذاعة ؟

بدأت الإذاعة أهلية ، وتركت فترة غير قصيرة في يد محطات بدرها أشخاص هدفهم جميعاً الربح والتجارة . وكانت محطات ضعيفة لا تتجاوز قدرة إرسالها نطاق القاهرة . وكانت يرامجها بطبيعة الحال ، ضعيفة كذلك ، اعتمدت في الأكثر الأعم ، على الإسطوانات التي سجلت عليها أغاني المطربين والمطربين والمطربات وبعض الأحاديث ، ثم تلاوة من القرآن ، ولم يكن مكنا السكوت على هذه الحال ، ولكن البديل كان أسوأ ، فقد انتقل مرفق الإذاعة إلى شركة ماركوني البريطانية ، فيرجت من حياة مصر القومية ، تماماكما لابد أن تخرج الصحافة أو التعليم من هــــذه الحياة ، حينما تخضع للنفوذ البريطاني . أصبحت الإذاعة الحكومية ، أكثر نظاما ، وأكثر قوة، وزادت ساعات الإرسال، وتحدث إلى المستمعين، خطباء أكبر شأنا، ولكن بقيت مرفق بلا روح ، أبعد الأشياء عن الشئون الجارية ، وعن مشكلات الأمة ، وعن التفكير في تطور فنون البلد المحلية ، أو استلهام تاريخها ، أو الاهمام بالطبقات الصغيرة فيهما. وقد كان ملحوظا في الموظفين الذين يوكل إليهم العمل في الإذاعة ، أن يسكونوا من خريجي قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب وإن أثبت العمل أن الكثير من هؤلاء كانوا من خصوم السياسة الانجليزية.

ولكن لعل ضعف الإذاعة في فسترة الادارة الإنجليزية ، مما خفف من

أضرارها فالإذاعة بحكم كونها أداة اتصال بالجماهير ، ميالة إلى ترضى نزعات هذه الجماهير . والجماهير في كل زمان ومكان ، أميل إلى العام دون الخاص ، والسهل دون الصعب ، والسطحى دون العميق ، والقريب دون البعيد ، والخفيف دون النفيس . فلو استسلمت الإذاعة لهذه الميول وسايرتها ، تحولت إلى جهاز مدم ، يشيع السوقية والتفاهة ، ويؤكد الانحطاط والابتذال ، ويموق التقدم والتساى ، ويكره العمل المتقن ، والجهد العالى ، وقد كانت الإذاعة المصرية في العهد المال كونى ، أضعف من أن تكون قوة تأثير عيقة على الجماهير ، فبقيت توة محدودة الأثر ، لا تنفع إلا قليلا ، ولا تضر إلا قليلا ، حتى إذا قامت الحرب العالمية الثانية ، عبئت للدعاية للجهد الحربي البريطاني ، فلما انتهت الحرب وخرجت الإذاعة من السيطرة البريطانية المباشرة ، بقيت إدارة دعاية للملك ، وللحزب المالمة عن السيطرة البريطانية المباشرة ، بقيت إدارة دعاية للملك ، وللحزب المالم ، بعيدة عن التيارات الجديدة في الوطن ، لا تمد يدها للفن المصرى ، ولا شخص ولا جهاز .

\* \* \*

ماذا فعل هذا العصر ، وماذا فعله رجاله ؟ ماذا يساوى هذا العصر ، هل ذهب وكله أخطاء وآثام وعجز وحيرة ، أم كان له ولرجاله فضل لا ينكر ، ومقام لانجعد .

لا شك فى أن هذا العصركان حصيلة العصور التى سبقته فى الرجال وفى التجارب، فقد مات أبطال العصر السابق عليه، أو اختفوا قبل الأوان.

مات مصطفى كامل شابا فى نحو الثانية والثلاثين من عمره ، بينما امتد عمر زملائه ومعاصريه إلىماقبل الثورة بقليـــــل بلمنهم من شهدها وعاش معها سنين .

ومات الشيخ على يوسف دون الستين ، كما مات من قبل عبد الله النديم بعيدا عن وطنه ، في استانبول .

ومات الشيح محمد عبده فى سنة ١٩٠٥ وهو فى حلود الستين، وترادع فريد مصر فى سنة ١٩١٨، وهو بعد فى حدود الأربعين، ومات سنة ١٩١٨ وهو فى حدود الأربعين، ومات سنة ١٩١٨ وهو فى حدود الخمسين، وخرج الخديو عباس من مصر فى شبابه، لذلك كان شباب العصر السابق هم رجال العصر الذى نؤرخ له، ونتحدث عنه؛ ولكن فو سارت الأمور على غير ما سارت عليه، لكان من الممكن أن يبقى مصلى كامل وعلى وسف و محمد فريد وعبد الله النديم و محمد عبده على للسرح، ولحجبوا الصف الأول عن هيكل والعقاد والمازنى وباقى أساتذة العصر النانى.

\* \* \*

وقد كانت الأفكار التي أثيرت في فترة مابين الاحتلال والحرب العالم الأولى كلها معلقة لم يفصل فيها ولم ينته الرأى العام إلى رأى حاسم في شأنها : بقيت نظرية حزب الأمة الداعية إلى الثقة بالإنجليز ، والاعتماد عليهم في تنفيذ خطة إصلاح داخلية تعنى بالتعليم والصحة ، في ظل دستور يبسط يد المصريين في شئونهم الداخلية تناظرها نظرية الحزب الوطني التي تدعو إلى مكافحة الاحتلال البريطاني بكل وسيلة وسلاح ، المفكرون والعقلاء يؤمنون بالنظرية الأولى ويعملون لها ، والشعب في مجموعه ، وشبابه المثقفين على وجه خاص ، يكفرون بتلك النظرية وينتفضون غضباً على الداعين لها . ولكن المفكرين والعقلام مسحاب الصدارة في البلاد نوكل إليهم إدارة الحكم ، ويتولون توجيه الأمور ، وإذا تحدثوا إلى الشبان ، خلبوا ألبابهم ، بلطف أساليبهم ، وسعة إطلاعهم ، وما امتازوا به من رصانة واحترام للنفس .

ورث عصر ما بين الثورتين هاتين المدرستين ، وورث معهما من بقى من رجالهما ، ولذلك ازد حمت الساحة العامة بشخصيات كثيرة ، فرأبنا شوقى وحافظ ومطران إلى جانب محرم ونسيم ، إلى جانب العقاد وشكرى والمازن ، للى جانب الجارم ورامى .

ورأينا لطنى السيد إلى جانب المنفلوطى ، وهيكل ومنصورفهى ومصطنى عبد الرازق وأحمد أمين .

وقد حل هؤلا، جميعاً في أشخاصهم وعقولهم صفات العصر وساته. فهم متأرجعون بين التطرف وبين الاعتدال، وبين حب مصر، والإعجاب بالانجليز، بين الإيمان بالسياسة والعمل السياسي، والكفربهما والرغبة في البعد عنهما كانوا يحبون الاستقلال لأشخاصهم، وهو ما يقتضيهم شيئا من الحرمان، والزهد والتحرر من أصحاب السلطة وزعاء الأحزاب. ثم كانوا يحبون الحياة الهينة الرخية، وهوما أدى بمن اشتغل منهم بالشئون العامة إلى العمل للاحزاب أو في جرائدا لأحزاب، والخضوع لها، أو الفناء فيها.

كانوا يتوقون إلى أن يقولوا كلاماً عظيماً ، وأن يخوضوا ممارك كبيرة وأن يحقوا أحلاماً باهرة ، وكانوا فى الوقت نفسه محبين للراحة ، مؤثرين المافية ، يخافون الفقر والسجن ، والبعد عن الأهل.

كانت تساورهم أفكار ضخمة، لابد لتنفيذها وتحقيقها من سهر وانقطاع وجهد وتعب، وكانت الشهرة السهلة ، والعمل الصحفى ، والإنتاج الحفيف ، تغريهم بالربح السريع والإنتاج الصغير ، وتجميع المقالات ، والدراسات الجزئية والتنقل بين الأحزاب والأفكار والمذاهب والمدارس .

ومع ذلك كله ، لقد تركوا شيئًا له أثره وقيمته ، وقالوا كلامًا نافعًا ، وتعرضوا بين الحين والحين لبعض الأذى ، وأثاروا أحلامًا في النفوس ، وخواطر في العقول ، ومشاعر في القلوب ، وتحدثوا عن الحرية وعن الدستور ؛ وعن الأدب وعن الحياة ، وترجموا ، ولحصوا وعر فوا قدر ما استطاعوا بالأدب للأنجليزى والفرنسي والروسي والألماني ؛ ونقلوا إلى بلادنا ، وفي مجالنا الفكرى قضايا الأدب المعاصر عن الفن والأدب وصلتهما بالحياة ، ودورها في المجتمع ، قضايا الأدب المعاصر عن الفن والأدب وصلتهما بالحياة ، ودورها في المجتمع ،

وفتعوا نافذة لشبابنا يطل منها على مايجرى في العالم من معارك السياسة والفكر وكانوا بالجلة رواداً في فروع مختلفة من الثقافة لم يتخصصوا ، ولم ينقطعوا لفرع ، ولم يتضح لهم فلسفة ، و إنما بذروا هنا ولم يلتزموا منهجاً ، ولم يدعوا لمدرسة ، ولم تتضح لهم فلسفة ، و إنما بذروا هنا وهناك بذورا منها الصالح المثمر ومنها مالا يضر ولا ينفع ، وقد كانوا في أيامهم كل شيء في حياة أمنهم ، يكتبون في السياسة في الصحف ، في الأدب في الحجلات ويلقون المحاضرات في الأندية ، وتؤلف منهم اللحان ، ويؤخذ بعضهم في الوزارات ، ويرشحون للمجالس النيابية ويستشيرهم رجال الحكم والسياسة ، وينتقلون من المقال إلى الكتاب ، ومن الكتاب إلى تراجم الحياة ، ومنها إلى القصة أحياناً ، وإلى الرواية أحياناً أخرى و إن لم يستهوهم المسرح إلا قليلا .

لقد كانت آياديهم على الفكر المصرى خليقة أن يعظم أثرها وأن يكتب لما نصيب أكبر من الخلود لو أن نصيبهم من الشجاعة كان أكبر ، ولوكان إخلاصهم للفكرة أعمق ، ولوكانت نظرتهم إلى الحياة أشمل وأوسع . فقد تركوا جميع القضايا معلقة . بل لعلهم لم يقتربوا من قضية ما ، اقترابا كافياً، حتى المشكلات اللغوية لم يحسموها برأى : تحدثوا فعلا عن العامية والفصحى ، ولم ينتهوا إلى شيء ، فقد قنع الواحد منهم بالإشارة إلى المشكلة منة في الحياة أو مرتين ثم كأنه لم يثرها ، ولم يتحدث فيها .

تحدثوا عن علاقتنا بالعرب والجامعة العربية – وعن دور مصر السياسي والعالى، وعن موقفها من الفكر الإسلامي، السياسي، فلم يقولوا في هذا كله شيئا. وكان موقفهم جميعا مائعا من المذاهب الاقتصادية السياسية الجديدة، لم يقبلوها ولم يرفضوها، إذا استثنينا سلامة موسى الذي واظب على الدعوة إلى الإشتراكية والعقاد الذي انفجر غضبه وسخطه على الشيوعية قبل وناته بقليل.

ولازات أذكر محمود عزمى، والقبعة على رأسه ، فقد كان هذا المسلك منه تحفزاً للتجديد، وإعلاناً له ، ولكن عزمى خلع القبعة ، وعاد إلى الطربوش بعد شهور من هذه المحاولة ولم يفكر بعد ذلك قط فى القبعة ، فكان أشبه شى بموقف طه من نظرية أن الدكتب المقدسة ليست وثائق علمية لإثبات التاريخ وموقف على عبد الرازق من نظرية أن الحلافة ليست أصلا من أصول الحكم وموقف على عبد الرازق من نظرية أن الحلافة ليست أصلا من أصول الحكم الإسلامى ، قالوا بالنظريتين مرة كما لبس عنمى القبعة مرة ، وخلع عنهى القبعة إلى غير رجعه كما خلعا نظريتهما إلى غير رجعة . .

ولكنا لا نملك أنفسنا من توجيه التحية لهؤلاء الأساتذة ، ومن الإقرار لهم بالجميل ، والإعتراف لهم بالفضل ، فقد أعطونا أحسن ما عندهم ، فإذا كان ما عندهم مشوباً بالنقص ، فالهدية على مقدر مهديها ، وصاحب الهدية جدير بالشكر على أنه لم يبخل بشيء عنده ولم يدخر وسعا في التجويد والإتقان والبذل والعطاء .

وإذا كان الجيل الجديد قد تلقى عهم الرسالة ، فقد تلقاها مفتوح العينين ، مدركا تمام الإدراك ، ما تعثر فيه سلفه ، محيطا بنقص التركة التي ورثها ، عارفا لزاياها ، منتفعا بالأخطاء ، وقد كان للذين سبقوه أكثر من عذر يعتذرون به كان الاحتلال «جاثماً » على الصدور ، فارضاً ثقله على الحياتين السياسية والعقلية وكانت الملكية قائمة ، تسد أكثر من سبيل في وجوه المفكرين ، وكان دور بلادنا في الحياة الدولية لا يوحى بالطموح والتطلع إلى المساهمة الجدية في الحياة الفكرية الإنسانية ، وكانت دنيا العرب يسودها الاضطراب والجدب ، وتتوزعها الشكوك ، والحيرة ، فلم يستطع الأدباء والمفكرون ، أن يحددوا منهم موقفها ، فقد شاب العناصر الأصيلة ، شوائب دخيلة حجبت حقيقتها ، وأفسدت موقفها ، فقد شاب العناصر الأصيلة ، شوائب دخيلة حجبت حقيقتها ، وأفسدت موقفها ، فقد شاب العناصر الأصيلة ، شوائب دخيلة حجبت حقيقتها ، وأفسدت موقفها ، فقد شاب العناصر الأدباء والمفكرين ، تعظم رسالتهم ، أى تعظم الحاجة

إليهم ، كما اشتد الأمر بالبلاد ، وأحدقت بها النوائب ، وتكانفت أمام أبنائها الظلمات ، ولكن كتابنا نشأوا فى مدرسة عوقت جهاده ، وعكرت عليهم إيمانهم ، فخرج عملهم ، مشوباً بعيوب هذه المدرسة ومنهجها . ولم يعد لمذه المدرسة وجود ، بل لا يمكن أن يكون لها الآن وجود ، لذلك فالجيل الجمديد من مفكرينا يستطيعون أن يبدعوا وأن يكشفوا عن مزيد من الفضائل ، لم يوفق إلى الكشف عنها الذين سبقوه ، وأن يرفعوا مشعل الفكر ، إلى الكشف عنها الذين سبقوه ، وأن يرفعوا مشعل الفكر ، إلى الثر مما ارتفع ، وإلى أسمى مما وصل .

## *الفضِّ للأولُ* أحمد شوقی الشاعر

حيما ذهبت إلى قصر أحمد شوق ، أمير الشعراء ، المعروف « بكرمة ابن هاى » ، والواقع على شاطىء النيل الفرى بالجيزة ، لم أكن أصدق أننى سأقابل إنساناً بهذا الإسم ، فأحمد شوق ، أو شوق بك ، كان بالنسبة لنا ، معنى لا يتجسد ، وفكرة تحمل إسم إنسان ، ولكن لم يخطر على بالنا ، أنها يمكن أن تحل فى جسم آدمى ، نخاطبه و يخاطبنا ، و بجمعنا وإياه مكان واحد . وقد أعان على هذا الوهم و تثبيته ، أن الصحف فى تلك الأيام ، لم تكن تنشر صور الأدباء والمفكرين إلا قليلا ، ولم تكن تعنى بذكر أنباء حياتهم الخاصة .

خركرت وأنا أخطو في حديقة كرمة ابن هاني ، في ارتباك وخجل ، أن خالى أشار في ليلة من ليالي الشتاء إلى إنسان قصير يلبس معطفا ، ونحن بهم بالخروج من سيما (راديوم) التي كانت في المكان الذي يشغله مسرح الريحاني الآن وقال : «شوقي بك أمير الشعراء!». وحاولت أن أرى في نور الشارع الخافت ، أمير الشعراء هذا ، في كان كل ما استطعت أن ألمحه شبحاً يسير في خطوة بين الاتئاد والسرعة ، ثم انعطف إلى طريق جانبي ، ثم اختفى . فأسبغ هذا الجو كله على شخص شوقى بك ، غموضاً ، زاد الخيال المحيط به عندى ، جالا وشاعرية .

وراح خالى ليلتها يقول لى أن من عادة شوقى بك أن يشهد حفلات السيما في الصفوف الأولى ، وهي أرخص الأماكن ، لأن نظره لا يمينه على الرؤية من بعيد ، ولكن هذا الكلام لم يكن يحيل شوقى بك إلى واحد من الناس ،

ياً كل الطمام ويمشى فى الأسواق ، فقد كنت أسمع خالى وأنا لا أربط بين كلامه وبين أمير الشعراء .

كان شوقى بك بالنسبة لنا قصائد تنشر فى الصفحات الأولى من الصحف، ونصوصاً تكتب فى كتب المحفوظات المقررة علينا فى المدارس، وإعجابًا بألفاظه ومعانيه، بلا تحفظ ولا احتياط، كأن هذا الشاعر، لا يصدر عنه إلا السحر، ولا ينظم إلا أروع الشعر، وكأن نقده أو الاقتصاد فى إظهار التحمس له، لون من التحديف. ولم تكن كتب الأدب فى المدارس قد عرفت بعد، دراسة حياة الشعراء والكتاب، ووصف البيئة التى نشأوا فيها، وتحليل العوامل التى أثرت فيهم. فكان المتنبى وابو تمام وابو العلاء والبحترى، وكان المجاحظ وابن المقفع، و بديع الزمان والحريرى، مجرد أسماء كأنها أسماء المانى المجاحظ وابن المقفع، و بديع الزمان والحريرى، مجرد أسماء كأنها أسماء المانى المجاحظ وابن المقفع، و بديع الزمان والحريرى، مجرد أسماء كأنها أسماء المانى

وقد كان أول محث تحليلي ينشر لحياة شوقى ، هو البحث الذى قدم به الدكتور محمد حسين هيكل للجزء الأول من الشوقيات ، ومع ذلك فإن هذا الفصل خلا من اشارات واضحة إلى حياة شوقى ، يعين على تبين ملامحها ، فكانت من التعميم أشبه شىء بشعر شوقى نفسه .

كان كل ما أذكره من شئون شوقى الخاصة ، أنه حيما ولد ، كان يرفع نظره إلى السهاء أبدا ، ولا يستطيع أن يحول عينيه إلى أسفل ، لعلة فى عضلات العين أو أعصابها ، فلما دخلت به جارية إلى الخديو اسماعيل ، وسأل الخديو العجارية عن الطفل ، وسر رفع عينيه إلى أعلى ، ولم تحر الجارية جوابا ، أخرج من جيبه جنيهات ذهبية ، ونثرها على السجادة ، فخطف بريق الذهب عينى العلفل ، فأدارها عن سقف القاعة إلى أرضها وكنت أظن أن (هيكل)

قد أورد هذه الواقعه فى مقدمته ، ولكن حينما راجعتها وأنا أضع هذا الفصل ، لم يقع نظرى عليها فى تلك المقدمة .

وكان خصوم شوقى يقولون أنه منذ ولد ، وهو يبحث عن الذهب ، ويحول نظره إليه ، وأنه على طول حديثه عن الفقراء والعطف عليهم ، كان هواه مع الأغنياء ووقوفه مع الأقوياء ، وشعره بخوراً يحرق بين يدى أصحاب السلطه ، وذوى الجاه .

ويقال أن الخديو إسماعيل قال للجارية «كلما نظر الطفل إلى السماء ، انثرى له ذهبًا ، حتى يتمود النظر إلى الأرض . »

فقالت الحارية : هذا دواء يا مولاى لا يحرج إلا من صيدليتك .

\* \* \*

رحت أقطع طريقي إلى ( السلاملك ) الذي سيقابلني فيه شوقى ، وأنا لاأكاد ألتفت إلى شيء في الحديقة المتصلة بالنيل ، أو القريبة منه ، وأنا لا أدرى ماذا سأقول لشوقى ، وماذا سيقول لى ، وكيف سيلقانى . وكما اقتربت من الحجرة التي عرفت أنه ينتظرني فيها ، زاد اضطرابي ، ثم وجدت نفسى آخر الأمر أمام شوقى بك أمير الشعراء.

هل أستطيع أن أصدق جواسي وأنا بعد طالب في كلية الحقوق ، إني أرى بعيني صاحب هذا الإسم الضخم ، الذي يكاد يكون قطعة من تاريخنا العظيم ، يتحرك أمامي . نظرت إني الحجرة ، أو أجلت عيني فيها بسرعة ، فلم أر فيها شيئاً باهراً من الرياش أو الأثاث . فقد كانت وسطاً بين الاتساع والضيق ، وكان كل ما فيها من الأثاث عاديا ، ويخيل إلى الآن أن ما استوقف نظرى وقتذاك هو مجوعة من الكتب تناثرت هنا وهناك ، بعضها مفتوح ومنكفي ، وتتذاك هو مجوعة من الكتب تناثرت هنا وهناك ، بعضها مفتوح ومنكفي ،

وبعضها مفلق ، منها ما وضع اثنين اثنين وما وضع ثلاثة ثلاثة ، ومنها ما التي به في الأرض ، وما ترك فوق وسادة أريكة وهكذا . إذن شوقى يقرأ ، أو انه لا يزال يقرأ .

ورأيتني أمام إنسان ضئيل، قصير، مددت يدى نحوه، فمد يداً نحملة صغيرة مرتمدة ، كأنها يدطفل ، مضطرب ، وقد خيل إلى وقتهاأ نني لو ضغطت علمها لانكسرت ، وقد كنت آنذاك شابا نحيلا ضعيفاً . ولما سكن جأشي، ابتدأت أملا عيني من وجهه ، فكان أول ما وقع نظرى عايه هذه العيون التي كانت نظرتها مشدودة إلى أعلى دائما ، فقد كانت عيونا قلقة تترجرج، وتضطرب في محاجرها ، كأنها زئبق في يد مشلولة ، ولكن أهم ما أحست به ، هو فتور رب البيت ، فإنه لم يرحب بى كا كنت أرجو ، ولست أذكر الآن شیناً مما قلته، ولا شیء مما رد به ، ولکنه علی کل حال ، وعد بأنه ينظم القصيدة التي طلبتها منه لمشروع القرش ، وخرجت وأنا بين الرضا والامتعاض من هذه المقابلة . ولكن ما كاد الشمور الذي بمثته هذه المقابلة يزول ، أو يخف ، حتى حل محله ، شعور بالفخر بأنى قابلت شوقى ، وتحدثت إليه ، وأبى مستطيع أن أذكر هذا لزملائي وإخواني ، وأنهم سيجدون فيه ما يدعوهم إلى الإعجاب بي ، وتوجيه أكثر من سؤال لي عن الشاعر العظيم وشكله وحيثته وطريقته في الكلام ، وشكل بيته ، ونوع أثاثه وهكذا . ولم ينقض على هذه المقابلة وقت كثير حتى عدت إلى شوقى مرة أخرى ، أجدد الطلب ، فقد ظهر عدد المصور الخاص ، الذي جمعت فيه العديد من آراء الزعماء والقادة ومقالات وقصائد الشعراء والكتاب ، ولم يكن بين هذا كله ، قصيدة شوقى التي كانت أملا من آمالنا.

وقد كان شوقى في المرة الثانية ، غيره في المرة الأولى ، فقد ظهر عدد

المصور، وفيه الدليل على أن المشروع الذى جئت طالباً باسمه، القصيدة، هو مشروع جاد، وأن الوزراء والكتاب والشعراء احتفلوا به، احتفالا كبيراً. وقد أحسست فى كلام شوقى بالفيرة والعتاب. كانت مقابلتنا هذه المرة فى حديقة منزله، وقد سرنا سويا فيها، ونحن نتكلم. وقد دار كلامه أول الأمر محلقاً فوق المعنى الذى كان يريده، والذى كان يشعر بشىء من الحرج، فى الإفصاح به، ولكنى أدركت أن احتواء العدد الخاص على قصيدة للعقاد قد ضايقه كثيراً، فقد كان العقاد والمازنى وشكرى هم ألد خصومه الذين أنكروا عليه الشاعرية الصادقة، ورموه بالتقليد والمحاكاة للقدماء بغير عاطفة صادقة، ولا إحساس أصيل.

قال شوق : يجدر بكم وأنتم شبان وطلاب جامعة ، ألا تفعلوا كغيركم ، فتهمكم الكثرة دون القيمة ، وتضعوا من لا يستحق إلى جانب من يستحق . وأدركت أنه يعنى العقاد ، ولكنه لم يدع الأمر للاستنتاج ، فقال : هل أعجبك كلام العقاد . ولا أدرى بماذا أجبت يومذاك .

وقد أتاحت هذه المقابلة الثانية فرصة التأمل في وجه أمير الشعراء فازددت شعوراً بضآلة جسمه ، ولا سيا بصغر يديه وضعفهما ، كا ازددت أحساساً بهذه المعيون القلقة المرتجة وبمصبيته ، وبذكائه ، ثم بشيء أكثر من الذكاء ، هل هو خبث أو دهاء ؟ وفي شوقي ما يبعث في نفسك الشعور بأنه يحذر محدثه ، ولا يطمئن إليه ، ولا يجب أن يعطيه من نفسه إلا أقل القايل . ومع ذلك أن أشهد أنني لم أتبين في شوقي سمة واحدة من سمات الكبرياء أو التعالى ، فقد استطعت من المقابلة الثانية ، أن أتحدث معه على سجيتي في غير تكلف ولا احتياط ، وقد علمتني الأيام أن الشهورين ، الذين يحسب الناس ، أنهم شبعوا من الشهرة ، ها أحرص الناس على ما يوسع من نطاق شهرتهم ، ويجدد دواعيها ، وأن كلة فتد

صغيرة أو عدم التفات إنيهم عن قصد من بعض من لا قيمة لهم ولا شأن ، يغيظهم ويكربهم ، وقد يفسد عليهم يوماً أو ليلة كاملة .

وقد روى مؤرخ الأستاذ أحمد محفوظ أنه كان يجزع من النقد جزعا شديداً ، ويخاف الصحف الصغيرة (الصفراء) فكان يغدق على أصحابها الأموال الجليلة ، ولا يلقاهم إلا بالتكرمة وخلع الألقاب الضخمة عليهم . وقد علم أولئك عنه ذلك ، فإذا قبض يده عنهم ، غمزوا شعره ، فهرول إليهم مسترضياً باذلا ماله ، وكان هذا سبيلهم إلى سلبه .

وقال الأستاذ محفوظ أن شوقى غضب عليه غضباً شديداً لأنه أخبره بمقال نشر فى إحدى هذه الصحف الصغيرة ، ملاً ه كاتبه نقداً فى شعره . فثار وصاح فى وجهه : «يأخى هو لازم تبلغنى شتيمتى. أنا ما أقراش الصعف الساقطة دى، وفى اليوم التالى ، اتصل شوقى بصاحب المقال ، وأجزل له العطاء ، وأسبغ عليه أكبر الألقاب .

ولقد كان حجم شوقى وعصبيته يذكرانى دائماً بصديق له هو الأسناذ إسماف النشاشيبي الكاتب الفلسطيني ، مع اختلاف في قسمات الوجه والمراج إلا أن كل منهما ، كان قصيراً وعصبياً ، ولقد أكد تأملي في وجه شوقى أنه فعلا بملامحه وتقاطيعه ، غريب عن المصريين وعن العرب ، فقد جمع في عروفه الدم اليوناني عن طريق جدته لأمه ( بمراز ) فقد كانت من أهل المورة أسرها إبراهيم باشا ، مع الدم الكردى ، إذ كان جده لأبيه كردياً هو على شوقى مدبر الجمارك في عهد محمد على ، بالدم التركى لأن جده لأمه كان تركيا من الأناضول هو أحمد حليم الذي وصل إلى منصب وكيل بالخاصة الخديوية في عهد توفيق وهكذا يأبي تاريخ الأدب العربي ، وتاريخ مصر ، إلا أن يكون فربق كبير من أعظم المشيدين بهما ، والمتعصبين لهما من غير العرب ومن غير المصريين

ولما رأيتنى أحب شوقى ، بعد أن أحببت شعره ، وجدت أن هناك أكثر من سبب لهذا الحب ، فقد حفظت لشوقى شعراً كثيراً فى مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وعرفت من قصيدة رثائة ، أنه كان صديقاً لمصطفى ومحباً له ، ثم أتم تحصيل العلوم القانونية فى مونبلييه وباريس ، فكان ذلك شاهداً جديداً على أن الدراسة القانونية ، تنفع الأديب والسياسى والاقتصادى، وأنها حيث تجد التربة الخصبة ، والطبيعة المواتية ، تثمر خير الثمرات .

ثم أن الإنجليز نفوه خلال الحرب العالميسة الأولى ، وأنا أحب كل من يكرهه ساسة الإنجليز ، وقد قضى سنى نفيه فى أسبانيا ، وتغنى بأيام العرب فى الأندلس ، وأنا أحب تاريح العرب فى الفردوس المفقود ، ولكن لم يكن باقياً على إنشاء صلة باقية تربطنى بششوقى لا إ أن يكون محدثاً يفتح نفسه وقلبه لزواره إذا لوكان ذلك من صفاته ، لترددت عليه ، ولكننى لم أجدعنده ما يدعونى إلى الإكثار من زيارته ، فأحسن ما عند شوقى ، أجده فى دواوين شعره ثم بعد ذلك فى مسرحياته .

ولم ألحظ على شوقى ما يقوله بعض أصدقائه من إهماله لأناقته ، وأن جوربه بشاهد منسدلا فوق حذائه ، لأنه لا يستعمل فى رفع جوار به ما كان يستعمله الناس من (حالات الشربات) . وأنه مع أهاله لثيابه ، كان شديد العناية بحلق ذقنه وأن هذه العناية ، أوحت إليه أن يفتح صالونا للحلاقة فى أسفل عمارة يملكها ، وعوشى ، ظريف ولم أكن قد سمعت به ، وهو يستوقف النظر فعلا ، ويثير الدهشة . فإن يدير شاعر ثرى ، صالونا لحلاقة الشعر (الشعر بالكسر لا بالفتح) والذقن ويقوم الحلاق بتقديم الحساب يوميا لصاحب الصالون ، ظاهرة تحتاج المناون بالحسان ، وإن كان مما ييسر عليه المهمة أن يكون حساب ذلك الصالون بالخسارة دائما ، إذ بهذه الخسارة يخرج الباعث على كسب المال من دائرة

البحث ، وقد كان شوقى يرمى بأنه بخيل وأنه كلا تقـــدم به السن زاد حرمه على ماله .

وعدت إلى شوقى مرة ثانية وثالثة ، وأخذ يألفني وأحسست أنه أصبح يرضى عنى ، فقد كان يصفنى بأنى (حراك) ، أى كثير الحركة . وبدأت أتبين ملامح شخصيته ، شيئا فشيئا . وكان أهم سمات هذه الشخصية اللل ، و نفاد الصبر ، والالتفاف الشديد حول ذاته ، وقد بدا ملله ، و نفاد صبره ، من حركة يديه المرتمشتين، وإن كانت الرعشة التي أصابتهما على رأى بعض مؤرخيه ثمرة إدمانه للشراب إلا أن حركة اليدين في ذاتهما ، دون رعشتهما ، هي التي كشفت عن حقيقة نفسه ، ثم جاءت نظرات عينيه المرتجتين ، لتؤكدا أنشوقي لا ينظر إلى أحد من الناس ، ولا يستمع إلى حديث متحدث ، إلا ويرتسم على صفحة وجهه، ما معناه: أرجوك أطلق سراحي. ولاتحاول أن تستبقيني طويلا. وقد كنت اراه في دور الصحف ، يدخل حجرات رؤساء التحرير ، في الأهرام والسياسة والجهاد، وكأنه الطيف، ثم لا ألبث حتى أراه خارجا، فقد كان يطيب له أن ينتقل من مكان إلى مكان ، ومن منتدى إلى منتدى ، ومن جماعة إلى جماعة ، فيرى في كل مكان ، طرازًا من الناس وأسلوباً في الحديث ، واجواء تتنوع وتتشكل. وقد رسم لنا الأستاذ أحمد محفوظ مؤرخه، صورة حية لمله فشوقى إذا عاد إلى حجرته في الساعات الأولى من الصباح ، خلع ثيابه ، ورمى بكل جزء منها في ناحية من الحجرة لأنه لا يطيق أن يلتزم نظاماً في التخفف من ثيابهوخلمهاولملمن آثار مله ، أنه كاندائم التجول ، وقد كانت لمساعتان ، بين السادسةوالثامنة مساءكل يوم ، يختفى خلالها عن أعين أقرب الناس إليه ، ويروح خلالمًا يجوب في الأحياء البلدية وحيداً ، لا يصحبه أحد ، فيرى ويسمع ويفعل ومؤرخُوه فى تعليل اختفائه هاتين الساعتين في كل يوم ، وذهب كل منهم فى وقد أورثه هذا الملل أيضاً ، عادات جميلة ، منها أنه كان يركب الترام ، في القمد الخلني من العربة المقطورة ، حيث لا يعرفه ركاب هذا المقمد ، وهم دائما من عامة الناس ، فيسمع لحديثهم ، ويشعر بأنه أقرب ما يكون منهم ، ومن الحياة في أكثر صورها امتلاء ، دون أن يرتبط بأحد ممن يراهم ويسمعهم ، فقد كان يهبط من الترام ، ويفادر مكانه فيه فى اللحظة التي تروقه ، دون أن يستأذن أحداً أو يعتذر لأحد وقد كان يفعل ذلك مع جلسائه فى ندواته ، ومع ضيوفه وإذ كان ينسل من المجلس ، وقد حمى وطيس الحديث فيه ، فاذا انتبه الحاضرون إلى مكان شوقى الشاغر غضب من كان يرجو من الشاعر أن يلتزم قواعد المجتمع معهم ، وابتسم من كان يعرف للشاعر حقوقا فوق حقوق المجتمع .

ويتصلبهذه الصفة الأساسية من صفات شوقى ، أنه كان يتناول عشاءه دائما خارج منزله ، ولم يكن يلزم مطعا واحداً ، فهو دائم التنقل بين مطاعم كبيرة منها صولت ، وسان جيمس والباريزيانا والحاتى ومطاعم الفول . فإذا فرغ من تناول عشائه ، ذهب إلى السيما ، وأخذ مكانه فى الصف الأول ، كا أخبرنى خالى يوماً ، وكا كان يتناول عشاءه خارج منزله فى أحد المطاعم ، كذلك كان يتناول أفطاره فى جروبى ، وكان إفطاره خفيفاً لا يزيد عن قهوة باللبن ، وقطعة من الفطير .

ولم يكن هذا الملل ، إلا أثرا من آثار الجو الذى نشأ فيه شوقى ، فقد كان مدللا ، منذ أنولد . فقد كان أكبر أخواته ، أحبته جدته (نمراز) حبا شديداً ولما ظهرت بواكير عبقريته ، شمله الخديو توفيق بعطفه ، وأوفده إلى أوروبا على حسابه ، ولما عاد كان شاعر الخديو عباس ، وواحداً من أقرب بطانت إلى نفسه ، فأصبح بسبب مكانه من الحاكم مرموقا ، ومسموع الكلمة ، ولما تزوج من كريمة حسين شاهين باشا ، كانت زوجته تطيعه لا تعصى له أمرا ، و تقبل منه أن يسهر حتى مطلع الفجر ، و يسكر حتى الثماله دون أن تسأله أو تؤنبه ، وعاش

فى جانب من قصره وحده ، وقد كان له من مال زوجته وماله ما أغناه عن العمل ثم واصلت الأيام تدليله ومحاباته ، فوضعت على رأسه تاج أمارة الشعر ، وأصبع على رأس الشعراء ، فإن نافسه على مكان الصدارة أحد ، فشاعر واحد . فهوعلى أسوأ الفروض واحد من اثنين يتسابقان إلى الاستئثار بحب الناس وإعجابهم .

وكان بعيش في حياته كما يميش الطفل في كنف أمه وأبيه ، فهو لا يصنع لنفسه شيئا حتى غسل وجهه ويديه ، فقد كان له تابع من أهل السودان ، بتولى غسل وجهه ورأسه ، ثم يديه إلى مرفقيه وقدميه حتى ركبته بالماء الفاتر والصابون ثم يخرج من بيته ليهيم على وجهه ، بغير غاية ولا قصد . وهو حيثما بذهب يجد الذن يتسابقون إلى الترحيب به ، والاحتفاء بمقدمه .

فإذا نظم قصيدة ، تنافست الصحف على نشرها فى الصفحة الأولى ، كأمها خبر الأخبار . وقـــد كان الناس فى أيام شوقى حتى مماته ، من هواة الشمر والأدب العربى ، وكان اللفظ الجميل ، أو التورية الذكية ، أو بيت الشعر ذو الرنين ، أغلى عندهم من الذهب .

ولم تفرض الحياة على شوقى قيداً ، روحياً ، كما لم تفرض عليه قيداً مادياً ، فلم ينتم إلى حزب ، وقد وزع هواه على الأحزاب في مصر جميعاً ، يرثى مصطنى كامل ومحمد فريد والرافعى والصوفانى من زعماء الحزب الوطنى ، ويرثى سعدا وأقاربه ، ويمدح عدلى ومحمد محمود وثروت وهم أقطاب الأحرار الدستوريين ثم هو – مع فرط إيمانه بالله – لا يصلى ولا يصوم . فما الذى يحمله على أن يفرط فى حريته بقلامة ظفر . ما دامت الناس والدنيا ، قد قبلا منه أن يسير على هواه وأن يتنقل ويتقلب كما يحب ، وأن يأخذ ويدع حين يشاء وكما يشاء .

وقد كانت حياة شوق معدودة بحدين أولمها المقارنة المستمرة بينه وبين حافظ إبراهيم، وثانيهما السهر من جانبه على شهرته ومجده، والدفاع عنها، والتحيض على خصومه والحط منهم.

كنت معه فى ذات يوم، فإذا هو يقول لى ، بغير مقدمات : أنا أفضل من مافظ وسكت ، ثم قال بعد صمت قصير : حافط طلق اللسان ، حلو الحديث ، يحب أن يسمعه الناس ولذلك هو لا يكف منذ الصباح الباكر عن الفيض بما لدبه على سامعيه ، فاذا عاد إلى بيته آخر اليوم ، كان قدبد كل مالديه ، فأصبح خاوياً لا يجد مايو دعه شعره .

أما أنا فلا أطيق الكلام ، واحتمل طوال النهار ، وبعض الليل ، سخف الناس ، وثر ثرتهم وأعود إلى بيتى ، وأنا أحوج ما أكون إلى ما أفرج به عن نفسى ، فأودع شعرى كل ماضاق به صدرى ، وكل ما امتلأت به نفسى .

ثم قال فى مناسبة أخرى: أنا خير من حافظ ومطران . إنها يستطيعان أن يكونا معاً شاعراً جيدا . فحافظ عنده فسحة من الوقت ، وفراغ من العمل ، مكناه من صقل ألفاظه ، ولكنه جاهل لم يتعلم ، فجاء شعره ، جذلا بلا معنى . أما مطران فعنده ما يشغله أكثر يومه ، ولكنه متعلم وحسن الاطلاع على ما فى كتب الغرب ، ولذلك جاء شعره جليل المعنى ، فقير اللفط .

أما أنا فأجمع بين أحسن ما عند الاثنين : اللفظ والمعنى .

\* \* \*

قات إنى طلبت من شوق ، قصيدة لمشروع القرش ، فتلكا حسى صدر العدد الخاص من المصور وايس له فيه قصيدة ، فلما رآى أن مطرانا والعقاد قد نظم لنا شيئاً من شعرها ، كما أنه قرأ كلمات كبار المسئولين ، أحسن أن من حق زعامته عليه ، ألا يتخلف ، فنظم قصيدة جميلة ، فى مشروع القرش ، واكنه لم بعطها لى ، مع أنه وعدنى بذلك ، وكان قد علم أننا نعد عددا خاصاً من جريدة البلاغ ، فذهب بنفسه إلى مقر الجريدة وسلم القصيدة إلى عبدالقادر حمزة يدا البلاغ ، فذهب بنفسه إلى مقر الجريدة وسلم القصيدة إلى عبدالقادر حمزة يدا يد ، وقد علمت فيا بعد أن شوقى حريص على مجاملة أصحاب الصحف ، ورؤساء يد ، وقد علمت فيا بعد أن شوقى حريص على مجاملة أصحاب الصحف ، ورؤساء

التحرير ، وأنه جريا على عادته هذه ، رأى أن من الأفضل أن يحمل قصيدته إلى عبد القادر خرة ، ليشعره بأنه لا يعطينا نحن القصيدة بل يعطيها لعبدالقادر حزة وللبلاغ ، وهو واثق أن شيئًا من هذا لن يفضبنا لأن القصيدة كانت ثناء علينا وإطراء لمشروعنا .

ولما اطمئن إلى شوق ، بدأ يمبر أماى عن بعض آرائه فى الشئون العامة ، وفى الشخصيات المعروفة ، فذكر لى سعد زغلول أكثر من مرة ، وفى كل مرة ، نعرض لإسمه ، كان شوقى يقول أن سعد باشا فى نهاية حياته كان قد ضاق ( بالأراذل ) الذين كانوا يحيطيون به ويضايقونه وأنه كان يتعنى أن يترك القاهرة ويتخذ له مسكناً فى الجيزة على مقربة من قصر شوق ؛ ولم أستطع أن أعرف من هؤلاء ( الأراذل ) وإن كان سياق الحديث قد كشف لى أن المقصودين م أنصار الوفد من العامة ، وبعض متصدريهم ، وكان كلام شوقى يدع السامع يفهم أن من بين هؤلاء ( الأراذل ) العقاد وأمثاله .

وقد جرنا حدیث من هذا القبیل إلى مقارنة بین المرحومین الأستاذین مکرم عبید و محمود فهمی النقراشی ، و کان أولها سکرتیر حزب الوفد ، و کان جمیل الصوت ، یرتل أحیانا بعض آیات القر آن الکریم ، ویؤدی فی أحیان أخری بعض أغانی عبدالوهاب ، و کانت خطبة مسجوعة ، أشبه ما تکون بقطوعات شوق النثریة التی جمعها فی کتاب « أطواق الذهب » ، ومن هنا کان مکرم عبید قریبا إلی قلب شوقی ، بقدرما کان النقر اشی بعیداً عنه لصلابته ، و بعد عن المجتمعات ، و تعقبه الذکتور محجوب ثابت صدیق شوقی بالما کسات القاسیة . فقال لی شوقی ، فی یوم : لیت الأقباط یأخذون النقر اشی ، و بعطوننا بدله مکرم »

وفي أحد الأيام ذهبت إلى شوق في الأصيل ، لأرجوه أن ينظم لمؤتمر الطلبة الشرقيين قصيدة ، وكان المؤتمر فكرة ، ساورتني ، وطرحتها على بعض الساتذتي ، فتحمس لها بعضهم ، وكان في مقدمة المتحمسين الدكتور على إبراهيم السنهوري ، وكنا قد عرضنا رياسة لجنتها التحضيرية على الدكتور على إبراهيم مدير الجامعة فقبلها ، وكانت الغاية من هذا المؤتمر هي دعوة الطلبة المنتسبين إلى دول غير أوروبية وأمريكية لاجتماع سنوى ، لتوثيق علاقتهم بعضهم بعضم ، ولمناقشة مشكلاتهم ، وتبادل الخبرات في ميادين النشاط الجامعي ، وكانت الغاية السياسية من وراء هذا ، أن يقوم بين الحركات الوطنية في هذه البلاد ، تعاون واتصال .

واستمع شوق إلى ملياً ، والفكرة تعجبه ، وكلما زدت شرحاً ، زاد إرتياحاً ، وقد شجعنى إقباله على ، فرجوته أن يحدث عبد الوهاب ، في أن يساهم في الحفل الساهر الذي كانت اللجنة التحضيرية للمؤتمـــر تنوى إقامته في مسرح الأزبكية ، تنويهاً بفكوتها ، وجماً لبعض المال الذي تحتاج لإنفاقه في تحقيق أغراضها .

فرحب شوقى بهذا كثيراً ، وهتف بأعلى صوته « يامحمد ، يامحمد » فإذا بمحمد عبد الوهاب يلبى النداء ، فقد كان موجوداً فى قصر شوقى فى هذه اللحظة ، فيعرض عليه شوقى الفكرة ، فأرى عبد الوهاب لأول مرة عن قرب ، وأرى تهلل وجه شوقى وهو ينظر إلى صديقه المطرب الشاب م وكان شاباً هادئاً خجولا ، ولما انصرف عبد الوهاب ، إلتفت إلى شوقى ، وأخذ يشكو لى منه ، لأنه لا يعتنى بصحته كا يجب ، فهو يقيم الحفلات فى سرادقات غير محكة ، فيتسرب إلها الهواء البارد فى الشتاء ، فيؤذى صدره . .

ولم أذهب إلى شوقي في مكتبه بشارع جلال إلا مرة واحدة ، وقد وجدته في المساء، وحوله بعض أدباء وقد فهمت أنهم كانوا يناقشون فكرة وخطط إحدى مسرحيات شوقي الشعرية ، وكان في مقدمة هؤلاء الدكتور سعيد عبد الذي كنت أقرأ له قصصاً جميلة وقطعاً زجلية بديمـــة ، وكنت أمــ أن أراه -

وكان خاتمة زياراتي لشوقي ، في أكتوبر سنة١٩٣٢ ، فقد أخذت منه آخر مانظم من شعر ، قصيدته التي ألقيت في الاحتفال بوضع الحجر الأساسي لمصنع مشروع القرش، في شارع برج الظفر، والتي كان عنوانها ٥ فتية الوادي عرفنا صوتكم » وقد جرت أبياتها الأولى :

نزع الشبل من الغاب الوتد وتغطى منكباه باللبيد ودعوه عن حمى الغاب يذد وابعثوه في صحاراهــا يصد مرحباً بالطائر الشادى الفرد

لايقيمن على الضيم الأســـد كبر الشبل وشبت نابه اترکوه یمشی فی آجامــه واعرضوا الدنيا على أظفار. فتية الوادى عرفنا صــوتـكم

تسلمت القصيدة ، مكتوبة على ورقة منزوعة من كراسه أو مايشبه ذلك، مطوية في أكثر من موضع ، عبثت بها يد الإهمال ، ولكنها مع ذلك ، ورقة مماكان التاريخ حريصًا على الاحتفاظ به ، ولكن هذه الورقة خرجت من بدى، ولا أدرى فى يد من استقرت . ولم أكن أدرى ساعة أخذتها منه ، أننى أتلقى الصفحة الأخسيرة من كتاب ضخم ، من أضخم ماعرف الأدب العربي ، والشعر العربي ، بعامة ، والأدب والشعر العربي في المصور الحديثة بخاصة .

وكاأني لم أكن أعلم أنى إذ أتسلم هذه القصيدة ، سأكون آخر من حمل

شعر شوقی إلی الناس ، لم يكن الذين رأوا شوقی فی مكتب رئيس تحرير جريدة الجهاد وسمعوه يسمر معهم حتی الساعة الحادية عشرة أنهم سيكونون آخر من رأی شوقی . انتابه ليلتها سمال ثقيل فقام إلی داره ، حيث تلقماه تابعه السودانی ، فخلع عنه ثيابه ، ووسده فراشه ، ونام شوقی نوماً متقطعاً حتی إذا كانت الساعة الواحدة والنصف ، أحس بأنفاسه تضيق ، وبألم فی صدره يشتد ، فجمع مابقی من قوته ، ودق الجرس لتابعه ، ليسعفه بالكافور ، وراح التابع الأمين يعدو ، ولكن مالبث شوقی أن ناداه « ارجع ، ارجع » فقد أدرك أنه لانفع من الكافور ، ولا فی غيره ، وأنها النهاية التي لا يردها دواء ولا طبيب ، وطلب من تابعه ، أن يوقظ السيدة زوجته ، فلما استيقظت ، جاءت تتعثر في خطاها إلى فراش زوجها ، فلما اقتربت منه ، ألمب مسامعها صوت شخير ، وفت منه ، أنها لن تستطيع أن تسمع من زوجها حتى ولا كلمة الوداع .

\* \* \*

وفى صباح يوم الرابع عشر من أكتو برسنة ١٩٣٧ ، ذاع نبأ وفاة شوقى، أمير الشعراء ، وكأن المدينة التى فتنت بشعره ، والتى شهدت تجواله فيها ، وتنقله بين نواديها ، قد سهرت إلى جانب فراشه طوال الليل، فلما طلع النهار، أصابها مايصيب الساهر المسهد ، من إعياء وفتور ، فإنى لم أحس أن شيئاً ما قد حدث ، وإن كنت لم أمش فى الجنازة ولكن الذين شاركوا فى تشييعها ، قالوا لى أنها لم تكن بالقدر الذى يليق بشوقى . على أن شوقى لم يخسر شيئاً بهذا ، فأنها لم تكن بالقدر الذى يليق بشوقى . على أن شوقى لم يخسر شيئاً بهذا ، ولم يكن يكسب لاقليلا ولا كثيراً ، إذا خرج كل الناس لتشييع جمانه ، فإن هذه الجنازة ستنتهى ، ولن يبقى من شوقى ، إلا شعره ، والذين يترأون شعره ، سيكون أكثرهم بمن يجهلون متى ولد ، أو متى مات ، ولا كيف عاش فى دنياه ولا كيف شيع إلى مثواه . بل إن من منهم من سيستشهد بأبيات من شعره ،

وهو لايمرف صاحبها ، وقدياً خذون منه شعره ، وينسبونه إلى غيره ، ويأخذون شعر غيره ويأخذون شعر غيره وينسبونه إليه ، كما حدث في حياته ، إذ نشرت جريدة عكاظ قصيدة جميلة لمطران ، على أنها بعض آثار أمير الشعراء .

\* \* \*

لقد انطوى كتاب الأستاذ أحمد محفوظ (حياة شوقى) الكثير عنه، ولكن أهم مايستحق أن يستوقف الإنسان من هذا الكثير هو مايتصل بالجو الذى ينتج فيه شوقى أدبه، وما يعانيه فى هذا الإنتاج، وسمات وخصائص حياته الروحية والأدبية، وفى هذا المرجع غير قليل مايتصل بهذا العالم الخاص الذى كان يعيش فيه أمير الشعراء، ونحن نجمع عنه، هنا، أهم ما جاء فى كتابه فى هذا الشأن متفرقاً.

كنت تسمع لشوقى - وهو يتلقى الهامه مهمة وغفمة ، وهو فى هذه الحالة برفع يده إلى جبينه ويمسح هذا الجبين فى تؤدة وحذر ، وإذا حدثه أحد ، لم يسمع له ، ولم يرد عليه ، فهو غائب عن الوجود ، وإذا لم تفطن إلى ما هو فيه ، وألحمت عليه فى الكلام ، أجابك بما لايتصل بكلامك . وإذا عالج معنى ، واستعصى عليه ، أو استعصى عليه اللفظ الذى يضعه فيه ، ضاق بالناس ، فانفلت من مجلسه ، غير ملتفت لجلسائه ، وخرج وكأنه فى أعقاب فريسة ، لا يريد أن يدعها ، أو كأنه هو فريسة خطر يوشك أن يدهمه .

وإذا انقاد له المعى الذى كان يطلبه ، عاد إلى يبته وأملى على كاتبه مافاض على قريحته من أبيات القصيد، التي كان ينظمها . وكان يملى على الكاتب أبياتا ثم يعود فيملى هذه الأبيات نفسها ولكن باختلاف في بعض معانيها ، فإذا كلت القصيدة بين يديه اختار من همذه الأبيات للقصيدة في صورتها الأخيرة مايروقه .

ولم بكن من عادة شوقى أن يطلع أصدقاء، على شعره ، أو يسمعهم إياه ، على عكس عادة حافظ إبراهيم الذي لم يكن يصبر على شيء نظمه ، فهو بذيعه أولا بأول .

ويروى الأستاذ محفوظ أنه ذهب يوماً إلى مقهى من المقاهى الى كان شوقى يرتادها فألفاه جالساً مع محمد البابلى الظريف المشهور ، وكان البابلى كان شوقى السينية الأندلسية ، كالمسك بخناق شوقى ، يتلو عليه أبياتاً من قصيدة شوقى السينية الأندلسية ، ويسأله عن تفسير معانيه ، وشوقى يحاول الإفلات من قبضته ، ولكنه لايستطيع فالبابلى مصمم على أن يفهم منه ما استعصى عليه فهمه ، وشوقى لايملك أن يفهم البابلى الذى لا تحمد عواقب إغضابه ، واستمرا على هذه الحال ، حتى وصلا إلى البيت الذى يقول فيه شوقى :

غشیت سلحة المحیط وغطت لجة الروم من شراع وقلس وطلب البابلی أن یعرف معنی لفظ (قلس) وقال شوقی «شیء فی السفینة» فسأل البابلی:

وماذا يكون هذاالشيء ؟ وضاق خلق شوقي، فأسرع محفوظ إلى انقاذه وقال القلس حبل السفينة .

فشوقى لم يكن يعرف أحياناً معنى بعض ألفاظ فى قصائده . وليس فى هذا شىء غريب ، فقد سألت يوماً فقيهاً كبيراً وأستاذاً فى القانون عن رأيه فى مسألة ، فأفتى بشىء ، فقلت له ولكن ما جاء فى كتابك يناقض رأيك هذا . فاحمر خجلا وقال : إذن ما فى الكتاب هو الأصح .

وكان على سعة إطلاعه بالشعر العربى القديم ، لايستشهد بشىء منه ، وكان إذا نطق بالشعر حاذر واحترس وأنخذ لسانه نبرة الخطابة وتلعثم وتعثر في سبيل النعو . . وإن كان شوقى لم يلق شعره قط ، فلا لأنه كان يتعثر

في النحو ، بل لأنه لم يخلق ليواجه الجماعات ، ولا ليخاطب الجاهير ، ولو حاول لل أعانه صوته ، ولا شكله ، ولا اضطراب أعصابه على متاعب المواقف الخطابية . ولعل من أكبر فضائل شوقى الشاعر ، مثابرته على القسراءة ، وإدامة النظر في الكتب القديمة والحديثة . وقد رأيت بنفسى في حجرته بعض الكتب القديمة من أمثال الأغابى ، والكامل ، والعقد الفريد ، ونفح الطيب والأمالى . ويقول الأستاذ محفوظ في هذا المعنى :

« فما أعرفه عنهأنه كان يقرأ كل كتاب تخرجه المطابع سواء كان مؤلفاً أو مترجاً لكاتب قديم أو حديث. وهذا شغفه بالمعرفة وحبه في الإطلاع. فهو يقرأ في كتب الطب والفقه والحديث والعلوم والجفرافيا والأدب، وكل ضروب المعرفة ، ولكنه لم يقرأ منذ رجوعه من المنسفى كتابا للغة أجنية » .

## كما يقول الأستاذ مخفوظ:

« وكان إذا أعوزه لفظ لقافية فى قصيدة ، طلب إلى – إذا كنت جالساً معه فى المكتب – أن أبحث له فى المعاجم اللغوية الموضوعة دائماً مناك عن اشتقاق اللفظ المقصود ، فكنت غالباً ما أعثر على الاشتقاق اللغوى كان له بمثابة الإلهام » .

ويقول الأستاذ محفوظ أنه لم يسمعه يذكر شاعراً قط إلا المتنبى ، وأنه نال يوماً من الجاحظ ، عندما سمع مدحاً فيه ، فإنه كان لا يطيق أن يمدح أمامه شاعر أو كتاب سواه ، حتى ولوكان من الموتى ، أو من فرق بيننا وبينهم الموت ، قرون طويلة . وكان شاعر نا الكبير يحب السهر كما يقول الأستاذ أحمد محفوظ فلا يأوى إلى فراشه قبل الثالثة والرابعة صباحاً ، وهو لذلك لا يغادر فراشه في العباح التالى قبل العاشرة وهو محب للطعام ، يسره أن يرى على

ماثدته الأصناف المعتددة ، وإن كان قليل الأكل . وقد كانت ابنته تجاوره ، في السكن ، فكان يقترح عليها أن ترسل ما عندها من الأطعمة ليضعها فوق ماثدته ، فتكثر أمامه الأصناف ، فيأخذ منها ما يعجبه . وسمع أن الأستاذ عبدالعزيز الثمالي الزعيم التونسي يحسن طهى الكسكسي ، فطلب إليه أن بها طباخه كيف يطهوه ، وذهب الأستاذ إلى مطبخ أمير الشعراه ، وأخذ يلقن الطاهي وأحضرواله نرجيله ، ليتسلى بها وهو يعطى درسه في صنع الكسكسي ، فلما قدم له هذ الكسكسي لم يأكل منه إلا قليلا . وكان لحبه للطعام ، يطيل الحديث حول أصنافه مع جليسه الذي يأنس له . وكان يمشق الفاكهة ، وبشترى منها بنفسه الأصناف الغالية من محل ( لا باس ) .

وكان يتناول غداءه خارج منزله كل يوم جمعة فى مطمم يطل عليه الأهرام بالجيرة ، وإن كان هذا الطعام معداً فى منزله ، يحمله إلى هذا الطعم ، وكان من يدعى إلى هذا الفداء ، الشيخ عبد العزيز البشرى ، وحافظ إبراهيم . وقد اشترى لهمدنه الأكلة ، كرسى من كراسى البحر ، ليتمدد عليه بعد تناول الطعام .

وفى ذات جمعة اقترح حافظ أن يحضر الطعام من بيته ، وقبل الاقتراح ، وكان من بين هذا الطعام ، الورق العنب والملوخية ، وكانت زوجة خال حافظ التى تقوم على شئون منزله تحسن صنع هذين الصنفين ، وكان حافظ لفرط حبه لما يقول : « المحشى ولللوخية خربوا بيتى » .

وكان يدخن سجاير رفيعة من صنع شركة (ديمترينو) ، يدخنها في (مبسم) بغسل دائمًا بالكحول خوفًا من عدوى الأمراض . وكان شديد الخوف من العدوى إلى حد الوسوسة ، فكان لا يسمح لأحد يزور مريضًا من أولاده أو أهل بيته إلا إذا غسل يديه ورأسه ، بالكلونيا ، خوفًا على مرضاه من الزائرين

وما يحملونه فى ثيابهم وأيديهم من الجراثيم . وكان لايحب أن يسمع حديث الموت ، لفرط حرصه على الحياة ، بلكان لايحب أن يهول زواره إذا مرض فى الحديث عن مرضه حتى ولو كان ذلك ، من قبيل الجزع له ، والاهتام به . دخل عليه وهو فى فراش مرضه شاب من ذوى قرباه ، وقال له : مسكين ياهى . . دخل عليه وهو فى فراش مرضه شاب من ذوى قرباه ، وقال له : مسكين ياهى . . اخرج سلامتك ! فصرخ فى وجهه : اخرج اخرج . لا أنا عمك ولا أعرفك . . اخرج بره يا حار » .

وكانت وسوسته هـذه تحمله على أن يتماطى الدواء وهو غير مريض. وكان لايتناول الطمام إلا إذا شرب ماء وخلطه باليود توهماً منه أن هذا يدفع عنه شر الأمراض.

وكان يملأ حجرة نومه بالأدوية ، وفي ذات يوم أخطأ كاتبه الخاص وكان يملى عليه بعض شعره حين طلب منه دواء خاصاً ، فأعطاه بدلا منه زجاجة البوريك ، فلما شرب منها شوق قليلا أدرك من طعمها خطأ كاتبه ، فردها إلبه ، وهو يلعنه ، وقد بدا عليه الهلع ، فما كان من هذا الكاتب إلا أن سكبها كلها دفعة واحدة في حلقه ، تكفيراً عن ذنبه ، فما كان من شوقي إلا أن قال : وأنا حاخد إيه من موتك معايا » وأسرع إلى التليفون فاستدعى الطبيب الذي جاء إليه فطمأنه .

ورجل هذا أعصابه وهذا حرصه على الحياة، وخوفه من الموت ، لا بد أن يكون بمن يتفاء لون ويتشاء مون ، فهذه الصفة لازمة من لوازم ذوى الحس المرهف ، الذين تطاردهم مخاوف لاينفع العقل في ردها ، ولذلك اعتاد أصدقاؤه ، أن يدخلوا إلى قلبه الطمأنينة إذ شكا مرضاً ولو كذباً فقد كان يسره أن يسمع أن وجهه مشرق ، وأن مظاهم الصحة تكسوه .

ولعل ممايتصل بهذا الجانب الخاص من حياة شوقى ، أن نشير إلى صلة

عبد الوهاب به ، يقول الأستاذ أحمد محفوظ أنه سمع بعبد الوهاب أول ماسمع من صديقه عبد العزيز البشرى ، وكان يتناولان الغداء خارج منزله في المطمم الذي يجاور الأهمام ، فذكر البشرى عبد الوهاب قائلا: أما ياباشا فيه جدع اسمه عبد الوهاب صوته زى الخص أحب إنك تسمعه ».

فقال شوقى : هاته يوماً إلى البيت .

وسمع شوقی عبد الوهاب ، بعد ذلك فی بیته ، فی حفل ضم عدداً قلیلا من الأصدقاء ففتن به . وأضبح یدعو كبار القوم لیسمعوه عنده فیقصره ، وكان بنظم الشعر ، ویكتب المقالات ، ویعطیها لمن یحسن الإلقاء ، لتلقی قبل سماع عبد الوهاب . و مرض عبد الوهاب یوماً و كان یقطن آنذاك فی باب الشعریة ، فأحضره إلى بیته ، وأفرد له حجرة ، لیعالج فیها حتی یشفی . وكان ابنه حسین شوقی ، یضیق بهذا الاهتمام المسرف من أبیه بهذا المطربالشاب ، وكان شوقی شدید التعلق بابنه حسین ، قبل أن یعرف عبد الوهاب ، فلما عرفه ، كان موزع الخاطر لتعلقه بعبد الوهاب ، و حبه لابنه . وقد ذكر الأستاذ محفوظ أن شوقی كان یقول : اثنان لاأستفنی عنهما . مبسم سیجارتی و حسین ابنی . فأصبحا بعد عبد الوهاب ثلاثة و أصبح عبد الوهاب أول الثلاثة .

وكان حرص شوقى على الحياة قد كره إليه سماع اسم الموت، أو رؤية مظاهره ولهـذا فقد أهمل واجبات المجاملة فى بلد شديد الحرص على هـذه المجاملات، فلم يكن شوقى ، يشيع ميتاً ، ولا يقف على قبر ، ولوكان الميت من أقرب الناس إليه ، وألصقهم بقلبه ، فقد كان سبيله إلى قضاء حقوق هؤلاء الوتى الأعزاء أن يرثيهم بشعره فقط .

وكان عظيم الإيمان بدينه ، و إن كان لا يصوم ولايصلي ، كما اعتذر عن السفر

مع الخديو عباس لأداء فريضة الحج ، ويقول صديقه (محفوظ) أنه لم يكن يذكر اسم الله مجرداً ، فهو يتبعه بقوله سبحانه وتعالى ، كا أنه لم يسكن يذكر اسم النبى ، إلا مقروناً بالصلاة والسلام عليه ، ولم تسكن تمر أمامه جنازة إلا ورفع أصبعه ، وتشهد .

\* \* \*

والآن فما هو قدر شوقى بين شعراء العربية ؟

وما هو دوره الأدبى فى تاريخ مصر الحديثة ، وتاريخ العرب المعاصرين؟ لقد اتهمه خصومه بأنه شاعر بلا شعور ، وأنه ناظم يتقن الصنعة ، ولكنه لا يتلقى إلهاماً من نفسه ، وإنما يتلقاه من مقتضيات المصلحة ، فهو ببن ترضى الحاكم وتعلق الجماهير ، والجرى وراء أسباب الشهرة ، يضيع كشاعر ، ولاتبقى له إلا الحاكاة لفحول الشعراء ، التى يتخلف فيها عنهم فى أكثر الأحوال . فشوقى عند هؤلاء ، لم يحدث أحداً قط عن شعور يخالجه ، ولا عن رغبة نساوره ، ولا عن أمل يداعبه ، ولا عن خوف يزعجه ، وإنما هو يتحدث عن شعور الآخرين ، وينقل إحساساتهم ، فيبكى فى شعره وهو يضحك فى قلبه ، ويمدح ويبالغ فى الثناء على من لايحبهم ولا يحترمهم ، ويتطوح مع شطحات الموى ، وهو جامد ، بارد الشعور ، وينتفض بالوطنية ، ويلتهب بالوجد الدينى، وهو مع خصوم الوطن ، إذا ألزمته بذلك مصلحته أو حرصه على الجاه ، وهو منافحاً عن أمجاده ، وشعائره .

وكان شعر شوقى ، فى رأى مدرسة (الديوان) ، (رأى مدرسة العقاد والمازنى وشكرى) ، ككل الشعر العربى الذى يسبقه ، تنقصه وحدة القصيدة، فليس فى القصيدة العربية مافى أى عمل فنى آخر من التكامل فالقصيدة ليست إلا مجموعة من خواطر متناثرة ، ومعانى متفرقة ، لا ينتظمها سباق واحد . والعيب

الذى يؤخذ على الشعر العربى ، من حيث انتقاء وحدة القصيدة فيه ، ومن استقلال كل بيت تقريبا عما قبله ، وعما بعده ، لا يسأل عنه شوقى ، وأقصى ما يمكن أن يسأل عنه شوقى أنه لم يعمل على تحرير الشعر العربى منه ، ولكنه فعل في الواقع ، ما يكاد يكون مساويا لهذا التحرير المطلوب، وذلك بانشاء مسرحياته الشعرية ، ما يكاد يكون مساويا لهذا التحرير المطلوب، وذلك بانشاء مسرحيات يعرفها (كليوباطره ومجنون ليلي وعلى بك الكبير) التي هي أول مسرحيات يعرفها الشعر العربي . وقد كان لها فضل إلهام شوقى بمعان جديدة ، بإدخال هذا البناء الجديد إلى لغة العرب وشعره .

وأيا ما كان نصيب شعر شوقى من الصدق او الاصطناع ، فإنه استطاع أن يمس قلوب المصريين ثلث قرن أو يزيد ، فقد كانوا يجتمعون حول قصائده ، كالم يجتمعوا على شىء آخر طوال هذه المدة الطويلة ، وكان هذا الشعر يطربهم ويمتعهم ، ويرضى فى نفوسهم الشعور الوطنى حينا ، والشعور الدينى حينا آخر ، ثم كان يرضى عقولهم فى حين ثالث . وكان شعر شوقى ، يتجاوز حدود وطنه ، إلى جميع آفاق الوطن العربى ، فكان وشيجه من وشأمج العرب ، وعنصراً من عناصر وحدتهم و تجمعهم ، فى فترة اجتمعت عليهم فيها أسباب الفرقة ودواعيها ، والعاملون على بعثرتهم ، و تفتيت بنائهم ولا أحسب أن أنسانا يعوزه الصدق ، يستطيع أن يستثير فى نفوس الغير عواطف صادقة على المدى الطويل ، فان ذلك مما لا يتفق مع طبائع الأمور . فالمدعى المتصنع ، قد يخدع الناس عن نفسه سنة أو سنتين ، ولكنه لا يستطيع أن يخدعهم العمر كله .

ولننظر ماذا حدث مع شوق ، وخصومه . بقى شوقى ينشد الشعر ، فتفرد له الصحف صفحاتها الاولى ، ويتخطفها القراء ، ليقرأوا ،ويتغنوا ، ويطربوا . أما خصومه فقد أصلوه نارا لاهبة ، ثم فترت نارهم ، وتفرقوا هم ، وأخذوا يطعنون بعضهم بعضاً ثم أجبل منهم من أجبل ، وسكت عن الشعر من سكت ، وجمع منهم بين النثر والشعر من جمع ، ثم مرت الأيام ، والناس لا تعرف إلا

شعر شوق، ولا تنشد غيره حتى مات، وانفسح الميدان لخصومه ولفيرم، فأقفرت ساحة الشعر، وانصرف عنه الناس، فلا توجد الآن الصعيفة التي تجرؤ على نشر قصيدة في صفحة من صفحاتها الهامة دع عنك الصفحة الأولى. فيل كان اعجاب الشعب في مصر، وفي البلادالعربية بالشعر وقفاً على شعرشوق، فلما مات شوق، مات هذا الإعجاب، وانطفأت جذوته ؟ أم أن الذين نازعوا شوقى زعامة الشعر، واتهموا صدقه وشكوا في حرارة وجدانه، هم المتجنون؟ لقد آل لقب أمير الشعراء إلى العقاد، إذ تفصل عليه به طه حسين، فلم يعرف أحد من الناس العقاد بهذا اللقب يوما، فكا نه مات يوم أن ولد بل أنه مات فعلا في هذا اليوم.

ولقد تغنى المغنون بشعر شوقى ، وزجله ، كا لم يتغنوا بشى من الشعر الحديث ، فقام الدليل من هذا ، على أن موسيقية هذا الشعر وحلاوته ، لاتقلان عن جزالته وروعته . ليس معنى هذا ، أن شوقى كان صادقا فى كل مقاله ، لا أن خصومه لم يكونوا كذلك دائما ، وقد ننقلوا بين الأحزاب ، كا تنقل ، واتقوا شر الأقوياء ، وهادنوا ذوى السلطان ، وتملقوا أصحاب الكلمة النافذة ، وداروا مع الزمن ، تماما كا فعل شوقى ، ولكنه تفوق عليهم إذ بقى أمينا للشعر ، حفيا به ، فإنه إلى اللحظة الأخيرة من حياته ، كان ينظم ، وكان يسم على شاعريته ، ويمدها ويزودها ، عا يوسع آ فاقها ، ويقوى جذورها ، ويعمق آمادها .

لقد سمعنا من شعر شوقى ، قرع الطبول ، وعصف الرياح، وهزيم الرعد ، كا سمعنا وسوسة القبل ، وحفيف أوراق الشجر، ورأينا طلوع الشمس، وسطوع البدر ، فقد كان شعره قادراً على أن يبرز الصورة ، نابضة بالحياة ؛ زاهية بالألوان غنية بالألحان ، وليس من حقنا ان نذكر المثل أو الاثنين ، على القمم التي سما

إليه شعر شوقى فإن ذلك ، يعطينا فتاتاً من شوقى ، ولا يعطينا من شوقى كله: فإذا كان هناك من يرى ف :

أفضى إلى ختم الزمان ففضه وحبا الى التاريخ فى محرابه وطوى القرون القهقرى حتى أتى فرعون بين طمامه وشرابه دليلا على عبقرية شوقى ، ورأى آخر فى :

وأنا الذى أرثى النجوم اذا هوت فأعيد سيرتها الى الدوران دليلا آخر على هذه العبقرية : ورأى ثالث هذا الدليل في :

وللحسرية الحمراء باب بنكل يد مخضبة يدن

فإن آخرين يرون فى بعض أبيات أخرى دليل صدقه ، ومن هذا بيته الذى قاله فى تأبين حافظ إذ يقول:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي يامنصف الموتى من الأحياء

فنى بساطة البيت ، وفى اتصاله بحياة صاحب البيت وخاتمة حياته ، ماينيض بالصدق ، الذى يمس شغاف القلوب .

وقد استمذب حافظ ابراهيم ، أبياتاً من شمو شوقى عدها من عيون الشمر وذكر في ليالى سطيح هذه الأبيات :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيان تضرب

وهمت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقُـل الرجـاء

فِشْمِره لم يكن صنعه فحسب ، و إنما كان صدى لحياة شاعر ، أعانته ظروف الحياة ليكون خادم الشمر الأمين ، وسادن كعبته الوفى ، وقد كوفى و على ذلك فكانت معاركه مع خصومه ، أو معارك شعره مع هؤلاء الخصوم ، أو معارك

هؤلا، الخصوم معه، شغلا شاغلا للأدباء معينا للحياة الأدبية في طول العمالم العربي وعرضه، ولعل هؤلاء أفادوا من عراكهم معه، شهرة ونباهة ذكر. وقد استحث تألق شوقي وتفرده بعضهم على تجويد الشعر، والسهر عليه، وقد هيأ ذلك كله للأدب جواصالحا، يورق فيه ويشعر ويزهر.

كتب حافظ كثابه (ليالى سطيح) وقد ضم الحديث عنه سبعة ليال ، فأفرد من هذه الليالى السبع ليلة طويلة ، أوقف الحديث فيها على شوقى وشعر شوقى وعيوبه ومزاياه ، دون غيره من الشعراء فكان ذلك تسليما من حافظ ، منافس شوقى الأول ، بمكانة شوقى ، وصدارته فى دولة الشعر وقد يحسن أن ننقل هنا بعض ما آخذ عليه حافظ شوقى من البيوب ، وبعض ما اعترف له به من المزايا قال :

« فقال إنه لظريف الوزن لطيف القافية ، خاطره طوع لسانه ، وبيانه أسير بنانه ، كانما يتناول الشعر من كمه لسهولة متناوله عليه ، إلا أنه مكثار ، وقل أن يسلم المكثار من العشار ، فشعره كما قال الأصعى فى شعر أبى العشاهية «كساحة الملوك يقع فيه الخزف والذهب » .

## مم قال :

«انه أرق علم طبعا، وأجلكم صنعا، فهو إن ركب الغزل والنسيب، كان كانه يوحى إليه من قريب، وإذا سلك سبيل المديح فقد عجز عن وصفه سطيح، إلا أنه ضيق الحال، وإن كان واسع الخيال، يقع له المعنى الجليل، في سبحات الفكر الطويل، فيمسكه خاطره وتحرص عليه سرائره، والمعانى كالظباء كثيرة النفار، شديدة الاحضار، فهى إن لم تجد من نضارة الألفاظ خميلة تسنح فيها أو لم تغلفر من عذوبتها بعيون تنهل من نواحيها، ذهبت عنها إن لم يضيق بها الذهب، كذلك حالها في شعر صاحبكم فهى إما مافرة، وإما حزينة باسرة،

ولو أنه منح من دقة المبانى ، مامنح من رقة المعانى ، سلم أسلوبه من ذلك التمقيد الذى أخلق ديباجته ، ولكان شاعركم غير مدافع وواحدكم غير منازع ..

ثم قال :

« إنه لم يفادر معنى من معانى العرب والفرنجة ، إلا سلخه ثم مسخه ، فإن كان الأسلوب على نحو ماوصفت ، وكانت المعانى لغيره ، في عسى أن كون فخره علينا ، وقد ذكر صاحب دلائل الإعجاز ، أن البلاغة لا تقع في اللفظ ولا في المعنى ، ولكنها تقع في الأسلوب فمن كان أسلوبه يجرى على غـــير هذا الحد، كان خليقاً إلا يسمى بليغاً ، وصاحبها لايزال مهزول اللفظ غامض المني ، يحتاج الناظر في كلامه الى تخوت الرمل ، وطوالع التنجيم ، وقد قصر هه على اصطحاب طائفة من الألفاظ ، لا يعدوها إلى غيرها ، حتى أصبح بعضها علامة تدل على شعره ، وإن كان غفلا من ذكره ، ولقد نظرت في طريقة شعره، فألفيتها في الفارة على صحائف الأولين ٠٠٠ ألا ترثى تربك إلى عظام أبي الطيب، وهي تئن في قبرها ، على أبيات شادها صاحبها وخربها صاحب الشرقيات ٠٠ ومن نظر في قول أبي الطيب ( نود من الايام ما لا توده ) وفي قول صاحبنا ( يود من الأرواح ما لاتوده ) علم أن الثابي أغار على الأول، فسلبه مطلعاً أبهى من مطالع الشمس ، ولم يقصر على هذا السلخ ، حتى تخطاه إلى السخ، فرفع لفظة الأيام من شطر بيت المتنبي، ووضع مكانها لفظة الأرواح في شطر ينه، ثم جعله مطلعاً من مطالع النهاني ، أنزل فيه ممدوحه منزل عزريل من النفوس ، فانى لا أعرف أحــدا ( يود من الأرواح ما لاتوده ) اللهم إلا ملك الموت..

ولكنه لم يلبث حتى ختم هذه المحاورة بشهادة لشوقى تجعلهسيداً بين شعراء مصره إذ قال :

(م ٨ – عصر ورجال)

« فاعلم أنه حقيق بالرئاسة عليكم ، وأنه فى مقدمة أولئك الذين انبروا لتشييد هذه الدولة الأدبية ، ورفعوها على أسنة الاقلام » .

على أن (حافظ ) انتهى به الأمر إلى مبايعــــة (شوقى ) بإمارة الشمر المربى حينما دعى كبار شعراء العروبة وزعماء أدبائهم إلى مهرجان شوقى وذلك ببيت شعره الشهير:

أمير القوافي قد أتيت مبايعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ثم جاءت مسرحيات شوقى ، فرجعت بهاكفته ، وثقلت موازيسه ، في عالم الشعر والشمراء ، فقدكان الأدب التمثيلي كله غريباً عن الفكر العربى ، والأدب العربى قاطبة ، لم يعالجه القدماء ، ولم يحاوله المحدثون

حتى الكتّاب المعاصرون لشوقى بمن نقدوه ، وأشبعوه ذما ، وبمن أعجبوا به وشادوا بفضله على السواء، لم يخطر على بال أحدهم أن يسهم في هذا الجال الرحب الفسيح ، المؤثر الجميل ، بشى وإذا استثنينا للمازنى مسرحية واحدة ، أتهم بأنه نقلها بفكرتها وحوارها عن جالسورذى . ولم يعرف الأدب المسرحى النثرى ، ويثبت قدمه ، نوعاً ما ، إلا بعد وفاة شوقى بسنين ، أما الشعر المسرحى فلا تزال بضاعته بعد أن غيب الثرى شوقى ثلاثين عاماً أو يزيد ، قليلة لا تسكمل الخمسة من المسرحيات ، أو العشم قران شئة ...

فشوقى رائد هذا الجال من الأدب العربى ، وحامل لو ائه . ولا يز الشعر اؤنا مدعوين للحاق به ، وإكمال ما بدأ ، والإضافة إلىه .

ومن هنا ، كنا لا نرى أن توزن مسرحيات شوقى بموازين الفن المسرحى، فنأخذ عليه مثلا أن شخصيات مسرحياته لا تنبض بالحياة ، ولا تكتمل لما

خصائص الأحياء ، وأنها تخلو من الصراع ، ولا تختم بما يكتب لها تعاطف السامع ، أو استجابة القارى و فهذا وأكثر منه صحيح ، فهى مسرحيات يتسم بناؤها بالسناجة وبكشف عن حداثة عهد مؤلفها بالفن المسرحى .

فشوقى أيس كاتب مسرحى ابتداءً ، وإنما هو شاعر عربى ، أراد أن يوسع في آفاق الشعر ، وأن يخرج به عن مجاله الموروث ، و نطاقه المحدود ، وأن يكسبه الحياة ، بما يحدثه إنشاد الشعر ، الليلة بعد الليلة ، على مسمع من جمهور المسرح والمسرحية الشعرية ، مهما ضؤل حظها من الفن المسرحى ، ومهما بعسدت عن أصول المسرح التى وضعها وأفرها للسرحيون الأوربيون فى مدى قرنين أو ثلاثة . أمهما الأفاق ، متنوع الدروب ، متعدد الطرق ، يستدرج الشاعر على الرغم منه ، ليتأمل ويفكر ويحاول أن يعبر عما لم يفكر فيه من قبل ولم يخطر على باله أن يتناوله .

ونحن نرى هذا واضحاً فى مسرحيات شوقى ، ففيها الحوار ، وفيها حديث عن السياسة ، ومعارك البر والبحر ، وصيحات الجماهير ، وآلام الزعماء ، ومخاوف القادة ، إلى جانب الحب والخيانة ، والغيرة والدسيسة . ولاشىء يطوع الشعر، ويخرج به عن جموده ، مثل محاولة التعبير عن الجديد من المشاعر، وغير المطروق من الأفكار ، والمجهول من العوالم .

فدين شوقى فى ذمة العربية كبير ، فإذا فرغنا من تسجيل هذا والإقرار به، جاز لنا أن نقول أن شوقى لم يوفق فى اختيبار العهود التى اختارها موضوعاً لئلاثة من مسرحياته ،هى مسرحية مصرع كليو باطرة ،وقييز ، وأمير الأندلس ، ولم يحن أكثر توفيقا فى مسرحيته الأولى على بك الكبير. فمصر فى عهدى كليوباطرة وقبيز ، كانت فى أسوأ حالابها . وفى عهد كليوباطرة ،كانت تمكم مصرأسرة يونانية طارئة على البلاد ، ولم يشهد التاريخ لهذه الأسرة ، بأنها أحسنت مكم البسلاد ، أو كانت مثلا طيبا للحاكين . ولم تكن كليوباطرة بالأميرة محم البسلاد ، أو كانت مثلا طيبا للحاكين . ولم تكن كليوباطرة بالأميرة

المصرية ، التى تستحق دون غيرها ، أن تمثل مصر، وأن يدافع الشاعر المصرى عن حكمها وسياستها بالإخفاق فى الجانبين الخساص والعام . فقد هزم عشيقها (أنطونيو)، وفاز عدوها أوكتافيوس، واضطرت هى كا أضطر عشيقها إلى الإنتحار .

أما قبير فهو غاز فاتح جاء من بلاد الفرس ، ليفتح مصر، وقد فتعما بالفمل، وقد كان هذا الفتح خاتمة الحسكم المصرى الأصيل النقى ، وبداية غزوات وفتوح توالى فيها الحاكون على البلاد ، وشعب مصر ، يحاول جاهدا أن يردم وأن يحتفظ باستقلاله ووجوده وقد أبى شوقى إلا أن يؤيد فيها أكاذيب نسبت إلى مصر زورا كأكذوبة التضحية كل عام بفتاة مصرية ، استرضاء للنيل .

أما عهد على بك الكبير ، فقد كان أفضل بلا شك من عهدى كليو باطرة وقبيز ، فقد استقلت فيه الدولة المصرية عن الحسكم العثمانى ، وكان ذلك الإستقلال بداية نشوء الدولة المصرية في عهد محمد على . ولكنه مع ذلك لا يعدو أن يكون حلقة من سلسلة حكم الماليك ، وهي سلسلة من الفساد والتدهور ، تعاقبت حلقاتها على البلاد ، فأهلكت الحرث والنسل ، وأتت على الأخضر واليابس ، وقضت على الماليد ، وامتصت حيويتها .

ولا تفسير عندى لهذا الاختيار عير الموقف ، إلا أن شوقى ، عاش حياته يندب حظ مصر العاثر ، ويرثى قادتها ، ويذ كر بأمجادها المندثرة وينلد محاضرها القبيح ، فأصبح لايألف إلا الجوانب المهدمة من تاريخنا ، وإلا الأطلال الخربة من آثارنا ، فشعره لم يعتد الحديث عن الجوانب الباهرة من ما ضينا ، إلا مقرونة بما يشبه العويل والبكاء، واعتاد أن يقرن الدعوة إلى البناء والتعمير، بالتنديد بآفاتنا وعيوبنا ، والحق أن ذلك كان أسلوب أكثر شعرائنا وكتابنا، استطابوا إيلام الشعب بذكر عيوبه ، وألفوا التنديد بسقطاته وآفاته ، حتى أصبح هذا الذم ، كأبيات الغزل والنسيب التي كان شعراء العرب يستفتحون بها

قصائدهم. وقد قادت خطاه هذه العادة المنكرة، إلى اختيار عهد المعتمد بن عباد، الذى انهى به حكم العرب فى الأندلس ليكون مجالا لروايته النثرية « أميرة الأندلس » ولعل قائلا يقول التماساً للعذر لشوقى ، أنه أراد باختيار عصور الانحلال فى مصر ذريعة لوصف حالها إبان نظمه لمسرحياته ، والسشف عن أسباب انحلالها فى الماضى والحاضر ، وإظهار وحدة الحال ، تنبيها للا ذهان ، واستحثاثا للهمم ، و تلميحا إلى الحاضر ، بماجريات الماضى .

أما مسرحيتاه (مجنون ليلى)، و (عنتره)، فقد اتخذتا من أسطورتين من أساطير الأمة العربية، موضوعاً كان خليقاً أن يوحى للشاعر العظيم، من الصور الشعرية، والمواقف المثيرة للخيال والعاطفة، ما يعينه على خلق أثر أدبى عظيم، ولكن عذر شوقى أنه كان يشق طريقاً لم تطرقها قدم، ويعالج غرضاً، لم يحد من يمد إليه يداً. وثقافة شوقى عموماً، ليست ثقافة المتعمق لتاريخ الإنسانية، ولا المتعقب للآثار الأدبية الكبيرة فى القصة والمسرح، والتراجم والسير، أو فى الإجماع والفلسفة، وقد ذكر بعض مؤرخيه أنه لم يقرأ كتابا باللغة الأجنبية منذ عاد من منفاه فى أوربا بعد الحرب العالية الأولى. لذلك كله لم يكن يحق لنا أن نظمع فى أن تأتى مسرحياته الشعرية، وهى أول الغيث فى الأدب المسرحى العربى، فى عمق مسرحيات شكسبير، أو جال بناء — مسرحيات راسين وكورنى، أو فى جلال مسرحيات جيته. لقد أفاد هؤلاء جميعا من الأدب اليونانى، ومن الأساطير الكثيرة التى ملائت الآداب القومية لكل وطن من أوطان أوروبا على حدة.

وقد كان هؤلاء يكتبون لبلاد ، تهيأت لها أسباب النجاح والقوة ، واستقبلت عهداً من المنعة والنهضة ، لا فى الآداب وحدها ، بل وفى العلوم ، وفى تحرير نفسها من سلطة الملك وسلطة الكنيسة . بيما كان شوقى يكتب لعالم العرب الذى تناهبت بلادهم أيدى الطامعين ، وثقل عليهم حكم الغاصب الأجنبي ، واشتدت وطأة الخلافات الحزبية ، والتقاليد والرجعية . وإذا كان (شوقى ) لم يجعل للشعب المصرى فى مسرحية قبيز وكليوباطرة وعلى بك

الكبير ، دوراً له قيمة ، أو لم يجعل له دوراً ، قط وإذا كان قد سب الشعب المصرى في مصرع كليو باطرة بقول أحد أبطاله مسرحية .

أنظر الشعب ديون كيف يوحون إليه اثر البهتان فيسه وانطلى الزور عليه ياله من ببغاء عقسله في أدنيه مسلاً الجيو هتافا بحياتي قاتايسه

إذا كان قد قال شيئا من هذا القبيل فى (على بك الكبير) ، فلانه شاعر نشأ فى رحاب الحاكم ، وليس على بك الكبير ، ببعيد عن (محمد على الكبير) ، فها من أرومة واحدة ، وكانت اللغة الشعبية شيئًا جديدًا على شوقى ، حينًا كبر الشعب على يدى ثورة عرابى ، ومصطفى كامل .

حسب شوقی أنه كتب مسرحیة علی بك الكبیر، وهو فی باریس سنة ۱۸۹۳، وحسبه أنه جرؤ علی إرسالها إلی الخدیو توفیق، فهاتان خطوتان لیستا بحساب ذلك الزمان بالشیء القلیل، وهو بعد ذلك جدیر بالشكر لأنه عاود المحاولة التی بدأها سنة ۱۸۹۳، بعد ثلاثین عاماً، فقد ولدت مسرحیة كلیبوباطرة سنة ۱۹۲۷، وهو إصرار منه یدل علی أن هوی المسرح استبد به فلم یدعه علی طول السنین والأیام. ولقد لاحظ الدكتور محمد منسدور محق فی مسرحیتی شوقی الأخیرتین (أمیرة الأندلس و الست هدی) أمراً فی مسرحیتی شوقی الأخیرتین (أمیرة الأندلس و الست هدی) أمراً الشعر أحق بها، وكتب الأولی نثراً مع أنها تروی حیاة سیدة تعیش فی حی الشعر أحق بها، وكتب الثانیة شعراً مع أنها تروی حیاة سیدة تعیش فی حی المحنی بالسیدة زینب بالقاهرة، وقد كان النثر أولی بها، لاسیا أن شوفی قصد بها إلی الإضحاك، ولكن مما یذ كر لشوقی أنه استطاع بشعره السهل الخفیف أن یؤدی كل أغراض هذه (الكومیدیا) التی تكشف عن أن (شوقی)

كان قد عقد العزم على أن يهب المسرح البقية الباقية من حياته ، وقد ترك عند صديقه الدكتور سعيد عبده مسرحيتين هما (البخيلة) و (محمد على الكبير). ولا شك عندنا في أن موهبة شوقى كشاعر مسرحى كانت ستنضج على نار النقد والتجربة ، ولكن حسبه أنه سلك هذا الطريق الشائق الشائك ، وترك لمن يأتون بمسده ، أن يفيدوا من تجاربه ، ويبدعوا خبراً منها . . .

#### \* \* \*

وبعد فهذه ملامح وقسمات من حياة شاعرنا الكبير ، أحمد شوقى ، ماحب أكثر شخصية أدبية فى الفترة التى نؤرخ لها ، عاش بيننا كأنه واحد من شعراء العصر الأموى والعباسى، بتناول أمورنا ، بأسلوبهم ، ويرثى عظاءنا على طريقتهم ، ثم يجدد فى اللغة والشعر ، وينفى عنها جمودها ، وركاكتها ، ورثاثة أساليبها التى أورثنا إياها المهد المثمانى المظلم ، وعهد الماليك المدم ، وعهد الاستعار الذى آلى على نفسه أن يقوض أسباب وجودنا ، وأن يقطع صلاتنا بأنفسنا وتاريخنا وآبائنا .

ولو اتسع علم شوقى ، وترامت نظرته إلى الحياة والوجود ولو بالقدر الذى تسامى إليه محمدا إقبال الشاعر الباكستانى، أو عبد الحق حامد الشاعر التركى ، ولم يقنع بهذه العظات المألوفة عن الموت والحياة ، لزاد فضله على أدبنا ولغتنا ، ولكنه أعطانا أحسن ماعنده ، وكان عطاء سخياً ، وبذلا كريماً ، وفضلا باقياً على الزمن .

## الفصىلكشاني

# حافظ ابراهم

لم ألق حافظ إبراهيم إلا مرة واحدة ، لقاء لم يطل لأكثر من عشرة دقائق ، وكان ذلك في سنة ١٩٣١ ، وكان مكان المقابلة ، قهوة الأنجلو في شارع شريف ، غير بعيد من البنك الأهلى الآن . .

وكان (حافظ) جالسا على مقمد فى هذا المقهى ، على الأفريز ، وفى يده على ما أظن عصا ، وإلى جانبه شاعر القطرين خليل مطران، وقد اقتربت منهما ، وأنا بعد شاب صغير نحيل لم أبلغ العشرين ، وكان حيائى ، يظهر بى فى مظهر المقتعم المتحدى ، لما أبذله من جهد فى إخفاء خجلى ، وإظهار نفسى فى صورة الواثق من نفسه الذى لا يهاب الناس .

وما كدت أحى شاعر النيل ، وأقول إنى ألتمس منه قصيدة لمشروع القرش ، حتى صرخ فى وجهى ، وكانى أطلب منه جنيها من ذهب ، وقال : مشروع إيه ؟

قلت: مشروع القرش . فنظر إلى خليل مطران ، وكأنه يطلب منه أن يعينه على فهم هذا القول غير المفهوم ، فاستفسر منى خليل مطران فى عبارة هادئة مشجعة ، ؛فشرحت له الفكرة وكنت قد شرحتها مراراً ، وألقيت فيها خطبا ، فبدا على خليل مطران الاهمام ، ثم الارتياح ثم نظر إلى صاحبه حافظ وقال : هذه فكرة جميلة ، وجديرة بالتشجيع ، وقد سبق إليها اليهود فى مصر فقد أنشأوا مؤسسات ، وشادوا مدارس ومستشفيات ، وبنوا ملاجىء ومكتبات

من صدقات صغيرة لا يصعب على الفقراء أن يبذلوها ، وأسموها «قطرة اللبن» . واستمع حافظ إلى حوارنا هذا ، وكأنه يسمع رطانة غريبة فلم يظهر عليه الاهمام ، ولم يشارك فى الحديث بحرف ، وقت ولا أذكر الآن ما إذاكنت قد ظنرت بوعد من حافظ بقصيدة أولم أظفر ، ولكنى ظفرت من مطران بالوعد، ثم بالقصيدة بعد ذلك ، والثابت الذى لاشك فيه أن (حافظ) لم يساهم فى الدعوة لمذا المشروع بشىء من نظمه أو نثره .

وقد كنت أتوقع هذا منذ تقدمت اليه بهذا الطلب ، فقد أساء الاستماع إلى ، وانصرف عنى وأنا أ تكلم وكان (حافظ) فى هذه الفترة قد أمسك عن نظم الشعر ، فيما عدا بعض أبيات كان ينشرها فى جرائد الوفد ضد حكومة إسماعيل صدق ، كانت قليلة الحظ من التوفيق ، فلم تصادف من قلوب الناس هوى ، ولم تجر على لسان ، ولم تحسب فى رصيد الدعوة ضد إسماعيل صدق وحكومته .

ولـكن اسم حافظ ابراهيم صافح أذنى منذكنت طفلا، في وقت لا أعرف فيه ماهو الشعر وماهو النثر ، لاماهو حافظ وماذا يكون .

فقد كانت أمى وأختى معجبتين بقصيدة حافظ فى الخليفة الثان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكانت أختى لا تكف عن ترديد أبيات منها بمناسبة وبغير مناسبة ، وهى تعمل ، أو وهى تقفز من جانب فى البيب إلى جانب أخرى . فلما كبرت ، بتى رنين هذه الأبيات فى أذنى ، وأصبحت أردد من حيث لا أدرى . شطر هذا البيت الذى علق فى ذا كرتى أكثر من سواه : « طعنت خاصرة الفاروق منتقا » .

ولما دخلت المدارس الابتدائية علمونا من شعر حافظ قصيدتين كانت أولاها من البساطة والسذاجة إلى الحد الذى هبطت معه إلى مستوى الزجل، فقد قال فيها حافظ:

# أرونى نسف مخترع أرونى ربسع محتسب

ولم أفطن يومذاك إلى أن إيراد هذه الكسور ، ليس من الشمر الجيد فى كثير أو قليل ـــ أما الثانية فكانت رثاؤه لإبنة الوزير أحمد حشمت باشا زوج عبد العزيز فهمى باشا والتى قال فيها :

يادرة نزعت من تاج والدها فأصبحت درة في تاج رضوان

ولما خطوت فى سنى العمر خطوات، ووقع نظرى على عدد مجلة الجلات التى كان يخرجها للرحوم محمود حسبب وكان على غلاف هذا المدد من هذه المجلة، صورة الحامى إبراهيم الهلباوى وتحتها أبيات منها

أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسناعلى يديك الحدادا

فقد كان هذا العدد خاصا بمذبحة دنشواى ، وتنفيذ حكم الموت فى الفلاحين الذين حوكموا فى قضتيها ، وشنقوا عدوانا وغدرا .

ولما خطوت خطوة أخرى ، وأصبحت من أنصار مصطفى كامل وأتباع مذهبه ، وأنا بعد طالب فى السنة الثالثة الإبتدائية ولم أتجاوز الثانية عشرة من عمرى ، أصبحت أحفظ من بين ما أحفظ من الشعر قصيدة حافظ على قبر مصطفى التى مطلعها .

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة فكبر وهلل وألق ضيفك جاثيا

ثم شببنا عن الطوق، وأصبحنا نقرأ الصحف فبات من معالم حياتنا الأدبية الفكرية، إسمان أحدها شوقى بك أمير الشعراء، وثانيهما حافظ بك إبراهيم شاعر النيل، ولم يكن فى حياتنا ندان كهذين الندين يقارن النساس بينهما ولا يشهيان من هذه المقارنة، ومع هذه المقارنة المتصلة، يقرأ الناس شعر هذا، و عر ذاك، و يحتفلان بكل ما يقولانه، و تعتبر القصيدة لأيهما حدث أدبى،

يشغل كل من يقرأ ، ، وأحيانًا من لا يقرأون أيضًا .

وبقينا زمنا لا نعرف من حياة هذين الكبيرين إلا أقل القليل ، حتى لكأنهما ولدا هكذا: رجلان كبيران ناضجان . ففيا عدا أن شوق ننى خلال الحرب العالمية الأولى لأنه كان شاعر القصر ، وأن الثانى يعمل فى دار الكتب لم يكن يتصل بعلمنا عن حياتهما شىء . وكان أقصى ما نصل إليه فى هذا الشأن هو أن شوقى عي لا يكاد يبين إذا تكلم ، وأن حافظ خفيف الظل ، سريع البديهة ، حلو النكتة ، وأن حديثه أشهى من شعره . كل ذلك لأن الترجمة للاحياء ، بل للأموات من المعاصرين لم تكن معروفة فى تلك الأيام .

وقد لا أكون مغاليا إذا قلت أن أول ترجمة كاملة لحياة حافظ إبراهيم، هي هذه النرجمة التي كتبها الأستاذ أحمد أمين تقديماً لديوان حافظ إبراهيم، الذي نشرته وزارة المعارف العمومية في سنة ١٩٣٧.

\* \*

على أن حياة حافظ إبراهيم ،كانت خالية من الحوادث الجسام ، حتى بمكن إجمالها في سطور قليلة ، دون أن يكون في هذا الاجال ، تجن على صاحب تلك الحياة أو هضم لحقة .

فقد ولد محمد حافظ إبراهيم في سنة تقع بين سنة ١٨٦٩ وسنة ١٨٧٧ ، على ظهر ذهبية كانت راسية على شاطىء النيل عند قناطر ديروط حيث كان يعمل أبوه المهندس ابراهيم فهمني ، ويقال أن إقامته على ظهر هذه الذهبية كانت هدية من صاحب الذهبية محمود سليمان باشا صاحب الأطيان الواسعة في البداري وأبو تيج وساحل سليم .

وتوفى والد حافظ وهو بعد فىالرابعة ولم يترك لزوجته و إبنه مالا ، فحملت الأم طغلها ، ولجأت إلى بيت أخيها المهندس محمد نيازى بك . ولما شب حافظ

عن الطوق ، ألحق بمكتب لتعليم الصبيان كان يسمى المدرسة الخسيرية ، وكمان مقره بالقلمة ، ثم نقل منه إلى مدرسة القربية ، ثم إلى الخديوية ، ولم يحصل في هذه المدارس جميعاً شيئاً له قيمة . ولما نقل خاله إلى طنطا مهندساً للتنظيم فيها ، صحب معه أخته وابنها حافظ ، ولم يبد أن حافظ قد نهياً فيها لتحصيل العم أكثر مما نهيالدلك في القاهرة ، فقد بتى قليل الصبر على الدرس، ضعيف الإهمام بالكتاب ، ولكنه كان كثير التردد على المسجد الأحمدى حيث مجلس كبار الشيوخ إلى أعمدة المسجد ، فيتحلق حولهم التلاميذ ، مختارين غير ملزمين بنظام، ولا مقيدين بقانون يسمعون إلى الأستاذ الذي يختارونه ، في الوقت الذي يحبونه فير تبطون به ، ويلزمونه و يصبحون له لاتلاميذ فحسب ، بل وأتباعا ، وأبناء ، فير تبطون به ، ويلزمونه و يصبحون له لاتلاميذ فحسب ، بل وأتباعا ، وأبناء ، محتى أنهم يترددون عليه في البيت ، يسمعون منه ، ويقرأون عليه ، ويقضون بعض حوائجه ، ويلتمسون منه النصح والهداية ، في شئون دنياه ، كا يلتمسون منه الإرشاد والتوجيه ، في شئون عقولهم وما يدرسون .

وقد طاب لحافظ ابراهيم ، أن يتنقل هكذا بين الشيوخ ، وأن يسمع من هذا ، ومن ذاك ، وأن يختلط بالتلاميذ ويلتذ بحوارهم ، ويشارك فيما يقولون ، وكانت موهبته الشعرية ، قد بدأت تعلن عن نفسها ، بحبه الشديد لكل ما هو أدب وشعر ، وقد صور هذه الحقبة من حياة حافظ الشيخ عبد الوهاب النجار ، وكان من أصحاب حافظ فها فقال .

«عندما عدت من القرشية إلى طنطا في شعبان من تلك السنة ، رأيت إخواني وأصدقائي يلوذون بفتى غض الأهاب ، جديد الشباب ، وقد أسرعوا بتقديمي إليه ، وتقديمه إلى الأماسم الأديب الشاعر محمد حافظ إبراهيم ، ولم تمر إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسي ميلا إليه بجاذب من الأدب الذي

كان نهمة نفسى ، حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه ، وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة ، وبديهة مطاوعة ، وسرعة خاطر ، وحضور نادرة .

وقد قضينا رمضان هذه السنة نصلي المغرب والعشاء والتراويح مما ، ثم نابث في سمر ممتع ، ومطارحة للشعر ، ومذاكرة في نوادر الأدب ، وماكان يطرفني به مما يقف عليه من جيد القريض ، إلى أن يأتى وقت السحور ثم نمود بعد السحور إلى ماكنا فيه إلى انبثاق الفجر . فنؤديه ثم نخرج بغلس إلى خارج اللدينة . ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع ، فيذهب كل منا إلى ييته »

ولكن خال الشاعر الشاب لم يكن غنياً إلى الحد الذي يدع فيه ابن أخته هائماً في دنياه: متنقلا بين دواوين الشعر ، مشغول الخاطر بنوادر الأدب ، يقرؤها ثم يرويها ، ويسمعها من غيره ، ويضمها إلى محفوظه ، ولوكان خاله غنياً لما أرضته هذه الحال ، فلم يكن الشعر ولا الأدب بحرفة مجزية في ذلك العهد ، بل لم تكن حرفة بحال ، وهي إلى الآن ، لاتؤكل صاحبها طعام يوم واحد ، إلا إذا قامت إلى جانبها حرفة أخرى متصلة بها ،أو قريبة منها ، كالصحافة ، أو التعليم ، أو الترجمة دع عنك الاستجداء به وأحس حافظ أنه عب على خاله ، وأن أهل البيت يعدونه خائباً لاأمل فيه ، فعزم على أن يطرق أبواب الرزق بعيداً عنهم فكتب خاله يقول :

ثقلت علیك مؤونتی أنی أراها واهیة فأفرح فإنی ذاهب متوجه فی داهیة.

وكأنما كان حافظ يتنبأ ، فقد ذهب فعلا إلى دواه لا داهية واحدة فقد وقع اختياره على مهنة المحاماة ، إذ اتصل لسبب غير معلوم لنا ، بالشيخ محمد الشيى، وكان من كبار المحامين في طنطا ، منح بعد ذلك لقب البكوية ، الأمر الذي يدل على ثرائه و مجاحه في عمله . وأغلب الظن أن الشيوخ الذين تعرف عليهم

حافظ فی المسجد الأحدی ، تحدثوا باسم حافظ أمام الشیخ الشیمی ، فعرف منهم أنه حاضر الخاطر ، ذلق اللسان ، حلو الحدیث ، فاعتبر هذه من مؤهلات المحاماة فی تلك الأیام التی لم یكن یطلب فیها من الراغبین فی امتهان ذلك العمل شهادة من معهد ، ولا دراسة فی مدرسة . ولكن المحاماة لیست كلاماً فحسب فهی قراءة لأوراق المدعین ، وفهم لأسباب منازعاتهم ، وضبط للنفس وقدرة علی المناورة والمداورة ، وصبر علی القضاة الذین یتأخر بعضهم فی فتح الجلسة ، والذی یضیق صدر الآخرین منهم بكلام المترافعین ، ولو كان حدیثاً حسلوا كدیث حافظ ، والراجح أن حضور بدیهة حافظ ، وانطلاقه علی سجیته ، كدیث حافظ ، والراجح أن حضور بدیهة حافظ ، وانطلاقه علی سجیته ، كانا یتخلیان عنه فی قاعات الحاكم ، فملكة الفكاهة والسخریة عنده ، لاتوافیه عددها ، إلا إذا اطبأنت نفسه ، ورأی الناس مقبلین علیه محتفین به ، عارفین قدره ، راغبین فی الاسترادة من ظرفه و مده ... لایقاطمونه و لا یتجهمون فی وجهه . ولذلك فإن عهده بمكتب الشیخ الشیمی لم یطل ، فقد ترکه ، مسجلا هذا العهد القصیر ، ببیتین من شعره قال فیهما :

جراب حظی قد أفرغته طمعاً بباب أستاذنا الشيهی ولا عجبا فعاد لی وهو مملوء فقلت له مما ؟ فقال من الحسرات و احربا

ولكن يبدو أن فشله عند الشيمى ، لم يبؤسه من المحاماة ذاتها ، فقد كانت أقرب المهن إلى مواهبه واستعداده ، ولو منح من فضيلة الصبر ، قليلا ، لبقى من جنود المحاماة ليصبح من قادتها ، ولكسبته إلى النهاية كاكسبت الكثيرين غيره من كبار المفكرين والخطباء لافى مصر وحدها ، بل فى العالم بأسره ، و قصصد حافظ مكتب محمد أبو شادى بك ، وكان فوق اشتغاله بالمحاماة ، التى بلغ فيها أقصى غايات الشهرة فى أيامه ، مشغول البال بالصحافة ، فقد أصدر جريدة (الظاهر) التى لم تعمر طويلا . ولم يطل صبر بالصحافة ، فقد أصدر جريدة (الظاهر) التى لم تعمر طويلا . ولم يطل صبر

حافظ كالمادة فترك مكتب أبي شادى ، وإن لم يترك المحاماة أبضاً فطرق باب عام ثالث هو عبد الكريم فهيم ، وكا نها الثالثة الثابتة التي نقول عنها في أمثالنا، فقد تمت في هذا المكتب القطيعة بين حافظ و المحاماة ، ووجه وجهه إلى مهنة تبدو أنها من المحاماة ، النقيض . ألا وهو العمل في الجيش . المحاماة ، هي الجدل والمكلام والحرية ، والجيش هو النظام والطاعة والقيود . ولكن في كليهما مجال لمن يود أن يصول ويجول ، ويهاجم ويدافع ، ويضع الحطط ، وبنازل الخصوم ، ويكسب المعارك أو يخسرها .

لحق إذن حافظ بالمدرسة الحربية سنة ١٨٩١، وتخرج منها بعد بضعة شهور، وعين عند تخرجه برتبة الملازم الثانى ثم رقى إلى رتبة الملازم أول فى أول أعسطس سنة ١٨٩٤ وبقى ضابطاً بالجيش حتى السادس من مايو سنة ١٨٩٤، ثم نقل إلى وزارة الداخلية حيث عمل ملاحظاً لمركز بنى سويف ثم ملاحظاً لمركز الإبراهيمية ، ثم أعيد إلى وزارة الحربية ، فأحيل إلى الاستيداع حتى سنة ١٨٩٦، ثم أعيد إلى الخدمة العاملة ثم أحيل ثانية إلى الاستيداع ، وكان راتبه وهو على الإستيداع أربعة جنيهات لم تكف حواتجه ، فطلب إحالته إلى اللماش ، فأجيب إلى طلبه .

ولم تكن أكبر حوادث حياة حافظ إبراهيم ، وأحفلها بالتماسة والشقاء ، هي سفره إلى السودان في سنة ١٨٩٦ ، مع الجيش . فقد أعيد إلى الخدمة بعد إحالته إلى الإستيداع ، لحاجة الجيش إلى ضباط يسافرون مع كتشنر القائد الإنجليزى للجيش المصرى ، وكان من نصيب الكتيبة التي كان حافظ من ضباطها أن تعمل في شرق السودان ، فعمل في طوكر وسواكن \_ وكانت طوكر في تلك الأيام منفى ، يعاقب المذنبون بإرسالهم إليه ، حتى لقد جرى على ألسنة المصريين بجرى المثل : « أوديك طوكر » ، «ويعني أنا رايح طوكر وهكذا . . . » .

وقد عرفنا مما سبق أن (حافظ) كان ملولا لا يطيق أن يصبر على ممل واحد، ولو كان قراءة كتاب، أو سماع درس، أو مطالعة قضية، ومن هنا نمن قادرون على تصور العذاب الذى اصطلاه حافظ فى تلك البقعة من السودان، حيث كانت إقامته فى خيام، ومع ضباط لا يألفونه، ولا يألفهم. وفى وقت كانت فيه الأمور فى السودان قلقة، ومخاطر الثورة على المصريين والإنجليز بادية فى الأفق. ولذلك فقد تلتى (حافظ) فى تلك الأيام أول دروس الشكوى من الزمان، والتبرم محظه. وبدأت نفسه تميل إلى النشاؤم، وتمتلى وبدواعيه، وكانت الأيام تزيد هذا الميل عنده، كلما أحس بأن قدمه فى دنيا الشعر ثبتت، واسمه فى عالم الأدب ارتفع وصلته بالعظاء توثقت، وحظه فى الوظيفة والرتب، باق لا يزيد كثيراً، وهو تواق إلى مزيد من الراحة والمال، والسلطة والنفوذ، باق لاجباً فيهما ذاتهما، بل فيا بجلبان على صاحبهما من المال والراحة.

ولم يكن — حافظ كما يمكن أن نتصور — على صلة طيبة بقائده ، ولذلك لم يتردد في أن يسخر منه ببيتين من الشعر قال فيهما :

تراه إذ ينفخ في المزمار تمسبه في رتبة السردار يجتنب العاقل والنبيها ويعشق الجاهل والسفيها.

ولما كان الإنجليز على خوف دائم من أن يتمرد عليهم الجنود السودانيون، فقد أمر كتشنر، بأن تجرد الفرق من أسلحتها ، إلا أن فرقة سودانية رفضت أن تسلم أسلحتها ، واستردت ما أخذ منها من السلاح عنوة ، فغاظ ذلك كتشغر وقد وصف حافظ هذا الحادث في كتابه ليالي سطيح فقال :

« فعظم الأمر على مساحب الأمر ، وكادت تخلع شعبة مهجته هلماً ، ويقطع نياط قلبه جزعاً. وتمثل له شخص واشنجتون ، وفي يده علم الاستقلال ،

وصار به الوهم إلى (لادسميث)<sup>(۱)</sup> فانحلت منه الأوصال ، فجمع نفراً من قومه وشاورهم فى الأمر ، فأشاروا عليه بالتماسك وأن يتراءى للجنود فى هيئة المتفقد للشئون، للستخف بالكوارث .

« فخرج وهو قلق الشخص على جواده لايصحبه حرس ولا يماشيه أحد من قومه ، وكان يكون معه عند جولة يجولها من خاصته من يقوم بتبليغ مشيئته وإمضاء أمره .

«فا زال يستقرى الوجوه والأبصار ، وهو كلا مر بقوم تراجعت أقدامهم، والتصقت أيديهم بجباههم وانتشرت على وجوههم طبقات من الخشوع . حتى إذا صار بمكان الموقعة وقد طرح عن منكبه رداء الفزع . فإذا جيش من النسوة يموج بعضهن في بعض ، وفي يد كل واحدة منهن هراوة . فما هو إلا أن طلع عليهن حتى عطفن عليه يعبسن في وجه جواده . فأشفق أن يصيبه عنت منهن . فلوى رأس جواده وأخذ بحثه هربا وما زال يركضه مل ووجه حتى وصل فلوى رأس جواده وأخذ بحثه هربا وما زال يركضه مل فروجه حتى وصل الى دار حكمه . فلما أمن في سربه أصدر مشيئته ثانيا بإبقاء الذخيرة في أيدى الجنود حتى يؤتى لهم بسواها من حديثة العهد بالوجود . »

وقد اتهم الإنجليز بعض الضباط المصريين بأنهم كانوامن وراء هذه الفتنة . وأنزلوا العقاب بمانية عشر ضابطاً كان حافظ إبراهيم منهم ، فأعيد إلى مصر . وكان كرومر يعتقد أن الخديو عباس كان المحرض على ذلك التمرد ، فألزمه أن يستدعى الضباط المعاقبين وأن يو بخهم على تمرده ، إذلالا لعباس ، وإيئاساً للثائرين في مصر والسودان منه . وقد قبل الخديو أن يو بخ هؤلاء الضباط بكلات كتبها كرومر بنفسه ، وترجمت إلى العربية ، حتى ينغى عن نفسه تهمة التحريض والمشاركة في هذا التمرد .

<sup>(</sup>۱) مدينة في جنوب أفريقيا حوصر فيها القائد الإنجليزي وقد ضربت جيوش البوير هذا الحصار .

(م ٩ — عصر ورجال )

ويقول الأستاذ أحد أمين أن هذا الحادث أثار حافظ ، وملا عليه يأما ، ولكنا نحسب أن حافظ كان سعيداً بإعادته إلى مصر ، أيا كان السبب ، فقد كان يطير صوابه ، من فرط ما كان يعانيه من قيظ السودان ، وشظف العيش ، ولا أدل على حالته النفسية من قوله أنه كان يكتب استقالته فى الظهر ، فإذا هبت نسات الأصيل ، مزتها .

وكان حافظ قد عرف الشيخ محمد عبده قبل سفره ، فكان يرسل إليه مستفيئاً طالباً منه أن يعيده إلى مصر . ويعود إلى مصر ، كا كان يتوق ، ولو أنه يعود مطروداً ، ومعاقباً ، فلا يجد علا ، ويحاول شوق الشاعر ، بدافع من نفسه عطفاً على هذا الشاعر الفقير ، والضابط المعزول ، أو بإيحاء من الخدبو عباس الذي كان على الراجح من خلف تمرد المتمردين في السودان ، فيقصد جريدة الأهرام ، ويرجو صاحبها أن ياحق (حافظ) محرراً بجريدته ، ويعد صاحب الأهرام ، ولكنه لايني ، إما خوفاً من أن يلحق بجريدته ضابط حكم عليه الإنجليز ، وإما لأنه لم يكن يظن أن جريدته ستفيد شيئاً من هذا الضابط عليه الإنجليز ، وإما لأنه لم يكن يظن أن جريدته ستفيد شيئاً من هذا الضابط الذي لم تكن مواهبه الأدبية قد أعلنت عن نفسها بعد .

وضاقت الدنيـــــا فى وجه حافظ وراح يشكو زمانه ، ويندب عثار حظه ويقول :

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما وعدت وما أعقبت إلا التندما ثم قال:

فهبى رياح الموت نكباء واطنى مراج حياتى قبل أن يتحطا . ولم يكن أمامه إلا أن يغشى مجالس الشيخ محمد عبده ، ملتمسا إزجاء وقت الفراغ ، ومؤملا أن يقيل الشيخ عثرته ، وقد بقى عاطلا بلا عمل ، حتى ألحة أحمد حشمت وزير المعارف ، بدار الكتب، رئيسا كلقسم الأدبى فى الرابع عشر

من مارس سنة ١٩١٦ تحت الاختبار ثم ثبت فى وظيفته هذه فى اليوم الأول من أبريل سنة ١٩١٦ . وبتى فى دار الكتب حتى أحيل إلى المعاش فى الرابع من فبراير سنة ١٩٣٢ ، لم ينقض على إحالته على المعاش سوى أربعة أشهر وبضعة أيام ثم وافاه أجله فى الحادى والعشرين من يوليو سنة ١٩٣٧ فى ييت صغير بضاحية الزيتون ، ولم يكن معه سوى خادمتين عجوزين ، كانتا فى خدمة زوجة خاله . وكان فى ليلة وفاته قد دعا صديقين من أصدقائه ليشاركاه الطمام ولكنه أحس ببعض التعب ، فأكلا دونه ، وقنع بالجلوس معهما على المائدة ، ولما تقدم الليل ، زاد التعب عليه ، وأسرعت إحدى خادمتيه إلى صديقه عبد الحميد البنان التاجر ، فقدم على عجل ، ومعه الطبيب ، ولكنهما حينا وصلا كان حافظ قد أسلم الروح وانتقل إلى رحمة الله .

\* \* \*

فها أنت ذا ترى أن حياة حافظ ، تكاد تكون خطا مستقيا ، لا يتعرج ، ولا ينتنى فنذ أن دخل خدمة الحكومة ، بتى فيها ، لا يسامها ، ولا يسبب للعكومة تعبا ، ولا تسبب له تعبا . وهو فى خدمة الحكومة لا يعنيه إلا الراتب يقبضه ، فى غير مقابل من عمل يؤديه ، فزملاؤه فى العمل ومؤرخوه مجمون على أنه لم يكن يباشر شيئامن اختصاصات وظيفته ، وأن غيره من الزملاء كانوا يقومون بواجبه عنه ، وأنه لم يكن يحترم موعداً من مواعيد الحكومة ، ولم يكن يطيق أن يبتى فى مكتبه ، فأكثر أوقات العمل يقضيه فى القهوة العثمانية التى تقع فى الجانب يتحى فى مكتبه به فأكثر أوقات العمل يقضيه فى القهوة العثمانية التى تقع فى الجانب الآخر من الشارع الذى يقوم فيه مبنى دار الكتب . فإذا اضطر إلى الذهاب إلى مكتبه لبعض الوقت ، قال لعمال المقهى ، إذا سأل عنى أحد ، قولو اله إنه راح مكتبه لبعض الوقت ، قال لعمال المقهى ، إذا سأل عنى أحد ، قولو اله إنه راح الكتبخانة وراجع حالا . بل أن أحد مؤرخيه يؤكد أنه لم يكن يطيق أن يعد مرتبه الذى يأتى به له فى أول كل شهر أحد سعاة دار الكتب. «فكان يخطفه من خطفاً ولما استمر على هذه العادة شهراً بعد شهر ، جعل هذا الساعى ، ينتقص من خطفاً ولما استمر على هذه العادة شهراً بعد شهر ، جعل هذا الساعى ، ينتقص من خطفاً ولما استمر على هذه العادة شهراً بعد شهر ، جعل هذا الساعى ، ينتقص من

المرتب جنيها أو جنيهين ، وحافظ ساه عن هذا ، حتى جمع الساعى مع الزمن ثمن فدانين » .

فإذا انتهت ساعات العمل، انطلق حافظ من المقهى إلى داره أو إحدى و أصدقائه ، أو أحدالمطاعم الشهيرة بأ كل أكلا كثيرا ، وشهيا ودسما. ثم يدخن السيجار الفاخر بإسراف ، فيستهلك فى اليوم الواحد ماقيمته جنيه في وقت كانت فيه قيمة الجنيه أضعاف أضعاف قيمتها بعد الحرب العالمية الثانية ، ثم هو لا ينظم الشعر إلا قليلا ، فقد سكت عن نظمه منذ لحق بالعمل فى دار الكتب ، فنم كان يصرف إذن كل وقته ، وماعساه يكون لديه من حيوية : الحديث السهل الخفيف ، الضاحك ، المسلى ، الذى يحتوى على قدر كبير من النكت الحفوظة ، والمرتجلة ، يديره فى بيوت أناس أكثرهم من الفارغين الذين أفاء عليهم الحظ المال الكثير ، فأغناهم عن العمل ، وأصبحت حياتهم دعابة مستمرة . هذه عياة حافظ ابراهيم اليومية ، التي وصف فيها بأنه بارع النكتة ، وحينا تقرأ هذه ( النكت ) تحاول أن تتبين وجه البراعة فيها ، فلا تجد ، فهسى من هذه النكت المألوفة التي يكررها هواة الدعابات الثقيلة والسوقية ، والتي تعجب ان يكون ارتجالها ، النشاط الأعظم لشاعر كبير كحافظ ابراهيم

روى الأستاذ أحمد محفوظ أنه حضر حواراً بين حافظ وعبد العزيز البشرى في أيها أجل من الآخر فلما احتدم الحوار قال حافظ للبشرى « أنت تبعى في المراية وترمى عضمه » فقال له البشرى « داوش ينفسل ، دا وش ينكنس » فقال حافظ « في ذمتك أمك باستك كام بوسه » فقال البشرى « دى دايت كانت من بتوع يارفاعي مدد »

. . .

ودعا حافظ بعض أصدقائه لتناول طعام الافطار معه ،وكان من بين الملعوين الشيخ عبدالعزيز البشرى ، الذى قبل الدعوة وحضر فى موعدها ، أما الآخرون

فقد تأخروا ، فجلس حافظ والبشرى يأكلان ثم حضر المدعوون ، فنظر اليهم حافظ وأشار إلى البشرى وقال« لامؤ اخذه لما شفتكم اتأخرتم جبت فقى البيت يفطر معاى »

والحق أن حياة حافظ كلما، كانت نكتة من هذه (النكت)، فهى حياة تتابع فيها الأيام، بلا جهد يبذل، وبلا عمل يؤدى، وبلا شاغل مر هموم الوطن أو أحزانه، يشغل نفس الشاعر، أو يحفزه الى قول، أو يدفعه إلى نظم.

وصفه الأستاذ محفوظ وصفا ترتسم لنامنه صورة أظهر ملامحها إنه ضخم طويل ، عظيم الأنف ، مستهدل جلد العنق، والوجه، بعد أن تخلى عنه شعم الشباب خفيف الشارب ، كا أنه خيط ملتصق بشفته العليا ، ومن عاداته أن ينتف مقدم ذقنه بأظافره ، و بمشى كا أنه مقيد في أنحناءة يسيرة ، ضخم الصوت إذا تحدث فكأنه يتجشأ ، إتسعت عليه ثيابه ، فلاح فيهاكأ نه (عفريت المقاته ) . طويل الأصابع ، طويل الأظافر ، لا يستبدل قميصه بآخر إلا بعد الزمن الطويل ، فهو في اتساخ اكمامه يشبه عاملا في المطبعة. قميصه منشى ، وياقته منشاة ، وأكمام قميصه كذلك ، لم يرقط إلا (بياقة )مثنية الأطراف احاطتها ربطة عتق ظاهرة كلما للميون. ربما انثت ربطة عنقه يمينا أو شمالا فيتركها غير عابيء، فهو بعيد عن الاناقة بعدوجهه عن الوسامة ، يلبس جوربه أياما طوبله ، فإذا كرهه اسنبدل آخر به ولم يفسله ، ولم يلبس إلا الثياب الغالية . ولكنه يهملها فيفقدها قيمتها . يتوكاً على عصا من الخيزران غليظة ، انثني رأسها انتناءة واسعة وقد غطى الرأس بالعاج المنقوش بأسلاك نحاسية ، يلبس (صديريته ) صيفا وشتاء . يلبس معطفًا أزرق ( بباقة ) من القطيفة الررقاء ،يعلوها وسخَّأُ حال لونها إلى لون النحاس

كان يضيق بالصيف وحر القاهرة ، فهو يلبس الأبيــض الخفيف . وفي ذات يوم من أيام مايو ،وكان قائظ الحر ،كان حافظ جالسًا مع صاحبه على

باب مقهى ، فدخل عامل القهى ، يحمل لموحاًمن الثلج ، فنظر الى صاحبه وقال تعرف أنا باتمنى إيه الوقت ؟ أنا عايز أبقى لوح ثلج زى ده . »

كان لا يخلع الطربوش عن رأسه قط ، فإذا كان فى المنزل ، وضع مكانه طاقية . يلبس منظاراً سميكا من الزجاج ، بإطار ذهبى ، وكان من عادته أن ينظر إلى محدثه ، عند الدهشة أو التحمس فى الحديث،أو إذا أراد أن يدقق فى وجد جليسه ، ان ينظر من فوق إطار النظارة بعينين كليلتين

حذاؤه ضخم من الصنف الإنجليزى من غير عنف؛ مشدود الجوارب بحمالة لم يلبس فى حياته ( بيجامة ) إنما هو جلباب من الكستور فى الشتاء ومن التيل أو البفتة فى الصيف

يجب الطعام الدسم حباجما ، وكانت زوجة خاله طباخه ماهرة . وكان يستقبل الكثير من الضيوف في داره ، ويكرم وفادتهم . كان يحب تدخين السيجار الغالى، ولا يدخن غيره إلا الترجبله ولكنه يسرف في تدخين السيجار حتى ليدخن في نصف يوم كا قلنا بما يساوى جنيها، في وقت كان مرتبه فيه لا يتجاوز ٤٠ جنيها .

ويقول الأستاذ محفوظ أن ( حافظ إبراهيم ) حدثه أنه كان فى شبابه يشرب الخر ، ولكن حينا أدركه الأستاذ محفوظ كان لا يشرب إلا كاسات قليلة من كونياك نابليون ، وكان يزعم أن هذا الشرب ، يخلق القوة و الحيوية . وكان لا يضن به على أصحابه إذا زاروه .

ويقول الأستاذ محفوظ أيضاأن (حافظ) كان ساذجا سذاجة تكاد تلعقه بالبلهاء ، من الأمثلة على سذاجته أن الشاعر أحمد نسيم ، سمع من حافظ قصيدة كان بسبيل نظمهافعلق أكثر أبياتها برأسه ثم نشرها في إحدى الصحف مع أبيات له في قصيدة مدعيا أن القميدة كلها من نظمه ، فلما رآه حافظ هاج وهم بصفعه لولا أن الشاعر نسيم بادره بقوله : « ياحافظ بك إن ما كنتش آخد الشعر

منك أنت آخذه من مين ، هو فيه اشعر منك في مصر؟، فتهلل وجه حافظ وقبله وهو يقول : « بارك الله فيك » .

وهذا تصرف يدل على طيبة القلب لا على السذاجة المفرطة ، ومن مثل ذلك أن أحمد فؤاد صاحب جريدة الصاعقة ، كان يسب (حافظ) في جريدته ، وبلوثه بمفتريات لا أصل لها \_ وكان حافظ إذا قرأ هذا الكلام ، هاج هائحه فإذا لقيه أحمد فؤاد ، أقبل علية معتذراً ، فيقبل عذره وسامحه .

كان كسولا ضجراً يكاد لا يمد يده للناس للسلام . وكان إذا حل محل الدر الأصلى لدار الكتبعندغيابه، وقع الأوراق دون أن يقرأها، وإذاعرضت علمه الأوراق، في مكتبه أو إذا حملت إليه في المقهى كان يستمجل الموظف، فإذا فرغ هذا من العرض ، تنهد تنهدة الراحة وكأنه أفلت من سجن .وكان الوهم يطارده ،ويسود حياته،فقد كان يتوهم أنه مريض،ويتوهم أنه فقير ، وكان يتوقم في كل مناسبة أنه سيعزل من عمله فكان بعد الإستقالة في جيبه ويتهيأ للخروج ويسأل عن الفرق بين المرتب والمعاش ويقول: « الرزق على الله »وكان سبب خوفه من الإستقالة إماله لعمله ، وانقطاعه عنه أياما طويلة ، فإذا عاد إلى دار الكتب ، لم يحتمل البقاء في مكتبه ، جال بابهائها جولة قصيرة ،ووقف يضاحك هذا ويمازح ذاك ثم انصرف. وإذا لبث في مكتبه بعض الوقت ، كان ذلك شراً من العمل، فهو لا يعمل ، ثم يكون \_ وجوده في مكتبه داعيا لمرؤسيه من الموظفين لأن بهجروا مكاتبهم ، ويلتفوا حوله ، يسمعون نوادره ، ويضحكون ، ويسمعونه توادرهم، ويقول الأستاذ محفوظ أن ( حافظ )كان رعديداً برعبه الخوف من التوافه ، وقد روى قصة طويلة ختامها أن حافط خرج من دورة المياه أقرب ما مايكون من العارى ، لأن بابها كان مخلوعا ، فأسند صديقه الباب إلى الجدار حتى يتضى حافظ حاجته ، فتزحزح الباب من مكانه قليلا ، فخرج حافظ ، وهو يحسبان الباب سيقع عليه ويشج رأسه ، وكانت الدورة فى سطح منزل ، وكان بالسطح غسالات ينشرن غسيلا ، فلما خرج عليهن حافظ بهذه الصورة المغزعة صرخن، ولما رويت هذه الحكاية لشوق ، ضحك حتى ألقى طربوشه على ركبته.

ولكن هذا الرعديدكان كريما يعطى الناس ، إذ رأى أوسمم أنهم محتاجون ولو لم يسألوه ، وكان يعطى فوق ما يطيق ، أرسل إلى جارة فقيرة له ، وهى تمانى آلام المخاض عشرة جنيهات ، وكان مرتبه آنذاك أربعين جنيها .

ويروى حافظ أنه كان يركب عربة أجرة فرأى فى الحطريق الصحفى طانيوس عبده فناداه ودعاه للركوب معه ، فلما ركب طانيوس ، قال لحافظ أنه فى حاجة إلى جنيه ، ولم يكن معه سوى جنيه فأخرجه من جيبه بلا تردد ، دون أن يفكر فى أجرة العربة وكيف بدفعها للحوذى ، على أنه ما كاديترك طانيوس ، حتى نادى (حافظ) شخص تبين فيا بعد انه وكيل دائرة الأمير كال الدين حسين واستأذن فى ركوب العربة ، فأذن له حافظ ، فاكاد يأخذ مكانه إلى جواره حتى قال له إنه يبحث عنه منذ أيام لأن الأمير بنى لنفسه مدفنا ، وأراد أن يكتب على شاهد القبر شيئًا من الشعر ، وسأل متى يستطيع حافظ أن يقسدم الأبيات ، فعللب حافظ لتوه من الحوذى أن يذهب بهما إلى مقهى متاتيا فلما وصلا إليها، تظاهر بأنه سيدفع الأجرة ، فأبى وكيل الأمير إلا أن يدفع هو فتركه حافظ يدفع، تظاهر بأنه سيدفع الأجرة ، فأم لاه حافظ الأبيات المطلوبة ، فنقد حافظ عشرين جنيها ذهبا .

كا يروى حافظ أنه مرض يوما ولم يكن فى داره مال ، فعاده صديقه سيد باشا خشبه ولما هم بالانصراف قال له « إعدل المخدة دى ياحافظ » فلما انصرف الضيف رفع حافظ الوسادة فوجد تحتها ثلاثين جنها .

وكان عظيم الإيمان بالله ، ما يشتد فى جدال مع أحد أصدقائه ، فيقول له هذا الصديق ، ربنا موجود ، حتى يذهب غضبه ، وتهدأ نفسه ، وكأنه تذكر شيئا كان قد نسبيه .

وقد كان حافظ بعيش فى ظل هذا الإيمان ، ينفق من غير حساب، يطمئن إلى أن رزقه مكفول ، وإن كان لم يكف عن شكوى الحال ، ووصف البؤس، مع أنه كان مما يبعث به الحيى الرزاق من أموال، فى نعيم ومتاع . ولكن الشكوى من البؤس ، والدهر ، أصبحت لازمة من لوازمه ، ومجالا من محالات شعره .

وقد تزوج حافظ فى سنة ١٩٠٦ زواجا لم يعمر إلا شهوراً ، ثم لم تعاوده فكرة الزواج ، ولم يعرف عنه صلات بالنساء ، ولكنه كان شديد الإمجاب ، بالوجوه المليحة ، ولوكانت وجوه فتيان .

#### \*\*\*

ماهى خصائص هذا الشعر الذى أنتجه حافظ إبراهيم ، وملاً ديواناً من جزئين بلغت عدة صفحاته ستمائة أو يزيد .

أن أصدق مايوصف به شعر حافظ أنه شعر خطابي . فني هذا الشعركل ماني الأسلوب الخطابي ، واللغة الخطابية من من ايا وعيوب . فالخطابة الناجعة تستلزم العبارة السهلة الرنانة ، التي تخلو من الفكرة الغامضة ، أو المعنى الجليل فلغة الخطابة هي لغة التعميات ، التي تنأى عن التفصيلات ، والتي تقرع الأذن قبل أن تطرق القلب ، ثم هي تنأى عن العقل إلا قليلا ، وإذا خاطبت العقل حاولت مااستطاعت أن تستعين عليه بالسمع والقلب ، حتى تخدراه ، وتسلسلا قياده . فالسامعون الذين لا يطربون للخطيب ، لا ينقادون له ، ولا يطيقونه ، والخطيب الذي لا يرضى القلب ، لا يجتمع الناس حوله ، فهو لا بد أن يثيرهم ،

سواء كانت الإثارة للحب أر للكره ، للخوف أو للمفامرة . ولابدأن يكون الخطيب خفيف الظل ، حسن الأداء .

كان حافظ ، محدثاً ، تواتيه مواهبه ، عندما يرى الناس حوله ، وتجيش نفسه ، عندما يرى أثر كلامه فيهم ، وكان إلقاؤه لشعره ، عنصراً من أكبر عناصر نجاح هذا الشعر ، ولذلك فقد أصبحت لديه حاسة يدرك بها كيف يقع هذا الشعر من نفوس السامعين ، وأن يجمع في عبارته وصياغته ، ووزنه وقافيته وبحره و تكوينه ، كل ما يجعله خفيفاً على الأسماع ، سهلا على الألسن ، متداولا في الاجتماعات وبين أفراد الناس .

## قال الأستاذ أحمد أمين:

«كان (حافظ) يؤثر في الجمهور بإلقائه بالقدر الذي يؤثر فيهم بنفس شعره، لقد كان في نبرات صوته، وحسن إجادته في الإلقاء يلعب بعواطف السامعين .كان يلعب بها بألفاظه ومعانيه . ومن أجل هذا يحسن ألا يقوم شعر حافظ ومقدار أثره في الجمهور بمقدار مايقيسه قارىء لديوانه فهو بقراءته يفقد جزءاً كبيراً من تأثيره السحرى الذي كان يتركه في سامعه . ومن أجل هذا كان يطيل الوقت في تخير اللفظ الذي يحسن وقعه في السمع ،كما يتخبر الإنسجام فيتغنى بالبيت قبل أن يدخله في عداد شعره ، وينصت إلى جرسه ووقعه على سمعه قبل أن يبدأ بإيقاعه على أسماع الناس .

## ثم قال:

« قد كان يصنع البيت فيردده على أذنه بإنشاده اللطيف حتى يتبين موقعه من أذنه قبل أن يوقعه على آذان الناس ، ويتذوق موسيقاه بنفسه قبل أن يتذوقها الناس ، فكان يراعى موسيقى الطول والقصر ، وموسيقى الفخامة والرقة وموسيقى اللين والشدة ، ويواثم بين ذلك وموضوعه ، وبين ذلك

## ومعانيه وأغراضه ، فيوفق في ذلك توفيقاً كبيراً ،

فافظ كان يخطب الناس، وهو ينظم الشعر، فالمنى والعبارة، وللبنى والعياغة ، كلها فى خدمة أغراض الخطيب ، لا أغراض الشاعر، فلهذا خلا شعر حافظ من الأخيلة البديعة، ومن المعانى العالية ، وخلا من الوصف، وبعد عن المحكة ، وعن الشعر القصصى ، ونجح فى كل قصيدة تلتى فى الاجتماعات، حيث يمتشد الناس ، ويصفقون ، وتتعالى أصواتهم بالابتهاج والإمجاب ، فتسكر الشاعر الملتى ، وتجتمع له من ذلك كله نشوة .

ويمكنك أن تسأل ماهو أكثر مايلتي في المحافل من الشعر: إنه بلاشك شعر التأبين الذي يجتمع له أنصار العظاء الذين وافاهم الأجل، وشعر التكريم الذي يجتمع له المعجبون بالعظاء الذين واتاهم الحظ، وشعر افتتاح المباني الرسمية، ومهرجانات الجمعيات الحيرية. وفي هذا الحجال كان أكثر شعر حافظ. وفي هذا المجال، تفوق حافظ بإلقائه ثم بشعره. بإلقائة أولا، ثم بشعره الذي يسهل في الإلقاء، ويطاوع الحطيب الشاعر.

هذا مجل الرأى في شعر حافظ ، وهو رأى تدعمه حقائق حياته ، وقصائد ديوانه ، فأنت تنتقل من قصيدة رثاء ، إلى قصيدة تكريم ، إلى قصيدة دعوة إلى اكتتاب . . . ويؤيد هذا أولاحيماكان يكتب النثر ، كان يتجنب اللفظ السهل ، وببحث عن اللفظ الذي يراه أصدق تعبيراً عن المعني الذي يريده ، وقد روى الأستاذ أحمد محفوظ ، أنه استمر أياماكثيرة يبحث عن اللفط الذي يسمى به الجمهور الذي يشاهد المسرح أو الملهي عموماً ، وأنه مازال ينقب حتى المتدى إلى لفظ ( نظارة ) الذي نقل عنه وذاع بعد ذلك . ولما ترجم البؤساء لفيكتور هيجو ، ملاً هذه الترجمة بألفاظ ثقيلة فقد قال مثلا وهو يصف الحصان بأنه جواد : عظيم السليل \_ سحير ، أدك ، أهنع ، مفتوح اللبان .

وحافظ كان يفضل أن يجدع أنفه على أن يستعمل لفظاً واحداً من هذه الألفاظ في إحدى قصائده . ولذلك بذهب البعض إلى أن نثر (حافظ) في كتابه ليالى سطيح وفي ترجمته للبؤساء من الفرنسية ، أعلى مقاماً من شعره . فني النثر العناية باللفظ والمعنى ، وفي الشعر العناية بالموسيقي والديباجة .

ويتصل بهذا المعنى ، أن ثقافة حافظ ابراهيم أعانته على أن يكون الخطيب الشاعر ، وأن يكون شعره خطابياً . فإنه لم يتعلم فى مدرسة ، ولم يكل دراسة شىء ما . كان يلتقط ثقافته من أفواه الناس ، من حلقات المسجد الأحدى ، ثم من مجالس الزعماء الذين كان يتصل بهم ، فقد كان يغشى مجلس مصطفى كامل، وعلى يوسف ومحمد عبده ويسمع ما يقولونه ، وما يقوله الآخرون فى هذا الجلس فى شئون السياسة والاقتصاد ، وأمور الدولة وشواهد التاريخ ، وما يرونه من مجاربهم ووقائمهم ، وقد كان لحافظ نصيب من اسمه ، فقد كانت له ذا كرة قوية، ولعل مرد قومها إلى ما أخذ به نفسه من مطالع شبابه من حفظ الشعر . ومواهب الإنسان تقوى بالمرانة والمارسة .

والكتاب الوحيد الذي أدمن حافظ على مطالعته ، المرة بعد المرة ، هو كتاب الأغاني بأجرائه الأحد والعشرين ، فلما توفى حافظ إلى رحمة الله ، فلم يجدوا في بيته من الكتب إلا تذكرة داود ، وكتاب ابن سيرين في تفسير الأحلام ، والأول يحوى علاجاً للأدواء ، بأعشاب موجودة وغير موجودة إلا في خيال صاحبها ، والثاني وضع ليفسر الأحلام ، وانقضى على وضعه أكثر من ألف عام .

ولكن إن دل ذلك على ضحالة ما ظفر به حافظ إبراهيم من ثقافة إلا أنه يدل فى الوقت نفسه ، على مافى الثقافة العربية القديمة من قدرة على مد الموهبة الأصيلة بما يصقلها ويجليها ، فحافظ إبراهيم لم يقرأ إلا كتاب الأغانبي قراءة تأمل

ودراسة ، ودواوين الشعراء الكبار كالمتنبي وأبي العلاء وأبي نواس والشريف الرضى والعباسي بن الأحنف، وابن الممتز وابن هاني الأندلسي، ومعذلك استطاع أن ينتج هذا الشعر السهل الجيل الذي آنس المصريين في فترة كانوا في أشد الحاجة إلى شعر عذب ، يعيدهم إلى اللغة العربية ، ويعيد أساليب اللغة العربية إلى الإنصال بشئون الدنيا ، وبما يجرى فيها .

ولكن علينا أن نتساءل هل ( حافظ ابراهيم ) هو شاعر الوطنية حقاً ؟ لقد كان حافظ ابراهيم يسمى شاعر اللواء، وشاعر الوطنية، وشاعر الحزب الوطني ، فهل كان فعلا أهلًا لهذه الألقاب جميعاً .

إن التـأمل في ديوان حافظ ابراهيم يجد مثـــلا رثاء مصطفى كامل ، الذي مطلعه.

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة فكبر وهلل وألق ضيفك جاثياً ورثاء مصطفى كامل أيضاً الذي قال فيه :

نثروا عليك نوادى الأزهار وأتيت أنثر بينهم أشمارى زين الشباب وزين طلاب العلا هل أنت بالمهج الحزينة دارى غادرتنا والحادثات بمرصــد ماكان أحوجنا إليك إذاعدا أين الخطيب أين خلاب النهى طال انتظار السمع والابصار بالله مالك لا تجيب منادياً ثم رثاء ثالثا لمصطفى كامل فى ذكراه الأولى قال فيه:

والميش عيش مذلة وإسار عاد وصاح الصائحون بدار ماذا أصابك ؟ يا أبا المغوار

طوفوا بأركانهذا القبر واستلموا واقضوا هنالك ما تقضي به الذمم

ضاقت بآماله الأقدار والممم في الشرق فجو تمي ضوءه الأمم لطالب الحق ، ركناً ليس ينهدم هنا الشهيد هنا رب اللواء هنا حامي الذمار هنا الشهم الذي علموا

**من**ا جنان تعــالى الله بارۋه هنا فم وبنان لاح بينهما هنا الكمي الذي شادت عزائمه

ثم أنك تجد رثاء لمحمد فريد قال فيه .

مات ذو العزة والرأى الأسد حل بالجمعة حزن وأسى مشى الوجد إلى يوم الأحد

من اليــوم نحن فيــه لغـــد

إلى أن قال:

فى جوار الدائم الفرد الصمد إن (مصرا) لا تني عن قصدها رغم ما تلقى وإن طال الأمد جثت عنها أحمل البشرى إلى أول البانين في هذا البلد قد بذرت الحب والشعب حصد

قل لصب النيل أن لاقيته فاسترح واهنأ ونم فى غبطة

ورثاء لأمين الرافعي قال فيه :

وخطبه من صنوف الحزن ألواناً للراحلين من النسيان أكفانا

أما (أمين) فقد ذقنا لمصرعه لم تنسنا ذكراه الدنيا وإن نسجت نم قال:

لم يلوه المال عن رأى يدين به ولو حملت إليه الدهر ملآنا ولم يلن عوده للخطب يرهقه قسا عليه شديد العيش أم لانا ولكنك تجد في ديوانه ، مراثى لكل كبير أو مشهور مات ؟ فلم يترك رجلا ذا خطر ، سواء كان من أنصار الوطنية أو من خصومها ، بل أنه مدح أحمانًا رجالًا لا نعرف نحن خطرهم ولا دورهم ، فقد أبن ولدين لأحد المدير بن تأبينًا طويلا كاد يكمل الخسين من الأبيات ورثى أناسًا لا يعرفهم ، فقد أن مثلا تولستوى الذي يقول أصدقاء حافظ أنه لا يعرف عنه شيئا .

وقد يغتفركل هذا ، بأنه جاء بوحي من المجاملة لصديق أو زلفي إلى صاحب سلطان أو منافسة للأنداد فاذا كانت عمة سقطة ، فهي هينه ، لا تمس الضمير الوطني، ولكن كيف يجوز أن يسمى شاعر الوطنية من يؤين موتى كبار المحتلين، ويستقبل أحياءهم بالتحية والتكريم عند السفر والعودة . كيف يؤبن شاعر الوطنية الملكة فكتوريا ، وينظم رثاء في إدوارد السابع ، فاذا بلغه أن جورج الخامس مات ، أسرع فنظم بيتين مطلع قصيدة رثاء ، ثم يثبت أن الخبر كاذب فيتوقف عن الرثاء، فكأ نه يسابق القدر حتى لا يفلت منه ملك من ملوك انحلىرا، بغير تأبين حار، وبكاء مر.

إن هذا لأمر يميي في فهمه الإنسان ، كما يميي في فهم أن حافظ ابراهيم بقى يحتفظ بلقب شاعر النيل بعد كل هذه السقطات التي لا تفتفر .

لكى تكون على بينة وأنت تحكم على حافظ أوله ، بسبب مسلكه الوطني يجب أن نقدم لك رأيه في أهل وطنه مقارنًا برأيه في خصوم هذا الوطن وأعدائه والمعتدين عليه .

قال في قصيدته المعنونة « غادة اليابان » .

خاذلا مابت أشكو النوبا أمة قد فت في ساعدها بغضها الأهل وحب الغربا نفدى بالنفوس الرتب تعشق اللهو وتهوى الطربا أم بها صرف الليالي لعبا

أنا لولا أن لي من أمتي نعشق الألقاب في غير العـــلا وهى والأحـداث تستهدفهــا لا تبــالى لعب القــوم بهــا

ويقول فيها أيضًا :

وإذا سئلت عن البكنانة قل لهم هي أمة تلهو وشعب يلمب ويقول :

وكم ذا بمصر من المضحكات كا قال فيها أبو العليب أمور تمر وعيش يمر ونحن فى اللهو فى الملهب وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجرب

وقد يقال فى تبرير هذا السباب الموجة إلى مصر ، أنه من قبيل الإستعثاث والإهابة ، وأنه مثل الكلام القارص الذى يوجه الأب إلى أولاده ، ناعتا إيام بالعجز والسوم ، وأنهم غير صالحين ، وقلبه يفيضه حنانا لهم ، وعطفا عليهم . وإن كان بعض السباب الذى اختاره حافظ قد يكشفعن رأيه فى بلده ، وهو رأى كان شائما أيامه بين المصريين ، فوصف مصر بأنه ( بلد غير طيب ) هو إن جاز أن يكون رأى أمثال المتنبى من المغامرين الباحثين عن الرزق الذين يسوم رأيهم فى البلد ؛ إذا ساء رأيهم فى حاكمه ، أو إذا ساء حظهم فيه ، فإنه لا يجوز مطلقاً من وطنى يحب بلده وأهله ، ويلتمس لهم المعاذير ، ويعرف أسباب نكوصهم وقعودهم عن الاستجابة لمواعى العمل والبذل والكفاح .

ولكن الداهية التي يعز فيها العزاء ، وهو أن الرأى السيء في مصر ، وأهل مصر ، يقابله رأى حسن غاية الحسن في الانجليز أغداء مصر وأعداء أهلها . وهو رأى يستقر عليه حافظ ، سواء كان في معرض المجاملة للانجليز ، أو في معرض التنديد ببعض أعمالهم . وهذا الرأى العسن ، يجعل كلام حافظ ، وهو يحاول أن ينعى عليهم بعض أعمالهم ، خفيفا لطيفا ، كأنه نسمات الربيع .

وقد أسلم حافظ هذا الرأى الحسن فى الأنجليز من ناحية ، وذلك الرأى السيء فى مصر والمصريين من ناحية أخرى ، أسلمه إلى اليأس من مصر وستقبلها فقد قال فى القصيدة ( المعنونة العلمان المصرى والانجليزى فى مدينة الخرطوم).

فالجلاء عن مصر، فى رأى حافظ إبراهيم ، سيكون يوم القيامة ، وهو أسوأ وأقبح ما يقوله شاعر لقومه ، فإذا كان هذا الشاعر موصوفا بأنه شاعر الوطنية والنيل ، كانت المصيبة أعظم ولكنك ستقع فى قصائد حافظ ، على مفان أقبح من هذا ، يجمد لها الدم ، أو يفور غضباً . اسمعه يستقبل اللورد كروم بعد حادثة دنشواى :

قصرالدوباره (۱) هل أتاك حديثنا فالشرق ربع له وضج المغرب أهلا بساكنك الكريم ومرحبا بعد التحية أننى أتعتب نقلت لنا الأسلاك عنا رسالة باتت لها أحشاؤنا تتلهب ماذا أقول وأنت أصدق ناقل عنا ، ولكن السياسة تكذب علمتنا معنى الحياة في لنا لانشرئب لها ومالك تغضب علمتنا معنى الحياة في لنا هذا الذى تدعو إليه وتندب

ثم يقول :

ساسوا الأمور فدربوا وتدربوا طاش الشباب بهم وطار المنصب قد كان حولك من رجالك نخبة أقصيتهم عنا وجثت بفتية

<sup>(</sup>۱) قصر الدوبارة كان مقر مندوب الاحتلال البريطاني في مصر · (م ۱۰ ــ عصر ورجال )

فانظر كيف يعتبر حافظ إبراهيم ديوان الاحتلال البريطاني ، مرفقا من مرافق الأمة المصرية ، فينصح بتنظيمه وإدارته ، ليضم الموظفين الأكفاء المدربين ؛ وليقصى عنه الفتية الطائشون ، فهو لا يطلب أن يجلو الاحتلال كله بموظفيه المدربين وغير المدربين والأ نفاء وغير الأكفاء ، لأنه كان قد قرر من قبل أن الجلاء عن مصر ، سيكون يوم القيامة .

ثم انظر إلى حافظ إبراهيم ، وهو يرحب باللورد كرومر بعد حادثة دنشواى ، وكيف يصفه بأنه أصدق ناقل عن المصرين ، ولكن هذا كله يهون إذا قيس بقصيدته التى نظمها فى وداع اللورد كرومر عميد الاحتلال البريطاني وممثله وأعتى من أرسى قواعد الاحتلال ، وأعلى بناءه فى بلادنا فقد قال فى هذه القصيدة :

سنطری أیادیك التی قد أفضتها آمنا فلم بسلك بنا الخوف مسلكا و كنت رحیم القلب تحمی ضعیفنا ولوعة لذبنا أسى فی دنشوای ولوعة لذبنا أسى یوم الوداع لأننا

علينا فلسنا أسة تجعد اليدا ونمنا فلم يطرق لنا الذعر مرقدا وتدفع عنا حادث الدهم إن عدا وفاجعة أدمت قلوبا وأكبدا نرى فيك ذاك المصلح المتوددا

والحق أننا لا ندرى ماذا يمكن أن يبقى لإنسان من الإحساس الوطنى ، والشعور بواجبه نحو بلده وشعبه ، بعد أن يكون رأيه فى ممثل أعداء بلده الذبن احتلوها بالقوة والقهر ، مثل هذا الرأى ، و بعد أن يجرؤ على توديع هذا الممثل ، بمثل هذا الكلام . انه لم يقنع بتوديعه ، وهذه وحدها كبيرة ، ولم بقنع فى توديعه بالعتاب الخفيف أو الملام الذي يجرى بين الأصدقاء ، بل جاوز منه ذلك كله إلى سفك الدموع ، والذوبان أسى والإقرار بالفضل ، على وجه يشمئز منه الإنسان مهما ضبط نفسه ، وأراد أن يتجمل بالتسامح والرفق .

فهذا القول من أى وطنى هو الخيانة ، فإذا صدر من شاعر الوطنية ، فماذا م

وإن كنت في شك مما نقول فاقرأ ختام هذه القصيدة المنكرة:

فيا أيها الشيخ الجليل تحية ويا أيها القصر المنيف تجـــدا لثن غاب هذا الليث عنك لعلة لقد لبثت آثاره فيك شهدا

ويواصل شاعر الوطنية جرائمه المنكرة ، على مرأى ومسمع من المصريين ، ولا يناله من أجل ذلك الاصرار العجيب شيء ، حتى ولو كلة عتاب ، أو لفت نظر ، فقد جاء جورست فى أعقاب كرومر فراح حافظ ينظم فى مقدمه قصيدة تنشر فى ١٠ من أكتوبر سنة ١٩١٧ . يقول فيها :

بنات الشعر بالنفحات جودى فهدذا يوم شاعرك الجيد أطلى واسفرى ودعيه يحى بما توحيين أيام الرشيد ثم يقول للعميد البريطاني الجديد:

وول أمورنا الاخيار منا نشب بهم إلى الشأو البعيد واشركنا مسع الاخيار منكم اذا جلسوا لإبقام الحدود وأسعدنا بجامعة وشيد لنا من مجد دولتك المشيد

فحافظ ابراهيم ، يعد الأنجـــلين منا ، ويعد عميدهم ، رئيس دولتنا ، ويعد نفسه لسان الشعب المصرى في طلب الاصلاح من بريطانيا والتفصل علينا بشيء من الحجد المقتبس من مجدها .

 الاحتلال عبئا من العبث وان الخير لبلادنا ، أن نسلم بالأمر الواقع ، ونحتال على الوصول إلى أحسن ما يمكن فى ظل الاحتلال البريطانى ، بالتودد إلى الاحتلال ونقد اخطائه ، كا ينقد أبناء الوطن ، اخطاء حكامه الذين يخرجون من صفوفه وينحدرون من أصلابه .

وتصوير الملاقة بيننا وبين الاحتلال وممثليه ظاهر فى شعر حافظ حتى وهو يماتب الاحتلال على حادث دنشواى الفاجع فيقول:

كيف يحلو من القوى التشنى من ضعيف ألقى إليه القيادا ؟ ويخاطب كرومر فيقول له مرة :

رفقا عميد الدولتين بأمــة ليست بغير ولائها تتعذب ويقول مرة أخرى:

فأجمل شعارك رحمة ومودة أن القلوب مع المودة تكسب

فافظ ابراهيم يرسم لعميد الاحتلال كيف يكسب قلوب المصريين ، ويبدى دهشة لعسف الإنجليز بالمصريين الذين اسلموا للمحتلين القياد وهم ضعفاء ، والذين يدينون لدولة الاحتلال بالولاء ، هذا الولاء الذى تهدده سياسة الشدة ، فيتعذب المصريين لأنهم لا ينعمون بالسعادة إلا في ظل هذا الولاء . وهو لا يقنع بنصح اللورد بهذا ، إذ أن مسعاه لا يتم إلا إذا نصح المصريين نصيحة تكمل نصيحة اللورد فيقول للسلطان حسين :

ووال القوم أنهم كرام ميامين النقيبة أين حلوا وليس كقومهم في الغرب قوم من الأخلاق قد نهلوا وعلوا وإن شاورتهم والأمر جد ظفرت لهم برأى لا يزل فياددم حبال الود وانهض بنا فقيادنا للخير سمل

وهل وراء هذا الرأى فى الإنجليز ، رأى يزيد عليه حسناً ، ويكشف عن الثقة والاطمئنان . ومع ذلك فهو رأى شاعر الوطنية ؟

وألست ترى أن رأى سعد زغلول فى الإنجليز من أنهم (شرفاء ومعقولون) هو من رأى حافظ كرجع الصدى ؟

ثم ألست ترى بمد ذلك أن من الطبيعى أن يكون حافظ إبراهيم وهـذا هو رأيه ، شاعر الإنجليز في مصر يهنؤهم ، ويواسيهم ، ويستقبلهم ويودعهم ؟.

أليس من الطبيعى أن ينظم رثاء فى الملكة فكتوريا يقول فيه: أعزى القوم لو سمعوا عزائى وأعلن فى مليكتهم رثائى وادعو الإنجليز إلى الرضاء بحكم الله جبار السماء

أشمس الملك أم شمس النهار هوت أم تلك مالكة البحار أشمس الملك أبالي إذا قالوا تفالي في المقال أمالكة البحار ولا أبالي ولا تاجاً كتاجك في الجلال فنل علاك لم أر في المعالى ولا تاجاً كتاجك في الجلال ولا قوماً كقومك في الدهاء

وكنت إذا عمدت لأخذ ثأر أسلت البر بالأسد الضوارى وسيرت المدائن في البحار وأمطرت العدو شواظ نار

وذريت المـاقل في الهؤاء

وقد أراد حافظ أن يدافع عن أستاذه الشيخ محمد عبدم، الذي كان معروفاً أنه كثير التردد على دار الحماية البريطانية ، ودائم التودد للمندوب البريطاني فقال في كتابه ليالى سطمح : ولولا أن الإمام (محمد عبده) ماد ( الإنجليز ) حبل الوداد ، وجاذبهم فصل النصح والإرشاد لأصابه ما أصاب حكيم الأفغان ( جمال الدين ) وقضى على هذه الأمة بالحرمان . فلقد يغدو على الوكالة ( دار الحاية البريطانية ) وبروح عنها ليدفع عنا شرة القوم ، ويصلح ما تفسده أهل الدسائس ، فكم زحزح عنا حادثا ، ودفع كارثا . ولوكان حيا يوم دار الفلك لنا بالنحوس في ( دنشواى ) لرأيت غير ذلك الذي رأيت ، من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوت العميد ( البريطاني ) بذلك النهديد والوعيد ، ولما نزع إلى كتابة ذلك التقرير الذي جاء أبلغ ما تملى الضغينة على الموتور فكان فيه ، كثير جموح البراع ضعيف جانب الإقناع ، كأنه يكتب مقالة خيالية إلى مجلة سياسية ، وقف فيها وقفة المدافع عن نفسه »

هذا أقصى ما استطاع أن يدفع به حافظ عن امامه الشيخ محمد عبده تهمة التودد إلى الإنجليز أعداء بلاده ، ومفسدى الأمر، فيها ، وتهمة الاختلاف على دار الحاية البريطانية ، رمز القهر والإذلال فى نظر كل مصرى عاقل ، على قدر من الوطنية والإدراك فمحمد عبده فى نظر حافظ لا يتودد الى الانجليز ، إلا لينصحهم ، ويسدد خطاهم فى الحركم ، فيجنبهم الوقوع فى المزالق التى كانوا خليقين أن يقعوا فيها لولا هداية الإمام وحسن توجيهه . يرى حافظ أنه لو أن (محمد عبده) كان على قيد الحياة سنة ١٩٠٦ لما وقعت كارثة دنشواى ، لأنه يحول بين الانجليز وبين التورط فى مثل هذه الما أساة .

كلام لا ينطلى على طفل. فالسياسة البريطانية تتجه الى غاياتها المرسومة فى لندن ، لا تجامل إماماً ، ولا تترضاه ، وإن أظهرت لبعض أصدقائها ، أنها تنزل نصائحهم منزل الاحترام والرعاية ، لا لتسدى يداً للوطن الحكوم والشعب المقهور ، بل لأنها ترى فى هذا التظاهر ما ينيم غضب الناس عليها ، وما يحقق

إغراضها من أقرب السبل . وإلا لما كان استمار ولا كانت حروب فتع . ولخرج في كل أمة امتحنت بالحم الأجنبي ، عشرات من أمثال محد عبده بتوددون إلى الفاصب ، ويمحضونه النصح ، ولاستعال الاستمار إلى جهاز مستأنس وديع ، لا يقتحم على الناس بيوتهم ، إلا ليجلس من حكاء الأمم والشعوب ، مجلس التليذ يسمع ويطيع ، ثم ما هي كارثة دنشواي ؟ . جريمة من جرائم الاستمار ، أفادت منها الحركة الوطنية بقدر ما خسر منها الاستمار أو أكثر من ذلك بكثير . ولكن مدرسة الشيخ محمد عبده والتي كان من تلاميذها حافظ ابراهيم تفهم الأمور فهما عكسياً ، توحى لهذا الشاعر ، وهو في معرض حافظ ابراهيم تفهم الأمور فهما عكسياً ، توحى لهذا الشاعر ، وهو في معرض التأنيب والتعنيف بعد حادثة دنشواى أن يبدأ قصيدته بقوله :

أيها القائمون فيناهل نسيتم ولاءنا والودادا

#### ولأءنا يالها من كبيرة

ولست أدرى لماذا يشكو حافظ من عسف الأنجليز - وإن كانتشكواه ضعيفة لا تكاد تسمع – وهو شديد الزهو بمليكته فكتوريا التي إذا عمدت لأخذ ثأر أسالت البر بالأسد الضوارى ؟

وأليس من الطبيعى أن يهنىء حافظ إبراهيم إدوارد السابع ملك بريطانيا لارتقائه العرش فى قصيدة تنشر فى التاسع من أغسطس سنة ١٩٠٢ يقول فيها : لحت من مصر ذاك التاج والقمرا فقلت للشعر هذا يوم من شعرا يا دولة فوق أعلام لها أسد تخشى بوادره الدنيا إذا زأرا

وأليس من الطبيعى أن يستقبل السير غورست العميد البريطانى الجديد بهنئة قد أسلفت الإشارة إليها — في قصيدة نشرت في العاشر من أكتوبر سنة ١٩١٥ ، وأن يستقبل المعتمد البريطاني السر مكهون في يناير سنة ١٩١٥ يقصيدة أخرى قال فيها :

أى مكمهون قدمت بال مقصد الحميد وبالرعاية

وقال :

وعدلم فلكتم الـــد نيا وفى المدل الكفاية أن تنصروا المستضعفـ لكاية

وهكذا فإن حافظ إبراهيم لم يدع في جمبة شعره شيئًا يمكن أن يقدمه للانجليز منشكر وتهنئة وإعجاب بمدلهم ، ومفاخرة بسلطامهم ، وإشادة بنطامهم وحكمهم ، واستقبال للقادمين من رجالهم ، وتوديع للمسافرين منهم ، ورثاء ملكاتهم وملوكهم ، فكيف نفسر أن لقب شاعر الوطنية لم يسقط عن حافظ إبراهيم ، وكيف لم تثر هذه القصائد خواطر الناس ضده ؟ لا تفسير عندي إلا أن قصائد حافظ إبراهيم الوطنية أكسبته رصيداً ضخماً عند الشعب، فأصبح\_ عندما نفدت طاقته الوطنية وأصبح في حاجة إلى معين يهيىء له أسباب الرزق، كالتاجر ذي السمعة السوقية الكبيرة ، إذا ما تعثر ، بقي قادراً على أن يقترض من للصارف حاجته من المال ، هذا فضلا عن أن قصائد حافظ إبراهيم غير الوطنية ، تقع في فترتين فترة ما بين سنة ١٩٠٠و١٩٠٥ عام وفاة الشيخ محمد عبده ثم تنقطع تقريباً ، وتبدأ فترة قصائده الوطنية التيمال فيها إلى الحزب الوطني ، ثم تأتى الفترة الثانية التي عين في بدايتها في وظيفته بدار الكتب ، ثم تبمتها الحرب العالمية الأولى ، وفي هذه الفترة كان بين صامت لا ينطق وبين ناظم يهدى شعره إلى أصحاب السلطة من الإنجليز والمصريين على السواء ، لا يفرق بين وجيه ذي مال ، أو مدير مصلحة السجون أو الحبيبة ( لونا ) ، إلى آخر هذا الخليط العجيب من أسماء الرجال والنساء المعروفين والمجهولين ، المؤبديين للحركة الوطنية ، والمعارضين لها . فلما اندلمت ثورة سنة ١٩١٩ تخللت بأحداثها هذه الفترة الثانية منحياة حافظ فنظم بعض الشعر \_ كقصيدته فى مظاهرة السيدات \_ ولكنه حرص على ألا يمرف أنه صاحب هذه القصيدة.

ولاذ بالصمت حتى أحيل إلى للماش فكتب شيئًا من الشعر ، كا نظم قصيدة طوبلة ، ضد حكم إسماعيل صدق باشا ولكنه أخفاها ، ولما استحثه للرحوم الاستاذ أحمد أمين على نشرها قال (أنى أخاف السجن) – ورحم الله امر، عرف قدر نفسه .

وقد كاز، مطلع هذه القصيدة

لقد مر عــام ياسمــاد وعام وإن الكنانة في حــاه يضام ولكنه حتى في هذه القصيدة التي أراد أن ينضو عن نفسه فيها ثوب السالة لم ينس أن يتجه بالشكوى إلى الإنجليز في قصر الدوبارة فيقول:

صبوا البلاء على العباد فنصفهم يجبى البــلاد ونصفهم حـكام أشكو إلى قصر الدوبارة ماجنى صــدق الوزير وما جنى علام ثماشتدت حماسته فقال فى حق إسماعيل صدقى باشا:

ودعا عليك الله في محرابه الشيخ والقسيس والحساخام لاهم أحى ضميره ليذوقها غصصا وتنسف نفسه الآلام

لقد كانت قصائد حافظ الوطنية ، أى مراثيه لمصطنى كامل ، ومانظمه في الناسبات الوطنية ، خصوصاً ما اتصل بالباب العالى ، أكثر ذيوعا ، تسامع الناس بها ، حفظوها له ، أما قصائده غير الوطنية ، فقد مانت ، لأنها لم تنشر في الصحف الرائجة ، ولم يحرص على حفظها ، أو ترديدها أحد . وقد كان لحافظ أنداد ، وأشباه في دنيا السياسة في تلك الأيام يفوقونه نفوذاً وشهرة ، يروجون مثل هذه الآراء المتسمة بالخنوع ، فلم تكن بدعا . ولعل الرأى العام قد طبق على مثل هذه الآراء المتسمة بالخنوع ، فلم تكن بدعا . ولعل الرأى العام قد طبق على الخلوا الراهيم ) مبدأ الحسنات يذهبن السيئات ، فعاش ومات وهو شاعى النيل .

ولكن ماذًا أسدى حافظ ابراهيم إلى الشعر العربي، والشعر المعرى الماصر؟

يقول الأستاذ احمد أمين أن (حافظ) استجاب للحركة الجديدة التي قامت تعيب على الشعر التقليدي ، اسلوبه وأغراضه ، أوزانه وقوافيه ، وتنقد شوق وحافظ مر النقد لانهما قديمان في انظارها ، مقلدان في أغراضهما ، محافظان في أوزانها ، وأنه ثار على الشعر القديم ، وأعلن عن ثورته التي مطلعها :

ضمت بين النهى والخيال ياحكيم النفوس يا بن الممالى والتي قال فيها :

آن ياشعر أن تفك قيودا قيدتنا بها دعاة المحسال فارفعوا هذه الكائم عنا ودعونا نشم ربح الشمال

ثم يتساء ل الأستاذ احمد أمين « فهل جدد حافظ بعد في شعره ؟ » ويجيب: لم يحدد في بحوره وأوزانه، ولم يحدد في اسلوبه وبيانه، ولا تفكيره وخياله، إنما جدد في شيء هو فوق ذلك كله ، حدد في موضوعه وأغراضه، فبدلا من أن ينظم في موضوعات أمرىء القيس وطرفه أوجرير والفرزدق ، أو بشار وأبي نواس ، نظم في موضوعات عصره وأماني قومه ، وساعده على هذا الانجاه تربيته الحربية ، فإن فشل في حرب السيف فليحارب بالقلم ، وإن تكسر سن رمحه فليشرع سن قلمه ، وأن اخطأ النجاح في ثورة الضباط في السودان ، فليكتب له التوفيق في إثارة الأمة على الإحتلال .

ميزة حافظ الكبرى أنه تبلورت فى شعره آمال أمته ، وآمال الشعب العربى ثانياً ».

والحق أننا لأنجد رأياً أبعد عن الصواب من هذا الرأى، فأغراض الشعر عند حافظ، كانت أغراض الشعر التقليدى، فالمراثى والنهانى، ومداعبة

الإخوان وشكوى الزمان ، كانت أغراض الشعر عند المتنبى وأبي العسلاه ، وأضرابهما ومعاصريهما ، ومن جا ، بعدها . وسبق إلى تناول هذه الأغراض ذاتها . محود سامى البارودى . أما إثارة الأمة على الإحتسلال . فهأنت ذا قد رأبت كيف أن حافظ عمل على العكس منها . فقد نصح كل ذى سلطان أن بتودد إلى الإنجليز ، وأن يركن إلى رأبهم . وأثنى على حسن صنيعهم فى الحرب والسلم . وفى الإدارة والسياسة . واعتز بأسطولهم وجيشهم وكأن ذلك الأسطول أسطول بلاده . وذلك الجيش جيش أمته . كا قدر أبت أن أى شعر يصور التمرد والغضب . على الإنجليز أو الحكام الذين يعسلون بتوجيههم . كان حافظ يخفيه . حتى مات . ولم يقع جامعو شعره إلا على نتف منه . إذا كان هناك شيء آخر من هذا الشعر ومع ذلك فإن إثارة النفوس على الأعداء غرض قديم من أغراض الشعر العربي التقليدي .

فا هي إذن حقيقة دور حافظ في الشعر المعاصر ؟ دور حافظ أنه على أكثر من أي شاعر معاصر سواه ، على إشاعة حب الشعر في النفوس ، وإنارة الإهتام به ، فقد كانت المنافسة بينه وبين شوق ، صاحبة فصل كبير على الشعر المعام ، فالمنارك الانتخابية ، المعاصر ، فالمنارك الانتخابية ، المعاصر ، فالمنارك الانتخابية ، والخطب التي تلقى نستأثر باهمام الناس ، فيقبلون على الحفلات الانتخابية ، والخطب التي تلقى فيها ، والبرامج التي يتقدم بها المرشحون ، والمعارك القلمية والفكرية تعمل على تقريب وتبسيط الأفكار التي تدور حولها هذه المعارك إلى العامة ، وتشركهم فيها ، ثم أن خصائص حياة حافظ أسلوبه في تلك الحياة أعانت على إدخال الشعر في حياة الناس ، فقد كان يقضى أكثر حياته كما قلنا في المقاهى ، وصالونات كبار القوم ينشدهم الشعر من شعره وشعر الآخرين ، وسط دعابات ، وفكاهات و توادر ، ومن جوله وحول شوقي عشرات من صفار دعابات ، وفكاهات و توادر ، ومن جوله وحول شوقي وحافظ ، يؤججون دعابات ، وفناه من ذلك كله جو أدبى تشو به شوائب قبيحة ، ومع ذلك والفضائح ، فنشأ من ذلك كله جو أدبى تشو به شوائب قبيحة ، ومع ذلك

لا يخلو من حركة وحياة . على أن حافظ لتمتعه بموهبة الإلقاء البلعرة ، لمب دوراً آخر في إثارة حب الشعر في نفوس للصريين وتحريك كوامنه ، فهو حب قديم ولم يكن في حاجة إلا لمن يلهب جنوته ، وينفخ فيها ، وقد فيل ذلك حافظ ، بشعره وحسن إلقائه ، وصوته الجهورى ، وكانت جيماً تستغن السامعين ، وتخرجهم عن طورهم . وكان شحر حافظ مهلا خفيفا ، حسن الديباجة ، فخم العبارة ، يجرى على الألسن في يسر ويطرق الأسماع بخفة ، فتتناقله الناس وتغني به المجالس ، وقد كان يتحرى أسباب الشهرة فمال إلى الحزب الوطني ، يوم أن كان الحزب الوطني صاحب القيادة الروحية في البلا، فذاع إسمه واقترن بالحركة الوطنية ، وظفر من أجل هذا بألقابه التي جعلته قريبا إلى النفوس وحبيباً إليها ، وبهذا الرصيد وفي ظل هذه السمعة ، تورط في الأخطاء وقارف المعاصي الأدبية والروحية فففر له كل ذلك ونسي ..

أما آثار حافظ إبراهيم النثرية فهى لا تمدوكتابة ليالى سطيح ، وترجمته لفصول من رواية ( البؤساء ) الضخمة لفيكتور هيجو ، واشتراكه مع خليل مطران في ترجمة كتاب في الاقتصاد السياسي .

وقد مر بنا كيف كان حافظ إبراهيم حريصاً على اختيار أغرب الألفاظ وأبعدها عن المألوف، وهو يترجم (البؤساء)، مع أن من أخص خصائص شعر حافظ الوضوح والسلاسة والبعد عن المهجور من الألفاظ. ويبدو أن (حافظ) وهو ينظم الشعركان يتخيل نفسه منشداً لما ينظم وأن النبرة الخطاية تغلب على شعره، وهي نبرة تتطلب السهل الواضح، ولكنه حيث أخذ يترجم البؤساء، أدرك أن الترحمة ستقرأ فأراد أن يتخذ منها شاهداً على علمه باللغة، واتساع محفوظه من ألفاظها. إلا أن هذه الآفة لم تصاحب الترجمة كلها، فإنه بعد الثلث الأول تحرر من الاغراب وجنح إلى البساطة والسلامة.

أما (ليالى سطيح) — فعمل أدبى قليل القيمة من كل ناحية فلا هو ( بالقامة) ولا هو ( بالقصة ) ولا هو بالكتاب الذى ينتظم موضوعا مميناً ، أو بضم مقالات سبق نشرها ، أو تحريرها .

ولعل القيمة الوحيدة لهذا الكتاب هو القيمة التاريخية ، فقد ضمنه حافظ إبراهيم تاريخا للفترة التي قضاها في السودان مع الجيش المصرى هناك والتي وقمت فيها فتنة عسكرية رؤى معها إعادة بعض ضباط الفرقة المصرية من سواكن إلى مصر وتسريحهم ، وقد شاء الحظ أن يكون حافظ واحدا من هؤلاء الضباط فساءت حاله وعانى الحرمان والتشرد ، وقد وصف ما وقع له ولزملائه في تفصيل وإسهاب ، وصور هؤلاء الضعفاء الأخساء الذين أقاموا من أنفسهم عيونا وجواسيس على زملائهم المصريين ، ينقلون عنهم ما يدور في خلواتهم ، عنونا وجواسيس على زملائهم المصريين ، ينقلون عنهم ما يدور في خلواتهم ، إلى الرؤساء الانجليز وقد ينسبون إليهم ، ما لم يصدر عنهم رغبة في التقرب إلى الرؤساء الانجليز وقد ينسبون إليهم ، ما لم يصدر عنهم رغبة في التقرب إلى الحاكم الأجنبي ، وكسبالما يجود به عليهم مقابل هذه الخدمات العقيرة الوضيعة .

وقد صور لنسا حافظ حياة الضابط الانجليزى فى السودان وأسلوبه فى الاستعلاء على المصريين والسودانيين ، واستمتاعه بالحياة ، والحق أن هذه الصورة كانت غاية فى القوة والإحكام ومرد هذا إلى أن حافظ كتبها وهو منفعل متأثر ، فقد كان ضحية هؤلاء الضباط الانجليز وضحية أسلوبهم فى الاستهانة بالمصريين ، والعبث بمصائره .

ويطيب لنا أن ننقل هنا جانبا من هذه الصورة :

لایهبمن نومه فیتر امی الخدم علی خدمته کل فی شأنه الذی نصب له. فإذا قضی لبانته من مأکله ومشر به وملبسه ، قدم له الجواد ، فاستوی علیه ، ومضی متباطئاً إلی حیث الجنود مصطفة للتدریب غیر مبال بانتظار تلك المثات ولا بما

يلحق بهم من السأم والملل إذا تأخر أو أن تجليه عليهم إلى وقت الضعاوم يرتقبونه والميل والصبح خيطان . فإذا صار بحيث تراه العيون سجدت السيوف وقامت البنادق ، وخفتت الأصوات وجمدت الشخوص وسكنت الأنفاس ، كسكون النديم إجلالا للقادم ، ورهبة للمقبل ، وما أسعدهم إذا أجاب على كل هذا بإشارة من رأسه ، أو من يده . ثم يخترق الصفوف بجواده بهيئة المتفقد وخلفه أكبر ضابط مصرى ، يكتب عنه ما يملى عليه من ملاحظاته ، ثم يركض جواده مل فروجه إلى ملعب الكرة ، بعد أن يرسم لمن ينتدبه مكانه ، خطة التدريب في غيابه » .

وتعجب لرجل يصف أسلوب الأنجليز في الحكم ، على هذه الصورة، ويبقى على حسن ظنه بالأنجليز ، وينصح حكام مصر بالتودد إليهم والاستمانة بحسن رأيهم في تصريف شئون البلاد ، ويدافع عن أمامه الشيخ عبده ، لأنه لايقطم حبل مودتهم ، سعياً إلى تحقيق الخير لأهل مصر ، ورداً للشرعنهم .

والعنوان الذى اختاره حافظ إبراهيم لكتابه كا ترى، ليس بالعنوان الموفق، فسطيح ليس بالإسم الذى يحسن وقعه فى الأذن، ولم تكن محافظ إبراهيم حاجة تلجؤه إلى اختياره فسطيح هو أحد كهان ثلاثة هم شق وطريفه، ثم سطيح (۱).

وقد كانت طريفه أسبق الثلاثة إلى الحياة ثم إلى الموت ، ولدت قبلهما ، وماتت قبلهما وكانت كاهنة ، تطلع على الغيب ، فلما حضرتها الوفاة ، تفلت فى شق وسطيح ، وكانا ولدى خالة ، فنقلت إليهما بهذه التفلة ، ما اجتمع لديها من علم وكهانة .

سوى يد واحدة ورجل واحدة ، أما ان خالته سطيح ، فلم يكن له عنق ، فكان وجهه فى صدره ولا عظم فى بدنه ، سوى عظم جمجعته ، وهو عظم غريب إذ لمسته يد ، تركت اللمسة أثراً فى الجمجعة كأنها صنعت من مطاط . ولما كان بدن (سطيح) لحا بلا عظم ، فقد كان طوال حياته لصيقا بالأرض ، لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك فيه إلا لسانه . فإذا أريد نقله يطوى كا يطوى الحصير . أما إذا أريد استخباره عن شىء مما يضمره الغيب ، فإنه ينتفخ كا تنفخ أنبوبة أو كرة المطاط .

فسطيح كا ترى ، مسخ يتحدث عن الغيب ، ولم يكن حافظ فى كتابه كاشفاً لحجب ذلك الغيب ، ولا باحثاً عن مفاجآت الفد ، و إنما واعظاً لأهله ، يتذاكر معهم الماضى ، ويستخرج منه ومن الحاضر العظات .

وقد التقى حافظ إيراهيم ، فى كتابه سبع مرات فى سبع ليال متواليات بسطيح ، كانت ليالى تتفاوت طولا وقصرا . وقد تحدث فى الثانية منها عن السفور وأيد قاسم أمين فى دعوته إلى تحرير المرأة فقال : صاحب مذهب جديد ورأى سديد دعا القوم إلى رفع الحجاب ، وطالبهم بالبحث فى الأسباب ، فألقوا معه نقاب الحياة و تثبتوا من دونه بالنداه . أى ثلاث إذا مضت على كتابك خسون حجة ، وظهر لذى العين أدلاؤك بالحجة ، تكفل مستقبل الزمان بإقامة الدليل والبرهان » .

أما الموضوعات الأخرى التي أدار حافظ الحديث حولها في الليالي السبعة ، فليس فيها شيء جليل القيمة ، وقد ضمن الحديث في الليلة السابعة مقال الشيخ على يوسف المعنون « السياسة الضيقة الضعيفة » فسر فيه استعمال بريطانيا للعنف في حكم مصر ، بأنه دليل ضعفها ، إذ لا يلجأ الإنسان إلى العنف إلاحيث يشعر بنقص في قدرته .

فكتاب ليالى سطيح فيا عدا ما وصف به ما جرى للمؤلف فى السودان، ودفاعه عن الشيخ عمد عبده ووصفه لخصائص شخصيته ، والصورة التى رسمها للموظف الانجليزى في مصر والسودان ، هو أثر صغير من آثار حافظ أبراهيم، طواه الزمن ، فلم يلتفت إليه أحد ، إلى أن أعيد نشره أخيرا مع غيره من آثار الخسين سنة الماضية ، كبيرها وصغيرها .

ولكن مهما ضوءلت قيمته الأدبية فهو دلالة من دلالات العصر ، لايستطيم المؤرخ أن يغمض العين عنه ، وجزء من عقل حافظ إبراهيم ، وقطعة من أدبه لا تكل معرفتنا به ، إلا بقراءاته والتأمل فيه .

\* \* \*

وبعد فهذه صورة حافظ ابراهيم ، كا استطعت أن أراها . لم أرد أن أظله أو أنجني عليه ، لم أرد أن أظلم التاريخ ولا أن أنجني عليه ، فلم أبحث عن سقطاته وعيوبه ، ولم أغمض العين عن حسناته وأياديه وإن قسوت على الحكم عليه ، لما قد تورط فيه من مدح الإنجليز ، وإعلان حسن الظن في احتلالهم ، فهذه قسوة عادلة منصفة في رأى كل محب لوطنه ، ورأى كل من يقيم للخلق في أبسط صورة ، وزنا . ولكن الوطنية على الرغم من كل شيء لم تدع حافظ ابراهيم ، ليفلت من يدها ، فالحقته بصفوفها ومحت شعره غير الوطني ، وأذاعت شعره الوطني ، وهكذا يعلب الخير على الشر و تعلو القوة على الضعف ، وتنبزع مصر أبناءها من أحضان أعدائها .

# الفصّل التالِثُ ابراهيم عبد القادر المازني

عرفت اسم المازني ، وأنابعد تلميذ في المدارس الإبتدائية ، فقد كان زوج أختى، من قراء جريدة الأخبار التي كان يصدرها أمين الرافعي ، وكان المازني يكتب معة فيها ، ولكني لم أقرأ له ولا لأمين الرافعي شيئًا في ذلك الحين . ثم أخــذ إلياس أنطون إلياس صاحب المطبعة العصرية يصدر كتباً لبعض كبار كتابنا ، في طبعات أنيقة و جميلة، وكان من بين ما أصدره ، كتاب «حصاد الهشيم» للمازني، فقرأته وأنا تلميذ في مدرسة بني سويف الثانوية ، فأحببته وواظبت على قراءته ثم وقع في يدى كتاب رومان رولان ، عن المهاتما غاندي ، فبدأت أترجم إلى العربية، وأنشره في جريدة السياسة تباعاً، وقد أتاحت لي ترجمة هذه الفصول أن أتردد على جريدة السياسة ، كل ليلة تقريباً ، وأن أرى المازني في مكتبه القائم في ( حوش ) جريدة السياسة على يمين الداخل من الباب الرئيسي للجريدة ، وكان مقرها آنذاك في شارع الشواربي ، وكان مكتبالمازني ، بسيطاً ولا أذكر أنى رأيت عنده اثنين يتكلمان معه ، أو يتبادلان الحديث سويا ، فقد كان مكتباهادئا .كان صاحبه مشغولا بالكتابة غالبا، وتريد الذاكرة أن توهمني أنه كان يكتب بالقلم الرصاص ، وكان يكتني بالتأشير على ما أقدمه له من مقالات أو بيانات ، ويرسلها فوراً إلىالمطبعة ، بلا تعليق . والصورة الباقية له فى نفسى أنه كان يحسن الاستقبال ، بلا مبالغة في الترحيب، فلم يكن فاترا ، ولا متعاليا، ولم يكن كذلك مقبلا على زائره ليستثير فيه الرغبة في الـكلام .

ولو حاولت أن أحسى العبارات التي سممتها منه فى تلك الفترة التي طالت إلى سنتين أو ثلاثة ، لما زادت على أربعة أو خمسة ، ومن ذلك ، أننى قدمت (م ١١ \_ عصر ورجال )

له يوما قصة بعنوان « ليلة فى تل أبيب » ، فقال وهو يؤشر عليها ، ويرسلها إلى المطبعة كمادته ، أفي هـ نم القصة مدح فى اليهود ؟ « قلت أبدا ، هى قصة عاطفية » . قال «لا نريد مدحا فى اليهود، ولا فى نسائهم » وابتسم، وانصرفت.

دخلت عليه ، ذات ليلة ، وهو يطالع ، في سيرة الشيخ محمد عبده ، انتي الفها تلميذه الشيخ رشيد رضا ، وكان يراجع فيها شيئا ، لأنه كان يكتب عن الثورة العرابية ، فنظر إلى وقال : « الشيخ محمد عبده كان عظيما » ثم تلا شيئا من الكتاب ، يتضمن اعتراض الشيخ محمد عبده على ما انتهى إليه العرابيون من التطرف في سياستهم ضد الخديو والأجانب . ولم أكن مشغولا آنذاك بالشيخ محمد عبده ، فلم أعلق على كلامه .

وفى يوم آخركان النحاس باشا زعيم الوفد فى زيارة لحمد محود باشا زعيم الأحرار الدستوريين فى دار جريدة السياسة ، وكنت هناك فى هـذا اليوم ، فأدهشنى أن النحاس باشا قدم إلى هذه الزيارة ، فى غير جلبة، دون أن يصعبه للوكب المألوف من الأتباع ، وأنه دخل إلى الدار من غير أن يرتفع هتاف واحد بحياته ، وعبرت عن دهشتى للمازنى فقال ، وهو مزهو : طبعا . . لأنه لا محل للتهريج عندنا » .

ولا ألف مسرحية « غريزة المرأة » ، اتهمه أحد النقاد بأنه أخلها من مسرحية ( الشاردة ) للكاتب الإنجليزى جالسور ذى فأخذ ينشر تباعا فصول مسرحيته ، مع فصول مسرحية جالسور ذى فى جدولين متقابلين فى صحيفة واحدة ، ليتيسر للقراء أن يعقدوا مقارنة بين المسرحيتين ، وليحكوا بأنفسهم بما إذا كان للتهمة المنسوبة إليه أساس أم أنه برىء منها ، ولا دخلت إلى مكتبه فى تلك الآونة قال لى : ماذا أعمل . . لقد ترجمت لهم نعى المسرحية الإنجليزية ليقرأوا و يحكوا . .

وكنت قد لاحظت أن هناك تشابها و اضعافى كثير من المو اقف في للسر حينين،

بل أن بعض المعانى ، تكاد تكون منقولة من المسرحية الإنجليزية ، ولكنى لم أقل له شيئا ، فقد كنت أكره أن أجرح شعوره ، وكنت في الوقت نفسه غير معنى كثيرا ، بالحلة عليه لأنى كنت آنذاك قليل الإهمام بالمسرح ، ولكنى أذكر أنى زرت العقاد أثناء اشتداد الحملة على المازنى ، وجا ، ذكر تلك الحلة فى كلامنا ، فقلت للعقاد ، « إلى لاحظت تشابها بين بعض مشاهد مسرحية المازى والمسرحية الإنجليزية ، ولكن لا أظن أبها من الكرة ، ولا من الأهمية بحيث بصح أنهامه بأنه سطا على عمل سواه ، وانتحله لنفسه » . فقال العقاد : هذا محيح ، ولكن ماذا كان على المازنى لو أنه استغنى عن هذا القليل الذى استعاره ، أن الأصل كان قادراً على أن يقوم بنفسه بغير حاجة إلى هذا الذى مكن لأعدا ، المازى منه . لكن المسألة ، مسألة طبع ، فبعض الأغنيا ، لا يكتفون بما لديهم ، وبشوقه أن يأخذوا ما عند سواهم ولو كان أقل مما عنده »

وفى مقابلة ثالثة جاء ذكر المازنى أيضاً فقال العقاد: «لم يعد للمازنى هذه الأيام، إلا هم واحد، هو تصوير نفسه فىصورة معشوق الفتيات الصغيرات \_\_ الجميلات اللوائى يقعن فى غرامه بلاحساب »

ثم انتقل المازنى بعد ذلك إلى جريدة البلاغ ، وكثر ترددى عليها ، آنشر فيها بيانات اللجنة التحضيرية لمؤتمر الطلبة الشرقيين ، وقبل ذلك بيانات مشروع القرس ، ثم مقالات فى الأدب والاجتماع . ولم تتطور علاقتى به بعد ، فلم يتناول قط حديثا طويلا ، ولم يزد اختلاطى به ، وأذكر أنه رأى معى يوما ، كتابا باللعة الإنجليزية نشر ته مكتبة «Evryman . وكان مكتوبا بالحرف الصغير ، فأخذه منى، وتصفحه ، ثم رده إلى وهو يبتسم : « لا ياعم يفتح الله » وأضاف : «أنت شاب ، وطموح ، فلازم تصبر على قراءة كتاب بالحرف الذى يعذب العين . . . أما أنا فقد برثت من هذا كله » ورد إلى الكتاب .

وأصدرت جريدة البلاغ عدداً خاصاً عن مشروع القرش ، وكان للمازنى مقال فيه ولكنه لم ينشر في مكان لائق به تماماً ، وفي المساء ، والمطبعة تطبع هذا العدد الحاص ، أخذ عبد القادر حمزه صاحب البلاغ ، نسخة من هذا العدد وبسطها بين بديه ، ثم قال : المازنى ، لم يوضع في مكانه . . . . مكانه ليس هنا وإنه لم يأخذ ما يستحق » .

وفى أثناء إعداد مواد الجريدة ، جاء ذكر المازنى ، وذلك بمناسبة استماله لفظة « فسح » بدلا من « أفسح » فقال عبد القادر حمزه لقد وقع نظرى على لفظة ( فسح ) فى مقال بهذا العدد . . ثم حاول أن يتذكر فى أى مقال ثم أسعفته الذاكرة فقال : فى مقال المازنى . . فى مقال المازنى » .

وأذكر فيا أذكره عن المازى أنه تهيأت السفر إلى تركيا مع صديق كال الدين صلاح ، لندعو سوياً لمؤيمر الطلبة الشرقيين ، وأذيع أننا مسافران بالطربوش ، وكان كال أتاتورك ، قد ألنى لبس الطربوش فى بلاده بالقانون ، وعاقب من يجرون على العودة إليه بالحبس والغرامة . فلما رآ بى المازى عشية السفر قال لى : أصحيح أنك مسافر إلى استانبول وعلى رأسك طربوش ؟ قلت نعم ، فبدأ عليه الفزع والاشفاق وقال : لا . . . لا . لا تفعل ذلك ، فإن الأتراك لايعرفون المزاح ، وارتداء الطربوش سيهيجهم عليك . والعقاب هناك على هذه الجريمة الإعدام ، وأنت مصرى وهم يكرهون المصريين » ولم أناقش المازى يومذاك فيا قاله ، وسافرنا إلى تركيا بالطربوش ، وقابلنا بعض المسئولين والطربوش على رأسنا ، وسافرنا إلى تركيا بالطربوش ، وكان اسمه محيى الدين بك ، أيضايقه أن يستقبلنا و نحن نلبس الطربوش فقال : مطلقاً . . . نحن لم ترفى الطربوش لهاس رأس مناسباً لنا ، ولكن لا شأن لنا بالغير وهم أحرار في البسون » ولما عدت إلى مصر ، وكنت قد أرسات مقالات إلى الصحف

المصرية عن رحلتنا ، منها مقال بعنوان « طربوش فى تركيا » لم يرد المازنى أن ملق عليها بشى. .

وكتب المازى سلسلة مقالات عن مسرحيات شوقى فى السياسة ، وكنت الاحظ أنه يضع فى رأس كل مقال اسم المسرحية التى ينقدها مصحوبة بعبارة «لصاحب العزة أحمد شوقى بك»فاستلفت ذلك نظرى إذ جرت العادة على تسعية شوقى ، بشوقى بك أو بأمير الشعراء ، أو بشوقى بلا لقب ولم يحرص أحمد من الكتاب على ذكر لقبه الرسمى كاملا على همذه الصورة وقد افهمنى الأستاذ حسين شوقى نجل شوقى بك غرض المازنى من ذلك ، فقال لى « إن والدى عمل مرتبة الميرمران ، وهى تعطيه الحق فى أن يلقب بصاحب السعادة وأن ينادى بالباشوية ، والمازنى بريد أن يكايده ، ووالدى تغيظه هذه المكايدة ».

ولما توفى شوقى ، رأيت المازنى ، فى اليوم التالى لوفاته فقال لى : والله كنت أحب أن أشيع جمَّانه ولكنى خشيت أن يحمل ذلك منى على محمل الشهاتة، ولا شماتة فى الموت » .

على أن المقادير جعلتنى أكثر انصالا بالمازنى بسبب أمر حميم يتعلق بنفسه وعاطفته ، فقد أصدرنا مجلة الصرخة الأسبوعية ، التى بدأنا بها نشاطنا السيامى والصحنى .

ورحت أتردد على كبار الكتّاب أطلب منهم أن يعينونا على إصدار هذه المجلة، وكان من بين من قصدتهم لهذا الغرض الأستاذ المازنی، فأعطانی للعدد الأول من مجلة الصرخة مقالا بعنوان « فاتح الأقفال » فرحت به ، لا لأنه أعبنی ، ولا لأن عنوانه استوقفنی ، بل ، لأننی ظفرت بمقال لـكاتب كبير كلازنی ، وبلا مقابل ، ولم أكن أظن أن لهذا المقال سراً أعنی مما يوحی به عنوانه وموضوعه . ولو قرأت المقال ، وكفت علی علم ولو قليد بالظروف التی عنوانه وموضوعه . ولو قرأت المقال ، وكفت علی علم ولو قليد بالظروف التی

أوحت به ، لا ستمتعت به كثيراً ، ولأدركت أنه وثيقة ذات أهمية كبيرة ، في تاريخ حياة الأدب المصرى كله .

ولكن هذا السرلم يلبث أن انكشف لى ، وعلى وجه جعلنى طرفا\_ على صورة من الصور بالقصة التى حكاها هذا المقال ، وبالواقعة التى صورها فيه. وببطلها \_ جاء فى هذا المقال :

« وأعنى أقفال النفوس لاأقفال الحديد ، وعلى كل نفس قفلها ، كا يعرف القراء ، وفى كل نفس زاوية محجوبة عن العيون ، وقد خلق هذا الرجل فأتح الأقفال ، شفوفا باستطلاع الخفايا وكشف المحجوب وكلنا ذلك الرجل ، ولكن كل له أسلوبه الخاص ، وطريقته التى ينفرد بها دون خلق الله جميعًا ، فما أعلم .

ه وليس بما يعنيه أن بقف على سر لك تكبحه ، أو أن يستدرجك إلى البوح به ، ثم يذهب يستغل هذا الذي عرف من مكتوم أمرك ، كا يفعل البعض ، ويشترى مفكرة الصون والهكمان بالثمن الذي يفرضه في كلامه . فا أعرف أنه من هذا الطراز ، وإنما همه أن يدرس نفسك ، ويعرف كيف تكون استجابتها للدواعي وتلقيها لما تجيء به الحياة ، ويعرض لها من الأحوال، وهو يخلق حولك الجو الذي يريده ، ويطلق عليك أصوات المواتف ثم يقف ينظر ماذا يكون منك . ولا يزال ينتقل بك من فصل إلى فصل ، ويماورك ويداورك ، وتسايره أنت مرغماً جاداً . ولا أحتاج أن أقول أن له ذكاء نادراً ، وخيالا خصيباً ، وذا كرة قوية . ولقد عاشرته شهوراً طويلة كانت أحفل أوقات حياتي ببواعث الدهشة وأوفرها محصولا ، وأنضجها ثمرة »

نم قال :

« وطريقته التي لا يكاد يلحقها التغيير ، أنه يجيئك برسالة من سيدة

لا وجود لها إلا فى خياله ، ولا حياة لها ولا تاريخ إلا ما يخترع هو ، فترد عليه شاكراً ، أو معتذرا ، أو غير ذلك وأنت فى الحالين معجب بأسلوب الرسالة وما يدل عليه ويشى به ، ثم ما أسرع ما تجد نفسك متورطاً فى رسائل متبادلة بينك وبين هذه السيدة أو الفتاة الخيالية .

« وقد فعل معى ذلك . . ومن آياته أن له خطين متميزين ، خطاً يكتب به رسائل هذه الفتاة الخيالية ، وخطاً يكتب به رسائله هو أماى حين يحتاج أن يكتب شيئا ، وليس بين الخطين شبها في الظاهر ، وإن كانت المشابهة لا تخفى عن النظر الفاحص » .

« وهو يحسن الكتابة باللغة العامية ، ويجىء فيها بأبدع ما قرأت ، ويعزو ذلك كله إلى مخلوقة خياله ، ولا يدعى لنفسه إلا أنه خادمها الأمين ، وغرس نعمتها المشكورة .

« هذا الرجل أعجوبة الأعاجيب عندى ، ولست أعرف تعليلا لهذا الولع منه بإيثار هذه الطريقة للاتصال بالناس أو المشهورين منهم ، ثم لا مكسب له من ذلك ، لأنه لا يطمع في مال ، ولا يحاول أن يسلبك شيئا وكل ما يفيده على قدر ما وسعنى أن أتبين \_ هو هذه المتعة التي يجدها في تمثيل دوره ، ثم ضاق كلانا بصاحبه ، ومل هذا التمثيل الذي طال جدا ، فصرفته وأنا معجب به ، ساخط عليه ، مشتاقا أن يكون لى مثل ثروته من الذكاء . . »

وظاهر من هذا المقال أن المازني يتحدث عن شخص ، نجح في ايهامه بأنه تابع سيدة جميلة ، وأنه حل له من هذه السيدة التي لا وجود لها إلا في خيال هذا الشخص ، رسائل ، ألهمت المازني وهاجت عواطفه ، فتدفق إنتاجه ، بفضل هذا الحب ، الذي صنع جوه ، وهيأ بواعثه ، هذا الإنسان – الذكي الماكر ، ولم يكد المازني ينشر هذا المقال في جريدة الصرخة ، حتى زارني شخص بمقر

الجريدة يوحى مظهره بأنه قادم من الريف ، وأنه قليل الحظ من التعليم والثقافة مما ، حتى ليظن راثيه ومحدثه ، أنه لا يحسن من الكتابة ، سوى خط اسمه ، وقال لى أنه بطل الواقعة التى أشار إليها المازنى فى مقاله المعنون « فأنح الأتفال » « واضطررت إلى إعادة قراءة ذلك المقال ، وفهمت مافيه ، تفصيلا بعد أن كنت قد أحطت بمجمل معناه ، ولم يكتف هذا الزائر بما قال ، إذ عززه فى التو ، بمجموعة من الخطابات ، كلها بخط المازنى الذى أعرفه ، مرسلة منه ، إلى سيدة اسمها «فاخرة هانم» .

وتناولت هذه الرسائل باهتمام عظيم ، وقرأتها بشغف أعظم ، ورأبت كيف فرح المازنى بهذه الحبة العاشقة ، فراح يبثها لواعج حبه ، ويطلعها على هواجس قلبه ، بأسلوب ، وعلى صورة ، أثارت اشفاق على المازنى ، وغيظى في الوقت نفسه من عبد الحميد رضا ، الذي خدع الكاتب الكبير هذه الخديمة المتقنة .

وقد بدأت هذه القصة ، بخطاب ، حمله عبد الحميد رضا إلى المازنى فى سنة ١٩٣٢ ، وفى أعقاب تأليف المازنى مسرحية غريزة المرأة ، التى اتهم المازنى بأنه سرقها من جولسور ذى ، ونص هذا الخطاب :

### « سيدى الكريم

«أحييك تحية القلوب الرفيعة يسودها الحياء والوفاء، وأبعث إليك من أعاق نفسى بآيات الإعجاب بأدبك العالى وثقافتك السامية، وبعد فلقد شهدت رواية غريزة المرأة، وأن أعجب لشيء فعجبى من أن أحكم لها بالجمال وهى ناطقة به.

« ومن الغريب أنى أنا أيضاً ، كتبت رواية فى هـذا المعنى لم أنشرها على الناس ، وقد تتفق مع روايتك من جهة الحجاكم الشرعية ، ولعلك

تأذن بنسخة من روايتك و بعض نسخ من كتبك آنس بها فى تربية ملكة الأدب الذى أتمشقه ، فهل تأذن ؟

د أرجو أن تبعث لى بشىء من آثارك مع تابعى — وقد يكون كتابى مذا ركيكا، وغير معبر تماماً عن الإعجاب الذى ملك على نفسى، وأخذ بتلاييب قلبى، وقد يكون لى خيراً، يوم أن نتمرف أجساداً.

وأرجو أن أوفق إلى ما يتناسب وقدرَك السامي « فاخرة » .

وقد تسلم المازنى هذه الرسالة ، وهو فى بيته ، الذى كان قائمًا على طرف مدينة القاهرة ، عند صحراء الإمام الشافعى حيث المقابر وكان مريضًا ، فرد على هذه الرسالة ، بخطاب كتبه بالقلم الرصاص وقال فى هذا الخطاب :

« سيدنى الفاضلة

تحياتى إليك وشكرى على رسالتك الرقيقة الكريمة ، واعتذارى عن الكتابة إليك بالقلم الرصاص ، فأنى أولا مريض ، وثانياً ، ليس في يعتى حبر . .

« وثقى ياسيدتى أنى أقدر نبل الإحساس الذى دفعك الى كتابة هذه الرسالة ، ولولا أنى مريض متعب ، ويدى ترتعش قليلا من الضعف لحاولت أن أرفيها حقها من الشكر .

ثم قال:

« ولقد شوقتنى الى روايتك، ولكنى لا أجرؤ أن أطمع فى الإطلاع عليها قبل نشرها ٠٠٠ إلا إذا شئت أن تغمريني بفضلك .

«كلا ۰۰ ليس فى رسالتك ركاكة ، بل هى سليمة جداً ، ومن أرقى ما عرفت من أساليب الرسائل النسوية ۰۰ أنها أرقى من رسالتى هذه مثلا ۰۰ « وسلامى إليك وتحياتى ، وشكرى الجزيل ، وأسنى الشديد » .

ولعل المازى ، قد تصور ، بعد أن قرأ هذه الرسالة ، أن أسبابه ستتصل بأسباب هذه الكاتبة الجيلة ، التي تخطت الحدود التي كانت مفروضة ومرسومة بين عالمي المرأة والرجل في تلك الأيام ، والتي لم تكن تأذن بأن تخاطب الآنة أو المرأة المصرية رجلا أيا كان مقامه ، وتبدأ هي مخطب وده ، والتصبير عن اعجابها به . ولذلك انتظر أن تأتي الأيام بما يحقق هذا الأمل سريما ، وأن ينمم بسمادة لم يسع لها ، ولم يحمل بها . وقد كانت هذه نقطة الضمف التي استطاع (فاتح الأقفال) أن يستغلها ، وأن يجر بفضلها المازى وراءه زمنا . وجاء تابع فاخرة هانم إلى المازى ، فأعطاه المازى ، نسخا من مؤلفاته التي طلبتها سيدته فاخرة هانم إلى المازى ، فأعطاه المازى ، نسخا من مؤلفاته التي طلبتها سيدته والتي لم تكن في بيته ، ثم جاء التابع ، بعد أيام بخطاب جديد منها ، تشكر في في هديته ، وتعبر عن أملها في أن تراه ، واشتعلت عاطفة المازى وخياله معا ، فأرسل إليها مع تابعها خطابا يقول فيه :

« لا أدرى كيف أشكر لك هذا العطف الجيل. والإحساس النبيل الذي طوقت بهما عنقى . ولكن الذي أدريه أن القلب الذي يخفق بكل هـــــــذا العطف، لابد أن يكون صاحبه كريما ، واسع الصدرعظيم المغفرة، هذا ما أعول عليه ، وأعتمد . و إلا فقد ضعت والله . ومن أين أجيء باللسان القادر إذا كان لدى القلب الشاكر »

«على أنى أرجو أن يتيح لى حسن الحظ فرصة أشكرك فيها بلسانى، وأرجو أن أكون يومئذ موفقا وقد فكرت الآن أن أعد كلاما ولكنى أعلم أن مثل هذا الكلام المحضر يطير ولا يبقى منه حرف واحد وخيرالكلام ماخرج من القلب إلى القلب ».

وصدق المازني أن السيدة التي تراسله، هي كاتبة ، وأنها وضعت مسرحية ، فقال لها :

« ولكنى أرجو حقيقة أن تسمعىله بالاطلاع على روايتك – وعسىأن بكون ذلك قريبا وقد شرعت فى رواية أخرى سأسميه الالولو ، ولكنى لا أزال فى فاتحتها فلملك ياسيدنى لا تنسى أن تدعى الله أن يوفقنى ، فقد سمع منى ، فما أظنك إلا أقرب إليه جدا من كاتب هذه السطور » .

ولما كان المازنى ، قد أرسل إلى فاخرة مسرحية «غريزة المرأة » ، فقد وجب عليها أن تكتب له لتبدى رأيها فيها ، وقد أرسلت إليه بالفعل رسالة موجزة قالت له فيها :

« أشكرك جم الشكر باعتبارى فتاة على هذا البحث السيكولوجي الفذ الذي كتبته في روايتك ( غريزة المرأة ) وهي كما أراها قطعة من الحياة المصرية الحقة. وقد أذكر تنى بشكسبير ، ورواياته البديعة. وطبعه الهادى - الحكيم في معالجة الحياة الإنسانية ، لايثور ، وإن كانت الثورة في الفكرة .

« معذرة فإنى لم أكتب من قبل لأحد من الرجال لاصلة لأسرتى به ، وأنت أديب تحس هذا بطبعك على أنى كتبت رأيى فى روايتك وأعطيت لتابعى . ليقرأه لك إن استطاع . فإن لم يستطع فاقرأه ورده إلى ..

« معذرة . وأكرر شكرى مرة أخرى .. وأسنى لإزعاجك »

والحق أن المازنى لمعذور. إن هو فرح بهذه الخطابات. التى تملقت كبرياء من تملقا كاد يسكره. فنى تلك الأيام. كان سطراً من امرأة جديرا بأن يلهب خيال أى رجل. فإذا كان هذا الرجل كاتبا. كان أثر ذلك أعمق. لأن رجال الأدب والفكر فى بلادنا. لا يجدون ما يجده زملاؤهم فى أوروبا وأمريكا، من ضروب التشجيع والحفاوة من الرجال والنساء. فقل أن تصل إلى كاتب عندنا، رسالة من قارى و قارئة، تتضمن تمجيدا لمقال كتبه ، أو لكتاب أصدره، بينا يتلقى صفار الكتاب، فضلا عن الكبار، فى أوروبا عشرات من الرسائل، يتمنى وتشجع، وتسأل وتستفسر، وأحيانا تنقد و توبخ.

وقد بدأ الشك يتسرب إلى نفس المازى ، لأن عبارة الرسالة السابقة ، أعلى من مستوى فتياتنا ، لذلك أخذ يستفسر من عبد الحيدعن ثقافتهاو صلاتها ، ومن يتردعلى بيتها من يترددن . وقد كانت كل الظروف ترجح أن هذه الرسائل ، من قلم ساب لاشابة . ولكن إذا سلم المازى بهذه الفكرة فقدا ضاع على نفسه خيالا جميلا . لذلك نفى هذه الفكرة بشدة ، واكتنى بمحرد تسعيل شكه حتى لايتهم إذا ما اتضح فى المستقبل أن الأمركله خديعة ومعابئة ، بأنه استغفل فقال فى الخطاب التالى الذى سلمه لعبد الحيد رضا :

«أظن أنك حيرتنى إلى حد — لا تضحكى من فضلك — إلى حد أبى بدأت أظن أن الذى يراسلنى ليست آنسة ذكية القلب، نافذة البصبرة، بل هو شاب داهية، يكاتبنى باسم آنسة ليتفكه بى ويسخر منى ...

« فما رأيك في هذا الخاطر ، أعترف لك أنه خاطر جرى ببالى من أول يوم، وهذا هو السبب في التحرز الشديد الذي بدا منى في رسالتى الأولى – على الأقل – ولبكنى تساهلت مع نفسى . وأرسلتها على سجيتها إلى حد محدود، فهل تدرين السبب في نشو ، خاطر كهذا في رأسى ؟

« السبب أنى كنت — وما أزال — أعتقد أنه ليس فى هذه الدنيا امرأة يمكن فى أية حال من الأحوال أن يعجبها ابراهيم المازنى ، ولست أقول ذلك تواضعا أو على سبيل المزاح ، ولكنى أقوله لأنه عقيدة راسخة مخامرة لنفسى مع الأسف، وقد كانت النتيجة إنى تحاشيت أن أحاول التحبب إلى أبة امرأة ، ولو كانت روحى ستزهق من فرط حبى لها . وذلك أنى أخشى أن أتلقى صدمة فتكون النتيجة أن تجرح نفسى . وقد أعذبها معى ..

لا أدرى كيف بكون رأيك في رجل هذه حالة النفسية بلا مبالفة ، و إنى أقسم لك بكل ما يحلف به الأبر ار أنى لست كاذبا ولا متخيلا ، أنها حالة شاذة ... ولكن ما حيلتى ، وأنا أخسر بسببها كثيرا مما يفوز به الرجال .

واسترسل المازنى فى التنفيس عن هذا الشعور الذى يعذبه . شعوره بالضعف والنقص أمام النساء ولاشك أنه كان يجد الراحة فى التعبير عن هذا الشعور ، لأنه كان يتوقع أن يكون صدى مثل هذا الاعتراف استنسكار همذا الرأى ، والثناء على المازنى، واستحقاقه للإعجاب والحب، فضلا عن أن الذين يكون مزاجهم كمزاج المازنى، يشعرون بالسرور واللذة حين يبالغون فى الحط من شأن نفوسهم لأنهم فى حقيقة الأمر وفى أعماق نفوسهم، واثقون أنهم على شىء من القدره والقيمة، ولأنهم بجدون فى الحط من أقدارهم، وسيلة من وسائل الانتقام من الناس ومن المجتمع الذى لم يمكنهم من الوصول إلى كل ما كانوا يطمعون فيه.

وقد كرر المازنى المعنى ذاته فى القسم الثانى من خطابه فقال :

« لقد قلت مرة لصاحبة اجتمعت بها على ظهر السفينة :

\_ ياسيدتى أنت جميلة .. وحرام أن تلقى بحمالك بين يدى حمار مثلى ، لا يعجبه إلا البرسيم، هى مرارة نفس تطفح أحيانا و تقطر من اللسان أو من القلم، ولكنى ربما كنت معذورا ، وله لى أسعد فى حياتى لو عشت فى كهف بعيدا عن الناس .

أى .. نعم، ولقد حاولت هذا مرة فقضيت بضعة أسابيع في جبل المقطم، على أثر صدمة قوية تلقيتها من يد القدر ، وكنت أشرب الماء من حفنتي من كني . وآكل من شبه ماجور من الطين، فهل تصدقين . وقد نفعني ذلك فعدت إلى الحياة بعزم جديد ، و نشاط كان مفقوداً » ولكن هذا الزاهد في الحياة الذي لم يتحبب قط إلى امرأة ، ينهى خطابه بقوله :

« فهل صح عزمك على أن تتفرجى على هذا الجاهل النبى . وتريه بعينك؟ أم عدلت ياترى ؟ أرجو أن يكون عزمك مستمرا » •

فالمازني أخذ يلح في أن يرى محبوبته وهوالذي يقول أنهلم يتحبب لأمرأة

قط، وأنه سى الظن فى نفسه ، مع أن صلته بهذه الفتاة أو السيدة ، لم يكن قد انقضى على ميلادها إلا أيام ، ولم يكن قد تسلم منها رسالة أو رسالتين ، وكان الأليق به أن يؤجل ما استطاع رؤيتها ، وأن يكون لقاؤها كالقدر الذى يغر منه الإنسان لا الذى يستعجله ، مادامت ثقته بنفسه أمام النساه إلى هذا الحد الذى يزعم ويؤرق حياته . وقد أدرك عبد الحيد رضا ، أنه قادر على أن يذهب بالمازنى إلى أى مكان ، وهو لم يضيع هذه الغرصة التى كسب منها الأدب كثيرا ، فقد بدأ يخايله بهذا اللقاء ، ثم طلب منه صورة من صوره لسيدته ، فأرسلهافى الحال، وهو يقول لها أنها صورة قديمة ، ولذلك تعد مزورة ، ولما سألته أيقبل أن تكون ملهمته ، فانطلق فى سذاجة يقول :

« وأنت تسأليني، هل أحب أن تكون لى وحياً .. سلى النحل، هل يمب أن يشتار عسله من أكمام الزهر ، وسلى الورود هل تحن إلى سارى الطل يهبط عليها مع الفجر ، ويردها ندية رفافة » .

ولما قالت له \_ كاكان لابد أن يحدث - أن صورته جميلة قال:

« صورتی جمیلة . . یالله . . ! . أفهم بالطبع أن المقصود أنك ترین فی الوجه معنی بزوق لك، معنی مؤلفا من فكرة مكونة فی رأسك البدیع الإنتاج ، مما قرأته لی ، ومما استخلصته وأضفته من روحك الفیاضة ، ولكنه معنی ولاشك: قد زال الآن ولم ببق منه أثر فی وجهی الحاضر ، فقد نضب معین روحی ، وجفت نفسی ، ولم یبق فی وجهی إلا اصفرار الذبول ؟ » .

ثم عاد يلح عليها في أن تراه :

« الحَمد لله الذي أرضاك عنى مكانت لى أمنية أن أراك اليوم ، ولكنك شنت غير ذلك ، والأمر لك بالطبع، ولابد أن يجى وم تضفين فيه فضلا إلى أفضالك ، فلا نتظر فيض جودك وإحسانك ، فإنى أعلم أنه غمر كالبحر فإن هذا المعنى يعجبنى ألا يعجبك ؟

ه حقيقة رسالتك خير ما قرأت في اللغتين العربية والإنجليزية ، منذ شهور
 ولست أجامل ولكني صادق غير مراء » .

ولكن عاطفته كانت قد فاضت، فختم رسالته بقوله :

« إجلالي وحبى وأشواقىلك يا فاخرة »ووضع إلى جانب إسمها «فاخرة» أربع علامات × باعتبار أن كل علامة من هذه تساوى قبلة ، وهو أمر يفعله صفار الشبان في مطالع سنى المراهقة .

وأحس عبد الحيد بأن المازنى فريسة لا حسول لها، فذهب يعبث به عبثاً لا رحمة فيه، فانتهز فرصة خلو مكتب المازنى فى جريدة السياسة الأسبوعية منه ، فأسرع ومعه صورة لإمرأة جميلة ، مما يباع فى المكتبات الأجنبية لمثلات أو لفيرهن من النساء الجيلات، ووضع هذه الصورة فى مظروف مع خطاب ، تقول فيه فاخرة أنها جاءت لتراه منتهزة فرصة سمحت بها الظروف فلم تجده، فأين ذهب؟ أذهب ليسكر ؟

وجن جنون المازنى ، فقد رأى أن حبيبته ، امرأة علىقدر عظيم من الجمال، فوق ما تصور وما ذهب إليه خياله ، ثم رأى فوق ذلك أنها سعت إليه ، وأنه كانت فى متناول يده ، فانطلق يقول فى خطاب كتبه وسلمه لعبد الحميد :

« یا فاخرة ، یا فاخرة ، أنك مسئولة عنی، مسئولة أمامالله وأمام ضمیرك، وأمام ، عن مصیری وعن جنونی ، وعن التیاعی وخبلی .

« لا عذر لك بعد أن أوقدت فى صدرى هذه النار ، وأشملتها حامية مزغردة ، وأصعدت لهيمها إلى يا فوخى . . إلى شعر رأسى »

« لاعذر لك إذا أنت جنعت إلى الصد ، وملت إلى اهمالى وأطراحى ، نعم فقد صرت أحسن بأن قلبى مزدحم بحبك ، كما ازدحم رأسك بهذا الشعر النعمى الساحر ، فحاذا تنوين أن تصنعى بى ؟

« لست أسألك شيئا إلا الرحمة . . . إلا الترفق بفؤاد مصدوع ومهجة مكلومة ، وكبد جريحة » .

ثم قال:

وأن إلى جانبى عبد الحيد أفندى وأنا أكتب، وقد كان ينظر لى وأنا اتأمل صورتك ولكنه لم ير شيئا . . لأن مصيبتى أن أعمق إحساس لا يبدو على وجهى ، ولأنى مضطر أن أكتم ما فى نفسى وأخفيه إلا عنك أنت » .

ثم راح يندب حظه لأنها جاءت إلى مكتبه ولم تجده . ثم قال كلاما يستعق أن نسجله لأنه يصور حالته بشىء مما وقع له فعلا أثناء شعوره بالألم لحرمانه من رؤيته :

« ومن قسوة الحياة على أنى وأنا أكتب إليك حضر إلى مكتبي هيكل بك وجلس يشرب الويسكي معى . . ولابد أن أضحك وأمزح ، وأتكلم كلاما فارغا ، وأمازح هذا وألاطف ذاك ، وانكت على السجن والنيابة التي « ستحقق معى ومع دولة محمد محمود باشا ، غدا بعد الظهر . . كل هذا وأنا أكتب إليك . . فبالله كيف أكتب . . ألست مسكينا يافاخرة . . اعترف أنى مسكين ، وأنى محتاج إليك ، وأنى معذور إذا جننت . ولكنى سأحتفظ ببقية عقلى من أجلك » .

« فاخرة · · لقد اعترفت لك وكشفت عن قلبى ، فهل تغفرين لى هـذه الجرأة ؟ سامحينى فإن عقلى ليس معى · · عقلى مع الصورة التى أعيدها إليك ، وقلبى يتمزق ، أعيدها ولا أجرؤ حتى أن أتزود منها بنظرة » .

وكانت قد اشترطت، أو اشترط تابعها عبد الحميد رضا، في الخطاب الذي أرسلت معه الصورة أن يعيدها إليها بعد أن يلقى عليها نظرة، ولذلك فقد خم خطابه بقوله:

« ولى رجاء « صغير » أعيدى إلى الصورة مع كل رسالة منك لأنظر فيها وأنزود منها ثم أعيدها، اذا كنت لاتريدين أن تبقيها عندى . . دعى عبد الحيد أفندى بجىء بها لأراها ثم أرجعها إليك ، فإنى محتاج الى النظر إليها ، إلى التملى بها .

« آه . . . لوكانت غرفتى خالية ، إذن لقبلت الصورة ، ولكننى أخشى أن أفسدها وأفسد ألوانها ، فلابد من الحرمان ، ولامفر من الصبر » .

وأخطأ عبد الخميد، إذ أرسل — على لسان فاخرة هام — كلاما أستشهدت فيه فاخرة بأبيات شعر لشوق ، لتنوب عنها هذه الأبيات في وصف ما تعانيه وتكابده من لواعج الشوق، فثارت ثائرة المازني ، لأنه كان يكره شعر شوق، فراح شوق يطارده ، حتى وهو ينعم بلذائذ الحب ، ويكشف عن مكنونات قلبه فقال المازني :

« ارحميني يرحمك الله ، فلست كفئاً لاحتمال هذه اللغة ٠٠ وأقول جاداً أنك كنت ماهرة جداً في حكاية ذلك الأسلوب المتكلف الذي ليس أبغض إلى نفسي منه وقد كنت فضلا عن ذلك موفقة — في مكايدتي باقتباس هذه الأبيات من شعر ذلك الرجل الذي يسمونه « أمير الشعراء » . تصوري رجلا لا يحسن أن يقول شعراً إلا إذا كان على غرار شعر سابق ، فكل كلامه حكاية وتقليد ، وليس في قوله ذرة واحدة من الإخلاص وصدق السريرة . ولا في نظره شيء من النفاذ ، إلى الأعمال والسرائر ، وهدفه الأبيات وحدها تريك ما أعنى ، وهي مثال بارز لما يسخطني من شعر المقلدين ونظم الببغاوات .

لم يقل شوق هذه القصيدة بدافع من نفسه ، ولا لأنه يحس أن فى صدره عاطفة تطلب متنفساً أو فكرة تكظ ذهنه و تلح عليه فى العبارة عنها . . كلا
 عاطفة تطلب متنفساً أو فكرة تكظ ذهنه و تلح عليه فى العبارة عنها . . كلا

وإنما قالها لأنه قرأ قصيدة قديمة أعجبه وزنها وراقته الدقة المتلاحقة فى موسيقاها \_ إن صح أن تسمى هذه موسيقى — والتوقيع العنيف فى خطوها ، فأراد أن يقلدها وراح يتعلق بمظاهر لا تدل على شىء إلا الضعف وعدم الصلاح لمهمة الحياة ، وقلة الكفاءة بفرائضها وواجباتها » .

وكان مطلع هذه الأبيات : مضناك جفاه مرقده .

ولم ترد فاخرة على هذا الخطاب ، لأنها أو تابعها على الأصح ، رأى نفسه في مأزق ، فقد ألني نفسه في مواجهة مشكلة أدبية لا بعرف لها رأساً من ذب ، فالشائع على ألسنة الناس ، أن شوق هو أمير الشعراء ، والاستشهاد بشيء من شعره ، يدل على ثقافة المستشهد وتأدبه ، فإذا هذا الذي ظنته فاخرة ، أو تابعها على الأصح دليلا على العلم والثقافة ، جريمة فماذا تفعل ؟ آثرت الهرب ولما ظهر عبد الحميد ، بعد فترة ، لأنه صعب عليه الانقطاع عن تعذيب هذه الفريسة السهلة ، ساق سبباً سخيفاً ، وهو أن فاخره كفت عن الكتابة إليه تقديراً منها لكثرة شواغله . كأن المازني قد أصبح صحفياً بعد خطابه الأخير إليها . ولكن المازني الذي أفزعه أن تنقطع رسائل فاخره عنه تشبث بهذا العذر وفرح وقال :

«أنا محتج، محتج جداً، وأنى لم أعلم أن الباعث لك على عدم الكتابة إلا يوم الأحد هو الاشفاق على وعدم رغبتك فيا تعتقدين أنه إتعاب لى ، ولكن عليك أن تبيني لى ماذا أصنع بنفسى كل هذا الزمن حتى يوم الأحد . . ( الذي وعدت بأن تكتى له فيه ) .

«أرجو أن تعدلى عن قرارك ، فإن فيه من القسوة مالا أظنك تعنينه ؛ إلا إذا كنت تريدين أن تمتحنى صبرى واعترف بأن لاصبر لى على هذا ، فاصنى معروفاً لخادمك للطيع ، واعدلى عن القرار ». واستمر عبد الحميد في استغلال ضعف المازني ، فدعاه إلى السفر إلى الربف، لزيارة فاخرة وأمها في قصر لها بناحية ميت غر ، وصدق المازني ، وسافر ، وأشار عبد الحميد ، وهما في القطار ، إلى قصر ، تحيط به الحقول ، وزعم أن هذا القصر الفاخر ، هو قصر فاخرة ، ولم يصعب عليه — كالمادة — انتحال عذر لكيلا تتم المقابلة الموعود بها ، وتألم المازني — كالمادة أيضاً — ولكنه لم يشك في هذا العبث ولم يشك منه ، فلم يوضع له حد ، إلا حيما قفرت فاخرة من مواعيد المقابلة التي لا تتم إلى اقتراح الزواج من المازني هكذا مباشرة ، بدعوى أن والدتها، لاحظت أن عبد الحميد ، يروح بينها وبين المازني ويفدو ، بخطابات يتبادلها الطرفان ، ولما كانت والدة فاخرة تركية ، وحفيدة مدحت باشا بطل الدستور العماني في تركيا ، فهي لا تفهم لملاقة تقوم بين رجل وامرأة — يتسادلها الطرفان ، ولما كانت والدة فاخرة تركية ، وحفيدة مدحت باشا بطل خصوصاً إذا كانت المرأة ابنتها — خاتمة إلا بالزواج . لذلك لم تر فاخرة بداً من اقتراح الزواج على أن يطلق زوجته أم أولاده ، فبدا المازني على طيبته فقد أزعجه هذا الاقتراح وكان جديراً بأن يفرحه مادام حبه قد برح به على همذه الصورة فقال :

« وأقسم لك أن هذا الحديث ، قد أثر فى قلبى فأضعفه ، وسبب له اضطراباً ، أرجو أن تكون عاقبته سليمة ، مجرد اقتراح التطليق ، كان وحده كافياً لذلك ٠٠٠ وأولادى من يشرف على تربيتهم ؟ وقد قال تابعك ألا يمكن أن يوكل ذلك لأخيك فثرت .

«أولادى ألتى بهم إلى أخى يربيهم وأنا على قيد الحياة أنعم بالحب والسعادة ٠٠٠ أولادى (ألقحهم) على الناس. ولا أبالى كيف ينشئون ولا كيف يبيتون، ولا ماذا يطعمون، ولا كيف يعاملون. أيكون رجلا جديراً بأى منزلة من منازل الاحترام والكرامة من يطلب منه مثل هذا ؟ ولو كان

هذا الكلام لغير أبيهم لما كان فيه شيء، ولكنه كلام قيل لوالد، والوالد يميش بأعصابه وإحساسه وضميره، ولرجل لوكان يعرف كيف يمد يده لكان اليوم غنياً موسراً ، لا يخشى على أبنائه الفاقه ، ولا يحمل همهم بعد موته ٠٠٠

«واعترف لك أن هذه الأحاديث (أحاديث الزوجة والأولاد) أزعجتنى المحداً ، ومزقت أعصابى وأتلفت قلبى ، ونبهتنى إلى مستقبل أولادى، والحقيقة أنى قصرت إلى الآن فى حقهم ، ولكن لن أقصر بعد اليوم ، سآكل عيشاً وملحاً ، وأحمد الله عليهما ، وأدخر لهؤلاء الأطفال المساكين الذين ليس لهم بعد الله سواى ، وكم يعيش قلبى فى هذه الدنيا ؟ لا يطول عمر أمثالى ، لأنى كالزوبعة « والزوابع قصيرة العمر » • لقد صرت بعد هذا الحديث ، إذا داعبت أطفالى أو نظرت إليهم ، وهم يلعبون ، أحس باختناق فى حلق ، وبالدمع يكاد ينحدر من عينى فأرده مجهد .

«ثم إنك شابة في العشرين من عمرك وأنا كهل في الحادية والأربعين وبضع أشهر أبضاً ، أى أن عمرى ضعف عموك ، أفليس من واجبى حين أحدث نفسى أن أتساءل عن مبلغ استحقاقي لحبك ، وعن التبعات التي أحلها بإزاء نفسى وبأزائك يافاخرة ، وبإزاء أولادى وزوجتى .

« فكرى معى في هذا ، ولا تسأليني عما أعنى ، فإن ما أعنيه واضع ، وأنا يافاخرة لستحيواناً ، معذرة ، أنا إنسان ، يحسويدرك ، ويتألم ويستعذب الألم مادام يسعد غيره ، نفسى لا تهمنى ٠٠ إنما يهمنى أن لا أكون حيواناً ، ولا مخادعاً ، لهذا رجوت ورجوت أن تقابلينى ، وأنت نفسك كيف تريدبن هذا لنتكام بطريقة جدية ولنتفاح ٠٠ ولكن هكذا الدنيا ٠٠ للثقل بالمموم يحط عليه الدهر كل مايستطيع أن يحط عليه . لا بأس فقد تعودت أن تحط الأبام

على كاهلى ما شاءت ، لقد خلقنى الله منحوساً سيء الحظ ، فلأبق منحوساً سيء الحظ » .

« وهكذا تحولت هـذه المعابثة إلى فاجعة ، بكل ما في الفاجعة من ألم وعبوس، فرجل في الأربعين يرى نفسه أمام شابة في العشرين، جيلة وغنية، وهي التي تسعى إليه ، وتعرض نفسها عليه ، وتدعوه إلى الزواج منها . ورأى نفسه أمام هذا الإغراء الشديد ، مدفوعاً إلى خيانة زوجته وأولاده . فينسى الحب والزواج ، ويتكلم كرب أسرة ، وكأنما يترافع عن نفسه أمام محكة ، وأكثر ما يستعطف به المنهم القاضى ، زوجته وأولاده . وإلى من أتركهم ؟ ما ذنبهم ؟ ويتذكر في هذا الموقف الممض فقره وفقره ، ورغبته في أن يسعده ، وعجزه عن أن يحقق هـذا كله ، كأنبل وأطيب عن أن يحقق هـذا كله ، كأنبل وأطيب ما يكون الإنسان .

فقد كان فى وحشة مطبقة ، وقد تشبث بأذيال هذا الحب الموهوم ، لاعن رغبة جسدية ، ولا عن غفلة ، ولا حتى عن ضعف عاطنى ، وإنما — كاكررت \_ عن حاجة نفسية ووجدانية ، مبعثها ثقافته ، وجدب الوسط الذى بعيش فيه الكاتب فى بلادنا : وسط خال من أية نبضة من نبضات العطف والفهم والمشاركة فالكاتب كان يكتب فى بلادنا ، وهو لا يرى وجه إمرأة ، ولا يسمع صوت المرأة ، ولا يسمع صوت المرأة ، ولا يصل إليه خطاب واحد من معجب \_ دع عنك معجبه \_ أو حتى من ناقد . . صحراء قاحلة ، يسودها الصمت ، ويرين عليها الجود .

كان المازلى فى حاجة إلى من يؤنسه ٠٠ فوجد كل ما لم يخطر على باله فى خطابات هذه الفتاة الجميلة ، ورآها تكتب ، وتتحدث فى الأدب وتحاول أن تنشى قصة ، ثم هى تعجب به ، وتحبه ، وترسل إليه صورتها . . فأنساه ذلك كل ما يتصل بهــذه الخطابات من أمور ، تتجاوز المعقول ، وتدعو إلى

النربث .. ولكنه حينا رأى نفسه مدفوعاً إلى ما يحرج ضبيره، ضعى بهذا كله، وذكر زوجته وأولاده، وهي في معرض مطارحة الهوى، ومفازلة الحبيب.

فرغت من قراءة هذه الرسائل، فكدت أطير فرحاً بها، فلما اقترح على ه عبد الحييد رضا » أن أكلم المازني في نشرها في كتاب، يقدم لها بمقدمة، لم أثردد في أن أطلب المازني في التليفون، لألقي إليه بالاقتراح جملة واحدة، وبلا مقدمات، فما كدت أبدأ أول حرف في الاقتراح، حتى أدرك الفاية من الكلام فانفجر غاضباً، وقال وهو يهدد ويرعد: « مافيش غير النيابة . . حكام النائب العمومي الوقت . . الوقت حالا » ورددت الساعة إلى مكانها وقد خيل إلى أنها تنتفض انتفاضاً .

#### \* \* \*

لقد أتاحت لنا قصة فاخرة أن نطل إلى نفس المازنى مباشرة من نافذة متسمة رحيبة فحسبنا هذا القدر الآن من النظر إلى الجانب الشخصى، ولننتقل إلى جانب موضوعى من شخصية كاتبنا الكبير.

ماذا قدم المازني للأدب المصري ، وما دوره ومكانته .

الأمر الذى لا شك فيه ولا جدال ، أن المازنى ، أبرع كتاب الصف الأول من القرن العشرين ، في مصر وفي البلاد العربية ، في السخرية من الدنيا والناس عا فيهم نفسه هو ، بل وفي مقدمتهم نفسه هو .

والساخرون أنواع ، فنهم الساخر المرور ، الذى تنضح سخريته حقداً على الناس ، وكرها لهم ، ورغبة فى تسوى ، نظرتهم إلى الوجود ، ونفض يدم من الحياة ، لأنه هو لم يظفر بالنجاح أو بالصحة أو بالسعادة . ومنهم من يسخر بالناس، ويهزأ بما يقولون وما يفعلون لأنه يرى العيوب ، ويعمى عن الحسنات، ولكنه فى هذه السخرية ، يريد الكال ، ويصبو إليه ، وإن كان يراه بعيداً

وشاقاً ، وأن النفس الإنسانيـة لا تقوى على السير نحوه، ولا مواصلة الجهاد في سبيله .

ومهم من يسخر من الناس، وبالحياة ، لأنه يرى الحياة ، عبئاً لا طائل تحته وإن الناس حسنوا أو فسدوا ، لا يستطيعون أن يقوموا إعوجاجها ، أو يستخرجوا المعقول من سخفها وجنوبها ، فهم فيا يحاولون وفيا يقولون ، جديرون بالضحك منهم ، والهزء بهم ، وغير جديرين بالمناقشة ، لأنهم أدوات في يد قوة هائلة لا يفهم لها هدف ، ولا يعرف لسيرها منطق ، وهي تبدو قاسية مدمرة ، هوجاء ، أكثر مما تبدو نافعة أو رحيمة . وفي الساخرين ، من يرى متناقضات الحياة : يرى الطبيعة قوية ، والإنسان ضعيفاً ، والغريزة البشرية جامحة ، والإنسان في تيارها لا حول له . ويرى \_ الظلام محدقاً بأبناء أدم من كل ناحية ، وهو يتخبط ، حاسباً ، أنه يرى ، متصوراً أنه يسير ، واهما أنه يفعل شيئاً ، والحقيقة أنه لا يرى ، ولا يتحرك ، ولا يحقق خيراً ، ولا يرد شراً .

# فن أى هؤلاء المازني ؟

لم يكن المازنى عنيفاً متمرداً ، ولم يدع أحداً إلى عنف أو ثورة ، ولم يكن المازنى سوداوى المزاج ، يملأ نفسك بالهم ، وينفرك من الدنيا ، ويدعوك إلى اليأس . ولم يشتدقط فى نقد الناس ولا فى نقد المجتمع ، ولم يسرف فى الشكوى من سو ، حظه ، أو قلة نجاحه ، أو لكثرة مصائبه . فقد كانت تجربته هادئة خفيفة ، تدعو إلى الابتسام اللطيف ، ولا تدعو إلى القهقهة العالية ، ولا إلى الزيجرة الراعدة . لم يكن سعيداً عما وصل إليه فى دنياه ، فقد كان كاتباً موهو بالزيجرة الراعدة . لم يكن سعيداً عما وصل إليه فى دنياه ، فقد كان كاتباً موهو بالراجرة الراعدة . لم يكن سعيداً عما وصل إليه فى دنياه ، فقد كان كاتباً موهو بالراجرة الراعدة . لم يكن سعيداً عما وصل إليه فى دنياه ، فقد كان كاتباً موهو بالراجرة الراعدة . لم يكن سعيداً عما وسل إليه فى دنياه ، فقد كان كاتباً موهو بالراجرة الراعدة . إلى نظرة جديدة فى الأدب المصرى ، وإلى منهج مبتدع فى دراسة والى الدعوة إلى نظرة جديدة فى الأدب المصرى ، وإلى منهج مبتدع فى دراسة

الأدب العربى، واتصل بالسياسة، وكتب فى الصحف المقرورة، واقترب من زعاء الأحزاب والحكام، ولكنه وجد نفسه دون غيره: فشوق وحافظ اللذان حل عليهما، بقيا زعيمى الشعر المصرى، أو العربى، والعقاد زميله، كان أقرب ما يكون إلى الزعيم منه إلى الكاتب. أما هو فقد كان محدود الرزق، ثم فقد زوجته الأولى، وانخلمت ساقه، ولما عولجت قصرت عن الأخرى، فأصيب بالعرج، واضطر أن يطيل كعب حذائه ليتيسر له السير كا يمشى غيره. كل ذلك شاب نفسه بمرارة خفيفة، جعلته أميل إلى مشاغبة الناس، ومعاكسهم، دون رغبة فى إزعاجهم، بإظهار تفاهمم، أو بملاهم باليأس من أنفسهم أو من الحياة أو بدعوتهم إلى الكفر بالله.

وقد كانت هذه السخرية ، طابع المازى غير به عن غيره من الكتاب ، ولو لم يتسم به أدبه ، لفقد الأدب المصرى العربي كثيراً . فقد كان من أدوا ، الأدب العربي وأمراضه ، حينا انحدرت اللغة العربية عن مكانها القديم ، فجدت أساليبها ، وجفت ينابيعها ، أن الأدب أصبح قوالب ، تصب فيها الألفاظ صبا فلا يتميز كاتب إلا بمقدار ما محفظ من الألفاظ ، ولا يفترق قائل عن قائل ، إلا بحسن ذوقه في اختيار القوالب . فاللغة استحالت إلى ما يشبه الملابس الجاهرة ، مدخل جميعاً إلى المحال التجارية : فنشترى كلنا أحدية ، متشابهة ، مادمنا ندفع المن الواحد ، فإذا اختلفنا اختلفنا بمقدار ، تقودنا تشابهت ملابئا لا بمقدار مواهبنا أو استعدادتنا ، وإذا تقاربت مقادير نقودنا تشابهت ملابئا وأنماط إنسانية ، تتفاوت قدرة وعجزاً ، وتفاؤلا وتشاؤماً ، كما تقباين في العلم وأنماط إنسانية ، تتفاوت قدرة وعجزاً ، وتفاؤلا وتشاؤماً ، كما تقباين في العلم الذي حصلته ، والبيئة التي خرجت منها ، والمذهب الذي تدعو إليه ، لأن هذا التباين والإختلاف ، يحطم القوالب القديمة الموروثة ويجعسل لكل أدبب التباين والإختلاف ، على الأدب المصرى أو العربي كلسه . وقد كان المازن وكاتب ، أثراً خاصا ، على الأدب المصرى أو العربي كلسه . وقد كان المازن وكاتب ، أثراً خاصا ، على الأدب المصرى أو العربي كلسه . وقد كان المازن وكاتب ، أثراً خاصا ، على الأدب المصرى أو العربي كلسه . وقد كان المازن وكاتب ، أثراً خاصا ، على الأدب المصرى أو العربي كلسه . وقد كان المازن وكاتب ، أثراً خاصا ، على الأدب المصرى أو العربي كلسه . وقد كان المازن المناز المناز المنازية التي المناز المن

أيموذ حا فريداً بين الكتاب من أبناء عصره ، فهو وحده الذى سخر من نفسه ومن أهله ، ومن الناس : كشف عيوبه ، وتحدث عن عجزه ، وأطلع قراءه على دخائل حياته . وقد أجفل من ذلك وبعد عنه جميع زملائه : فالعقاد كان يتشامخ ، ولا يتحدث إلاعن فضائله ، ولا يكف عن مدح نفسه ، والثناء عليها ، والمباهاة بمواقفه وأياديه . وعبد الرحن شكرى ، وأن رفع بعض الستر عن نفسه في كتابه (الاعترافات) إلا أنه لم يصرح بأنه يتحدث عن نفسه ثم لم يعد إلى الإفضاء بذات نفسه، وهيكل شغلته السياسة عن أدب النفس ، وقد حالت المعارك السياسية التي خاضها ، بينه و بين أدب الإفضاء والمكاشفة .

وقد يتوهم الإنسان ، أن المازني ضاق بالدنيا ، لأنه اختار لمسكنه موقمًا بعيداً عن مدينة الأحياء ، قريباً من مدينة الأموات ، فسكن داراً وسط المقابر في مدافن الإمام الشافعي ، ولكن الواقع أن هذه السكني كانت للظهر الوحيد في حياته لأسلوب العزلة والبعد عن الناس . فقد كان يعيش سائر يومه معهم ، يضحك ضحكهم ، ويبادلهم الحديث ، ويتعامل معهم بمرلاً تلمح في وجهه ، ولا في أسلوب حديثه ، ولا في ملبسه ، أو باقي عاداته ، جفوة ولا تجهماً ولا إزوراراً كنت أدخل إليه في مكتبه فيستقبلني بوجه ضاحك أو باسم ، باش ، وكثيراً مارأيت أمامه كأس ويسكى، يرشف منه بين الحين والحين، وإلى جوار الكأس بعض حبات الفول الســوداني المقشور ، يمد يده إليه ، ويأكله في تريث واستمتاع . وقيل إنه كان عائداً يوماً إلى داره ، فزلت قدمه ، فوقع في مقبرة مفتوحة ، فارتطم بجثة ميت ، فحرج، وهو يتخبط في الظلام ، والخوف قد ركبه، فلما عاد إلى منزله بتي مهزوز الأعصاب زمناً ، ولمازالت الصدمة ، تركت بعض آثارها فيه. ولكنى أشهد أنى لمأر فيه سمة واحدة من سمات الأعصاب للتعبة، بل أنى أعده من أحسن الناس مزاجاً ، وأطولهم صبراً ، وأقلهم غضباً ، وإن كان هذا لاينني في قليل أو كثير أن يكون في داخل نفسه محترقًا مشتملا ، وأن يكون برماً بالناس ، وأن يكون برمه أكثر وأشد ، لأنه لا يملك الصفاقة أو الفلظة التى تمكنه من أن يصرفهم عنه بشدة عندما يثقلون عليه وجودهم أو إلحاحهم .

وإذا أردت مصداقًا لقولى فاسمع المازنى يصف بيته فى صحراء الإمام غير يعيد من القبور، قال فى مقال نشرته مجلة الفيحاء الدمشقية:

« بيتى على حدود الأبد — لو أمه كان للأبد حدود — وليس هو بيتى وإن كنت ساكنه ، وما أعرف لى شبر أرض فى كل هذه الكرة — ولكن قد كانت لى قصور — ولكن فى الآخرة — بعت بعضها والبعض مرهون بحينه من الضياع — ووقفت معلقاً بين الحياتين ، كا سكنت على تخوم العالمين ، م قال :

وفى كل يوم أهبط إلى ساحل الحياة وأثريث على حفافيها برهة ، أشهد عبابها المتدفق ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور، ويقذف باشلاء غرقاه ، ثم يرتد ليؤوب بسواهم ، مطوين فى أكفان أثباجه محمولين على نموش من مربد أمواجه، وبعد أن أقضى حق الدين من التأمل والشهود، كأنى موكل بعد الموتى ، وحساب البيود أكر راجعاً إلى صحراواتى » .

وينتهي في القول من رحلته اليومية بين المدينة والصحراء فيقول:

وياعجباً! اهبط إلى ساحل العيش كل يوم وأعود ولى حاجة أن أميط عن نفسى ما علق بها من الأوحال ، فأغشى الصحراء فأصفو من الاختلاط والأوشاب ، وأرجع ولم يعلق حتى بثوبى النراب » . .

فأنت ترى أن نتيجة هذه الرحلة سارة، فإنه يعود من الصحراء إلى المدينة، وقد خلت نفسه وصفت من الأوشاب، صفاء ثوبه من التراب. فالإقامة في

الصحراء استجمام وراحة ، وليس تزوداً بزاد الثورة ، يعود منها أشد نقمة على الناس ، وأعظم ضراوة في قتالمم .

\* \* \*

ولد المازني في ١٩ من أغسطس سـنة ١٨٩٠ وتوفي في ١٠ من أغسطس سنة ١٩٤٩ ، فهو لم يحكل الستين من عره ، وكان يحس بأن عره لن يطول، وقد قال ذلك صراحة في إحدى رسائله إلى عاشقته الموهومة ( فاخرة ) ، وقد كان أبوه محامياً شرعياً ، وكل إليه شنون القصر الملكي الشرعية ، فلما مات أبوه، تولى أخوه الأكبر – وكان محامياً كذلك منصب أبيه في القصر ولكنه بدد ثروة أبيه ، فلما شب المازني عن الطوق ، لم يجد شيئاً بما تركه أبو. فعرف شظف الحياة ، ولكنه استطاع أن يتم تعليمه الثانوى ، ولحق بمدرسة الطب، فصعب عليه النظر إلى جثث الموتى في المشرحة ، فأر اد أن يلحق بمدرسة الحقوق، ولكن لم تتح له موارده القليلة أن يدفع مصروفاتها وكانت آنذاك خمسة عشر جنيهاً ، فدخل مدرسة المعلمين وكان التعليم فيها بالحجان . وكان من ١٩٤٥ . ولما تخرج منها في سنة ١٩٠٩ عين مدرساً للتاريخ في مدرسة العبيدية الثانوية ، ثم مدرسة الخديوية ، إلى أن نقله حشمت باشا وزير المعارف إلى مدرسة دار العلوم ليعلم اللغة الإنجليزية للمبتدئين في تعلم هذه اللغة . وكان يخيل إليه أن حشمت باشا نقله إلى هـذه المدرسة نكاية به لأنه نقد الشاعر حافظ إراهيم نقداً شديداً ، وكان حافظ إبراهيم من المشمولين برعاية الوزير ، بل أن الوزير هو الذي عينه في دار الكتب، فقدم المازني استقالته من العمل الحكومي، واشتغل بالتدريس بالمدارس الثانوية الحرة كمدرسة الإعدادية ثم مدرسة المصرية ، الثانوية ومدرسة وادى النيل . وفي سنة ١٩١٧انقطمت صلته بالتدريس، واتصلت أسبابه بالصحافة، فبقى فيها حتى توفاه الله(١).

ومنذ اشتغل بالصحافة ، أو بعد اشتغاله بها بقليل – وإحساسه بأنه غير قادر على أن بلفت الأنظار إليه إلا على مهل وبطء ، يغلب عليه شيئاً فشيئا حتى انتهى به إلى هذه الحالة التى هى بين التشاؤم والفتور وعدم المبالاة ولعل عدم استجابة المجتمع الأدبى لحملاته التجلدية فى الشعر ، والتى كان (الديوان) خلاصها وجوهرها ، زادت هذا الميل عنده وأكدته ، فالى على نفسه أن يكون من الحياة مصوراً متجولا ، لا يرتبط بشى ، ولا يتحمس لشخص ، وينظر إلى الناس نظره إلى صور شاشة (السيما) يراها ويفحسها ويعلق عليها ، والكن يفعل ذلك كله ، وهو عالم علم اليقين أن ما رآه أشباح زائلة على الشاشة ولا أثر لها في حياة الناس .

قال يتحدث عن نفسه ودوره فى الصحافة والحياة فى مقدمة كتابه : صندوق الدنيا :

كنا نفرح بصندوق الدنيا ونحن أطفال . . نكون فى لعبنا وصخبنا فيلمح أحدنا الصندوق مقبلامن بعيد فيلتى ما بيده من كرة أو نحوها ويطلقها صيحة مجلجلة ويذهب يعدو متوثباً ونحن فى أثره » .

ثم ينتقل من الحديث على صندوق الدنيا ، إلى الحديث عن الشبه بينه وبين حامل الصندوق :

وقد شببت عن الطوق جداً وخلفت وراثى طفولتى التى لا تعود ، ولكنى مازلت أمت إلى طفولتى بسبب قوى ، وما انفكت أخراى معقودة بأولاتها : كنت أجلس إلى الصندوق وأنظر إلى مافيه ، فصرت أحمله على ظهرى وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وصور العيش فيها عسى أن يستوقفنى نفر من أطفال

<sup>(</sup>۱) رسالة الدكتور مندور محاضرات عن المازني — معهد الدراسات العربية ص ۲۱ ·

الحياة الكبار فأحط الدكة ، وأضع الصندوق على قوائمه أدعوهم أن ينظروا ويمجبوا ويتسلو ساعة بملاليم قليلة يجودون بها على هذا الأشعث الأغبر الذى يشبر فيافى الزمان وماله منقلب سوى آماله وهى لوافح ، أو نجم سوى ذكرى ، نورها خافت ، لهذا سميته (أى الكتاب) « صندوق الدنيا » .

« ولا أزال أجم له وأحشد . وما فتي. السؤال الأبدى عندي منذ حملت صندوقی علی ظهری » ماذا أصور ؟ هذه هی المسألة كما يقول هملت فی روايته الخالدة . والفرق بيني وبين هملت أنه هو معنى بالحياة والموت ، وبأن يكون أو لايكون ، وبأن يبقى على نفسه أو يبخمها . أما أنا فلا يعنيني شيء من هذا ، ولست أراني أحفل لا الحياة ولا الموت، ولا الوجود ولا العدم، أو لعل الأصح صرت أشبه بالذي كانت له زوجة ترهقه بالتكاليف وتضنيه بالأعمال التي تعهد إليه فيها، أو تأمره بأداثها، قالوا فأشفق عليه صاحب ورثى له، فأشار عليه أن يطلقها لينجو بنفسه من هذا العناء، فطأطأ الرجل رأسه ثم رفعه وقال، « ولكنى متى أطلقها؟ لا أرى وقتى يتسع لهذا » كذلك أنا \_ أنا زوج الحياة الذي لايستريح من تكاليفها \_ أقوم من النوم لأكتب، وآكل وأنا أفكر فيما أكتب، فالنهم لقمة وأخطر سطراً ، أو بعض سطر ، وأنام فأحلم أنى اهتديت إلى موضوع ، وافتح عيني فإذا بي قد نسيته فابتسم وأنا كذاك الذي رأى في منامه أن رجلا جاءه فأنقده تسعة وتسعين جنيها فأبي إلا أن تكون مائة ، فلما انتسخ الحلم ورأى كفه فارغة عاد فأطبق جفونه وبسط راحته وقال « رضينا فهات ما معك » .

« واشتاق أن ألاعب أولادى فيصدنى أن الوقت ضيق لا ينفسح للعب والعبث ، وأن على أن أكتب \_ وأرى الحياة تزخر تحت عينى فأشتهى أن أضرب في زحمها وأسوم سرحها ولكن المطبعة كجهنم لا تشبع ولا تمل قولة

هات، وأكون في المجلس الحالى بحسان الوجوه، رقاق القلوب وبكل من كان يتحسر مهيار على مثلها ويقول:

آه على الرقية في خدودها لو أنها تسرى إلى فؤادها فأشرد عنهن وأذهل عن ستحر جفونهن وأرح أفكر في كلام أكتبه صباح غد ».

الحق أن هذه القطعة بمثل أسلوب المازنى وفلسفته ، وتكشف عن طبيعة سخريته وتشاؤمه معا فهو يكتب بلا تكلف ، يرسل الألفاظ البسيطة السهلة ، إرسالا ، لا يتحرى له إيقاعاً ولا موسيقية . فالجلة قد تطول أكثر بما يلزم ، وقد يستطرد ، وقد يدخل فى الجلة الطويلة جملا اعتراضية بين شرطتين ، وقد يستطرد ، فينتقل من خاطر إلى آحر ، كأبما يتحدث إلى أصدقاء يعرفهم ويألفهم ولا يتكلف معهم ، فهو يجلس على سجيته ، واضعاً رجلا على رجل ، أو مستلقياً على ظهره ، أو مديراً لهم هذا الظهر ، وقد يكلمهم وفى يده سيجارة أو سيجاراً أو وهو يرشف من كأس ويسكى ، ثم قد يقطع الحديث بدندنة . . وعلى الرغم من سهولة ألفاظه ، وقلة العناء الذى يكابده فى الكتابة ، إلا أنه يسره أن يستعمل ألفاظاً غليظة بين الحين والحين ، وكأنه يستملحها وهى قبيعة مثل أن يستعمل ألفاظاً غليظة بين الحين والحين ، وكأنه يستملحها وهى قبيعة مثل أن يستعمل ألفاظاً غليظة بين الحين والحين ، وكأنه يستملحها وهى قبيعة مثل أن يستعمل ألفاظاً غليظة بين الحين والحين ، وكأنه يستملحها وهى قبيعة مثل أن يستعمل ألفاظاً غليظة بين الحين والحين ، وكأنه يستملحها وهى قبيعة مثل أن يستعمل ألفاظاً غليظة بين الحين والحين ، وكأنه يستملحها وهى قبيعة مثل أنسوم سرح الحياة ) ، أو عبارات غير مألوفة كثيراً فيا يكتبه الناس كعبارة أسوم سرح الحياة ) .

وهو حريص على أن يضحك القارى، من نفسه أو من الحياة أو من طرفه ، ولو لم يكن سياق الحديث بطبيعته مؤدياً إلى ما يدعو إلى الضحك ، فهو هنا روى لنا فكاهتين واحدة منهما منطبقة على ماكان بصده ، وهى واقعة الزوج الذى لا يحد الوقت ليطلق فيه زوجته ، أما قصة جحا الذى رأى في الحلم إنساناً يعطيه ٩٩ جنيهاً فأبى إلا أن يقبضها منه مائة فلما أفاق من النوم ،

وعرف أنه يحلم أغمص عينيه ، ومد يده وقال : طيب هات ٠٠ ، فلا صلة لما بما كان يقوله من أنه كان يحلم بالخاطر فى النوم ، فإذا استيقظ ضاع منه ونسيه .

ثم هو يجرنا إلى بيت (مهيار) جراً ، لأنه يعجب به ، وإن كان استطراداً لا مبرر له ، ثم هو يريد أن يتعانى علينا ، بما يبدو أنه غاية التواضع منه ، فهو يقول إنه لا يفكر في الحياة أو الموت أو الوجود أو العدم ، أى أنه هو يقول ما يقوله ، ويكتب ما يكتبه لجرد أكل العيش . فهو أولا ، يعلن أن هذه الموضوعات لا تشغله ، لا لأنها أكبر منه ، بل لأنها هو أكبر منها إذ قد عرف من تجربته أنه لانفع من وراثها ، ولا خير في تصديع الرأس في التفكير فيها ، فهو أحكم من الذين نعرف أنهم سادة الحكمة ، ثم هو على الرغم من أنه فيها ، فهو أحكم من الذين نعرف أنهم سادة الحكمة ، ثم هو على الرغم من أنه لا يحد الوقت ليفكر ، فإنه يكتب هذا الكلام الجيل ، وإن كان لا يقول أنه جميل ، ولكنه يعلم في يقين ، انك معجب به ، وأنك مأخوذ بطرافته وخفة ظله. ثم هو وإن سخر منك، ومن الصحافة والأدب ومن نفسه ، إلا أنه لايعلن مطلقاً أنه زاهد في الحياة ، أو أن الحياة تخلو من المتع الأخاذة ، بل على النقيض أنه يشكو لأن عمله في الصحافة ، لا يدع له فرصة ليتعلى من حسن الحسان ، ولا من تذوق الطعام أو الشراب ، أو ملاعبة أولاده ، والجلوس ينهم .

ثم هو يشكو — وإن لم يصرح — مما قسم له ، ويكشف بلباقة وخفة عن باعث سخريته من الحياة ، وتشاؤمه اللطيف ، فهو مضطر لأن يحمل صندوقه على ظهره ويلف به ويدور وأطفال الحياة يجرون وراءه ، ذلك لأن الأدب والصحافة ، لم تعطه ما يغنيه عن هذا التجوال المرهق المعذب .

ولقد كان يشوقني ويمتمنى أن أحلل المازني ، وأقف أمام آثاره الجميلة «حصاد الهشيم » و « قبض الربح » و « صــــــندوق الدنيا » و « خيوط

المنكبوت » و « إبراهيم الكاتب » و « وإبراهيم الثانى » و « غريزة المرأة » و « ييت الطاعة » و « رحلة إلى الحجاز » و « ديوان شعره » لولا أن هذا كله ليس من شأن هذا الكاتب ، ولا من هدفه إذ حسبنا أننا نلم بحياته إلمامة سريعة ، لتكون عنصراً من عناصر الصورة الكبيرة ، صورة العصر الذي عاش فيه المازني و تألق .

#### \* \* \*

والمازى بغير جدال أحد الذين وجهوا الأدب المصرى العربى الحديث ووضعوا له غايته ورسموا له سياسته ، سواء فى النثر أو الشعر ، وخلاصة هذه السياسة ، أن يكون الأدب ، شعراً أو نثراً ، تعبيراً عن السكاتب ، وتصويراً لا يجول فى نفسه أو عقله هو ، لا نقلا عن الغير ، ولو · كان المنقول جميلا ، ولا محاكاة السابقين ، ولو كان السابقون قد أتوا بالجليل الرائع . فهؤلاء قالوا ماعندهم بطريقتهم ، وعلينا أن نقول ما عندنا بطريقتنا ، نفيد من تجاربهم ، ولكن لا تكون نسخاً منهم ، وإن لم نفعل ، وقفت الحياة عند جيل واحد ، وأصبح الأدب شعراً و نثرا و زجلا وقصة ، اسطوانة قديمة تدار و تدار حتى تبلى . وأصبح الأدب شعراً و نثرا و زجلا وقصة ، اسطوانة قديمة من البدهيات ، هذا هو الرأى الصحيح فى الفن والأدب ، وهو اليوم بدهية من البدهيات ، وكان كذلك قبل عصور الانحلال ، فى النزام أو تحرر من القدماء ، يتفاوت العصور ، ولكنه فى جملته ، فى جميع الأحوال ، صحيح .

ولقد أجبل هذا المازني في مقدمة نقده لحافظ ونحن ننقل بعض سطور عن كتابه حصاد الهشيم في هـذا المعنى لأنه خلاصة مادعا إليه كل حياته ، وقد ورد شيء من هـذا المعنى في رسـالته إلى العاشقة التي لم توجد فاخرة » قال :

« رأيت عجباً أيام كنت أنشر هذا النقد ( لشعر حافظ ) من ذلك أني

كنت اذا قلت أن حافظًا أخطأ فى هـــذا المعنى أو ذاك قال بعضهم « لم يخطى، حافظ ، وإنما تابع العرب ، وقد ورد فى شعرهم أشباه ذلك » كأن كل ما قال العرب لا ينبغى أن يأتيه الباطل ولا يجوز إلا أن يكون صحيحًا مبرءًا من كل عبد . . إلى غير ذلك مما يغرى المر، باليأس ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول !

« وإذ فرضنا أن العرب أصابوا فى كل ما قالوا ، أفترى ذلك يستدعى أن نقصد قصدهم ونحتذى مثالهم فى كل شىء ، ونحن لا نحيا حيامهم السنا الوارثين لغتهم ، وللوارث حق التصرف فيا يرث ؟ هل تقليدك للعرب ، وجريك على أسلوبهم يشفعان لك فى خطأ نحوى أو منطقى – كلا ! إذن فكيف يشفع لك فى غير ذلك مما لا يصح فى العقول ولا يتفق مع الحق ؟ وكيف نتحاكم إلى العقل فى الأولى ولا نستقضيه فى الثانية ؟

«لا ننكر ما لدراسة الأدب القديم من النفع والفائدة ، وما للخبرة ببراعات العظاء ، قديمهم وحديثهم ، من الفائدة والأثر الجليل في تربية الروح ، ولكنه لا يخفي عنا أن ذلك ، ربماكان مدعاة لفناء الشخصية ، والذهول عن الفاية التي يسعى إليها الأديب والفرض الذي يعالجه الشاعر ، والأصل في الكتابة بوجه عام » .

### نم يقــول:

«أليس أحدنا بممذور إن هو صرخ وبه من سانح اليأس خاطر « ياضيعة العمر ۱» أقص على الناس حديث النفس، وأبثهم وجد القلب، ونجوى الفؤاد، فيقولون ما أجود لفظه أو أسخفه ، كأنى إلى اللفظ قصدت، وأنصب قبل عيونهم مرآة للحياة تربهم ، لو تأملوها ، نفوسهم بادية في صقالها ، فلا ينظرون بالا إلى زخرفها وإلى إطارها وهل هو مفضض أو مذهب، وهل هو مستملح الا إلى زخرفها وإلى إطارها وهل هو مفضض أو مذهب، وهل هو مورجال )

فى الذوق أم مستهجن ، وأفضى إليهم بما يمين أحدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون لو قلت كذا بدل كذا لأعيا الناس مكان ندك ؟ ما لهم لا يعيبون البحر باعوجاج شطئانه وكثرة صخوره ؟ بإضيعة العمر ! » .

أما المازى الشاعر ، فرأبى فيه ، أنه كان تابعاً لمازنى الكاتب ، فالشاعر كان يعرض النماذج التى يدعو إلى مثلها الكاتب . يريد الشعر صادقاً ، يريد الشعر كا قال « أنه خاطر لا يزال يجيش بالصدر حتى يجد نخرجاً ويعيب متنفساً » فلماانتهت مهمة الكاتب ، وأصبح ما يدعو إليه أمراً مسلماً ، وانحسم من حوله الخلاف ، لم يجد الشاعر ما يدعوه إلى نظم الشعر ، فقد كان قادراً على أن يقول كل ما يريد ، في نثر أقرب إلى الشعر ، من شعره ، وهو في الوقت نفسه أيسر على الناس ، وأقرب تناولاً .

ولم يجدد المازنى الشاعر ، فقد بقى شعره ، وشعر زميله العقاد — كا يقول الدكتور محمد مندور « شعراً غنائياً ، مشغولا بدنيا النفس ، فلم ينقلاه إلى المجال الموضوعى القائم على شعر الملاحم والقصص والدراما ثم جاء شوقى فاستحدث الشعر المتثيلي في مسرحياته المعروفة ، ينها ظل شعر المدرسة الجديدة في جملته شعرا غنائياً شخصياً (١). »

أما المازنی الروائی ، فلم یکن روائیاً ، بقدر ما کان امتدادا للمازنی الکاتب الذی یطیب له أن بتحدث عن نفسه ،وأن بحلها،وأن ینظر إلی الناس والدنیا من خلالها، وأن یزری بها ویصغر من شأنها ، و کأنه ینتقم لنفسه من الناس الذین تجاهلوه ، وغضوا من قدره ، فتولی بنفسه تعذیب نفسه والانتقاص من مقامها ، و کأنه یقول – بیدی لا بید عمرو .

<sup>(</sup>۱) دراسات في المازني للدكتور محمد مندور ــ معهد الدراسات العربية من ۱۳ .

يقول الدكتور على الراعي في كتابه «دراسات في الرواية المصرية» عن قصة « ابراهيم الكاتب »:

« فهدف المازني من ( ابراهيم الكاتب ) هو خلق شخصية ابراهيم وإبرازها ، وإيضاحها للناس . ولهذه الشخصية عند الكاتب مفهوم واحد ، ثابت ، مطلق لا يتغير ، و إن تغرت المواقف التي يجد فيها نفسه والأشخاص الذين يتعامل معهم ، أن لإبراهيم لدى المازني معنى يعنيه ، لا يتغير ولا يمكن أن يتغير دون أن تنهار الرواية من أساسها ، ذلك المعنى هو الطموح ، والجرى وراء مالا يمكن أن ينال ، هو الحيرة الدائمة والسعى وراء أوهام النفس الجميلة ، التي ما أن ينكشف منها وهم حتى يقوم مكانه وهم آخر يدانيه فتنة وخوا. » .

ثم يقـــول:

« إبراهيم في الرواية هو هو ، لا يتغير وحوادث الرواية القليلةوأفكارها الكثيرة كلها مسخرة لخدمته المؤلف لا يخلقه ويقدمه لنا إنطباعاً وراء انطباع، وموقفًا أثر موقف ، وفكرة تصطرع مع فكرة ، ثم نموا لهذا كله وانتفاضًا بالحباة يحمل الشخصية تستوى أمامنا كبيرة كالحياة ، بل هو يقدم لنا منذ البداية لوحة متكاملة تمثل الشخصية ، ثم لا تزال ريشته تتناول الضوء والتفاصيل والخلفية في اللوحة ، بحيث تتغير هذه جميعاً ، و تبقى الشخصية الرئيسية كما هي » .

وبقدر ما كان المازني عاجزا عن أن ينتزع نفسه من الكاتب ليكون قصاصاً ، كان عاجزا عن أن يكون مؤلفاً مسرحياً ، بل كان أكثر عجزا . فقارءاته في المسرح الغربي قليلة إلى أبعد حد وحديثه عن الأدب المسرحي في كنبه الخمسة أو الستة يكاد يكون معدوماً . فهو إن تحدث عن شكسبير في مسرحياته ، تحدث عن الشعر ، لا عن المسرحية ، وبنائها وحوارها وتطورها ونمو شخصياتها ، فهذا عالم لم يستوقف نظره ، ولم يغره بالدخول فيه . ومسرحية غزيرة المرأة الذي آمهم بنقلها عن جالسور ذي ، هي بيضة الديك، لم يكتب قبلها ولم يكتب بعدها ، فهو لم يكن قادراً \_ حينا محاول أن يكتب مسرحية أن ينسى محفوظه الغزير من الألفاط والمترادفات ، وقدرته على أن يقول المعنى الواحد في الموضع الواحد ، بأكثر من صيغة ، فهو يكتب في حواره المسرحي مقالات قصيرة ، ولا تعنيه الحركة ، ولا حتى الأسلوب اللائق بالحوار في مسرحية يشهدها الناس في اجتاع عام يضم العالم والجاهل ، والصغير والكبير ، وهو يضع على لسان الخادمة معانى ضخمة ، لا تتناسب مسع ثقافتها وبيئتها وعقليتها ، وهي معان لا مقتضى لها من سياق المسرحية إلا أن تكون المسرحية للما معرضا لبلاغته وفصاحته ، فريدة الخادمة التي قتلت ابنها ، تقول : إن الدنيا منذ خروجي (من السجن ) تبدو لى جديدة إلا أنها مرعبة ، وكثيراً ما منازعني نفس أن أطلق صيحة في الهواء صيحة طويلة قوية ، وأن أثب وأتفز من فرط سرورى بالخلاص » وحوار فؤاد ( وهو رجل مثقف ) مع الخادمة فريدة ، يحمله يشرد ويسمعنا هذا الخاطر الفلسفي المتكرر أو المبتذل ه لماذا ينبغي فريدة ، يحمله يشرد ويسمعنا هذا الخاطر الفلسفي المتكرر أو المبتذل ه لماذا ينبغي وبقائه؟ ماذا تخسر الدنيا إذا خلت رقمة الأرض من هذا الإنسان ؟ » .

فالسرحية من بدايتها إلى بهايتها نشعرك بأنها تدور في بيت من بيوت لندن ، وسواء كان المازني قد نقلها عن جالسورذي ، أو تأثر بهذا الكاتب المسرحي، فهى نابية عن مجتمعنا ، وهي في مجموعها ليست عملا مسرحيا ، وإن كان المازني خليقا بأن يكون كاتبا مسرحيا ممتازاً لبراعته في إدارة الحوار ولقدرته على تأمل نفوس الناس ولطاقة الدعابة عنده ، وإن كان ذلك يتقاضاه أن يتهيأ لهذا الطراز من الإنتاج الأدبى ، وأن يفكر في التسلح له ، والتحرر من أسلوب المقالة ، ومن التخلص من ثروته اللفظية الضخمة .

وقــد حاول المازني في هذه المسرحية محاولة مضحكة ، هي أن يدع كل

شخصية من شخصيات المسرحية تتحدث باللغة التي تناسبها ، فيتكلم حامد الشاب المثقف بلغة فصحى رفيعة مليئة بغريب الألفاظ ، وتتكلم الحاجة قريبته فى نفس الموقف بلغتها العامية ، ويتبادلان حوارا بهاتين اللغتين فيقول الشاب للحاجة : لا أستطيع أن أشتغل إذا كانت معدتى مكظوظة .

فالمازنى لم يستطع أن يقاوم حبه لكلمة « مكظوظة » ، ومشتقاتها ، ولو قال ممتلئة لهان الخطب . ولكن هذه الألفاظ تختفي في الفصل الثاني والرابع .

فكلا تقدمت المسرحية ، زاد أسلوب المازني صفاء ، وسرعة ، وخفة .

ما يؤكد أنه لو شغل بالمسرح طويلا ، ولو أفاد مما تكشف عنه للمؤلف المسرحي مواقف الجماهير من استجابة وفتور ، لارتفع قدره بين كتاب المسرح من حيث النص ، وإن كان الشك كبيراً في أن يكون كاتباً مسرحياً قادراً على إقامة المسرحية على أساس حركي ناجح ، أو حتى على أساس فكرى حى ، فالمشكلات التي كانت تشغل المازني في كل ما كتب محدودة للغاية ، لاتعدو أن تكون التهوين من الدنيا والناس ، ومداعبة للأفكار والدوران في فلكها دون الخروج منها محقيقة جزئية أو باهرة .

#### \* \* \*

تحدث العقاد عن المازني فقال:

« صديقى المازنى أحوج الأدباء إلى التعريف بحقيقة فضله ، لأنى ما رأيت أحدا من المعجبين إلا وهو يجهل بعض مزاياه . . . وليس ذلك لخمول فى الذكر . فقد بلغ رحمه الله ، من الشهرة غاية ما يبلغه الأديب فى البلاد العربية .

«وليس ذلك لغموض في النفس يباعد مابين ظواهرها وبواطنها. فما عرفه أحد من طول المعاشرة إلا عرف أنه من أصغي النساس سريرة وأشبههم ظاهراً بباطن وجهراً بخفاء ».

و ولكنه لم يعرف بحقيقة فضله — أو بكل حقيقة فضله لسبب غيرالخول وغير الغموض – وهو قلة الاكتراث ، والاكتفاء بأيسر ماينال وبعضهم يسميها ملكية السخرية ، ويخيل إليه أنها على مثال السخرية التي اشهر بها بعض المفكرين الساخرين . . ولكنها فيما أعتقد تشبه السخرية وليست مى . لأنها تخلو في جوهرها من نكاية السخرية التي تلازمها . فلا تنطوى على النكاية بأحد ، ولا تدل على حب للنكاية » .

« وإنما هي، على ماعرفتها واختبرتها، شيء آخر غير السخرية ، وإنكانت شبيهة بها. هي حب المعاكسة البريثة أو هي الدعابة لا ضير فيها على أحد ولافرق بين الدعابة مع النفس والدعابة مع الآخرين » .

« لم يكن يبالى أن يبرز خير ماعنده ، ولم يكن يبالى أن يقدح فى أدبه وفنه بقلمه ولسانه فيسبق للنكر والحاسد إلى القدح والأفكار، ولم الجهد والعناه ».

« لقدكان يرى حقائق الدنيا كالحيال ، لأن غايته إلى أمل أو ذكرى ، وكلاهما خيال .. فليكن متاعه بها ، و نصيبه منها خيالا يغير عناء .. »

ولقد روى العقاد من معا كسات صديقه المازنى ، أنه عاد ذات ليلة بعد سهرة طرب ، فى عربة (حنطور) وكان سائقها من غواة الغناء والطرب ، فأخذ يغنى، واسترسل فى الغناء ، والمازنى يبدى إعجابه به حتى قرب من منزله موثب من العربة بخفة ، والسائق مشغول بغنائه ، معجب بصوته ، فلما لاحظ أن الراكب انقطع عن اظهار الإعجاب ، نظر إلى داخل العربة ، فلم يجدأ حداً ، فراح يصرخ ويولول . . ثم عاد إلى الموقف ، وفى اليوم التالى ذهب المازنى وأجزل ومعه العقاد ، فبحثا عن الحوذى فى كل مكان حتى لقياه فأعطاه المازنى وأجزل فى العطاء .

ليماكسوه ، فلما تبين مافعلوا أحكم إغلاق باب الفصل و نوافذه ، والرئمة يشتد مفعولما فى الهواء الحجبوس ، والطلبة يكادون يختنقون والمازنى لا يبدى مظهراً واحداً من التأفف أو الضيق ، فأدرك التلاميذ أمهم مع مدرس شديد المراس ، لاينفم معه للزاح ، ولا تجدى المماكمة .

# ثم يقول العقاد:

« أنه يترجم النثر في أسلوب كأسلوب الجاحظ وخالد بن صفوان . ويترجم الشعرفي أسلوب كأسلوب البحترى والشريف، ثم لا يخرم في ترجمته حرفاً من اللفظ ولا لحجة من المعنى ، بل يأتى بالمقاله المترجمة أو القصيدة المترجمة في طبقة التأليف أو أعلى وأبلغ ، ويعرض لك قصيدة الشاعر الأوروبي — العالمي — بلغة عربية لا يزيد عليها صاحب القصيدة شيئاً لو أنه نظمها في لغة الضاد » .

### وقال :

«كان — المازنى يستطيع أن يفتح المرجع التاريخى الضخم فى اللفة الإنجليزية وأن يلخصه وهو يقرؤه ، وأن يترجمه وهو يلخصه ، وأن يكتبه على ورق الآلة الناسخة فى وقت واحد. وهى أربعة جهود يجمعها ذكاء المعلم النابغة فى لحظة واحدة: جهد القراءة ، وجهد التلخيص، وجهد الترجمة، وجهد التحضير » .

هذا هو المازنى، أو هذا جانب من صورته، أو هذه مى صورته ، لاتلمع فيها كل التقاطيع ، ولا تبين كل القسمات ، ولكنك تحس منها الروح ، والأسلوب ، وتعرف بفضلها فضله على أدب أمته ، وعلى نهضة الشعب الذى أحبه ، وأخلص له .

# الفصف لالرابغ

# عباس محمود العقاد

ولدعباس العقاد في ٢٨ من يونية سنة ١٨٨٩ ، في مدينة أسوان . وكان أبواه — أبوه وأمه — وافدين عليها . فأبوه من دمياط، وأمه كردية الأبوين. وكان أجداده يعملون في صناعة الحرير ، ثم انتقل جده لأبيه إلى المحلة ، وهناك خلع عليه لقب (العقاد) وهو يطلق على من يعقد الحرير. ولابد أن يكون عقد الحرير هو غزله . ولم يخبرنا العقاد ، لماذا رحل جده إلى أسوان وأقام فيها، ولكنه قال لنا أن والده كان رئيس قلم المحفوظات بمديرية أسوان ، وأنه كان رجلا متديناً ، ذا كفاية فى عمله ، ودراية بترتيب وتنظيم أوراق وسجلات الحكومة ، وهي عادة لا تعرف النظام ، ولا تخضع لتبويب . ومن آيات أمانة هذا الوالد، أن أسوان تعرضت في خلال ثورة المهدى، التي قامت في السودان، وزحف دراويش هذا الزعيم السوداني، على مصر للاضطراب الذي ألجأ كثيراً من أُصَّحَابِ الْأَطْيَانِ وَالْبِيُوتِ ، إلى الْهُجَرَةُ مِن أَسُوانَ نَجَاةً بِأَنفِسَهُم ، فُوضَعُ غيرهم يده على تلك الأطيان والبيوت وزعموا أنهم أصحابها ، ولم يكن هناك سبيل لدحض إدعاءاتهم إلا بالرجوع إلى السجلات المحفوظة عند محمود مصطغى إراهيم المقاد أفندى ، فلو سولت له نفسه أن يتجر بهـــذه السجلات ، فيخفي منها أو يظهر مقابل ما يأخذه من مال هؤلاء أو مال أولئك، لأثرى ، ولكنه آثر الأمانة ، فأخرج الأوراق بغير تمن ، لينصف المظلوم ، وليخزى الظالم .

وقد كان والده — ككل الآباء أو كأكثر الآباء في تلك الأيام — يأخذ أولاده بالشدة ، ويعامل الصبيان منهم كأنهم رجال كبار ، لا يحسب

حساب الطفولة ، ولا يمترف بحقها في اللهو واللعب. رأى يوماً (عباس) وهو في الثامنة أو السابعة في البيت بين قريباته من خالات وعمات ، فناداه وو بخه لأنه رضى أن يزج بنفسه بين النساء ، وأخذه ليحضر معه ندوته في (مندرة) البيت التي يشهدها شيوخ يتكلمون في أمور معقدة ثقيلة لا تروق لطفل . إلا أن هذه الندوات أنضجت رجولة عباس في وقت مبكر ، فاستطاع أن يتقدم إلى وظيفة كتابيه بديوان مديريه قنا ، وهو بعد في الخامسة عشرة .

ويروى عباس أن والده كان يصر على أن يلزمه بأدا الفروض في أوقاتها، ومنها صلاة الفجر ، وهو دون العاشرة ، وأنهم كانوا يوقظونه قب ل شروق الشمس ليؤدى هذه الصلاة ، وهو مستغرق في النوم، « سعيد بدف الفراش فاحتمل هذه المشقة يوما ثم يومين وثلاثة فلما كان اليوم الرابع رفض أن يترك الفراش وأعلن التمرد ، فلما علم أبوه بذلك ، سأله : أتمتنع عن الصلاة ؟ فلما أجاب الصبى ( نعم ) هوت عليه عصا الوالد .

ومع ذلك فلم يكن الصبى متمردا على الدين ذاته ، فقد كان يقصد المسجد، ويرقى درجات مأذنته ، وينشد الأناشيد التى تسبق صلاة الجمعة ، بل أنه كان ينظم هذه الأناشيد ويقدمها للمؤذن وهو يخنى عنه أنه هو مؤلفها حتى لا يستصغر شأنها ، فيرفض إنشادها . أما أمه فهى ابنة محمد أغا الشريف بن عمر أغا الشريف . وقد كانا ضابطين فى الفرقة الكردية التى أنفذها محمدعلى فى سنة المستريف . وقد كانا ضابطين فى الفرقة الكردية التى أنفذها محمدعلى فى سنة السودان يعد مقتل ابنه إسماعيل باشا على يد نمر ملك شندى السوداني – ولما انتهت مدة خدمته العسكرية اختار أسوان موطناله وأخذ مقابل معاشه أطيانا بها .

وكان أبناء محمد أغا وبناته شقر الوجوه ، كأنهم من أهل شمال أوروبا ، فقد كانت ( ديار بكر ) على الحدود الشمالية بين العراق و تركيا هي مسقط رأسهم .

وقد كان خصوم العقاد ، يميرونه بأنه ابن ( بخيته ) السودانية . فلما رأى النقراشي حال العقاد معه يوما ، وسأله من يكون هـــذا ، أدهشه أن رد العقاد « هــذا خالى » فقـــد كان يتوقع أن يكون خال العقاد رجلا من أهل السودان .

وتحس فى رواية العقاد لهذه الواقعة بأنه كان فخورا بأن أهل أمه كانوا من الأكراد ذوى الوجوه الشقراء .

وقد ورثت أمه عن أجدادها وأبيها سلامة البنيه ، فقد كان من أخوتها من يصرع الثور ، ومن يتصدى للصوص قاطعى الطريق المرهو بين المثيرين للفزع، فيقبض عليهم ، ويقودهم إلى الحكومة ، مقيدين بالحبال . والعهدة في هذا على المقاد نفسه .

وكانت سيدة صموتة ، مدبرة ، شديدة ، يحسب الناس حسابها ، فأطلقوا عليه لقب (المشدة) والمشد لفب يطلق على الرجال الذين بقودون فرق العمال ويأخذونهم بالشدة . وقد ورث العقاد من أمه طول القامة ، والقدرة على الاعتكاف . وكان يحبها ويترضاها . اعتاد أن يرسل إليها ثلث مرتبه ، فكانت تنفق بعض هذا المال، وتدخر الباق . واستطاعت أن تضيف من المال الذى أدخرته إلى بيت العائلة في أسوان ، الأرض التي حوله ، فضمت إليه ، وهدم العقاد البيت القديم في سنة ١٩٤٩ ، وأعاد بناءه ، بعد توسيعه ؛ إلا أن أمه أصرت على البيت القديم في سنة ١٩٤٩ ، وأعاد بناءه ، بعد توسيعه ؛ إلا أن أمه أصرت على أن تبقى حجرتها على رسمها القديم ، وأن تطلى كذلك بطلائها القديم .

وتعلم العقاد فى المدرسة الابتدائية الأميرية بأسوان. وقد كان هذا كل ما تلقاه من العلم المدرسى ثم تعلم فن التلفراف \_ بمدرسة ناحية الدمرداش بالقاهرة على آلة التلفراف فى السكة الحديدية . ثم اشتغل كاتباً بمديرية الزقازيق ، ولكنه كان موظفاً سيئاً ، يرفض تفيذ أو امر رؤسائه و بعتدى

عليهم بالسب ، فني الزقازيق دخل على رئيسه وقال له : حمار (أزعر ) مثلك لا بصحح لى ما أكتبه. وهاج الرئيس وجرى إلى مكتب وكيل المدير بة وشكا له من اعتداء المقاد عليه ، ودعى وكيل المديرية الموظف الصغير المعتدى ، وسأله عن حقيقة الأمر ، فلم يزد العقاد عن قوله : والله لم أعامل حضرة الباشكاتب إلا بما (يستحقه) من الاحترام. وكان وكيل المديرية رجلا ( بحبوحا ) فأدرك ما يعنيه العقاد ، فكتم ضحكة ، ثم صرف الباشكاتب ، فلما خلا بالعقاد انفجر في الضحك ، وحذره من العودة إلى هذه الشيطنة . وفي مديرية الفيوم ، وقم للمقاد مثل ما وقع له في الشرقية إلا أنه هـــذه المرة لم يكتف بالسب الشفوى لرئيسه ، ولم يكتف بسب رئيس واحد ، بل نظم قصيدة سب فيها رئيسه ووكيل الرئيس ، وطبع القصيدة ووزعها، ثم استقال من الوظيفة وسافر إلى أسوان ، فرفع المتعدى عليهما الأمر إلى القضاء ، وحضر المقاد من أسوان إلى الفيوم ،وترافع عن نفسه ، وساق الحظ له للمرة الثانية قاضيا واسع الأفق ، أدرك أن العقاد شاب ، وأن قيود الوظيفة ، واستبداد الرؤساء بالمرؤوسين ثقلت عليــه ، ثم أعجيه نسج القصيدة فقنع بإلزامه بغرامة خمسين قرشاً دون - الحبس، ولُــا ذهب العقاد إلى خزينة الححكمة ليدفع الغرامة ، وجد القاضي قد سبقه إلى دفعها .

ويقول العقاد أنه أول مصرى استقال من وظائف الحكومة ، فقد كانت وظائف الحكومة فقد كانت وظائف الحكومة في أيامه ، أمنية كل شاب ، فإن تحققت كان التشبث بها ، غاية الغايات ، لذلك كانت حوادث الاستقالة من الوظيفة الحكومية أندر من حوادث الانتحار بكثير .

ثم اشتغل العقاد فى ديوان الأوقاف ، فى قسم التحريرات ، وهو قسم كان يرأسه الكاتب محد المويلحى صاحب حديث عيسى بن هشام وكان يضم مع العقاد أدباء ومتأدبين آخرين ، ولا شك فى أن العمل فى هـذا القسم ، كان يتفق مع طبيعة وميول العقاد، فلم يتوقع فيه سوء المعاملة، وكانت مصاحبته للأدباء، عما يسرى عنه وقد اجتمع منهم في ديوان الأوقاف تحت رياسة المويلحي أكثر من عشرة من الأدباء منهم عبد العزيز البشرى وعبد الحليم المصرى وأحد الكاشف وحسين الجل وحسن الدرى ومحمد فكرى والشاعران على شوقى ومحمود عماد.

إلا أنه نفض عنه قيود الوظيفة ، واشتغل بالصحافة ، وكانت أولى الصحف التي عمل بها جريدة ( الدستور ) التي كان يصدرها الأستاذ محمد فريد وجدى ، وكانت من جرائد الحزب الوطنى ، وقد استطاع فريد وجدى أن يستولى على إعجاب واحترام وتقدير عباس العقاد ، فبقى يذكره بالخير حتى آخر أيام حياته (1) ، ولما خرج العقاد على الوفد ، وأحس بالحاجة إلى مبايعة زعيم جديد ، نفض جعبته محتاً عن الزعاء ، لم يجد خيراً من فريد وجدى وحاول أن يقنعنا بأنه الرجل المطاوب . وقد تزامل عباس العقاد في تحرير ( الدستور ) مع الأستاذ أحمد وجدى المحامى شقيق فريد وجدى ، وقد كان يتولى ترجمة كل البرقيات التي ترد من شركات أنباء الصحف (كرويتر ) البريطانية و ( هافاس ) الفرنسية . ولكن لم يلبث العقاد أن اختلف معه فترك الدستور ، وهو يحمل الحب والاحترام للشقيقين محمد فريد وجدى .

وتنقل العقاد بين الصحف فاشتغل فى الأهرام عقب ثورة سنة ١٩١٩، ويذكر له مؤرخوه أنه إبان عمله فى الأهرام وفدت الى مصر لجنة ملنر فى سنة ١٩٢٠ وأذاعت على المصربين بياناً حددت فيه مهمتها فترجمت الصحف هذا البيان على وجه يفهم منه أن اللجنة تسعى إلى الاتفاق مع المصربين على ( نظام

<sup>(</sup>١) قال عنه فى كتاب رجال عرفتهم : هو فريد عصره غير مدافع وتلك كلة مألوفة طالت ألفتها حتى رثت وبليت وأصبحت حروفا بغير معنى إلا أننا نقولها اليوم عن مجد فريد وجدى لنعيد إليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفا حرفا .

دستورى) للحكم يحل محل نظام الحماية التي كانت مفروضة على مصر ، ولكن العقاد تبين أن في الترجمة خطأ وأن الترجمة الصحيحة للبيان مؤداها أن اللجنة ستحل محل الحماية نظام (حكم ذاتى) . وشتان بين حكم دستورى تكون السلطة فيه للمصريين ونظام حكم ذاتى ، يمنح فيه المصريون بعض السلطات في الشئون الداخلية في إطار من السيادة البريطانية . فلما تأكد المصريون أن أقصى مالدى اللجنة لا يتفق مع أمانيهم الوطنية واصلوا مقاطعة اللجنة ، وكانوا قد تواصوا بهذه المقاطعه ، فتمت بنجاح عظيم .

واشتغل العقاد بالتدريس مع زميله المازنى فى المدرسة الإعدادية ، وغيرها. ثم عمل مع عبد القادر حمزه فى جريدة البلاغ ابان إنتساب البلاغ إلى محمد معيد باشا رئيس الوزراء ، ولم يكن هذا الأخير خالص النية للحركة الوطنية . وانفصل عنه العقاد ، ثم عاد إليه عندما أصبح البلاغ من جرائد الوفد . وبقى فى البلاغ زمنا غير قصير ثم انتقل منه إلى ( الجهاد ) التى كان يصدرها دياب توفيق و يحرر فيها معه محمود عزمى ، ثم انتقل العقاد ومحمود عزمى إلى جريدة روزا اليوسف فيها معه محمود عزمى ، ثم انتقل العقاد ومحمود عزمى إلى جريدة روزا اليوسف اليومية حتى أغلقت أبوابها .

\* \* \*

فى سنى طفولة العقاد وصباه، ذكريات لم ينسها طوال السنين، منها ذكريات وباء الكوليرا الذي عصف بأسوان وبأهلها، فتساقطوا موتى حتى كاد يخلو الحي الذي كان يقيم فيه من سكانه ويذكر أنه كان يسمع الحوار يدوربين أصحاب المراكب الشراعية وبين زملائهم من أهل اسوان حول عدد الموتى، فلا يسأل السائل كم عدد الموتى، بل يقول، كم السعر اليوم، فيرد الجيب بقوله: جنيه مصرى، إذا كان عدد الوفيات مائة و (بنتو) إذا كان العدد ثمانين، و (بندقى) أى خسين ثم الريال والريال المجيدى وأم خسة، وانتشار الأوبئة

كان من معالم الحياة فى تلك الفترة ، فكما حدثنا العقداد عن وباء الكوليرا وحصده للأرباح فى أسوان ، حدثنا سلامه موسى عن هذا الوباء وحصده للارواح فى الزقازيق ٠

واحتفظت ذا كرته بصورة فتاة أوروبية هيفاء جاءت مع عائلتها سائحة ، وذهبت إلى داخل المدينة على غير عادة السائحين الأجانب ، وكانت تحيط خصرها النحيل بحزام ، وقد كانت من نحافة القد إلى الحد الذى لم يعهده الصبى من قبل فى النساء ولمكن رشاقتها ، خطفت بصره فراح يتابعها وهو مأخوذ اللب بخطوها الخفيف ، حتى غابت عن عينه فبقى رسمها حيا فى ذا كرته حتى قال بعد خمسين عاماً أو يزيدانه يستطيع أن يرسمها بعد كل هذه السنين من الذاكرة كأنها ماثلة أمامه ،

ومن ذكرياته أنه اجتمع في ليلة القدر مع اثنين من أصحابه، وأهل بلدته، ها صالح حرب، والحاج عبد الجيد، فطلب كل منهم طلباً تمنى على الله أن بتحقق فكان رجاء صالح حرب ان يكون قائداً عسكريا، وكانت أمنية الحاج عبد الجيد أن يحج إلى بيت الله، وكانت أمنية المقاد ان يكون من اشهر اهل زمانه. فأجاب الله رجاء الجميع، فقد أصبح اللواء صالح حرب وزيزاً للدفاع، وحج عبد الجميد إلى بيت الله سبع مرات، وأصبح المقاد من أوسع الناس شهرة في مصر والبلاد العربية.

ويروى العقاد في هذه الذكريات أن الشيخ محمد عبده زار المدرسة الإبتدائية التي كان يتعلم فيها ، فأطلعه مدرس الإنشاء على موضوع كتبه العقاد عن موازنة بين الحرب والسلام ، فأعجب الشيخ بإنشائه وقال « ما أجدر هذا الصبى أن يكون كاتباً بعد » و نطق الدال في كلة ( بعد ) مشكولة بالضم ، فارتسمت هذه الشهادة في ذاكرته ، وكانت من دوافعه الأولى إلى الاهتمام بالإنشاء والكتابة ،

وأحب من يومها الشيخ محمد عبده ، وبقى يضمر له الإعجاب ويعلنه ، ويعده من كبار رجالات مصر ومصلحها ولكن الأثر الذي تركه مصطفى كامسل فى نفسه كان مناقضاً لهذا الأثر ، فقد أصبح العقاد مدرساً متبرعاً بعمله فى المدرسة الإسلامية ، وزار المدرسة الزعيم مصطفى كامل ومعه بعض الضيوف الأجانب وطلب من التلاميذ أن يشرحوا معنى البيت التالى :

### والمرء إن لم تفـــــد نفعا إقامته

# غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يزل

وعجز التلاميذ عن شرح البيت فنظر مصطفى كامل إلى العقاد متماثلا ، فأراد العقاد أن يعتذر عن التلاميذ فقال إن السحاب فى أسوان التى تشتد فها الشمس ، ويستحب الظل ، ليس بالشىء الكروه ، حتى لو لم يمطر ، ولهذا تعذر على تلاميذ أسوان أن يفهموا قول الشاعر الذى يذم السحاب الذى يحجب الشمس ولا يمطر . وكان العقاد يتوقع أن يبدو على مصطفى كامل الإعجاب بهذا الأعتذار الفكه ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث، فثبت فى نفس العقاد نفور من مصطفى كامل ، تزايد مع الزمن ، و بقى يلازمه إلى آخر العمر و يقول العقاد فى هذه المناسبة :

«حسن تخلص » كنت أقدر من حطيب مثله أن يتقبله بالاستحسان والارتياح ، ولكنه تجهم وزوى وجهه ، وبدا لى أن الاستدراك عليه ، ولو من باب الفكاهة — أمر كثير على طاقته الفكرية «النفسية» . ومن الطريف الذي يرينا كيف يتحول التاريخ في يد المؤرخين أن العقاد نفسه أثبت بقله أن مصطفى كامل تجهم حين أبدى ملاحظته ، ولكن صديق العقاد الأستاذ الجبلاوى، دوى نفس الواقعة على وجه مناقض تماما فقال أن مصطفى كامل هش

وبش لهذا الاعتذار وبدا عليه الإعجاب بحسن رد العقاد ، رحم الله التاريخ رحمة واسعة .

ويذكر المقاد بالخير في هذه المرحلة من حياته اثنين ها مدرس اللفة المربية فخر الدين محمد الله الله المحمد الجداوى الذي كان يشهد مجلسه مع أبيه، والذي يحصى المقاد مواهبه فإذامنها أنه كان يحفظ مقامات الحريرى والهمذاني، ويطارح خمسة أو ستة من الأدباء في الشعر ، فيغلبهم جميعاً . والمطارحة في الشعر معناها أن يبدأ المتسابق ببيت من الشعر ، لايكاد يفرغ منه حتى يرد عليه المتسابق الآخر ببيت يبدأ أول حرف فيه ، بآخر حرف في البيت الذي رواه منافسه و هكذا . وكان الشيخ الجداوى فوق ذلك يجيد ألعاب الحواة ، ويبتدع الملح والفكاهات .

وقد وجد العقاد فى خزانة كتبوالده مجموعة من مجتى الأستاذ ، والطائف التى كان يصدوها عبدالله النديم فأقبل عليها يطالعها بشغف عظيم، أدى إلى تعلق وإعجاب بعبد الله النديم ، وكان يرى بينه وبين النديم وجوه شبه ، فقد تعلم كل منهما صناعة التلفراف : تعلمها النديم فى الاسكندرية وتعلمها عباس العقاد فى ضاحية الدمرداش قريبا من القاهرة ، واشتغل كلاهما بالتدريس فى مدرسة خيرية إسلامية ، وتعقب البوليس كلا منهما .

وكان لتعقب البوليس للعقاد قصة مردها أيضا الحساسية المفرطة عند العقاد، فقد اشتفل ناظرا بمدرسة ابتدائية في أسوان، وأقام للمدرسة حفلا كبيراً، على عادة المدارس في نهاية العام الدراسي، وأرسل دعوة إلى المدير ليشرف الحفل، فلم يلب المدير الدعوة، ولم يعتذر عن حضورها، فانتقد العقاد مسلك المدير، أمام جمع من الناس، ثم نقل هذا النقد إلى المدير فكبر

عليه أن ينتقد علنا أمام صغار الناس ، ومن موظف صغير ، فاستدعى المقاد إلى مكتبه ، الذى ما كاد يدخله حتى أخذ مقعداً وجلس أمام المدير ، وثار المدير لأنالمقاد لم يستأذنه في الجلوس ، فرد عليه المقاد ه إن الحكومة وضعت الكراسي في هذه الفرفة لأجلس عليها أناوأمثالي » . وصرف المدير المقاد ، ولما وصل إلى بيته ، وجد أن أمراً صدر يقضى عليه بملازمته بيته فقد وقمت هذه المشادة خلال الحرب العالمية الأولى ، وكانت الأحكام المرفية معلته وثقل الأمر على المقاد ، فانفق مع أحد ذوى قرباه على أن يفتمل شجاراً على مقربة من داره ، يصرف نظر العسكرى المكلف محراسته ريباً يفر ، ثم انطلق حتى وصل إلى المحطة ، فاستقل القطار المسافر إلى القاهرة ، وهناك عوض الأمر على جعفر والى باشا وكيل وزارة الداخلية وكان على صلة طيبة بالمقاد وبغيره من الأدبا ، واستمر للدير لسوء حظه يمطر الداخلية بتقارير تتضمن نسبة أمور عديدة إلى المقاد ، والعقاد في القاهرة ، وفي مكتب وكيل الداخلية ، يراه كل يوم مغتشها الإنجليزى ، فثبت للحكومة كذب المدير ، فنقل منها وأعفى من عمله ، مقتشها الإنجليزى ، فثبت للحكومة كذب المدير ، فنقل منها وأعفى من عمله ، وعين بدلا منه مقبل باشا ، ففرح المقاد ، وأرسل برقية إلى ذويه يقول فيها : هشر مدير ، وخير مقبل ، »

ماذا تعطینا حیاة العقاد أیضا ، سواء فی صباه وشبابه ، أو فی رجولته و کمولته وشیخوخته ، من حقائق ممتعة ، أو مؤسفة ، تزیدنا معرفة به ، وبالحیاة فی أیامه ، و بالحیاة عموماً ؟

ممالم حياة العقاد الأساسية يمكن إحصاؤها على الوجه التالي .

فى الحياة الوجدانية ، أحب العقاد شابة لبنانية تعرف عليها فى (بنسيون) فى مصر الجديدة ، وبعد حديث غزل معها ، خيل إليه أنها تحاول الإفلات منه ، فإذا بها تحاصره ، وتريد الانقضاض عليه ، وفعلا استولت عليه زمناً ، بقى فى قبضتها ، وهى تسلم نفسها لشاب أصغر منه سناً كان ضابطا برتبة الملازم أول . ومن سلم نفسها لشاب أصغر منه سناً كان ضابطا برتبة الملازم أول .

فى نفس الوقت الذى كانت فيه هذه الشابة المليئة بالحيوية الأنثوية ، تخون العقاد ، كان العقاد بخون الآنسة (مى) معها ، وكاعرف العقاد أن حبيته التى اسماها (سارة) ليست وفية له ، ولا أمينة على حبه لها ، كشفت (مى) أنه ليس خالصا لها ، وقد كان ذلك مستحيلا لأن (مى) لم تستطع أن تمنح نفسها له ، وكان أقصى ما تستطيع أن تعطيه للعقاد هو أطراف أصابعها ، أو كل يدها ، يقبلها ، وعبارات غزل تؤجج عواطفه ، ولا تشفيها . فبكت وانسحبت من حياته ولقد فشل غزل تؤجج عواطفه ، ولا تشفيها . فبكت وانسحبت من حياته ولقد فشل الحبان ، ولكنهما أثمرا قصة (سارة) التي لم تكن سوى تسجيل هذه التجربة المزدوجة ، فلم تكن قصة ، بالمعايير المعروفة للقصص ، ولعل كاتبها لم يقصد أن يكتب قصة .

ولما بلغ العقاد الخمسين أوتجاوزها وقع من جديد فى حب شابة فى العشرين، سمراء جميلة ، جددت شبابه ، وجملت حياته ، وأطلقت الدم حاراً فى عروقه وألهمته وأوهمته ، وأسمدته وأفرحته فقال :

نفص النعاس فؤاده وصبيا

وصحسا فمال فهام فاضطربا

ونفى السآمة بعدما بلغت

منه المشاش وعاود اللعبا

وجرى الذى ماكان يحسبه

يوما يكون وطالما حبا

ف توبة الخسين يشغله

وجه ویملاً صدره رغبا ویظل بسأله ، وإن رهبــــا

ويبيت يسمعه وإن كذبا

## ویمد منے الزور مأثرة أو لا يريد يزوره ســـبباً

ولكن هذه العلاقة لم تكن حب ، وإنما كانت وهما من أوهام الشيخوخة . كانت من جانب العقاد ، فرحاً بعودة الشباب ممثلا في هذا الحب الذي جاء على غير انتظار ، وجاءت معه كل متع الشباب ولذائذ خيالاته ، وجموح شطحاته . وكان من جانب الفتاة ، استسلاما لصاحب الشهرة والمركز والمال . ولم يلبث هذا الخيال الجيل ، خيال فتاة صغيرة ، قليلة الحفظ من الثقافة والتعلي ، تحب كاتباً كبيرا أن تبدد بعد أن استمد منه العقاد حرارة وأملا ، واستمدت الفتاة منه نصوجاً وفهما فترك الحسرة عند العقاد ، وترك عند الفتاة مثلاً يترك الجرح الصغير في يد الطفل ، مجرد خيط رفيع لا يرى . والعقاد لم يكن من ذوى العواطف المتوهجة ، ولا الخيال الجوح ، ولم يكن قادراً أن يحب حباً عنيفاً عبيقاً ، فقد كان مشغول النفس بذاته ، وقد امتص هدذا الحب حباً عنيفاً عبيقاً ، فقد كان مشغول النفس بذاته ، وقد امتص هدذا الحب فلم تلامس قلباً .

ولكن كان فى حياة العقاد (حب ) آخر ، هو حب كلبه ( بيجو ) الذى رثاه ، رثاء لعله يساوى كل شعره العاطفى — قال فى ( بيجو ) هذا :

وكلا ناديته ناسيسا بيجو ولم أبصر به آتيا مداعبا مبتهجا مسافيا قد أصبح البيت إذن خاويا لامن صدى فيه ولا من سميع نسيت؟ بل ليتنى قد نسيت أحسبنى ذا كره ما حييت لوجاء نسسيانه ما رضيت بيجو معزى إذا ما أسيت بيجو مناجى الأمين الوديم

أما حب مى، فقد انتهى ، لا كا ينتهى الحب ، بل كا تفسم العلاقة بين اثنين تلاقيا صدفة ، ثم وهم كل منهما أنه أحب الآخر ثم افترقا جاء فى قصة سارة: لما شعرت (مى) بأنه يحب فتاة أخرى ، وقد كان هذا الحب قبل أن تقع هى فى حبه ، زارته على حين غرة فى مكتب عله ، وهى الزيارة الأولى والأخيرة ، فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارته المفاجئة وابتهاجه بسؤالها عنه ، وأنصت مترقبا ، فقالت بعد فترة وصوتها بتهدج ؟

\_ لست زائرة ولا سائلة ..

فقال: إذن؟

« ولم يتمها لأنها نظرت إليه ، كن تستحلفه ألا يتكلم وانحدرت من عينيها دممتان فما تمالك نفسه وتناول يدها ورفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها فمانعته ولم تكف عن النظر إليه ، ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة وهى تتمتم هامسه: دع يدى ودعنى » .

ويقول العقاد: لو جاءت هذه الزيارة فى بداية علاقته بسارة ، لما كان بعيدا أن تقضى على تلك العلاقة وأن اترد إسم سارة عنده اسما مفموراً فى عامة عنوان النساء. بيدأنها جاءت وقد أوغلت العلاقة بينه وبين سارة الايفال الذى لا تراجع فيه — وصعدت على طريقها تعدو إلى الأمام عدوا لا تنظر فيه إلى الوراء.

وأنت نحس في هذا الحكلام أن العقاد يحسب عواطفه حساب الأرقام ويستخرج نتائج الحساب بعد عليات طرح وضرب فهذا التعليق أخلق به أن يكون تعليقا على قضية كسبها أو خسرها ، لا تعليق شاعر على حب خائب، وإذا كان العقاد قد استطاع أن يكون أكثر شاعرية وهو يرثى كلبه ، وأن

يتخفف من وقاره وتزمته الذى يلازمه حتى فى مواقف الحب وهو يتفجع لغياب (بيجو)، فذلك لأن ( الـكاب) يرضى أنانية الإنسان إلى أقصى الغاية .

هذه إذن حصيلة الحياة الوجدانية للمقاد .

أما حياة المقاد الصحفية ، ففيها مرحلتان أساسيتان ولنا مع هاتين المرحلتين وقفتان كبيرتان :

أولى الوقفتين حينما اشترك العقاد فى جريدة روزا اليوسف اليومية ، وبدأ حملة عنيفة على الوزارة النسيمية بصفة عامة \_ وعلى نجيب الهلالى وزير المعارف فى تلك الوزارة بصفة خاصة . والثانية عندما أقفلت هذه الجريدة أبوابها ، وقد كان خروج العقاد من جريدة الجهاد وانضامه إلى جريدة روزا اليوسف ، هو وزميله محمود عزمى بداية الانشقاق فى الوفد ، الذى انتهى بخروج ماهر والنقراشى منه ثم تكوين الحزب الجديد « الحزب السعدى » .

أيهما السبب وأيهما النتيجة ؟

هلكان خروج العقاد وإصدار جريدة روزا اليوسف اليومية ، سبباً للانشقاق الذى وقع فى صفوف الوفد ، والذى خرج بسببه بعد ذلك ماهر والنقسراشى ، أم أن الانشقاق ، هو الذى أوحى بإصدار جريدة لا تخضع للتوجيه المباشر لزعامة الوفد ، وتتمتع بشىء من الاستقلال فى وضع سياستها وتنفيذها .

الذى نرجحه أن الدوائر ذات النفوذ التى ترسم سياسة مصر ، وتمرك الخيوط المتصلة بالزعامات والزعماء ،كانت قد فرغت من إصدار قرار يقضى بأن تقوم هيئة سياسة جديدة ، تنتمى لسعد زغلول ، وتعمل فى السياسة الحزبية ، تحت اسمه ، ولا تدين له بالولاء . وقد

وقمت هذه المحاولة عقب وفاة سعد بقليل ، وبعد فشل فتح الله بركات في الوصول إلى زعامة الوفد ، بفضل مساعى مكرم عبيد الذي كان يخشى من سعاوة شخصية فتح الله بركات ، وبراعته في المناورة السياسية ، وقوة صلاته بزهماه الريف وأعيانهم . فقد قامت الميئة التي عرفت بالوفديين السعديين ، والتي ذهبت في التاريخ الحزبي لبلادنا ، باسم (السبعة ونصف) والتي كانت تضم فتح الله بركات ، وحد الباسل ، وعلى الشمسى ، و فخرى عبد النور ، ونجيب الغرابلي .

ولم تيأس الدوائر ذات النفوذ من إمكان تنفيذ هذه الفكرة ذاتها ، بعد فشل محاولة إنشاء حزب الوفديين السعديين ، فقد كان واضحاً أن النقراشي وماهر ، لن يطول صبرها على استئثار مكرم والنحاس بالسلطة في الوفد ، وأن التصدع بسبب ذلك آت لا ربب فيه ، فلم يبتى إلا أن تحضر له الظروف ، وترتب له النتائج .

وفى هذا الجو نبتت فكرة إصدار جريدة يومية فى رأس روزا اليوسف، التى كانت قد أصدرت مجلة أسبوعية بدأت أدبية ثم تحولت إلى سياسية، تحست للوفد وأيدته، وكانت من أقوى أدوات دعايته، وأحد أسلحة الهجوم عل خصومه.

وفكرت السيدة « روزا » في أن تسند رياسة تمرير جريدتها إلى فكرى أباظه الذي اعتذر لأن ولاء لدار الهلال ولصاحبي الدار ، ألزمه ألا يعمل في غير صحف هذه الدار وقد بقى وفيا لهذه الدار حتى اليوم . وفكرت في أن تسند رياسة التحرير إلى محمود عزمى ، وكان يكتب وقتذاك في جريدة الجهاد الوفدية التي كان يصدرها توفيق دياب ، وقبل عزمى أن يترك الجهاد ، وأن يعمل في الصحيفة اليومية الجديدة ، وحرر العقد بين السيدة روزا اليوسف وبين

محود عزى ، إبراهيم عبد الهادى المحامى ، الذى أصبح من زعماء الهيئة السمدية ثم وصل بعد ذلك إلى رياستها ، بعد مقتل ماهر والنقراشى . ثم فكرت السيدة فى ضم العقاد إلى هيئة تحرير الجريدة الجديدة ، فقبل العقاد ، بعد أن رفض أول الأمر ، بحجة أنه لا يعمل فى جريدة تحمل اسم (ست) ، ولكن السيدة روزا عرفت كيف تعالج هذا الرفض ، تقد رفعت مرتبه من ٧٠ جنيها كان يتقاضاها من جريدة الجهاد إلى ثمانين جنيها ، ثم قبلت أن تعجل له مرتب أربعة شهور يقبضها دفعة واحدة ، وكان لابد أن يضاف أن تعجل له مرتب السرطين الماديين شرطا أدبيا ، كان من قبيل تحصيل الحاصل ، هو أن تكون الجريدة وفدية .

وقد اشترطت صاحبة الجريدة على العقاد أن يسكتب كل يوم مقالا سياسيا ، وأن يكتب كل أسبوع مقالا أدبيا ، ولما انتهى الطرفان إلى الاتفاق على الشروط جميعاً ، تولى الأستاذ إبراهيم عبد الهادى تحرير العقد، ولما عاتبت السيدة روزا العقاد على رفضه العمل في جريدة تحمل اسم ست ، خفف أثر هذا الرفض ، بقوله أن اعتراضه كان ينصب أصلا على العمل في جريدة تحمل اسم شخص أيا كان هذا الشخص ، يتساوى عنده أن يكون سيدة أو رجلا .

وقد توجس مكرم من إحمدار الجريدة اليومية الجديدة ، ومن خروج المقاد وعزمى من جريدة الجهاد للتحرير فيها ، فقد كانت الجهاد ، جريدة مكرم تأتمر بأمره ، وتتلقى منه الوحى ، ولما هاجمت الجريدة الجديدة ، وزارة نسيم ، التى جاءت بعد سقوط وزارة إسماعيل صدقى ، ثم عبد الفتاح يميى ، وكان واضحا أن نسيم على ما سنرى فى فصول هذا الكتاب — جاء ليلمب دوراً جديداً فى السياسة ، هو خلق دستور جديد ، تتخذ الإجراءات لوضعه ، وتعلول هذه الإجراءات ، فتبقى البلاد فترة بلا دستور ، فى انتظار دستور جديد ، تشغل

الأذهان بوضعه وبالمناقشات التي ستدور حوله ، وبالانقسامات والفرقة التي تخلقها هـنده المناقشات فتقسع الفرصة للانجليز لمزيد من العبث في البلاد ، ولمزيد من الخوض في أحشاء السياسة المصرية وإفسادها وتفتيت وحدة الأمة .

وقد كان الثبان في تلك الفترة ، قد وصلوا إلى شيء من النضوج السيامي، أعانهم على الاستقلال عن الأحزاب ، وتكوين رأى خاص بهم ، فرأوا في تأييد الوفد ، لوزارة نسيم ، وفي تلكؤ نسيم في إعادة دستور سنة ١٩٣٣ في تأييد الوفد ، لوزارة نسيم ، وفي تلكؤ نسيم في إعادة دستور سنة ١٩٣٣ وفي التحكك في فكرة وضع دستور جديد عن طريق جمية وطنية منتخبة ، اخطاراً وطنية ، لا يستطيعون السكوت عليها ، وأن الموقف لم يعد محتمل أن يتعلوا مختلف زعماء الأحزاب على غير شيء مفهوم ، وأن الساعة حانت لأن يتعلوا ليقنوا صفاً واحداً ضد بريطانيا ، ايطلبوا معاهدة تنهى الوضع القائم . وقد اثبت الأيام أن هؤلاء الشبان الذين كانوا حسنى النية بلا جدال ، والذين كانوا أكثر نضوجاً من زعمائهم ، قد حققوا أملا قديماً لبريطانيا ، فقد كانت بريطانيا منذ أخفقت ثورة سنة ١٩١٩ تتمنى أن تتحد الأحزاب ، لتنتزع منهم جيماً ، معاهدة تلزمهم كافة ، وتحول بين المزايدات السياسية التي مخافها . الإنجليز ويكرهونها .

فى هذا الجو ، خرجت جريدة العقاد وعزمى اليومية السياسية ، وقدكان لحكل من العقاد وعزمى سبب يدعوه إلى مهاجمة وزارة نسيم ، وألا يلتزم بالخط السياسي الذي يرسمه الوفد لمهادنة تلك الوزارة .

كان للمقاد صديق هو الأستاذ طاهر الجبلاوى ، نقل فى عهد الوزارة السابقة على الوزارة النسيمية ، تنكيلابه لوفديته ، ولصلته بالمقاد ، فلما جاءت الوزارة النسيمية ، انتظر المقاد أن يعاد صديقه إلى القاهرة ، ولكن

نجيب الهلالى وزير الممارف فى تلك الوزارة — لأمر ما — لم يمده إليها ، فاستشاط العقاد غيظاً ، وأطلق على الوزارة عموما — وعلى نجيب الهلالى خصوصا — حملة عنيفة .

أما محود عزمى ، فقد كان خصا لوزير المالية في تلك الوزارة ، المرحوم أحمد عبد الوهاب باشا — والظاهر أنهما كانا زميلي دراسة ، وكانت بينهما ما بين الزملاء الأنداد ، من منافسات . وغضب الوفد من حملات الجريدة على الوزارة ، وانزعج الإنجليز منها ، وتقول السيدة روزا في كتاب (ذكريات) أن دار للندوب السامى البريطاني ، أوف دت إليها رسولين عرضا عليها خسة آلاف جنيه كدفعة أولى مقابل وقفها للحملة على وزارة نسيم ، على ان تقبض شهريا ألني جنيه وكان أحد الرسولين تاجز ورق والثاني صحفياً وهذه الرواية ، تربح طرفا من الستار عما كان يجرى في دنيا السياسة والصحافة في تلك الأونه ، فقد كانت الدوائر السياسية كلها تنفق عن سعة على دور الصحف ، وعلى الصحفيين ذوى التأثير ، وإذا كانت دار المندوب السامي قد عرضت كل هذه المبالغ على جريدة يومية ناشئة كانت لا تزال في مهب الربح ، وكان في وسع الوفد أن يقصى عليها ، كا ثبت بعد ذلك ، فكم كانت تدفع للجرائد وسع الوفد أن يقصى عليها ، كا ثبت بعد ذلك ، فكم كانت تدفع للجرائد

وقد استدعى النحاس ، الأستاذ العقاد ، ليباغه عدم رضاء حزب الوفد عن حلات الجريدة على وزارة نسيم ، وكان النحاس آنذاك في الاسكندرية فسافر العقاد وقابله هناك ، فأظهر النحاس استياءه من الحلة على الوزارة فقال العقاد أنه يحمل عليها لأنها انحرفت فهسى تماطل في إعادة الدستور وتعمل لصالح الإنجليز ووزير معارفها نجيب الملالي يضطهد الوطنيين .

فقال له النحاس ، ولكنى أؤيدها ، وأنا زعيم الأمة فماذا أنت صانع ؟

ويقال أن الأستاذ المقاد نظر حواليه فوجد في الحجرة بضمة أشخاص ، فقال له أنت زعيم الأمة لأن هؤلاء انتخبوك، ولكنى كاتب الشرق بالحق الإلمي.

ولو صحت هذه الرواية ، لـكانت جديرة بأن تضحك ، فزعيم حزب لايناقش أكبر كتاب هذا الحزب، وإنما يدخل معه فيها يشبه المناطحة، فالزعيم بتحدى بسلطة الزعامة ، والكاتب بقول أنه كاتب الشرق ، بالحق الإلمي ولست أدرى ماهو هذا الشرق الذي يمنيه الكاتب الكبير ، أهو الشرق الأدني ، أم شرق إيران والهند والصين واليابان الذين لا يقرأون للمقاد ، ولم يسمعوا عنه . ثم ما هـو الحق الإلمي ، الذي يجعل من الكاتب كاتباً للشرق أو الغرب .

ويقال أيضا أن العقاد ، أخرج قلما صغيرا من جيبه وقال إنه لن تنتهي برية هذا القلم ، إلا وقد انتهى أجل هذه الوزارة .

وقد صاحبت هذه التجربة الصحفية ، ملابسات فكاهية ، ترينا جانبا من خلق العقاد . من ذلك أن الجريدة استعانت بمصور كاريكاتوري ، وكان المصور يتلقى أفكار رسومه وصوره من المحررين ، وقد طاب للعقاد يوما أن الكاريكار تورية ، فإذا هي أقرب أن تكون مقالا من أن تكون فكرة كاريكارتورية ، سريعة وقصيرة ومباشرة . وأخذ المصور يستمع للشرح محاولا أن يقتنص من هذا الشرح الفكرة الفكاهية فلم يستطع، ودخل أحد الصحفيين الذين اشتهروا بمداعباتهم ، وبرواية الفكاهات ، فروى له المقاد فكرته ، وانتهى منها والصحنى يظن أنها لم تنته بعد ، فإذا العقاد يثور ويهيج هياجاً شديدا ، لأنهم توهم أن هذا الصحني يحاول أن يشمره ببرود فكرته ثم يقول له :

<sup>-</sup> أنت مشراخي تضعك ليه .. ؟

عاوز تقول أن نكتتى بايخه ؟ أنا بقالى عشرين سنة بقول نكت . . أنا نكتى أحسن نكت في البلد ».

ومن فكاهات العقاد فى تلك الفترة أيضا أنه لما صدر العدد الأول من الجريدة ، لاحظ العقداد أنه كتب فى الصفحة الأولى (ابدأ بالصفحة الثانية) وكانت مقالة محمود عزى ، منشورة فى تلك الصفحة . وكانت مقالة العقاد فى الصفحة الأولى ، ففهم من تلك العبارة أن الجريدة تريد أن تقول لقرائها أن الجانب المهم من الجريدة يبدأ بالصفحة الثانية ، فلا تهتموا بالصفحة الأولى ، وهو تصور لا ندرى كيف خطر على بال العقاد ، ولكن العقاد ثار ثورة مصرية وأيقظ صاحبة الجريدة بمكالمة تليفونية فى الصباح المبكر ، وكانت قد قضت الليل كله ساهرة بجانب العدد الأول ، وأخذ صوته يتفجر فى سماعة التليفون وكأنه شظايا قنبلة ولكنه هدأ ، وفهم واستمر فى العمل ..

غير أن الوفد نجح في آخر الأمر في إسقاط جريدة روزا اليوسف ، ثم في إغلاقها ، ومرت على العقاد أسوأ فترات حياتة ، فقد كانت الجرائد إما وفدية وإما غير حزبيدة ، لا تستطيع أن تستكتب كاتبا حزبيا له كل الخصومات والعداوات التي كانت للعقاد . فرأى العقاد نفسه بلا عمل ، وبلا أمل في عمل ، ومرت عليه الأيام بطيئة ثقيلة ، والأزمة لاتريد أن تنفرج والخوف من الفضيحة ، ومن النشرد ، يزداد يوما بعديوم ، على أعصاب العقاد ، وفي هذه الأيام زدت معرفة بالعقاد ، فقد كان يكثر من تردده على مكتبى ، وفي مكتبى حررت له عقد بيع بالعقاد ، فقد كان يكثر من تردده على مكتبى ، وفي مكتبى حررت له عقد بيع جميع النسخ التي كانت باقية عنده ، من كتابه عن سعد زغلول ، وكانت تعد بالآلاف ، اشتراها دفعة واحدة مصطنى محمد ، صاحب المكتبة التجارية الكانئة في أول شارع محمد على ، ودفع له مائة جنيه ، أبعدت عنه شبح اليأس الكائنة في أول شارع محمد على ، ودفع له مائة جنيه ، أبعدت عنه شبح اليأس قليلا ، ومنحته فترة ينتفس فيها فوق سطح الماء ، وفي هذه الفترة فرغ الإبحاد :

من مفاوضة جبهة الزها، على مماهدة سنة ١٩٣٦ ، وكانت جمعية مصر الفتاة تصدر مجلة أسبوعية ، فاستكتبته مقالين أو ثلاثة ، ضد هذه المعاهدة ، وكانت تدفع له عن المقال عشرة جنبهات قبلها على مضض . فى تلك الأيام ، كان المقاد يتجلد وهو بمانى أشد الآلام ، بسبب مخاوفه السوداء القائمة التى لم تطلقه من أسارها ، حتى انهت الأزمة ، وعاد إلى العمل ..

وقد عرفت يومذاك أن المقاد ، كان يحمل معه فى الغدو والرواح ، زجاجة ، صغيرة ملأها سما زعافا ، أعده ، لساعة تستحكم حلقات الأزمة ، ويعز العزاء .

ولكن الله سلم، وعاش المقاد بعد ذلك سنين طويلة ، زاد فيه اسمه ذيوعا، وزاد فيه عمله نجاحا، وتوالت آثاره الأدبية ، ولم يعرف من الضيق ما عرف فى تلك الأيام.

## \* \* \*

هذه الحقبة من حياة العقاد الصحفية ، كانت أغنى الحقب وأحفلها بالحركة ، وأبعدها أثر ا في تاربخ مصر الحزبي .

فقد انتهت الملاطفات التى صاحبت ميلاد هذه الجريدة اليومية الوفدية إلى معركة سافرة بين الوفد ممثلا في شخص مكرم عبيد، وبين الجريدة ، ممثلة أساسا في شخص المقاد، حمل العقادعلى مكرم، وحمل مكرم على العقاد، وكانت حلات ذات دوى ضخم، أمتعت القراء الذين تطيب لهم هذه للعارك الحلمية ومتابعة الذائف الكلامية المتبادلة . ولا يزال إلى اليوم عنوانا مقالين من مقالات العقاد، عالقين بأذهان الذين شهدوا هذه المعارك وقرأوا تلك المقالات وقد كان أحدهما « مكر العبيد » والنانى « لسنا عبيدا يا عبيد » وقد رمى مكرم عبيد في هذه المقالات المقاد، بأنه عمل مع الإنجايز في الرقابة على الصحف إبان

الحرب العالمية الأولى ، وهو أم صحيح ، لم ينكره العقاد ، وسنعود إليه حالا وفي هذه الفترة أصبح العقاد ، إلى جانب كونه كانبا من أكر الكتاب ، أشبه شيء بالزعيم ، لأنه خرج على الوفد ، أقوى الأحزاب في عصره ، ولأنه دخل في معركة مع مكرم ، وقد كان أقوى رجال الوفد ، ومصدر القوة فيه .

وفي هذه الفترة فكر حزب مصر الفتاة أن يقيم اجماعا سياسيا في يوم الوفير سنة ١٩٣٥ ، على أن يكون العقاد من خطبائه ، ولكن وزارة نسيم منعت الاجماع في نفس اليوم وكنا قد اجتمعنا في منزل العقاد في مصر الجليدة، فبدا ان هناك رأيين ، رأى يقول بإذاعة امر المنع قبل موعد الاجماع وآخر يقول باخفاء امر المنع ، حتى يذهب المدعوون إلى الاجماع في موعده ومكانه ، فيكون من تجمعهم ، ثم عودتهم ، مظاهرة تعوض عن الخسارة الناجمة عن منع الاجماع ، وأذكر إلى ذهبت إلى مكان الاجماع وكان في قصر آل لطف الله بالزمالك ، واستطعت أن أدخـــل إلى القصر ، وفطن البوليس إلى وجودى ، فدخل وألقى بي ضابط طويل ضخم ، من نافذة الدور الأرضى مستعينا بعدد غير قليل من العساكر حاملي المراوات ولابسي الخوذات .

\* \* \*

رأيت العقاد ، أول ما رأيته في بيته بمصر الجديدة وهو البيت الذي عاش فيه أكثر من ربع قرن ، والذي مات فيه . وكانت مناسبة الزيارة ، طلب مقال لعدد خاص من مجلة المصور ، اعتزمت لجنة مشروع القرش إصداره ، وكنت قد عرفت العقاد من مقال نشر في صدر جريدة البلاغ سنة ١٩٣٩ عن أحمد لطفي السيد . ولم أكن من قراء البلاغ .

ولكن لا أكم القارىء أن المقال الذى قرأته عن أحمد لطفى السيد

أعجبنى من كل جانب ، فقد كتبه العقاد مهاجما للطنى السيدوزير المعارف ، في وزارة محمد محمود باشا التى اشتهرت بوزارة اليد الحديدية ، فيمت أن هذا المقال كان حلقة فى سلسلة ، يكتبها العقاد عن وزراء محمد محمود ، واحدا بعد واحد ، يحللهم فيها ، ويكشف عن سقطاتهم ، ولم أقرأ شيئا من هذه السلسلة ، لا ما سبق منها المقال المكتوب عن لطفى السيد ، ولا ما لحقه . وما أعجبنى فى مقال العقاد ، أنه لم يكن هجو اصرفا ، فقد أيد كل تهمة أسندها للطفى السيد .

والذي أذكره الآن أنني دخلت إلى مكتب المقاد وكان في آخر الشقة في الناحية الشرقية القبلية مها ، ولست أذكر الآن ما إذا كان قد استقبلني ببذلة أم في (روب دى شامبر) كما لقيني بعد ذلك كثيرا وإن كان الأغلب عندى الآن أنه كان مرتديا (الروب). ولست أذكر كذلك ماذا دار بيننا يومها ، ولكن لابد أن يكون حديثي معه حول مشروع القرش والفاية منه ، لعسله في ذلك اليوم لم يطل في السؤال والتقصى ، إذ الراجح أنه سمع بالمشروع مما كتب عنه في الصحف ، فلم يكن في حاجة إلى مزيد من البيانات والحقائق عنه ، ولم يبق في ذاكرتي من هذه الزيارة ، سوى أنه أهدى إلى كتيبا صغيرا ، ضمنه مقالا في ذاكرتي من هذه الزيارة ، سوى أنه أهدى إلى كتيبا صغيرا ، ضمنه مقالا نقديا لمسرحية شوقي الشعرية (قبيز) ، وكنت على علم سلفا بموقف المقاد من شعر شوقي ، ومدرسته الشعرية عموما ، ولا يبعد أن يكون قد تناوله في هذه الزيارة ، ببعض الهجوم ، وخرجت من عنده ، وأنا أحل أول كتاب يهدى إلى من كاتب من كتابنا المشهورين .

ولقدواظب العقاد بعد ذلك على إهداء كتبه إلى واحداً بعد واحد وكلها تحمل عبارات من التحية ، تنم عن مودة وحسن ظن .

والحق أنه لم تقم بينى وبين أحد من كباركتابنا ، مثلما قام يينى وبين

المقاد من حب ، ومع ذلك كانت علاقتى به ، تتراوح بين الحب الشديد له ، والنقمة الشديدة عليه .

كنت أحب فيه ، بلا شك أسلوب حياته ، وسمته ، وطلمته ، فقد كان المقاد بين جميم من مارسوا الكتابة الأدبية وعاشوا منها، وعاشوا لها ، الأعزب، الذي لم يتزوج ، ومع ذلك لم تكن عزوبته ، تخففًا من قيود الزواج ، والماسا لأسباب المتمة الجسدية ، بلكانت على المكس حياة جادة مضبوطة ، بقواعد من النظام والرتابة، ما أحسب أن كثيرين من كتابنا المتزوجين نصوا أو شقوا بها حسيا أردت . كان المقاد يبدو لخيالنا نحن الشبان ، المثل الأول ، لملكة الفسكر والأدب، فقد جم في نفسه، وحياته، ماكنا نمتقد أنها صفات أهل الفكر ، والرأى . فقد كان منقطما للكتاب والكتابة . وكان يكتب في الأدب والفن، ويشتفل في الوقت نفسه، بانسياسة، وكان معروفًا عنه أنه أقوى كتاب المسكرالسياسيالذي ينتمي إليه ، ويدافع عنه ، وكان يلقى المحاضرات ، ثم ينظم الشعر ويخطب ، ويستقبل العشرات من الشبأن في داره وكنت قد طالعت كتابين أو ثلاثة من كتبه التي جمع فيها ما سبق أن نشره من مقالات. فراقني منه أنه كان يطوف بنا على الكثيرين من كتاب أوروبا، وليس هناك أكثر إرضاء لكبرياء الشاب الحجب للأدب ولذوقه وفهمه للادب ، من أن يرى نفسه قادراً على أن يسم أسماء كبار الكتاب، وأن يعرف شيئًا عن حياتهم وأن يحفظ اسماء كتبهم وأن يكون قادراً على ترديد بمض آرائهم وكأنه قرأم في لفتهم وقد كانت هـ ذه وظيفة العقاد ، والمازني ، وسلامه موسى وهيكل وزملائهم ف حياتنا الأدبية ، أو دبنهم في أعناق الجيل الذي جاء بمدم . لقد فتح هؤلاء لنا نافذة المعرفة على أوربا ، ووضعونا في قطار ، أشبه شيء بالقطار الذي تعده (مدينة الملامي) وساحات ( اللونابارك) لروادها ، فتنقلهم به في انفاق ، وترفعهم إلى جبال متوجة هاماتها بالثلج، وتنزلهم إلى وديان خضراء يانعة مصنوعة كلها من خشب (الأبلاكاش)، والورق القوى، الملون والمرسوم بريشات الرسامين وللصورين. فيحسب الركاب، أنهم طافوا بكل هذه الأقاليم، ورأوها رأى المين وهم لم يبرحوا مكانهم في القطار الصغير، الذي يشبه اللعبة إذا قورن بالقطار الأصيل. لقد أسمعنا العقاد والمازني وهيكل أسماء «نيتشه» و «دوركايم» وأناتول فرانس » « وديكنز »، وحدثونا عن مدارس الفكر، وأسانذة الرأى، ولكن في عجالات قصيرة، وإشارات سريعة، فأثاروا في نفوسا الرغبة في الاستزادة من المعرفة والعلم بهؤلاء، وأزالوا الحاجز الذي كان قائما عجالات قبل بين حركات الفكر والرأى في بلادنا وفي بلاد أوروبا. وإن كانت المدرسة السابقة على هؤلاء، بدأت تترجم كتباً كاملة لبمض كبار كتاب أوروبا مثل جوستاف لوبون، وجون ستوارت مل، وغيرهم ولكنها كانت كتباً قليلة العدد من ناحية، ولم يكن الأدب ولا الفن من موضوعاتها من ناحية أخرى.

ومضت الأيام ، فازداد مع مضيها ، اقتراباً من العقاد ، ويزداد منى اقتراباً ، حتى جاءت أيام ، كان العقاد يكثر التردد فيها على مكتبى للمحاماة في شارع الساحة ( رشدى الآن ) ، وقد كنت أقيم في ناحية منه ، وأزاول عملى في ناحية ، وفي ذات يوم دخل العقاد فلم يجد ساعى المكتب في مكانه عند الباب، فدفع باب حجرة فإذا به وجها لوجه ، أمام بعض قريباتى ، ففزعن ، وعاد وهو يتعثر في خجله .

ولما مر المقاد فى المحنة الكبرى من محن حياته التى تحدث عنها هو كثير أ، والتى حدثتك الآن عنها ، كنت أراه تقريباً كل يوم .

وقد ترافعت عن المقاد في إحدى قضاياه الصحيفية مع نخبة من كبار الحامين وشبابهم، ولكني استأثرت دونهم بالكلام مع واحد من كبار الحامين

ولما خرجنا من لدن القاضى، شكرنى وهويقول: يا مولانا انتكنت معمر زى المدفع، وأفرج عنه. وضمنا سجن الاستثناف سوياً، وإن كان كل منا قد نزل هذا السجن لسبب، فقد دخل السجن متهماً فى قضية صحيفة، وكنت آنذاك متهماً فى قضية شروع فى قتل رئيس الوزراء.

وضمنا معسکر سیاسی واحد — لفترة — تلك هی فترة معارضة معاهدة سنة ۱۹۳۹ .

وزرت العقاد في بيته صباحاً ومساءاً، واستكتبته في الصحف ، وكتبنا معاً في مجلة الضياء ، التي كان يملكها المرحوم عبد الحميد حمدي .

في مطلع صلاته به ، حدث أن الأستاذم . ن ، وكان زميلا لبمض أصدقائي في الدراسة ، ثم سبقنا إلى الاشتفال بالصحافة ، ونحن لا نزال في دور النحصيل في الجامعة — أخبر في بأن الأستاذ العقاد ، ثائر على ثورة جامحة ، وأنه يقول: «لا فتحي رضوان ولا أجمص منه يستطيع أن ينال من العقاد قلامة ظفر؛ أو بهز فيه شعرة » ولم أكن قد قلت في حق العقاد شيئا مطلقا ، أو شيئا يستوجب هذه الثورة على وجه خاص ، فأرسلت إليه خطابا — وكنت إذ ذاك مريضاً مرضاً خطيراً — أبدى فيه دهشتي مما بلغني وأنني له أنني هاجمته أو ذكرته بسوء وقد سرني أعظم السرور ، إنه ماكاد يتسلم خطابي ، حتى بادر بالرد على مصدقاً لدفاعي ، ومعتذراً عما قال . ويجرنا هذا إلى الحديث عن بالرد على مصدقاً لدفاعي ، ومعتذراً عما قال . ويجرنا هذا إلى الحديث عن الشمور بالاضطهاد الذي كان يلازم العقاد ، فالعقاد كان يتصور أن له خصوماً بأنه هدف مؤامرة وقد رماه أحد خصومه السياسيين فعلا — وكان طبيباً في مقال ، بأنه مريض ( بالبرانويا ) وهو مرض عقلي . وقد كان شعور العقاد في مقال ، بأنه مريض ( بالبرانويا ) وهو مرض عقلي . وقد كان شعور العقاد بالاضطهاد ، يشتد أحيانا ، فيتوهم الإهانة في أي شيء ، ويفسر أكثر ما يقال بالاضطهاد ، يشتد أحيانا ، فيتوهم الإهانة في أي شيء ، ويفسر أكثر ما يقال بالاضطهاد ، يشتد أحيانا ، فيتوهم الإهانة في أي شيء ، ويفسر أكثر ما يقال

عنه أو له ؛ بأن الباعث من ورائه النيل منه . وقد حدثنى أحد أصدقائى أنه كان يتحدث مع العقاد عن الآنسة (مى) ، وكانت فى أخريات أيامها ، رحمها الله ، تشكو مرضا عصبياً ، فأخذ العقاد يصف أعراض هذا المرض ، وهى أعراض مرض الاضطهاد ، وفجأة توقف العقاد عن الكلام ونهض من مكانه ، ودخل إلى حجرة نومه ؛ دون أن يستأذن محدثه أو يعتذر له .

وقد رأيت العقادق إحدى انفجارات غضبه ، في دار جريدة البلاغ ، في سنة ١٩٣٨ ، في أعقاب إقالة الوزارة الوفدية النحاسية ، التي وليت الحكم بمد إبرام مماهدة ١٩٣٦ ، وكان الظن عند الوفديين أنه لم يعد بمد هــــذ. المعاهدة ، للملك من السلطان ما كان له من قبل ، وأن الإنجليز عظيمو الشمور بجميل الوفد ، لأنه هو الذي احتمل أ كبر المسئولية في إبرام هذه المعاهدة بحكم كونه صاحب الأغلبية في البلاد ، وأنهم لذلك سيطلقون يد الوفد في البلاد ويؤيدونه ضد الملك. ولكن الملك فاروق ، بتأثير من حوله من مستشاريه وفي مقدمتهم على ماهر ، تخلص من النحاس ، بعد حملة صحفية حامية قامت بها جريدة البلاغ ، وجريدة مصر الفتاة ، تعقبتا بها مفاسد حكم الوفد ومحسوبياته واعتدائه على الحريات ، ورأى الملك أن يعبر عن تقديره للذين ساهموا في هذه الحملة فمنح عبد القادر حمزه صاحب جريدة البلاغ رتبة الباشوية ، ولم يظفر المقاد بشيء. ولو لم يكن المقاد شديد الحساسية ، لأدرك بالضبط دافع اللك ومن وراء اللك على هذا التصرف. فالمقاد، وقف في مجلس النواب \_ وكان أحد أعضائه \_ يقول أن البلاد مستعدة لسحق أكبر رأس تفكر في المساس بالدستور، وكان واضحاً أن القصود من هذه العبارة هو الملك فؤاد، وقد حفظها الملك له ، حتى حل رلمان سنة ١٩٣٠ ، ثم قدمه إلى التحقيق في الثاني عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٠ ، بتهمة العيب في الذات الملكية في مقالات نشرت تباعاً في إحدى الصحف اليومية ، وقد حكم عليه فيما بمد بالحبس تسمة أشهر انتهت في الثامن من يوليو سنة ١٩٣١ . وإذاكان هذاكله يدل على سوء العلاقة بين العقاد وبين الملك ، فقد حدث فى خلال حبس العقاد ، مازاد فساد علاقته مع على ماهر رئيس ديوان الملك سنة المعدل على ماهر أثناء حبس العقاد وزيراً للعدل فـــزار العقاد فى زنزانته ، وحياه ، فلم يرد عليه العقاد التحية ، ولم ينتفت إليه مبالفـــة فى تجاهله .

وقد سمعت رواية هذه الحادثة من كل من العقاد وعلى ماهر . أما على ماهر في مصلحة فيقول إنه قصد من زبارة العقاد في السجن ، أن يشعر المسئولين في مصلحة السجون ، وفي سجن مصر بالذات حيث كان العقاد محبوساً ، بأن الحكومة توصى بحسن معاملته ، دون أن تقول ذلك صراحة ، أما العقاد فيقول أن زبارة على ماهر له كانت من قبيل الشهاتة به ، والانتقام منه ، لأن على ماهر كان قد رشح نفسه في انتخابات سابقة ، في دائرة الخليفة ، حيث يقع سسجن مصر الشهير بسجن (قره ميدان) ، وكان للوفد مرشح في هذه الدائرة وذهب العقاد يزكى مرشح الوفد في خطبة انتخابية فقال مهاجماً لعلى ماهر ، لقد أحسن على ماهر اختيار دائرة الخليفة ، لأن سجن قره ميدان بها ، وليس هناك من يطمع في الحصول على أصوات نزلاء سجن قره ميدان ، قاطبة سوى على ماهر . فأسرها على ماهر في نفسه ، ولما زج بالعقاد في سسجن قره ميدان ، اكتفى على ماهر بزيارته ، وكأن لسان حاله يقول : من منايا صاحبي نزيل سجن قره ميدان ،

ولا ندرى أين الحقيقة في هاتين الروايتين ، ولعلها في الروايتين مما فعلى ماهر ، أراد أن يبدو في ظاهر الأمر ، في ثوب التسامح ، والحاكم واسم الأفق الذي ينسى الاسماءة ، ويزور خصمه في محنته ، متناسميا الماضي ، وفي هذا مافيه ، من إيلام لنفس خصمه ، سواء حملها على محمل التسامح ، أو حملها على محمل الشامة .

ولكن المقادكان جديرا بأن يعرف أن الملك وقد سب هو أباه ، وأن مستشار الملك وقد سبه كذلك ، لا يحبان أن ينسيا له إساءته لهما ، وأن يمنحاه رتبة الباشوية أو البكوية ، وكان اليق به أن يتجمل بضبط النفس ولا يثور ثورة مضرية لحرمانه من اللقب ، وهو الأديب الذي يزهو بمكانته الأدبية بين مواطنيه ، وبعرة القلم ، وسلطان أهل الفكر ، ولكن العقاد لم يبذل جهدا في إخماء غضبه بل إنه أسرف في إظهاره إلى حد بلغ معه صوته إلى آخر الدار ، وكان عبد القادر حمزة في حجرته غير بعيد منه وكان من الذين أنهم عليهم بالباشوية كما قلنا . ولست انسى منظر العقاد وهو يقول : قد تقولون إن بالباشوية كما قلنا . ولست انسى منظر العقاد وهو يقول : قد تقولون إن الأديب في غنى عن الألقاب ولكن أما وقد منحت الدولة للا دباء ألقابا ، فغيم حرمان العقاد وحده ؟ إذا كان اللقب قد منح للمكانة فمن هو الذي يفضلني مكانة ، وإذا كان للمساهمة في محاربة الطغيان الوفدي فأى قلم حارب هذا الطغيان محاربة ؟

ولم نستطع يومها ان نهدى. من ثورة غضبه .

والمقاد إذا خلا لنفسه ، شملت وجهه ، تقطيبه ، فهو لا يشاهد وحيدا ، إلا عابسا ، ومع ذلك فهو من أكثر الناس ميلا إلى المداعبة وإلى الضحك وإذا ضحك قهقه وسمع له صوت فيه جهامة لا تحس معه بمرح صاحبه بل يقع فى روعك منه أنه يصطنع الضحك ولا يضحك . ولكنه في حقيقة الأمر يضحك من قلبه ، ويحبأن يروى المفارقات ويكرر روايتها. وقد سمعت منه كثيرا نوادر من قلبه ، ويحبأن يروى المفارقات ويكرر روايتها. وقد سمعت منه كثيرا نوادر من تابعه الحاج أحمد حمزه ومنها أن خدوشا أصابت تمثالا نصفيا للعقاد ، أهداه إليه بعض طلبة الفنون فقد ضبط العقاد تابعه وهو يحمل في يده فرشاة معتزما أن يعالج تلك الخدوش وكأنه فنان أصيل فقد وقف يتأمل التمثال متهيئا لإصلاح ما اصابه من عطب .

كا روى من فكاهات هذا التابع ما حدث منه حيبا طلب إليه أن يخبره بأسماء من سألوا عنه في التليفون ، فلما عجزت ذاكرة الحاج أحمد أن تعى الأسماء طلب إليه الأستاذ العقاد أن يقيد في ورقة كلا خاطبه أحد ، فجاء العقاد من الخارج فوجد ورقة مكتوبا عليها « واحد تكلم ، واحد تكلم ، واحد تكلم واحد تكلم واحد تكلم واحد تكلم ففهم المقاد من ذلك أن ثلاثة سألوا عنه في التليفون دون أن يعرف من هم ففهم العقاد ضحكه ، وغيظه معا ، وأفهم الحاج أحد أن المطلوب كتابة أسماء فكم الفقاد ضحكه ، وغيظه معا ، وأفهم الحاج أحد أن المطلوب كتابة أسماء الذين يسألون عنه ، ولبي الحاج أحمد الأمر ، وقدم للعقد د كشفا خلط فيه الأسماء خلطاً فالنقر اشي هو المراشي ، وطاهر راشسسد هو طاهر منشه هكذا .

والعقاد بمن ينامون بعد وجبة الفداء صيفا وشتاء ، وقد رأيته مهرار ، وقد استيقظ من نومة الظهر ، جالسا في حجرة الاستقبال بمنزله في بيجامته دون الروب ، وقد انتفش شعره قليلا وبدت على وجهد علائم اعتلال المزاج ، في انتظار فنجان قهوة فإذا جاءه الفنجان احتساه صامتا . ثم يعتدل مزاجه شيئا فشيئا حتى يصفو وينطلق في الكلام .

والعقاد إذا جلس منصتا ، أوشرد ذهنهطرق رأس إبهامه بالأصبع السبابة وراح يطرقها هكذا زمناً طويلا .

وهو يكثر من استعمال كلة مولانا ، فأصدقاؤه القريبون إلى قلبه ، ومن يحب التودد إليهم يخاطبهم بـ ( يا مولانا ) . وأحيانا يقول لمحدثه يامولانا على سبيل السخرية أو الاستخفاف .

وقد كان العقاد فى أول الأمر يكثر من توبلة كلامه بالكفريات ، فقد كان يشير إلى الله بقوله ( صاحبنا اللى فوق ) وفى يوم كنا نتكلمعن القرآن ثم طال بيننا الحديث حتى وصلنا إلى باب مكتبى فوفقنا فينه على عتبة الباب ،

فقال تمليقا على سورة الناس : لو نسبوا إلى هذه السورة لتبرأت منها » ثم راح يتلوها مكررا كلة الناس في ختام كل آية هازا رأسه علامة الاستهجان .

وفى ذات يوم جاء بى المقاد يقول أن الناشر مصطفى محمد ، قال له أن الدكتور هيكل قد اقتنى بيتا من ربحه من كتاب محمد عليه السلام بمضحك وقال: والله لا كتبن لهم عن السيد البدوى ، لا عن سيدنا محمد ولنبنين لنا عمارة » نم ينطلق ضاحكا ولكن الإنصاف يقتضيني أن أقول أبك كنت تحس وأنت تسمع المقاد وهو يقول هذا الكلام أنه يقوله من طرف لسانه وأن قلبه يفيض حبا للرسول ولكبار صحابته وأنه من أكثر الناس إيمانا بالإسلام وبالفعل نضح هذا في كتب العبقريات التي بدأت بكتابه عن الرسول ثم انتظمت الخلفاء الراشدين وبعض أهل البيت وختم حياته بسلسلة متماثلة من الكتب والرسائل عن الإسلام حقائقه وأباطيل خصومه، والفلسفة القرآنية والإنسان في الإسلام . والمقاد هو ثالت مفكر في مصر عرفته بدأ حياته وكأن المقيدة الدينية لا تشغل مكانا في قلبه ثم ينتهسي بهم الأمر إلى الدفاع عن الإسلام في حماسة وحرارة ، وإلى الكتابة عنه في مثابرة ومو اظبة .

وقد روى سعيد العريان عن صادق الرافعي شيئا يتصل بهذا الشأن قال الرافعي : سعيت لدار المقتطف لأمر فوافقت العقاد هناك ، ولكنه لقيني بوجه غير الذي كان يلقاني به فاعتذرت من ذلك إلى نفسي بميا ألهمتني به نفسي وجلسنا نتحدث وسألته الرأى في (إعجاز القرآن» (() فكا نما ألقيت حجرا في ماء آسن فمضي يتحدث في حماسة وغضب وانفعال كأن ثأر ابينه وبين إعجاز القرآن ،ولو كان طعنه و تجريحه في الكتاب نفسه لمان على ولمكن حديثه عن القرآن ،ولو كان طعنه و تجريحه في الكتاب نفسه لمان على ولمكن حديثه عن الكتاب جره إلى حديث آخر عن القرآن نفسه وعن إعجازه » .

<sup>(</sup>١) كَانَ لَمُصْطَقُ الرَّافْعَيُ كَـتَابُ عَنْ ﴿ لِمُعْجَازُ الْقُرَّآنُ ﴾ •

والمقاد وفى للاشياء والأماكن وفاء لأصدقائه، أقام فى منزله السكائن بشارع السلطان سليم فى مدخل مصر الجديدة، وكان كل ما حول هذا البيت عند بدء سكناه خلاء، فكان يرى الصحراء حيثا امتد البصر ثم تزايد العمران فى المنطقة واحدقت به المنازل من كل جانب فحجبت عنه منظر الصحراء، واشتدت حوله الجلبة، وهبط مستوى النظافة، فامتلا الشارع بفضلات بما يرميه المارة من قشر الفاكهة من برتقال إلى جزر إلى قصب. ومع ذلك لم يفرط المقاد فى هذا المنزل، ولم يتركه وبقى صامدا حتى توفاه الله فيه بعد زمن قرب من الأربعين عاماً. وكان يقص شعره ويحلق ذقنه عند حلاق بشارع محمد على من الأربعين عاماً. وكان يقص شعره ويحلق ذقنه عند حلاق بشارع محمد على من ناحية العتبة الخضراء وكان لا يذهب إلى الحلاق فى حانوته بل يذهب إلى الملات فى حانوته بل يذهب إلى المكتبة فيدير حول عنق المقاد وعلى صدره (الفوطة) البيضاء، ويضرب المكتبة فيدير حول عنق المقاد وعلى صدره (الفوطة) البيضاء، ويضرب فرشاته فى إناء الصابون، حتى تصبح فقاقيع الصابون كاللبن المضروب ثم بغطى ذقن المقاد بها، والناس رائحة وغادية ، تنظر الى الـكاتب الكبير وهو فى هذه الحالة، وكأنه يستمتع بما يراه مطبوعا على وجوههم من علامات الدهشة والاستغراب.

وقد كان طاهر الجبلاوى صديقاً له ، فلم تفسدعلاقته به ، على مدى السنين والحقب مع شدة حساسية العقاد و توهمه للاهانة وشكه فيمن حوله ومع تقلب الزمن وماطرأ على العقاد ، من صعود وهبوط ، ومع تغير الظروف السياسية ،خلال فترة الحرب وما بعدها .

وقد حدثنا الأستاذ طاهر الجبلاوى عن حياة العقاد الشخصية بما لم يحدثنا به أحد غيره من أصدقائه وأصحابه ، الذين اختلطوا به وكتبوا عنه عند وفاته .

ومما رواه الأستاذ طاهر الجبلاوى ، تكتمل لنا صورة حميمة لحياة المقاد الداخلية .

ولمل أول ما يصح أن ننقله عن الصديق ، وهو يتحدث عن صديقه الكاتب الكبير ، ما يتعلق بالصداقة ، ومن هذا الكتاب ، نرى العقاد ، مشغول النفس ، بصديقه طاهر ، يسعى لتعيينه فى وظيفة حكومية ، فلمالم يسترح فيها ، ويتركها ، يفسح العقاد داره للصديق ، ويشركه معه فى حياته ، ولما يعين فى وظيفة أخرى فى الصعيد ، يبادله الرسائل ، ويكتب هذه الرسائل فى كثير من المناسبات أزجالا ، ويدور بعض هذه الأزجال حول ( ديك ) يرسله الأستاذ طاهر هدية من الصعيد ، أو كلب يموت أو يختنى ، من بيته ، فيستحق التعزية ، والمشاركة فى المصاب .

ويصف الأستاذ طاهر بيت العقاد فيقول أنه يتألف من أربع حجر واحدة أعدها للنوم، وقد توخى أن تحيط بها الشمس من سأتر الجهات .. وحجرة الصالون بسميها وادى الظلال » حين ترخى عليها الشمايس الخشبية فلا يتسلل إليها الضوء إلا خطوطاً صغيرة أو رقما ينطبق عليها قول المتنبىء « دنافير تفر من البنان » . وحجرة نوم ثانية يسميها حجرة الجبلاوى وتشتمل على سرير نحاس وخزائن تحتوى مجموعة من الكتب العربية . ثم حجرة المكتبة وبها مكتب قل أن يجلس إليه العقاد فقد كان يكتب مقالاته وهو مستلق على ظهره بحجرة نومه .

وفى ذات يوم قال صديق العقاد له أن مقالاته أثارت ضجة فى الدوائر الوزارية فالتفت إليه باسما وقال: « ألا يعلمون أنى أكتبها وأنا نائم » وعدل عن هذه الطريقة فى كتابة المقالات فى أخريات أيامه ، فأصبح يكتب مقالاته ومؤلفاته على منضدة فى حجرة الجلوس.

وبقول الأستاذ طاهر كذلك أن العقاد كان ينفق أحياناً على شراه الكتب ستين جنيها في الشهر الواحد، وأنه كان يقتني في مكتبته دوائر الممارف في مختلف العلوم والفنون حتى رقص الباليه، وعدداً كبيراً من القواميس تحتوى أكثر اللغات وترجمة لها باللغة الإنجليزية كما أن مكتبته تحتوى اسطوانات لأصوات الحيوانات جمعها للدراسة . كما تضم مكتبته مجموعة كبيرة من الكتب العلمية في الطب والفلك وعلوم الذرة وما إلى ذلك .

ويؤشر العقاد على هوامش الكتب التى يقرؤها تأشيرات تمينه عند الكتابة على الرجوع إلى المواضع التى بحتاج إليها ، دون الحاجة إلى استعال القصاصات والبطاقات التى يستعملها بعض المؤلفين لتعجيل الموضوعات وتحديد مراجعها فى الكتب.

والعقاد لايستخدم الورق المسطور فى الكتابة ، وكان يستعمل الحبر الأحمر فى كتابة مقالاته ، ويقول أن هذا اللون يريح نظره .

وفى بيت العقاد عدد غير قليل من الصور الفنية من عمل فنانين مصريين كأحمد صبرى ، وصلاح طاهر ، ومحمد حسن ، وهدايت ، وشعبان زكى ، ولبيب تادرس ، كما كان يحتوى على عدد من الاسطو انات الموسيقية تزيد عن أربعائة اسطوانة ، وقد جمعها بمساعدة صديقه حسن الشجاعى ، وكان يطرب لصوت سيد درويش ، وكان يحب إسطوانة أم كلثوم فى قصيدة إسماعيل باشا صبرى التى قال فها :

یا آسی الحی هل فتشت فی کبدی و هل تبینت داء فی زوایاها

\* \* \*

أما غذاء العقاد فكان خفيفاً فهو يتكون من ثمرة أو ثمرتين من الفاكهة في الصباح، والحساء مع قطعة صغيرة من الكبد أو السمك أو الدجاج، وقليل

من الخضر في الظهر . وفي العشاء يقتصر طعامه على الفاكهة ، ولا يأكل الخبز ويستعيض عنه بأصابع « البانون ساليه » .

وكان المقاد يجتمع بأصدقائه كل يوم جمعة في جزيرة الشاي بحديقة الحيوان، ثم نقل الاجتماع إلى منزله بمصر الجديدة، ولكل صديق من أصدقاء العقاد في هذه الندوة ، اسم حيوان يشبهه ، فكان العقاد هو ( الزرافة ) وعبد الرحمن صدقى (البنجوين) ، والشجاعي (سيد قشطه) وأحمد علام المثل (الصبم) والدكتور أبو طايلة ( القنفذ ) . وكان هؤلاء جميعاً يتناولون الفداء على مائدة العقاد وكان مقرر الندوة هو الفنان أحمد صبرى ، ثم مات ؛ وتفرقت الندوة م عادت على صورة أخرى إذ أصبحت تضم الشبان ، من طلاب وخريجي الجامعات ، وكانت تبدأ من الساعة العاشر ، وتنتهى في الساعة الثانية عشرة من صباح يوم الجمعة إذ عندها ينصرف الحاضرون ، ويتناول بعضهم الطعام مع أولاد أخيه في الشقة المقابلة لشقته — وقد ذاع صيت هــذه الندوة ، وتحدثت الصحف عنهاكثيراً. ولما وقع العقاد في الحب، وبدأت الوساوس والشكوك تساوره، كان يفضي بآلامه وأوجاعه لصديقه الجبلاوي في ساعات الليل المتأخرة ويستشيره في خواطره وأوهامه التي يبعثها الشك في الحبيب، وكانت له طريقة خاصة يوقظ بها صديقه، فقد كان إلى جوار منزله معسكر الجيش الإنجليزي فكان يسمع منه البوري ردد النوبة، فيقلد هو صوت البوري ويهةف: ياجبلاوي! ياجبلاوى! وإذا صفا خاطره ، وهدأت نفسه ، يأخذ في معاكسة أصدقائه فيطلب مثلا صديقه الدكتور محمد صبرى في التليفون ، في الليل ، فيسأله هل قرأت كتاب صهاريج اللؤلؤ فيجيب الدكتور صبرى : نعم وماذا تريد منه ؟ فيرد عليه صديق العقاد بإيعاز من العقاد نفسه: اقرأه مرة ثانية . ويعيد السماعة إلى موضعها . ويلقام الدكتور صبرى في اليوم التالي ، وهو يسـخط على الحياة والبلد ومن فيه ، ويروى ماحدث له ، والعقاد يكتم الضحك فإذا جاءت الليلة التالية ، عاكساه ثانية .

وفى بعض الليالى ، يطيب للعقاد ، أن يخرج وصاحبه بالبيجامة والطاقية ، يجوسان فى الطرقات ، وقد يمر أن ببيت صديق، فينظم العقاد زجلا يهجوه فيه ، ويضعه فى صندوق بريدصديق آخر ، كسرة خبز فى ظرف ثم يتقابل مع هؤلاء الأصدقاء ، ويسمع منهم رواية ماحدث لمم ، . وهو يخفى سروره وضحكه والظاهر أنه كان يفعل هذا كله التماساً للعزاء والسلوى ، فى فترة محنته العاطفية التى ضاقت لها الدنيا أمامه ، حتى إذا ما مر يوماً فى الطريق فوقف له الناس إحتراماً ، أو أشاروا إليه إعجاباً ، قال لصاحبه « إن هؤلاء لا يدرون أننى أشقى الناس جميعاً » .

ولما تأكد للعقاد أن صاحبته تخونه ، طلب من أحد أصدقائه الفنانين أن يرسمله صورة ، تنفره من الحب ، كلما رآها ، وكانت صورة فطيرة حلوى ، وعليها صرصور ، وذباب يحوم ، وإلى جانبها كوب ملى و بالعسل يحوم ، حوله الذباب ، ويفط فيه ويموت . وكان العقاد يرى في هذه الصورة علاجا له من آلام هذا الحب الخائب .

وبعد فإنى لا أعدو الحق إذ أنا قلت أن العقاد كان من أقرب كتابنا الكبار إلى قلبى ، وأننى كنت استخف ظله ، وأن الحديث معه كان يطيبلى ، وأنه لم أحس مايو أنه متعال ، أو فظ ، أو أنه يحب الأذى أو يفكر فيه .

ومع ذلك فما أكثر ما نقمت على العقاد . وأبادر فأقول أن تشبعه لسعد زغلول ، وانتماءه إلى حزب الوفد ، لم يفسد علاقتى به ، ولم يعكر مودتى له . بل أنى لا أذكر أن حديثا ما ، دار بينى وبين العقاد حول سعد زغلول ومصطفى كامل على كثرة ما تكلمنا فى القديم والحديث ، وفى شئون الأدب والسياسة

ولم يتحرج هوفى أن يهدى إلى كتاب سعد زغلول ، كما أهدى إلى أكثر كتبه ولم أتحرج فى أن أحرر عقد بيع كتاب سعد زغلول هذا إلى ناشره مصطفى محمد كما سبق أن قلت .

فاالذي كنت أنقمه إذن على العقاد؟

يجدر بى أن أقول أولا أن طول اتصالى به على مدى الأعوام ، وفى أكثر من حالة ، لأكثر من سبب ، كشف لى فى المقاد سلداجة تدنيه فى شئون السياسة ، وفى شئون الدنيا كافة إلى ما يشبه بساطة الأطفال ، ومن الأمثلة على تصرفاته التى تشى بهذه السذاجة ، أنه حيما خرج على الوفد ، ذهب يبحث عن زعيم ، وكأنه يبحث عن شقة للايجار بل إنه مضى فى هذا السبيل إلى حد أنه كتب مقالا افتتاحياً فى جريدة صباحية ، ذكر فيه شرائط الزعيم المطلوب، ومواصفاته ، ولم يكن باقيا إلا أن يعلن أن طالبي شغل الزعامة يمكنهم تقديم طلباتهم إليه على ورقة « دمغة ».

وكانت مقالته هذه فرصة ممتعة انتهزناها ، لنعرض عليه المرشحين لهذه الزعامة ، ليبدى فى كل منهم رأيه ، وذكر له بعضهم اسم الفريق عزيز المصرى فأحذ يسأل عن صفات فيه ، ولما قال له أحدهم أنه لن يتلقى منك وحيا ، وأنه على العكس سيسعى لأن يفرض عليك رأيه ، قام العقاد وهو يرفع يده إلى أعلى احتجاجا : يفتح الله يا مولانا ولا صاحبك اللى فوق يفرض على رأيه » .. وانفضت الجلسة على ضحك من هنا ، واحتجاج من هناك .

ثم جاء العقاد إلينا ، وقال وما رأيكم فى ( محمد فريد وجدى ) وكان العقاد قد اشتغل معه فى تحرير جريدة الدستور ، وكانت جريدة من جرائد الحزب الوطنى ، وكان الأستاذ فريد وجدى ، قد ترك حياة الصحافة السياسية ولم يباشر عملا سياسيا منذ سنة ١٩٠٨ ، ولم يمضر اجتماعا يضم اثنين . ولذلك كان هذا الترشيح من جانب العقاد مفاجئا لنا وهو فى الوقت نفسه صورة من

صور سذاجته التى لا تفهم من رجل اشتغل بالسياسية والصحافة منذ باغ السادسة عشرة من عمره، بمد أن ترك عمله في ديوان مديرية الشرقية .

وبساطة العقاد هذه تكشف عن حقيقة شخصيته ، فلم يكن كل ما يصدر عنه من عنف وشدة ثمرة لشدته وعنفه ، بل أثر ا من آثار شموره بضعف . وكانت سماحته وكرمه وحبه لإخوانه ، وانقطاعه للكتابة والتأمل والقراءة هي مواطن قوته .

فالعقاد لا يهيج ولا يغضب ، ولا يبدو متعاليا إلا حينًا يحس بضعفه و بقوة من يناجزونه أو يناظرونه .

وقد يمجب القارى ، إذا عرف أن أكبر ما كان ينقص العقاد — فى نظرى — هو ثقته بنفسه ، فقد كان كل كبريائه الظاهر غطاء لهذا الإحساس ، وثمرة له . وقد كان كلفه الشديد بالشهرة — الأمر الذى لم ينكره أحد — وغرامة المتقد بشخصه ، والتغزل فى صفاته ومناقبه ، والإدلال بمواقفه من قبيل الحكة التى تصيب الإنسان فى موضع من مواضع جسمه ، فتحمله على كثرة تمرير اليد عليها ، وشدة الانشغال بها ، واتصال حديثه عنها .

ولو راجعت حياة العقاد لما وجدته قد أقدم على مهاجمة قوى ، إلا وهو مستند إلى من هو أقوى منه ، خاصم عدلى وثروت ، وهمو معتمد على سعد وحزب الوفد ، وهاجم النحاس معتمدا على ماهر والنقراشي ، وهاجم هتلر وهو في حمى الإنجليز ، ولما أحس أمه لن يجدمن يحميه انقطع عن الكتابة السياسية تماماً ، مكتفيا بمهاجمة دعاة الشعر الحديث .

ولقد هاجم الملك فؤاد مرة واحدة ولكنه لم يقل شيئا فى حق فاروق حتى بعدأن لم يمد لفاروق من يلتمس لأخطائه المعاذير ، ذلك لأنه كان يكتب فى جريدة حزب لم يرمن مصلحته أن يشارك فى الحملة على فاروق.

بل أنه . دح فاروق شعرا و نثرا فقال في قصيدة :

وما اتخذت غير فاروقها ولا عرفت مشده في العلا ولا عرفت مشده في العلا فدته البلاد وفدى البدلا مليك يلوذ به عرشد وذو عسلم تستظل الملو وراع رعيسته عزه أبي الملك إلا كا

عادا بحاط وركنا يؤم صديقا يشاركها فى القسم د بمالى التراث وغالى القيم وكم ملك بالمرش اعتصم ك بأعلامها ويظل العلم إذا أعز الصخر بانى الهرم شاءه منيع الجوار رفيع الدعم

وقال في وصف لقاء تم بينه وبين الملك فاروق :

« إننى لم أسعد من قبل كهذه الفرصة الواسعة لاستجلاء طلعة المليك عن كتب والإصغاء إلى جلالته على انفراد فى جو لا مثيل له بين أجواء اللقاء والحديث لأنه جو الملك والديمقراطية بمثلين فى شخصه الكريم أجل تمثيل ، مجتمعين فى سماعه وكلاته وإرشاداته أحسن اجتماع ، لقد سمعت فى هذا الحديث الواحد كلام فياسوف وكلام وطنى غيور ، وكلام محدث ظريف ، وطاف بخاطرى ذكر الإيمان وذكر الوطن » ويقتضينا الإنصاف أن نقرر أن القصيدة التى نظمها فى مدح الملك ، كانت بمناسبة عودة النقراشي باشا من أمريكا بعد عرض قضية مصر على مجلس الأمن ، وكان الملك قد أرسل عربته الملكية لنقل النقراشي من المطار إلى القصر ، وكان الملك من الملك ، بعد أن هاجمر ثيس وزرائه الإنجليز وسمى استعمارهم بالسرطان ، وامبراطوريتهم بالقرصنة جدير بالتشجيع ، وإن كانت القصيدة قد احتوت على معان لاتليق أن تصدر عن المقاد وهي زلة من زلاته بلا حدال .

ولكن وصف الملك فاروق بأنه فيلسوف ، والقول بأن الجلوس إليه ،

يحرك ذكرى الإيمان فأمر لا يمكن الدفاع عنه ، فهو لا يعدو أن يكون من قبيل مدائح الشعراء والأدباء المتكسبين بأدبهم .

وقد روى العقاد فى كتابه عن سعد زغلول أن سعداً كان يغتبط بطول الجلسات التى يقضيها فى الحديث مسع الملك فؤاد بقصر عابدين وأن سعدا أخرج الساعة مرة وهو عائد من هناك فقال القد طال الحديث خمسين دقيقة الخرج الساعة مرة أخرى قال سعد ، بعد مقابلة مع الملك فؤاد: لقد طوانى الرجل ، وأنه لقدير .

وتحس في الموضعين من الكتاب ، أن العقاد كان يود أن يقول ، أن سعدا استخفه السرور بمقابلة طالت مع الملك ، إلى حد أنه اعتبر خسين دقيقة في حديث مع جلالته وهو رئيس وزرائه ، أمراً يستحق أن يسجل ويشار إليه ، ومثل ويستعان بالساعة لبيان الوقت الذي استفرقه الحديث بالدقيقة والثانية ، ومثل هذا التعليق ، لا يليق أن يصدر عن رجل يقابل ابن الملك فؤاد وهو دون أبيه قوك وشخصبة ، ورجاحة عقل، وانساع تجربة ، فيسبغ عليه صفات الفيلسوف والديمقر اطية ، والمحدث الظريف ويتذفق سروره مهذه المقابلة في مديح مسرف للملك . على أن الانحياز الملك والرغبة في الاجتماع به ، والاستظلال بجاهه لنزعة قديمة عند العقاد أنظر إليه يكتب في عدد البلاغ الصادر في ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩٣٧ «الملك حقيقة فاعرفوها طائعين أو مكرهين » من نصر الملك فقد نصر الحق ونصر الأمة ومن تولى فعليه لعنة الحق ولعنة الأمة ».

ولقد بزغ نجم هتلر سنة ١٩٣٣، وشاءت الدعوة النازية في كثير من بلاد العالم حتى وصلت إلى بريطانيا معقل الديمقر اطية ،عدوة الأنظمة الكلية والديكتاتورية. وقد كانت مهاجمة هذا المذهب، وهو في البداية أولى لأن الناس في حاجة إلى من يبصرهم بخطر المذهب الضار أول سماعهم به ، لكيلا يقعوا

فريسة له ، ولكن العقاد لم يقل في حق هتلر شيئا أو شيئا ذا قيمة ، حتى إذا قامت الحرب ، وانعقدت الخصومة بين ألمانيا بلد هتلر ، و بريطانيا سارع العقاد بتأليف كتابه (هتلر في الميزان) وراح يعدد عيوبه ، وعيوب مذهبه فأقام على نفسه الحجة ، بأن الكتاب كان خدمة لجهاز الدعاية البريطانية ، فبعد اندلاع الحرب بين ألمانيا و بريطانيا ، لم يعد كتاب العقاد مطلوبا إلا لتجميع الناس حول بريطانيا وحلفائها بعد أن بات الأمر للمدفع والطيارة ، ولقد عزز العقاد كتابه بأحاديثه في الإذاعة التي كان يشرف عليها بدورها الإنجليز خلال فترة الحرب وما بعدها ، وقد فهم بعض شباب العرب موقف العقاد هذا الفهم فلما زار فلسطين في سنى الحرب حاولوا اغتياله يإطلاق الرصاص عليه . ولما خيل إليه أن الألمان سيقتحمون مصر بعد أن وصل جيشهم إلى العلين خاجر إلى السودان .

وقد كان العقاد عنيفا غاية العنف مع خصومه من المصريين ، ولكن لم يؤثر عنه طوال حياته السياسية شيء عنيف في حق الإنجليز واحتلالهم إلا ما عسى أن يكون قد قالة إبان ثورة سنة ١٩١٩ ، حيما كان أسلوب جميع الكاتبين والناظمين والخطباء والمتكلمين، هوأسلوب العنف والحدة في مقاومة الاحتلال والتنديد به .

وقد كتب العقاد سبعين كتابا أو يزيد ليس فيها ما يعد من كتب الوطنية إلا كتاب غير مشهور لم يثر التفاتا هو كتاب ١١ يوليه . وهذا أمر لا يدعو إلى الدهشة ، فالعقاد تلميذ أمين لحزب الأمة عن طريق تلمذته للشيخ محمد عبده ولسعد زغلول ، وقد كان كلاها يضمر إعجابا وتقديراً للانجليز ، بل للاحتلال البريطاني ذاته ، وكانا يؤمنان بأن هذا الاحتلال أسدى إلى مصر خبرا ولعل القول المأثور عن سعد ، والذى شهد فيه للانجليز بأنهم ( خصوم شرفاء

معقولون) هو خلاصة فلسفة سعد السياسية ، وقد بدت هذه الفلسفة واضحة في الحديث الذي دار بين سعد ووبخت مندوب بريطانيا في سنة ١٩١٨ في المقابلة التي اشترك فيها مع سعد ، عبد العزيز فهمي وعلى شعر اوي فقد قال سعدمانصه: نحن نعترف لبريطانيا بالأعمال الجليلة التي باشرتها في مصر ، فنطلب باسم هذه المبادى و أن تجعلنا أصدقا وها وحلفا وها صداقة الحر للحر . ثم قال : لا نلتجي وهنا لسواك ، ولا في الخارج لغير رجال الدولة الانجليزية .

وسعد زغلول كان صادقا في كل كلة قالها للمعتمد البريطاني يوم ١٣ من نوفمبر سنة ١٩١٨، فقد كان — كا قلت — شاعرا بدين مصر لبريطانيسا للاعمال التي يقول عنها جليلة والتي قامت بها بريطانيا، كا كان منتويا أن برفع الشكوى إلى بريطانيا نفسها في الخارج فلا عراك ولا إثارة ضد بريطانيا فلم يكن يكرهها، وإنما كان غاية سعيه أن توسع على المصريين، وتمنحهم مزيدا من الحرية لتصريف شئون بلادهم، وأن تتفضل فتجعلهم أصدقا المحاوطا وحلفا الها من الحرية لتصريف شئون بلادهم، وأن تتفضل فتجعلهم أصدقا المحاوطا المحاود المناهدا المناهدات المناهدا المناهدات المناهدا المناهدا

كل ذلك لا يقع من نفس العقاد موقع الاستنكار بل أنه يفهمه ، ويبرره ويدافع عنه ، أما أن مصطفى كامل لا يستطيب حسن تخلص العقاد ، أو حسن دفاعه ، حينما طلب مصطفى من ثلاميذ العقاد أن يشرحوا بيت الشعر « والمر إن لم تفد نفعا إقامته » فعجزوا فهذه هى الخطيئة التي لا تغتفر لمصطفى كامل إلى آخر العمر .

أما أن يكون الانجليز شرفاء ومعقولين في رأى الزعم سعد ، فأمر هين جداً ، لا يغضب العقاد ولا يرى فيه مانعا يمنعه من العمل معه وتحت قيادته ، وأما أن يحتفل سعد بكرومر بعد أن سقط في أثر حلات مصطفى كامل عليه بسبب حادثة دنشواى ، وأما أن يثنى كرومر على سعد في خطبة الوداع بسبب حادثة دنشواى ، وأما أن يثنى كرومر على سعد في خطبة الوداع بسبب حادثة دنشواى ، وأما أن يثنى كرومر على سعد في خطبة الوداع بسبب حادثة دنشواى ، وأما أن يثنى كرومر على سعد في خطبة الوداع بسبب حادثة دنشواى ، وأما أن يثنى بالمدان بال

مقرنا اسمه بأسماء أعوان الانجليز الاقحاح وأتباعهم من أمثال مصطفى فهمى ، فشىء يمكن أن ينتفر .

ولم يحوجنا العقاد إلى دليل ، نستدل به على أسلوبه فى السياسية ، فقد اعترف فى شجاعة بحمد عليها ، إن الإنجليز كانوا يحسنون الظن به وأبهم كانوالا بجدون مانعاً من إسناد الأمور التى تهمهم و تخصهم ، إليه بل انهم فكروا فى الاستعانة به فعلا أكثر من مرة خلال الحرب العالمية الأولى وقبلها فى وقت كان الشبان المصريون الذين يقلون عن العقاد شهرة ومكانة قد أبعدوا إلى المنفى ، فى الخارج ، أو إلى المعتقل فى الداخل ، ولم يقف تفكير الانجليز فى الاستعانة بالعقاد عند حد إسناد المناصب الإدارية إليه ، بل تجاوزوا ذلك إلى ترشيحه للمهام السياسية ايضا .

ذكر العقاد بنفسه أن صحفيا إيرانيا يدعى (حسين روحى زاده) زار العقاد في سكر تارية مجلس الأوقاف الأعلى ، ومجلس إدارة الأوقاف ، إبان عمله بهذه الوزارة ، وأنهى إليه أن (رو نالد ستورس) السكر تبر الشسسرق بدار الحلية البريطانية يريد أن يراه فذهب إليه العقاد في مكتبه بدار الحماية ، فدار الحديث بينهما حول شئون الأوقاف مما يتصل بعمل العقاد وتحرى ستورس من العقاد عن صفقات نما إلى علم الإنجليز أن الخديو عباس يضفط على الموظفين المختصين بديوان الأوقاف ، للموافقة عليها ، وهي عمليات تبادل بين أعيان تابعة للا وقاف وأعيان مملوكة للخديو ، أو للأوقاف الخصوصية الخديوية ، وفي التبادل نفع فأهر للخديو ، وغين بين للأوقاف . وأجاب العقاد بما بدا له يومذاك فلا خرج العقاد وصاحبه (حسين روحي زاده) من لدن رو نالد ستورس ، فهم المقاد ، أن حديث ستورس عن الأوقاف لم يكن سوى ذريعة ، تذرع بها ليسمع العقاد ، فيحكم مما يقول مدى لياقته وصلاحيته للقيام بأعباء رياسة تحرير جريدة المؤيد التي كان يماكمها الشيخ على يوسف وكانت هذه الرياسة قد خلت انذاك بوفاة الشيخ .

ولمانالسنا في حاجة إلى أن نقول إن الإنجليز لا يتجهون إلى ترشيح كاتب كالمقاد لشغل هـدا المنصب السياسي الهام ، إلا وقد علموا سلفاً ، بانجاهاته السياسية ، وبشعوره نحوهم ، فقد كانت الفاية من إسناد رياسة تحرير المؤيد إليه ، أن يكون المؤيد لساناً من ألسنتهم .

على أن العقاد لم يلبث حتى قبل أن يعين رقيبا على الصحف المصرية ، إبان الحرب العالمية الأولى أيضا — وكان مدير الرقابة بريطانيا يدعى هورنبلور وقد اختلف معه العقاد فيما يجب حذفه ، وفيما يجب تركه ، فترك العمل فى الرقابة بعد أسبوع . والاختلاف بين البريطانيين أنفسهم يقع ، فوقوعه بين العقاد وبين هورنبلور ، لا يزكى العقاد كثيراً ولا ينفى عنه أن الإنجليز لم يكونوا يتوجسون منه ، بل على العكس كانوا يطمئنون إليه ، ويودون أن يصلوا

أسبابهم بأسبابه .

لذلك ليس غريباً من العقاد أن يأخذ على الشاعر (على الغاياتي) بيتيه اللذين نشرها في ديوان وطنيتي ، ضمن ما انطوى عليه الديوان من قصائد، واللذين قال فيهما :

هل سيال في مصر الدم ؟ أم هل أفاق النسوم ؟ ومضوا إلى أهل الضيلا ل فأعدموا من أعسدموا ؟

وقد علق على هذين البيتين بقوله :

و ولكن الصحافة اليومية لم تلبث أن صارت إلى الأقلام التي لا تحسن شيئاً ، كا تحسن أن تسقط معاذيرها ، وأن تمهد المذر لمن يتطلون الملل لها ، ولا نخال حاكا حراً ، أو مستبداً ، كان يمييه أن يتمحل الملل للحجر طى الدعوة الصريحة إلى القتل و إهدار الدماء » .

ثم قال وأنه لا لمن سخافة القول أن يتهم با لاستبداد حكومة تسمح بنشر هذا التحريض فإن تكن مستبدة فمن السخف أن يحاسبها عسلى منع هذا التحريض وتحريمه » ·

وهو هنا يدافع عن سعد زغلول لأن القوانين التي ضيقت على الصحافة ، صدرت وسعد زغلول وزير للعدل ( الحقانية ) ، وفات العقاد ، أنه هدد بتحطيم أكبر رأس في البلاد إذا مس الدستور ، وأن خصومه وخصوم الوفد ، أنخذوا من قولته هذه التي دفعت إليها حماسته لحظة ، مبررا لحل البرلمان ولوقف الحياة النيابية ، فهل يستطيع عاقل أو منصف ، أن يتهم العقاد بأنه المسئول عن

ذلك الحل ، والتعطيل . إن القائمين بشئون السياسة يدركون أن القيد على حربة الصحافة ، أو الحد من سلطة الشعب ، ها سياسة مقررة عند الملك والإنجليز ، فلا يغير فى الأمر ، أن يتطرف متطرف ، أو يعتدل ، ففى الحالين ، سيحد الملك والإنجليز ، المبرر للقيد من حرية الصحافة ، ولتعطيل البرلمان ، فضلا عن أن الصحافة التى تتلفت يميناً وشمالا ، قبل أن تقول كلة الحق ، والبرلمان الذى يبتعسد عن مواطن الاصطدام بالملك ، كلاها لا يستأهل البكاء عليه ، أو الحزن له .

وأبيات الشعر التي ملائبها الفاياتي ديوانه ، كانت مرحلة من مراحل الحركة الوطنية ، لم تخل منها حركة وطنية أخرى فالفليان ، الذي يشبه الهذبان حيناً ، والحمي حيناً ، هو رد فعل للضغط والكبت ، واليأس — والعنف ليسر هو وحده الحركة الوطنية ، ولكنه صورة من صورها ، وسلاح من أسلحها وسمة من سماتها . ولكن العقاد ، كان من مدرسة العقليين الذين يظنون أنهم قادرين على أن يستخلصوا من الإنجليز حقوق البلد ، عمثل هذا الكلام اللطيف الذي قاله سعد زغلول للسيرونجت في يوم ١٣ من نوفير سنة ١٩١٨ . والذي أثني فيه على الإنجليز ، وشكر خدماتهم للبلاد ، وأطرى عدالهم ووعدهم بأن يدافع عنهم ، وأن يمنحهم نقطة عسكرية على القناة ، ليحمى مواصلاتهم إلى الهند يدافع عنهم ، وأن يمنحهم نقطة عسكرية على القناة ، ليحمى مواصلاتهم إلى الهند الاحتلال في بلاد غيرها .

ولو كنا بمن يفعلون فعل العقاد ، وينهجون نهجه ، لأهدرنا كل ما فعل كا أهدر هو كل جهاد مصطفى كامل الباهر العظيم وآثاره الباقية الخالده ، لأن مصطفى كامل لم يستملح (حسن تخلص) العقاد وإحدى نكاته البارعة . فالعقاد آخر أمر ، كاتب انقطع للحياة الفكرية ، وواظب أكثر من

نصف قرن ، على الكتابة والتأليف ، والترجمة والتلخيص ، والتعليق والتعقيب ، والمحاضرة والحديث ، وقد أدخلته مواقفه الفكرية والسياسية ، السجن ، المرة بعد المرة ، وحسبت الدوائر الرجعية والأجنبية حساب مقالاته وأفكاره وقد بشر بآراء في الشعر ، فتحت الأبواب لجيل جديد من الشعراء ، اتخذ من الشعر أداة ووسيلة للتعبير عن مشاعر النفس ، ودنياها الفسيعة ، وجاس به في مناطق من التفكير والإحساس كانت مغلقسة في وجه أدنا ولغتنا .

والعقاد بعد كل شيء ، لم يكف يوماً من التعريف برجال الفكر والأدب والسياسة ، وأبطال الفن ، وزعماء النورات ، ومحررى الشعوب ، في الشرق والفرب، في مقالات، وكتب، ورسائل، فقد كان يسرف في القراءة، ويحشد في بيته مئات الكتب ، يشتريها من حر ماله ، فلا يكاد يقع على فكرة أو تتحرك بنفسه ، خفقة ، إلا ويفضي بها إلى قرائه ، وكأنه يضن عليهم بشي. مما عنده ، كبر أو صغر ، عظم أو حقر . ولعل هنا موطن ضعفه ، وقوته مماً . كان يقرأ ، وكان ذهنه قد تمرس بفهم ما يقرأ والإحاطة به ، في سرعة وسهولة ويسر ، ولكن ليست القراءة ، فهماً فقط ، إذ وراء الفهم ، التمثل ، والهضم ، والاحترار، والأخذ والرفض، والمزج والخلط، والتذوق، والتقرز، وهـــذه عمليات لم يكن العقاد يصبر عليها ، أو كان لا يعطيها الوقت الكافي ، والفرصة المواتية ، فكان في كثير من الأحوال الوسيط الأمين النشيط بين من يقرأ لهم وينقل عنهم ، وبين قرائه العديدين . فأصبحت مؤلفاته موسوعية ، ينتقل فيها من سن يات سن إلى جيته ، ومن باكون إلى غاندى . أشتات من كل صنف وجنس ومذهب. وقد يكتب عن الواحد منهم كتابًا كاملا ثم لايعود إليه ثانية ، كأنه ماشغل به ، أو كتب عنه .

ولعل هذاكان ضريبة فرضها العهد عليه ، فقدكانت مصر والبلاد العربية

شدبدة النهم لمعرفة ما يجرى عند غيرها من بلدان أوروبا وأمربكا وآسيا .
كانت تعيد النظر في حاضرها ، و تنهيأ لبنا ، و تكييف مستقبلها ، و كان الكثير قد فاتها فأصبحت في حاجة إلى من ينقل إليها من كل واد أثراً . ولم تكن الجامعات قد أخرجت بعد ، المتخصصين ، ولم تكن الصحافة قد خرجت من دورها البدائي الذي يبيح للكاتب الواحد أن يكتب في السياسة والاقتصاد والفن والتاريخ والدين ، وحوادث البوليس والشعر والنثر ، وكل شي . يخطر على البال . فقذ كان الكتاب قلة وحاجة الناس إلى الساع والقراءة والإطلاع والتثقف والفهم لا تنفد ، وجوعهم لا يسد ، وإلحاحهم لا يقف عند حد . .

ولقد لبى العقاد دعوة المجتمع الأدبية كأنشط ما يكون صاحب المتجر الذى بعرض فى محله ألف صنف وصنف، فإذا دخلت عنده ، وجدت ما يؤكل ومايشرب وما يشم ، وما يلبس ، وما يسمع .

ومن هناصعب على العقاد أن يكون صاحب مذهب واضح الممالم في الحياة والأدب إلا أن يقال أنه من دعاة الحرية ، أو من حماة الكرامة الإنسانية ، وهو كلام يتسع لكل شيء ، ويضيق عن كل شيء لأن الحرية لم تعد كلة ذات منهوم واضح ، لا يختلف في شأنه الناس ، ولم تعد الطرائق المؤدية إليها واحدة ولا النتأنج المترتبة على كل طراز منها واحد . فقد كان هناك ثورة ١٧٨٩ في فرنسا وكانت الحرية التي يتحدث عنها الناس ، فيفهمها الآخرون هي الحرية التي دعت إليها هذه التورة وقامت من أجلها ولكن منذ سنة ١٧٨٩ ، جرت مياه كثيرة في جميع الأنهار ، وولدت أفكار جديدة ، ودنيا جديدة ، واشتد الصراع بين أجزاء الفكرة الواحدة وداخل الوطن الواحد ، بل داخل الشخص المراع بين أجزاء الفكرة الواحدة وداخل الوطن الواحد ، بل داخل الشخص الواحد ، وكان عسيراً على العقاد أن يصف هذا العالم الجديد ، أو أن يعكس مسداء

لقد كان منسوبا إلى عالم آخر ، أكثر استقرارا ، وأطول بالا وأقل

حركة وقد كان العقاد مترجم هذا العالم الأمين ، والملخص لأفكاره والمقدم لأشخاصه ، والدليل لمن ينتقلون في أرجائه . يعرف من كل شيء شيئا ، وعن كل شخص قليلا أو كثيرا ولا يتغير إذا تكلم ولكن ليس ضروريا أن يكون ما يقوله هو كلامه أو أن يكون الكلام في ذا ته جديدا وإن كان لا يسف عادة إلا إذا اشتبك في مماركه الصغيرة أو الكبيرة وهي غالبا ممارك لا تترك جروحا ولا ندويا ..

لقد بقى العقاد، وفيا للقلم والكتاب، عاش فيهما، وعاش لهما، وقد سمعته قبل أن يموت بليلة أو ليلتين يذيع حديثا، فكأنه الديدبان الساهر الذى يبقى فى موضعه حتى يطلع النهار، سواء كان معه بندقية أو سيف من صلب، أو من خشب، فهو لم يم ولم يلتمس السبيل للراحة.

وحسب العقاد أن يكون له كُل هذا في تاريخ أمته و تاريخ لغته ، فإن هذا لو نعلمون عظيم .

## الهفص لانحام ش سلامه موسى

كان لسلامه موسى دور فريد فى حياتنا الأدبية فقد كان الكاتب التبطى الوحيد ، بين كبار كتابنا ،وبهذا وقع على عاتقه واجب مزدوج ، أحدها وأولمها التمبير عن المجتمع المصرى كله، وثانيهما وأصعبهما أن يعبر عن هموم وهواجس وآلام وآمال المجتمع القبطى .

وكان واقع الحال يقتضيه أن يوازن جيداً بين هذين الواجبين حتى لا يتهمه السلمون بأنه متعصب يريد أن يقوض دعام الإسلام، باسم التقدم والتطور، الذى لم يكف عن الدعوة لهما، ثم كان عليه أن يصور ما يشغل بال القبطى العادى والمثقف، وأن يطلع الأغلبيسة من المسلمين على ما يساور المواطنين الأقباط، وإلا اعتبر مفرطا فى حقهم.

وأستطيع أن أقول أنه نجح إلى حد كبير في أداء واجبه المزدوج الشاق نجاحا يهنىء عليه ، فان مقدار ما رمى به من بعض الناس من أنه متعصب وأنه يعمل بدوافع يخفيها ، أقل بكثير مما ظفر به من إعجاب شباب القراء المسلمين، وتأثرهم به ، وإقبالهم على ما يكتب . واتهامه بالتعصب ، ليس صادراً دائماً عن اقتناع من رماه بهذه التهمة ، فإن المعارك الأدبية تسوغ في كل عهد ، للمتعاركين التصارعين أن يستعملوا كل سلاح ، وأن يسلكوا في سبيل القضاء على خصومهم كل وسيلة ، فالكتاب المسلمون أمثال المقاد وطه حسين والدكتور هيكل قيل في حقهم ، وعلى وجه التحديد في عقيدتهم الدينية ، أكثر مما قيل في سلامه موسى المسيح ، .

وقد عرفت اسم سلامه موسى ، وأنا بعد طالب فى السنة الأولى بمدرسة أسيوط الثانوية ، وذلك لأن المطبعة العصرية شرعت فى نشر عدد من الكتب فى طبعات أنيقة ،كان منها حصاد الهشيم للماز فى ، ومختارات سلامه موسى ، قد دأبت على الإعلان عن مطبوع لها فى العمود الأول فى الصفحة الوسطى من جريدة الأهرام ، وكان القسم الأول من هذا الإعلان ، عن كتاب لم أقرأه الى اليوم بعنوان «خواطر حار» ، وتحته مباشرة الإعلان عن كتاب «مختارات سلامه موسى» ، وكان هذا الترتيب من المعلن ،كان محل التعليق داخل يبتنا وخارجه ، فقد كان أقرب التعليقات على لسان من يحبون أو يتخذوا كل شى مادة للاعابة ، إن هذه المطبعة لا تنشر إلا خواطر الحير وقد كان هذا حافزاً لى لأن أشترى كتاب خواطر لسلامه موسى فى أول رحلة لى للقاهرة ، وعدت بالكتاب فرحاً به وبأناقته وبكتاب حصاد الهشيم ، وقصة تاييس التي ترجمها إلى العربية الأستاذ أحمد الصاوى محمد .

وكان معنا زميل في الفصل ، رأى في يدى كتاب محتارات سلامه موسى فقال لى أن المؤلف عمه ، ثم علمت فيا بعد أن والد زميلي هذا يعمل في هندسة الرى التي كان يعمل فيها والدى آ نذاك وكيلا لها . وبهذا كان سلامه موسى ، قريباً منا كأننا نعرفه شخصياً ، فلما علمت من زميلي أنهم من مديرية الشرقية ، خيل إلى أنى زدت منه قربا ، لأن والدى كان من هذه المديرية مع أن صلتى أنا بالشرقية ، ومن فيها ، كانت إلى هذا التاريخ كأوهى ما تكون صلة الإنسان بموطن عائلته الأصلى .

ولما قرأت كـ تناب سلامه موسى الأول أعجبنى منه أنه ـ بهل ، وأن المهانى فيه تطفو على سطح ألفاظه فالقارى و لا يحتاج إلى كـد ذهنه ليفهم ماذا يريد أن يقول ، ولما بدأت أقرأ مجلة الهلال ، كـان سلامه موسى يشرف على تحريرها

فاستطمت أن أعرف كل الذى يريد أن يقول بعد قـــراءة أربع أو خس مقالات من مقالاته ، فقد كان يكر نفسه ، ويعرض الفكرة الواحدة في أكثر من مقال ، ولم تكن لديه أكثر من ست أو سبع أفكار ، وقد كان إلحاحه في الدعوة إليها ، وإصراره على الدوران حولها يجمله داعياً صاحب رسالة .

وقد كان يقربنى منه أكثر من سبب ، فقد كان يكتب عن نظرية داروين ، وكنت قد قرأت عنها فى دائرة معارف فريد وجدى ثم فى كتاب إسماعيل مظهر أصل الأنواع ، وألفيت وأنا بعد تلميذ فى السنة الأولى الثانوية وألقيت على زمسلائى فى حى السيدة زينب محاضرة عنها وكانوا مجموعة من الأطفال والبنات والصبيان ، وكان يبدى حماسة للحضارة الفرعونية وكنت من أشد المعجبين بها ، هسدا إلى أنه من المديرية التى ينتسب إليها والدى .

وبقيت من قراءه حتى أتممت الدراسة الثانوية وسافرت إلى القاهرة، فوقع في يدى كتاب رومان رولان عن غاندى ، فأخذت أترجمه فصولا متتابعة في جريدة السياسة اليومية ، وكان اسم غاندى قد سطع في سماء السياسة الدولية وأصبح له ولنشاطه الوطني قوة جذب هائلة . وفي هذه الفترة أضاف سلامه موسى اسم غاندى وحركته ومبادئه إلى الأفكار القليلة ، التي كان يكررها ويلح في الدعوة إليها، وقد انتهى الأمر بكلينا إلى تأليف كتاب عن «غاندى» وكان كتابي أسبق في الظهور من كتاب سلامه موسى .

وقد كان طبع هذا الكتاب سبباً جديداً لاقتربي من سلامه موسى ، كا سيأتى عنه في حديثي حالا ولست أدرى متى قابلت أو رأيت سلامه موسى

لأول مرة ، وقد اعتصرت ذاكرتى اعتصاراً لأتذكر مكان وزمان المقابلة الأولى بينى وبينه ، فلم تجدعلى بشىء أطمئن إليه وأثق به . فلا مفر إذن من أن آخذ ما تصمم ذاكرتى على أنه اللقاء الأولى بينى وبين سلامه موسى وكان ذلك في إدارة مجلة المصرى التى أخذ يصدرها عقب انفصاله من (دار الملال) بعد سنوات من العمل في هذه الدار .

وكان مقر مجلة ( المصرى ) في شارع الفجالة ، هو شارع ( حبيب شلى ) ، وقد ذهبت ومعى قصة قصيرة دخلت دار المجلة وكان في الدور الأول من منزل قديم أو في ( البدرون ) . وكانت حجرات هذه الدور شبه عارية من الأثاث الذي ينزل الإنسان إليه بعض درجات على سلم قديم . ولم أجد أحداً يسألني عن اسمى ، ولا عن غايتي من الزيارة ، وجست في حجرات الشقة ، حتى رأيت سلامه موسى وكان قد أنشأ جمعية (المصرى المصرى) وأصبح رئيساً لما ، ومعه شخص آخر يتحدتمه ، عرفت فما بهد أنه أحد الاساتذة المحامين، وأنه وكيل تلك الجمعية · وأردت أن أتحدث إليه فأستمهلني بقوله « لحظــة من فضلك » وكان استمهاله اياى جافا ، ولكني كنت أدخر للاستاذ سلامه ولحمدته، مفاجأة صغيرة تنطوى على انتقام عاجل لى منهما ، إذ أنهما ما كادا يفرغان من الحديث التافه الذي كانا يتبادلانه مماً على مسمع مني ، حتى التفتا إلى فقدمت نفسى إليهما بقولى – أنا فلان الطالب بكلية الحقوق وصاحب مقالات « المنديل الحلاوي ينتصر » و « النفس المصرية تنتشي » كانا هذان عنوانين لقالتین نشرتا فی مجلة « المصری »، رد علی سلامة موسی مسروراً وقال « کده» أما محدثه المحامى،فقد انطلق يهنى على هاتين المقالتين وقال في حماسة « انت من قادة هذه الحركة..انتمن ضباطها » واستمهت إلى هذه التهنئة وأنا أبتسم في داخل نفسى فقد أحسست أننى انتقمت لنفسى من إهالهما إياى حتى يفسرغا من حديثهما الذي لم يكن شيئًا ذا بال .

ولم يكن في شكل سلامه موسى ، ولا في أسلوبه في الحديث مايستوقف النظر، أو يصدم الرأبي فقد كان عاديا فيما عدا عينان مفتوحتان ، كأنما صاحبهما في دهشة حقيقية من شيء مع بعض الخوف ، وصوت من الطراز الذي يسميه الناس بالصوت الأقرع أي الذي لا قرار له أما السمة البارزة في شخصية ولكنه لا يستطيع أن يكون متدفقاً ، ولا دافئاً . لا أدرى متى رأيت الأستاذ سلامه بعد ذلك ، ولكنني شهدته يخطب في أحد مسارح شارع عماد الدين بمناسبة إعلان تشكيل جمعية (المصرى للمصرى)، وكانت خطبته في ختام الاجتماع يمد أن خطب وكيلا الجمية ، وكان أحدم صديقي وزميل الطفولة حافظ محمود ، وكان الآخر الأستاذ المحامى الذى رأيته يتكلم مع الأستاذ سلامه موسى عندما زرت مقر مجلة المصرى . وقبل أن يلقى سلامه موسى كلته ، وقف أحد زملائه واسمه عزمى الدويرى يعلن اسمه مسبوقاً بنعوت وصفات لاحصر لما فهو الكاتب والمفكر والثائر والمجدد ، والجرى، والصريح ، والملهم المبدع، وظهر على أثر ذلك سلامه موسى ، كأنه إنسان ضل طريقه إلى المسرح ، فقد دخل في خطوات عادية هو يتلفت ، كأنما بسير في الشارع ، إلى غير هدف ولا غاية ثم قال كلة فاترة ، ولكني حسدته عليها ، فقد ألقاها بغير اضطراب ولا انفعال وكأنما يقرؤها من ورقة ، فكانت أشبه شيء بمقالة من مقالاته ، وأنا أفضل الخطيب الفاتر ، الذي تفهم ماذا يريدأن يقول ، لأن أفكاره تقسلسل وتتابع، على الخطيب الذي يقع في حيرة فتوقعه حيرته في حماسة تسلمه بدورها إلى صراخ يؤذي الآذان ، لا يفهم معه السامعون شيئًا مما يقول .

وقد اعترف سلامه موسى فى ترجمة حياته ، أنه لايحسن الخطابة ، فقد قال وهو يصف نفسه « وما زلت أفر من المجتمعات فى استحياء أو كراهة ، ومع

أنى أحسن الكتابة ، فانى أسى و الخطابة لأن الأولى تؤدى فى انفراد ، والثانية تحتاج إلى مجتمع ، وإنى أذكر أنى قرأت له مقالا كان يشرح فيه نظرية قزويد ويطبقها على بمض ما يجرى للناس فى حياتهم فقال أنه رأى نفسه فى أحسد الأحلام عاريا من ملابسه أو كالعارى ، وهو يحاول أن يفعلى نفسه أمام الناس فلا يستطيع ، وفسر هذا الحلم ، بأنه جاء فى عقب حفلة خطب فيها فأخفق فى خطبته فخرج من الاجتماع ، وهو شاعر بما يقرب من الفضيحة ، وأن شعور ، هذا عبر عن نفسه ، فى حلمه بحاله تعريه من ملابسه فنى الحالين انكشف الستر عنه ولكنه انكشف معنوياً فى الحفلة ، وانكشف مادياً فى الحلم .

وما كانت تبديه عينا سلامه موسى من الدهشة والخوف ، كان دهشة حقيقية وخوف حقيقين فقد كان مجكم مزاجه الأدبى ورقة إحساسه ، شاعرا بالإضطهاد الذى يلازم أبناء الأقايات ، وقد كانت الأقلية القبطية تعيش فى ظل الحكم المثانى وحكم الماليك من قبل كجزء من جماعة مضطهدة ، فقد كان حكم الأتراك ، وأتباعهم من حثالة الحكام ، قائما على العسف بالمصريين جيماً مسلمهم قبل مسيعيهم وقد يخف عن الأغلبية شعور بالاضطهاد وإن كان لا يعدمه — الإحساس بالأنس الذى تبعثه الكثرة ووحدة الحال فى الجماعة ، ولكن لم يكن للا قباط مثل هذا الحظ . وكان سلامه موسى فوق ذلك يعانى منذ طفولته من مخاوف الطفولة التقليدية ووساوسها ، وقد كان انهاؤه إلى عائلة منطوية ، مما يوفر لهذه الوساوس فى نفس سلامة الطفل أرضاً خصيبه ، وقد وصف هو عائلته بقوله:

وجميع أفراد عائلتنا يعدون انطوائيين يتسمون بالوجه الطويل والقامة النحيفة والاعتكاف أو كراهة الاختلاط — وأحيانا يبدو هذا المزاج فى مبالغة شاذة حتى أنى أعرف أشخاصا فى أسرة العفى عاشوا كأنهم رهبان

يتوقون المجتمع ولا يحضر أحدهم عرساً أو جنازة إلا بضغط وقد لا يجدى الضغط » ·

وقد وصف سلامة بعض وساوس ومخاوف طفولته فقال – ورأبت أحد المجرمين يشنق في ميدان الزقازيق وبقيت نحو عام أفزع من إسمه وكان يدعى وسيد أهله » ولم أكن أستطيع النوم إلا وأنا متعلق بمنق أمى – ولم أكن أستطيع الدخول في المرحاض إلا بمرافقة الخادم لأن رسم المشنقة بقى حيا في مخيلتي الصفيرة » .

وقد كانت طفولة سلامة سعيدة عوما ، فقد كان طفلا صحيح البدن ، وكان محبوباً من عائلته ، عزيزا عند أمه واخوانه وبل وخادمه عطيه ، وقد استمتع في طفولته بكل نشاط الأطفال وهو النشاط الذي يبعث في حياة الطفل السعادة وبجمله يستقبل الدنيا ، مخلوقاً سليا بريئا من النقائص النفسية وقد وصف سلامه موسى جانبا من طفولته وصفاً يؤكد لنا أنه كان طفلا سعيدا فقد قال : «كنا نهنأ بالأجازات المدرسية التي كنا نقضيها في الريف ، وهي لا تزال تبرز في ذهني كأجمل وأنصع ذكرياتي -في هذا الريف اكتسبت كثيرا من الاختبارات التي لا تتحقق لأطفال المدن ».

« وكانت قريتنا تبعد عن الزقازيق نحو ساعة على الحمار ، وكنا نلعب مع صبيان المزارعين إلى الساعات الأولى من الصباح ، وأحياناً كنا ندبر السرقات في الحقل للخيار أو البطيخ ، ولا يزال عالقاً بذاكراتي بعض الإقتحامات والصبوات » ،

لقد فهمنا من ترجمة حياته أنه كان منعائلة لم تعرف الفقر ولا الحاجة إن لم تكن غنية فقد كانت ميسورة الحال ، وقد استطاع بفضل تركة أبيه من للال،

أن ينقطم للقراءة والكتابة ، وأن يسافر إلى لندن وباريس ، وغيرها وأن يقيم فيهما ، ويفيد مما كان فيهما من فكر وحركة بل أن بسطة حال الأسرة أعانبها على أن يكون عندها جاريتان . ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقول أن طفولة سلامه موسى كان يظللها غير قليل من القتامة والتعاسة التي ترسبت في نفسه ، وصاحبته إلى آخر العمر ، فقد فقد أباه وهو طفل في السنة الثانية من عمره فنشأ على حد قوله هو - في بيت لا يزوره ضيف إلا إذا كان من الأعمام أو الأخوال-فزاده هذا الظرف انزواء على ما ورث من المزاج الإنطوائي. وقد كانت الماثلة التبطية في تلك الأيام شديدة المبالغة في التزام الحداد ، فهي تسر ف في التمسك بمقتضياته فتلبس السواد لسنين – وقد ذكر سلامه موسى أن والدته بقيت محتفظة ببذلة أبيه السوداء وداخلها قميصه الأفرنجي وياقته وكأنه على قيد الحياة ، وأنه موشك على الخروج من داره فهي معدة له ليلبسها . وقد كانت هذه الصورة كافية لأن ترسم في نفس الطفل صورة أقرب ما تكون لجئة مشنوق معلقة في داره براها أولاده ليل نهار ويعيشون في ظلما ، ولاشك أن صورة كهذه تلقى لونا كثيبًا على حياة طفل ؛ تتأثر نفسه الفصة بالألوان وما يتصل بها من ملابسات . وقد كانت بذلة أبيه سوداء وكانت وحدهاتقول أنها بذلة ميت ، وأن الموت معناه الفقد ومعناه عند الأحياء الحرِّن ويقول سلامه موسى أنه قضى طفولته وهو يرتدى ثيابا سوداء ويحمل عبثاً من التعاويذ يموق الحركة الحرة ولكن لم يكن هذا وحده هو عامل الحزن والكآبة في حياة الطفل سلامه ، فقد روى لنا أن وباء الكوليرا عصف بالزقازيق في طفولته وأن الأحياء كانوا يتساقطون كالذباب، وأن أياما مضت لم يكن يرى فيها سوى جنازات هؤلاء الذين سقطوا فلماكثر الموت لم يكن أحد يعنى بقشييع الذين مآنوا – فـكانت الجنازة تخرج من البيت وخلفها اثنـــان أو ثلاثة يهرولون وكأنهم يودون أن يفرغوا من مهمة ثقيلة على أى وجه . وكان بعض زملاء سلامه يصاب بيتهم بهذا الوبا فيستأذنون فى لزوم البيت ، فيأذن لهم اخوانهم أم فقد الموت وقاره فأصبح فى نظر الأطفال مهزلة ، فقد كانوا يختبئون عند قوارع الطريق ، فإذا أهلت الجنازة — وخلفها مشيعوها — خرج الأطفال وهم يقولون « هيه » ولكن هذا لم يكن يمنع النسوة من أن يشيعوا كل ميت بصراخهن المعهود ، وهو صراخ قبيح تنقبض له النفس .

وقد كان سبب هذا الوباء انتشار المستنقعات حول مدينة الزقازيق ولاشك أن المستنقعات ورائحتها وما يجتمع عليها وبسببها من حشرات ، ليس بالمنظر المنتع ، فإذا اضفنا إلى هذا كله أن سلامه موسى لما دخل المدرسة الإبتدائية ثم الثانوية أحس أنه دخل ثكنة يحكمها نظام عسكرى يقوم على إذلال التلاميذ وإخضاعهم ، وكان التعليم محكوما بالانجليز الذين كانوا يبدون من صور الفطرسة ما يقذف في نفوس الأطفال تلك الأيام الرعب والخوف ويهدم فتهم بأنفسهم عرفنا كيف اجتمعت للطفل أسباب التشاوم .

ولذلك أستطيع أن أقول أن مزاج سلامه موسى الإنطوائي كان قوامه الحزن واستعداب الألم والجنوح إلى التشاؤم . ولم تظهر آثار هذا المزاج فيا يكتب الأنه لم يكتبه أدباذاتياً — وإنما كتب بحوثا ومقالات موضوعية — لم تمعته الفرصة ليعبر عن إحساسانه ومشاعره ، ولو فعل لقرأنا قصصا تفيض بالحزن وهو الحزن الذي يحمل أحيانا صاحبه على أن يظهر بمظهر التفاؤل — لا لأنه موجود ، بل لأنه يود أن يغالب التشاؤم الذي يقهره ولأنه يجد الراحة في التعبير عنه ؛ بلا لأنه يود أن يغالب التطلع إلى حياة بلا حزن ولعلنا لا تجد دليلا على هذا المزاج أفضل من هذه القطعة التي كتبها سلامه موسى وهو يصف موت أخته التي كان محمها فقال :

ف صرخة الموت عذوبة تننى النفس ، وفي الموت نفسه فتنة كأنها
 ( م ١٧ - عصر ورجال )

صعوة الوجدان، حتى لتحس أن يقظتنا إنما هو حلم نصحو منه عندما نقف إزاء من نحب وهو فى النزع الأخير. وقفت إلى جانبها وهى أختى، وكانت فى عذاب الذبحة الصدرية تصرخ صرخات الموت، لم أكن مخدوعا أو واهما فى المصير المحتوم الوشيك، وعاد (الفلم) ينبسط أمامى مبتدئا بما حسدث معذ المحتوم الوشيك، وعاد (الفلم) ينبسط أمامى مبتدئا بما حسدث معذ أكثر من ٥٠ سنة وأخذت صوره تتعاقب الواحدة بعد الأخرى فى لحظات خاطفة — وفى نصوع ووضوح، حتى كأنى أسمع كلماتها وهى تشترى لى الحلوى، وتفسل لى وجهى أيام الطفولة. . ثم انتبه من هذه الذكريات إلى صرختها العذبة الألمة ... وكانت فى عذو بتها تجعلنى أنتفض كأنى فى لذة ألمة، أو كأنى فى طرب حزين ثم جاءت النهاية، وساد السكون».

« وخرجت وإذا بى أنظر إلى السماء فلم أترك سحابة إلا وأنا أتأملها كأنها شأن خطير بجب ألاأنسى شيئا من تفاصيله ، وكأنى أقرأ حروفها الفضية واطلع من ورائها على سر خطير فلما انطبعت هذه السحب فى نفسى نظرت إلى الأرض ، ولكنى عدت فى لهفة أنظر إلى هذه السحب كأن شيئا يوشك أن يفلت منى ، ثم ترن فجأة تلك الصرخات المذبة الأليمة فأرتاح إليها وأسكن وأستكين .. »

وفى قصة حياة سلامه موسى التى أسماها تربية سلامه موسى ، دلائل كثيرة على أن الحزن والتشاؤم بقيا مترسبين فى نفسه — وإنه ما كانا يحتاجان إلا أدنى ملابسة ليطفوا على السطح ، فقد قال فى موضوع من هذه القصة « وظنى أنى لن أرى انتصارا للديموقر اطية فى السنين العشر القادمة ، لأن الرجعية والاستبداد

فى استقرار واستحكام والديمقر اطية عزلاء من كل سلاح ، بل إن الصراع القائم فى أيامنا بين أمريكا وروسيا سوف يعزز الرجعية والاستبداد فى مصر ... » ثم قال . . ولا أظن أنى مسرف هنا فى التشاؤم » ولا ينفى الإنسان عن نفسه شبهة شى و إلا عندما يحس أنها عالقة به ، وقائمة ضده . ثم قال فى موضع آخر .

« وذات مساء في ١٦ يوليو من هذا العام ١٩٤٦ كنت نائمًا على الأسفلت في غرفة مظلمة في سجن الأزبكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والضرب والفسق والقتل واحتياز المخدرات وغير ذلك . وكانت تهمتي أني أفكر وأكتب عن الاشتراكية أو الشيوعية . وكانت خشونة الأسفلت عنعني من النوم و تؤلمني فأرقت ـ وأخذت ذا كرتى تعرض « فلم » حياتي الماضية، فذكرت الحرية التي كنت أتمتع بها في سنة ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات في المستقبل لو أن بعضها نشر هذه الأيام لقاد إلى السجن . وذكرت الصفاء الذي لقيته في الدراسة والتأليف (وعدد نحو عشرين كتابا ) ألفتها لأبناء وطني أخلصت فيها الفكر وبذلت الجمهودكي أثير وأعلم ، وكي أسمو بالشباب إلى مثاليات القرن المشرين وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية . ثم تأملت حالى على الأسفلت الخشن، وكيف أنى لم أجمع مالا ولم أحصل حتى على الكرامة التي يستحقها من يخدم ويخلص في الخدمة . وكان جنبي نصف رغيف هو عشائي الذي قررته لى الحكومة المصرية جزاء هذا العمر الذي قضيته في خدمة مصر . وأخذت أفكر وأجد التفكير وعقلى يتضور س الألم ، إلى أنأصبح الصباح ودخل علينا رجل «بقفة» بها عيش فناولني رغيفا للفطور وضعه فوق نصف الرغيف الذي تناولته فى المساء السابق وهكذا يفعل بنا الاستعمار والاستبداد المتخلفان » .

وهذا الكلام ناضح بتشاؤم سلامه موسى لأنه خلط فية إحساسه بالمرارة

لأنه نام على الأسفلت، ولأن عشاءه كان نصف رغيف، وإفطاره كان رغيفا وزع عليه من قفه ، باحساسه بالأسى ، لأنه لم يجمع مالا ، ولم يصل إلى شيء ذى قيمة، بعد طول جهاده . ويعنى هنا بلاشك الوظيفة الحكومية أو اللقب أو الشهرة التي كان يرى نفسه جديراً بها جدارة غيره من الكتاب الذين وصلوا إليها . والحق أن الخلط بين هذه الإحساسات المتضارية لا تفسير له إلا أنه عُرة تشاؤم مترسب ، كان ينتظر المناسبة ليطفو . فإن الخدمات التي قدمها للشمب المصرى لا تتمارض في قليل أو كثير مع حبسه و إلقائه على الأسفلت وحرمانه من النوم الهنيء، والمعاملةاللائقة، بل أن هذه المعاملة الجافة القاسية هي النتيحة الطبيعية بل الحتمية لما قدمه لبلاده . لأن الذين حبسوه وأساموا إليه ليسوا الشعب للصرى ولا ممثليه، بل هم أعداؤه ، وما قاله وما فعله كان ضد هؤلاء يقصـــد تأليب الناس عليهم وإثارة الشعور الوطني ضدهم فكيف يسوغ له أن ينتظر منهم أن يثنوا عليه ، ويشكروه ، لأنه عمل ضدهم ، وسعى إلى خلمهم من أماكنهم في الحسكم - وسلبهم ما ظفروا بهمن سلطة و نفوذ. ثم فضاء ليلة في السجن أو ليال متتالية ، لا يصح أن يؤدي إلى كل هذه الشكوى ومراجعة حساب حياة حافلة كحياة سلامه موسى - فإن معاصريه من الكتّ اب والزعماء والشبان دخلوا السجن مراراً لمدد طويلة ، ولم يندبوا حظهم لهذا الحبس، وإن جاز لهم أن يندبو. لأمور أخرى.

ولسنا هنا بسبيل مؤاخذه الأستاذ سلامه موسى لأنه لم يظهر تجلدا فى مناسبه القبض عليه وزوجه إلى السجن ليلة أو ليلتين . فإن سرعة شكواه ، لم تحل بينه وبين أن يواصل بعد السجن ما بدأه قبل السجن من دعوة ورأى ، وإنما الذى نبغيه أن نبين ما فى مزاج سلامه موسى من استعداد كبير للتشاؤم كان يخفيه تظاهر بالتفاؤل .

والطريف أننى بعد أن كتبت هذه السطور أعدت النظر في صفحة من صفحات الكتاب الذى وردت فيه تلك السطور . بقصد نقل فقرة منه عرف (مى ) فاذا بى أقرأ العبارة الآتية : \_

« وقد صدمتنی ( می ) ذات مرة بملحوظة جملتنی أفكر فی قولها – أن مبالفتك فی التفاؤل هی فی صعیم أصلها مبالفة فی التشاؤم ، وأحیانا أظن أنها كانت صادقة كا أنها هی أیضا كانت متفائلة ذلك التفاؤل الذی یخفی التشاؤم ویضوره ».

والعجيب أنى مررت على هذه العبارة من قبل ، كأنها لم تأخذ موضعها من الكتاب حتى قرأتها للمرة الثانية، وهذه العبارة تثبت أن ثلاثتنا \_ سلامه ومى وأنا \_ متفقون أولا على أن الإسراف فى التفاؤل يخفى أحيانا تشاؤما ، وثانيا على أن الإسراف فى التفاؤل فى الظاهر .

ولا أظن أن هناك إنسانا يدعو إلى الإصلاح وتفيير الحال ،أى إنسان يكره ما يراه فى الدنيا ، أو فى مجتمعه الخاص ، أو فى وطنه ، ريعمل على إزالته ، واستبدال حال آخر به ، إلا ويكون على شىء من التشاؤم ، لأن ضيقه بما يرى، والصعوبات والمتاعب التى يكابدها وهو يسعى لإحداث التغيير والتطوير ، فضلا عن الخيانات والنذالات ، والمفاجآت غير السارة التى تاتى بها الأنيام على غير حساب أو توقع ، كلها كفيلة بأن تملأ نفسه انقباضا وضيقاً ، فتميل به إلى النشاؤم .

وقد يكون الإنسان متشائمًا بعقله ، مرحا ، مبتهجا ، مقبلا على الحياة بقلبه ووجدانه .

واشهد إنى رأيت سلامهموسي كثيراً — ولست أذكر إني، رأيته يضحك

مرة واحدة ه أما الشيء المؤكد بلا تردد فهو أنى لم أسمعه يقهقه، ولكنى لم أر. وقط مقطبا أو عاقدا ما بين حاجيبه أو عصبيا .

وقد أثبت سلامه موسى أنة داعيه ممتاز ، حينما شن حملة عنيفة على دار الملال وأنهم أصحابها اللبنانيين بأنهم أدوات استعارية ، وطلب تطهير الصحافة المصرية من الدخلاء - فقد استجاب المصريون لدعوته وتأثرت صحف دار الملال كثيرا بهذه الحملة – ولكن أصحاب الدار بقوا صامتين حتى ساقت لمم القادير سلاحا فسددوه إلى قلب حملة سلامة موسى فأخمدوها وخرج سلامه نفسه بجروح بليغة ، فقد حصل أصحاب دار الهلال على خطاب أرسله سلامه موسى إلى لطفي السيد — وكان أحد أعضاء وزارة محمد محمود باشا — يقترح عليه أن تصدر الوزارة جريدة يومية سياسية تروج لمشروع معاهدة محمد محمود هندرسن وتسند رياسة تحريرها إليه وهو مشروع كانت حكومة العمال عرضته على الوزارة المصرية آنذاك سنة ١٩٣٩ ، وكان الوفد قد قرر ألا يلتفت هــــذا المشروع باعتبار أن الوزارة المصرية التي تلقت العرض ، وزارة انقلابية لاتمثل الشعب، وكانت المقاطعة الوفدية محكمة وناجحة ، فقد كانت الأغلبية العامة للأغلبية الوفدية وخيانة لها، وتحالف مع الحكومة الانقلابية وهو الذي كان يهاجم هذه الحكومات الانقلابية . وقد آثر سلامة موسى الصمت ، فلم يمد إلى هذه الواقعة في جميع ما كتبه ، ولم يشر إليها في قصة حياته ، وكف عن مهاجمة دار الملال، واللبنانيين عموماً، وأشار بعد ذلك إلى جورجي زيدان مؤسس الملال أشار ات تنطوى على مودة ورأى حسن .

وقد أحزننا نحن الذين كنا نحسن الظن في سلامه موسى أن يضبط متلبسا بهذه السقطة ، والتي تجعل كل ما كتبه بعد ذلك عن اسماعيل صدق

وقمه للحريات هراء لا معنى له ، لأنه مد يده لحكومة كحكومة اسماعيل صدق وتمنى أن يخدمها ولكن هذه الواقعة تربنا كيف أن الجروح ولوكانت بليغة، لا تؤذى الجسم السليم ، فهى لا تلبث حتى تندمل ، وقد لا تخلف وراءها حتى مجرد الندوب ويواصل البدن الصحيح سعيه ونشاطه، كأنه لم يحرح من قبل ، فإن سلامه موسى انقطع تماما عن النشاط السياسى فيا عدا فترة أخرى كتب فيها في جريدة مصر ، مدافعاً عن حقوق الأقباط فى التعيين فى الوظائف الحكومية ولكنه حيماكان ينشر هذه المقالات ، كأن أبعد ما يكون عن سمع المصريين وخاطره — فقد كانت الجريدة التى تنشر مقالاته هذه أشبه بشىء بالنشرة وخاطره — فقد كانت الجريدة التى تنشر مقالاته هذه أشبه بشىء بالنشرة السرية ، يقرأها عدد محدود .

وغفر الرأى العام للأمة موسى سقطته وبقيت صورته فى أذهان القراء صورة الكاتب المجدد الداعى إلى سبل جديدة فى الحياة والفكر .

\* \* \*

جادت الأيام بفرصة ازددت فيها قربا من سلامه موسى واختلاطا به ،

كنت أراه فيها في ملابس المنزل ، وأتحدث إليه في أكثر من شأن ، وهو على سجيته ، وكنت أعلم أن أحاديثي كانت تضايقه ، فقد كنت أراه في فترة ما بعد الظهيرة ، وهي فترة بجب القراءة فيها ، وكان كتابي عن غاندى هو الذي أتاح لي هذه الفرصة ، فقد طبعت هذا الكتاب في مطبعة المجلة الجديدة ، التي يملكها سلامه موسى وكان قد اتخذ لها مقرا في منزل قديم بشارع نوبار وهو شارع يصل ما بين ميدان لاظوغلي — وشارع المبتديان ولما عرضت على سلامه موسى طبع أول كتبي في مطبعته ، طلب منى أن أعد اتفاقا كتابيا بسعر الطبع ومواعيده وحجم الكتاب ، ولما كنت محاميا مبتدئا لم يتم تمرينه بعد، الطبع ومواعيده وحجم الكتاب ، ولما كنت محاميا مبتدئا لم يتم تمرينه بعد، إذ لم يكن قد انقضى على نخرجي سوى أقل من عام ، فقد فرحت بهذه المناسبة

وأعددت عقدا مفصلا ملائته بالمواد والبنود، وكأنه اتفاق بين دولتين فلما رأى سلامه موسى ذلك هاله العقد وشروطه الجزائية، وقال « ما هذا كله ؟» وخجلت من نفسي ، وقلت له لتحذف ما تشاء من الشروط وانتهمي الأم بكتابة عقد من ثلاث أو أربع شروط بسيطة ولم نكن في الواقم في حاجة إليه فقد كانت تحت يدى نفقات الطبع \_ وكنت أدفع له أولا بأول ولما كنت أرابط أكثر اليوم في المطبعة فقد كان بوسعى أن أرى الأستاذ سلامة ساعات طويلة — فإذا جاءت الظهيرة تناولغداء، وخلع بدلته ، وارتدى جلبايا أبيض، ونزل إلى مكتبه بالمطبعة، وبيده كتاب باللغة الإنجليزية يطالعه، وأذكر انه كان يقرأ في بمض مسرحيات ( الرناردشو ) - وأنا امطر وبالأسئلة، وهو لايظهر التأفف حياء ، وأنا أسىء استفلال حياثه ، ولست أذكر الآن الكثير بماكان بدور بيننا في هذه الجلسات ، إلا ما دار بيني وبينه يوما عن الإسلام والمسيحية فقال لي عن السيد المسيح أن النظرية المسيحية في تفسير حياته أقرب إلى المقبول ، فالمسيح كان ثائراً على زعماء المهود والذين اتخذوا من الدين تجارة ، وأنهم كادوا له عند مندوب امبر اطور الرومان في فلسطين ، عن الإسلام، فقال إن محمدا عليه السلام في رأيه إنسان عظيم قاد طبقة الفقراء والضعفاء في مكة ، وأن ارستقراطية قريش كانت تثير ارستقراطية العرب كلهم عليه، لأنه يهدد حكمهم، بنقل السلطة إلى عامة المرب وفقرائهم وقال أيضا أن مصر القديمة هي التي انشأت الثقافة الدينية ثم أذاعها عن طريق اليهودية التي انتقلت أسسها إلى المسيحية ثم إلى الإسكام . ففكرة الحساب والنار والعقاب، والقيامة والسراط والميزان، والخير والنار هي ابتكارات العقلية الدينية والحضارة المصرية القديمة كاملة ، وقد انتقلت إلى الأديان الأخرى في الشرق الأدنى كما هي تقريباً وما أدخل إليها من إضافات كان تعديلا طفيفا لا يتناول الأساس. وقال إن لفظ (الله) هو تحريف للفظ (هليو) وهو اسم الشمس إله الفراعنة وقد انتقل إلى اليهودية حتى أن السيد المسيح – على حد رواية الإنجيل – صاح وهو على الصليب ايليا .. ايليا .. لماذا تركتنى . و (ايليا) هو هليو الذى أصبح فى العربية (الله).

ولما فرغ طبع كتابي ( غاندي ) أصبحت لا أرى سلامه موسى إلا في مناسبات عابرة، وكان أكثر لقائى به في جريدة البلاغ التي اشتغل محرراً بها وكان يجلس في حجرة واحدة مع الأستاذ حامد المليجي الذي كان في شبابه من أنصار الحزب الوطني ـــ وقد نفي إلى مالطة خلال الحرب العالمية الأولى . وكان يرهق سلامه موسى بمعارضة أفكاره في عنف وأحيانا بالهزء بها، وفي ذات يوم عبر لي سلامه موسى عن ضيقه بهذه الزمالة بقوله — الأستاذ حامد.. زعيم وبمارس زعامته في أنا »وفي أحد الأيام دخلت علمهما فسأ لني الأستاذ سلامه — أنت رأيك أنغاندى خائن وعميل للإنجليز ؟ فهمت من السؤال أن حامد المليجي كانيتناقش سلامه موسىفهذا الموضوع وأنرأيه فيغانديأنه صنيمة بريطانية وأنه تعلم في بلاد الإنجليز و تطوع للخدمة الطبية في جيشهم . فانحزت في الحال إلى صف سلامه موسى ، وطيبت خاطر الأستاذ حامد بأن تسامح غاندى ، ولينه في مخاصمة المستعمرين دون الاستمار نفسه كان يجعله غير مفهوم حتى لأقرب أنصاره ، لذلك كان هدفا لحملة الكثيرين منهم في أحيان غير قليلة ، بل إن بمضهم اعتدى عليه بالضرب وكادوا يفتكون به . فطاب خاطر الأستاذ المليجي موجها الكلام للأستاذ سلامه — جالك كلامي... إن الهنود أعرف بغاندي منك يا أستاذ.

 سروراعظها ، فقام مسرعا بهرول إلى مكتب الأستاذ عبد القادر حمزة صاعبها البلاغ وهو يقول لى - «إياك نحصل نفشر هاافتتاحية » ، وقد شعرت ساعتها بامتتان شديد للا ستاذ سلامه ، وأحسست أن هذه الهرولة إلى مكتب رئيس التحرير هي تعبير عفوى عن إخلاصه العميق لأفكاره . فقد كان يحب غاندي وكان يسره أن يكتب عنه الكتاب في مصر وأن تحتل المقالات التي تقناول حياته صدر الصحف .

وترك الأستاذ سلامة جريدة البلاغ ، وقد يكون ذلك في الفترة اللاحقة لوفاة الأستاذ عبد القادر حمزة ، وأصبحت مقابلاتي له متباعدة ولم تعد صلتي به كاكانت ولكني لم أنقطع عن قراءة ما كان يقع نظرى عليه من مقالاته أو كتبه ولم يكن يهم أن اقرأ له شيئا جديدا فقد توطدت صداقتي الفعلية به وثبتت ولم تعدفي حاجة إلى ما يقويها، ولم يكن انقطاع صلتي به قادرا على أن يضعفها فسلامه موسى كا قلت من الكتباب الذين تستطيع أن تعرف كل يضعفها فسلامه موسى كا قلت من الكتباب الذين تستطيع أن تعرف كل أفكاره من كتاب أو كتابين لهما ،فهو يكرر نفسه ، وإن كان الإنسان لا يمل تكراره ، لأنه يقول الفكرة الواحدة بأكثر من أسلوب ، ولأنه يقول شيئا جديدا في كل مرة وإن كان لا يضيف إلى جوهر الفكرة جديداً وإن غير من فروعها وقوالبها .

رأيته يوما في ميدان الأوبرا فقلت له — وكانت انتخابات البطريرك الجديد محل الحديث وقتذاك \_أن بعض خصومك يقولون إنك سترشح نفسك بطريركا فقال على الفور وهو يعلم أنى امازحه — ياريت ... « وقابلني يوما في شارع ابراهيم المازني المتفرع من شارع الألني ، فبادرني بالقول — هل يصح أن تهاجم عرابي ... أن عرابي أصبح رجلا مقدسا لمجرد قيامه في وجه الحديو.. في وجه هذه العائلة الدنسة » وكان كلامه هذا تعليقاً منه على مقال نشرته أحد

الصحف السورية أو اللبنانية لى بعنوان ثلاثة أساءوا إلى مصر \_ وقد أعجبنى من سلامه موسى تحمسه لعرابى ووصفه إياه بالقداسة وعددت حملته على الماثلة المالكة دليلا على شجاعته .

ولم أعد أرى سلامه موسى حتى اجتمعنا في جمعية الشبان المسيحية بعد ثورة سنة ١٩٥٧ وكنت ألتى محاضرة هناك عن قانون تنظيم الأحزاب الذى صدر في الأيام الأولى لحكومة الثورة فطلب منى موعداً، فحددته له على الغور ، ولكنه لم يحضر فى الموعد وحاولت أن أتصل به فلم استطع ، فلم يكن فى دفتر التليفونات رقم تليفون له ، ولم أعثر له على عنوان ، وقد حرت فى تفسير عدم حضوره فى الموعد ، وقد ظنتت أول الأمر ان الأفكار التى قيلت فى المحاضرة لم تعجبه ، ولكنى لم ألبث حتى استبعدت هذا التفسير لأنه طلب منى الموعد بعد أن ألقيت المحاضرة لاقبلها . ولم يبق تفسير لعدم حضوره إلا أنه طلب الميعاد ألتمن وحى اللحظة وأنه لم يكن لديه شى ، يود الإفضاء به ، فلما خرج من المراكان نسى الموعد .

ثم رأيته بعد عودتى من رحلة رسمية فى الاتحاد السوفيتى، فقال لى أنه أرسل إلى معلنا أنه يربد أن يصحبنى فى هذه الرحلة فقلت له إلى على وجه اليقين لم أتلق منه طلبا كهذا ولما عدت إلى مكتبى عجبت كثير الأنى وجدت فعلا ضمن البريد الذى وصل إلى مكتبى بعد مفادرتى القاهرة وسفرى إلى موسكو ، خطابا من الأستاذ سلامه موسى يحمل تاريخا لاحقا ليوم سفرى بأيام ولم أوفق إلى تعليل هذا التصرف من جانبه فإن افتراضى إرساله الخطاب إلى وهو لايدرى أنى

سافرت یکاد یکون مستحیلالأن نبأ سفری إلى موسکو کان منشورا فی کل الصحف وفی مکان ظاهر منها .

ورأيته لآخر مرة في مقر مجلة كتابي حيث قضينا سويا ومعنابعض الكتّـاب والمحررين وقتا ممتماً وكان الأستاذ سلامه في هذه المرة كمادته دائما خجولا متواضعا فقد كان يحرجه كثيرا أن أقدمه على نفسى .

وبلغنى نبأ وفاته وأنا فى الأسكندرية وآلمنى أنى لم أكن مع مشيميه إلى مقره الأخير ، وإن كنت فى واقع الأمر من أكثر الذين تأثروا لوفاته على أنى شيمته بخاطرى ، معترفا بفضله . ولعل فى هذا بعض العزاء .

\* \* \*

ما هو مكان سلامة موسى فى تاريخ الأدب المصرى والحركه الفكرية العربية ؟

هذا هو السؤال الذي يجب أن نتصدى له بالجواب ، لأن سلامه موسى لم يظفر بما ظفر به غيره من العناية في حياته أو بعد وفاته .

ولكن قد يكون من الأفضل أن نلم بالصورة الكلية لحياته ، قبل أن نجيب على هذا السؤال . ولد سلامه موسى في سنة ١٨٨٧ — بعد الاحتلال البريطاني بخمس سنوات — وكانت عائلته أصلا من قرية البياضة في أسيوط ، ويعتقد أنها هاجرت من الصعيد إلى الزقازيق في نهاية الحسكم الفرنسي وقبيل حكم محمد على ، انتفاعا بالحرية التي منحها الحسكم الفرنسي للا قلية القبطية التي كان أبناؤها في ظلم حكم المماليك يلبسون على وجه الإلزام عائم سوداء تميزهم عن المسلمين الذين يلبسون العمائم البيضاء وكانوا بحكم هذا الشعار ، لا يستطيعون عن المسلمين الذين يلبسون العمائم البيضاء وكانوا بحكم هذا الشعار ، لا يستطيعون التنقل محرية ، إذ كانوا يؤثرون الالتصاق بالقرية التي ولدوا فيها ، اتقاء لحاطر التي تجرها مغامرة الهجرة إلى مجتمعات لا يعرفونها . و تعرف عائلته بلقب العني ،

كان أبو . كاتبا بمديرية الشرقية وكانت وظيفة تعرف وقتها ﴿ بِرئيس تحريرات للدبرية » وكان يتقاضي مرتبا لم يرد عن سبعة جنيهات و نصف جنيه ومع ذلك استطاع أن يشترى ما ادخره من هذا المرتب الضيئل مائة فدان إذ لم يكن سعر الله ان لمزيد عن عشرة جنيهات أو عشرين جنمها ، ولما كان محظور اعلى موظفي الحكومة أن يشتروا من أطيان المديرية التي يعملون فيها شيئا ، فقد سجل الأطيان التي كان يشتريها باسم بنتيه الكبيرتين ، فلما توفى أبوه حاول زوجا البنتين وكانا شقيقين أن ينكرا على سلامه موسى وأخوته ملكية أطيان أبيهم، ولولا أن والد هذين الزوجين واسمه غبريال سمد بك، أبي أن يسرق ولداه الأطيان من أصحابها ، وأكرههما على أن يتنازلا إلى سلامه وأخيه الذي يكبره عن نصيبهما الذي يستحقانه أصلا في تلك الأطيان ، لنشأ سلامه موسى وشقيقه فقيرين معدمين. ودخل سلامه في كتاب للمسلمين ، وآخر للأقباط ، ولم يفد منهما شيئا ، ودخل المدرسة الابتدائية وهو في الحادية عشرة من عمره ، وهو سن يبدو الآن كبيراً ، ولكن زملاءه كان أكبر من ذلك بكثير ، فقد كان من زملائه في السنة الأولى الإبتدائية من بلغ العشرين، إذ كان إلحاق الأولاد في تلك الحقبة بالمدارس يأتى متأخرا كثيرا ، ولم بكن غريبا أن يكون للتلميذ في المدرسة الإبتدائية أولاد في الثالثة أو الرابعة من أعمارهم وأن ينتظر هؤلاء أباهم مع الخدم على باب المدرسة . وقد نشأ سلامه موسى في يئة أثقلتها الخرافات، ويقول إن أذنه بقيت تحمل الثقب الذي علق به، وهو طفل، قرط إيهاما للحساد بأنه بنت ، وقد كانت أمه لاتدعه يخطو عتبة الباب كلماهم بالسفر إلى القـــاهرة حيث المدرسة الثانوية حتى تناديه ليعود إليها ثانية رمزا إلى عودته سالما بعد السفر ، ويقول إن أولى ذكريات طفولته العالقة هي منظره وهو طريح الفراش ، وبجانبه أمه تقرأ التعاويذ ليشفي ، وأن من ذكريات هذه الطفولة أن شابا اسمه ( زغبان ) غرق فى ترعة قريبة من ييتهم،

وأن الأمهات كن يخفن أولادهن بشبح (زغبان) هذا ، فلما رجع إلى بلدته بمد ذلك بعشرين سنة ، وجد اسم (زغبان) حيا في الناحية ، ووجد أن الأمهات لازان يخوفن أولادهن بشبحه ، فعرف من ذلك كيف تتوارث الأجيال أساطيرها الشمبية ، وكيف تحفظها ، وتحرص عليها من الضياع . ومن ذكرياته ذات الدلالة على عقلية ذلك العهد، إن صغرى الجواته كانت تصحبه إلى (الكتاب) ثم تأتى إليه عند موعد المودة إلى البيت فتصحبه إليه ، وفي ذات يوم وقضأمام باب داره، و نادى أخته هذ باسمها ، لتفتح له الباب ، ففتحت و اسهالت عليه ضربا لأنه ناداها بإسمها ، إذ لم يكن جائزا أن ينادى على البنات باسمائهن حتى ولو كن صغيرات، فقد كانت البنت تحجز في البيت عند العاشرة، وتعتبر من حريم المنزل ، وقد كان (على الشمسي باشا ) من زملاء سلامه في طفولته وصباه عصابة أخرى كان سلامه من أعضائها ، وقد وقعت الواقعة بين العصابتين ، فأثخنت عصابة الشمسي، عصابة سلامه وشقيقه ضربا وإيلاما ، ولكن مالبثت أن ثارت العصابة المهزومة لنفسها إذ استدرجت على الشمسي إلى مكان ناء ، وأنهالو اعليه بالعصىوالأحجار حتى عاد مريضا .

وقد كان فى بيت سلامة موسى أثناء طفولته جاريتان اسم إحداها كعب الخير، واسم الثانية زهراء، وقد حررها قانون تحرير العبيد، ولكنهما لم يتركا منزل عائلة سلامه، وبقيتا كالصديقتين لأمه حتى بعد أن تزوجتا فقد كانتا تأتيان لزيارتهما، وكانت الزيارة تمتد أحيانا لبضعة شهور، إذ قام خلاف بين الجارية وزوجها.

وقد حصل سلامه موسى على شهادة الدراسة الإبتدائية في سنة ١٩٠٣، وحصل على شهادة الدراسة الثانوية من مدرسة الخديوية سنة ١٩٠٧، بعد أن

قضى بعض الوقت فى المدرسة التوفيقية وقد كانت المدرسة التوفيقية فى مبناها المالى بشبرا، ولكنها كانت فى أيام سلامه موسى وسط حقول تمتد منها إلى الشبرق والغرب والشال. ولم تكن سنو الدراسة الثانوية هنيئة ، بل كانت فى رأى سلامه سلسلة من المذاب الذى لا يطاق. وقد اعترف سلامه موسى بشجاعة يحمد عليها أنه تخلف فى هذه الدراسة لثلاثة أمور، منها شعوره بالشقاء فى ظل النظام المدرسي القاسى الذى كان يعدم الملاقة الإنسسانية بين التفيذ والمدرس إلى حد أن التلاميذ كانوا بجهلون أحيانا أساء مدرسيهم خصوصا المدرسين الانجليز، والأمر الثانى أنه انفمس فى ممارسة المادة السرية للتفريج عن الكرب الذى كان يعانيه وقد قال فى هذا الصدد ما نصه: كا انى أعزو إلى عذاب المدرسة هذه العربدة الجنسية الذاتية التى انغمست فيها للترفيه عن نفسى، وإزالة السكد الذى كانت تحدثه هذه الحياة المدرسية المرهقة » والأمر الثالث أنه مرض بعينيه واحتاج إلى إجراء عيليتين جراحيتين تركا أثرا مشوها في

وقد كانت سنو الدراسة الثانوية فترة تحول ، فقد رأى فيها السيارة لأول مرة ، في الوقت الذي كان فيه السقاء يحضر إلى بيته الماء ، كما كان يستعمل الحير في الانتقال من مكان إلى مكان لأن الترام لم يكن يمر في جميع الشوارع الرئيسية .

ويقول سلامه موسى أنه شرع يقرأ الصحف، منذ دخل المدرسة الثانوية في سنة ١٩٠٣ وكانت الجرائد المقروة في تلك الأيام هي اللواه التي يحررها مصطفى كامل والمؤيد الذي يحرره الشيخ على يوسف، والجريدة التي يصدرها لطفى السيد، أما الأهمام في رأى سلامه موسى فكانت جريدة فاترة، بينها كانت المقطم جريدة الإنجليز صراحة. ولكن سلامه وفق إلى الثقافة التي كونته في المقتطف التي كان يحررها يعقوب صروف ه والجامعة » التي كان يحررها المقتطف التي كان يحررها

« فرح انطون » ومن القتطف عرف لأول مرة نظرية داروين فى التطور ،التى كان يمبرها عنها يعقوب صروف «بالنشوء والارتقاء» — وكان يلح فى عرضها الحاحا ترك أثره فى عقل سلامه موسى ووجدانه معا .

أما فرح انطون فقد عرفه بأدب فولتير وروسو وديدرو وبرناردين دوسان بيير ، واشعل نارا في وجدانه عندما قرأ له ترجمة لقصة النسورة الفرنسية كا كتبها الكسندر دوماس وفيا بين سنة ١٩٠٧ و ١٩١٠ ، وقع سلامه موسى تحت تأثير « الجريدة » التي كان يصدرها أحمد لطني السيد ، ويجمل فضله في انه دعا إلى وطنية شمارها مصر للمصريين ، تقابل الوطنيات الأخرى التي كانت تؤمن بالجامعة الإسلامية ، أو تدعو إلى الولاء إلى دولة تركيا » وكان لطني السيد في رأى سلامه موسى وزميلاه عبد العزيز فهمى وقاسم أمين الجيل التالي لجيل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وهو جيل أكثر شجاعة لأنه دعى إلى السفور وإلى إلغاء الإعراب في اللغة ، وإلى لغة مبسطة تقارب العامية .

وفي سنة ١٩٠٧ جد في حياة سلامة موسى جديد زاد من ضيقة بالمياة في مصر ، فإلى جانب تخلفه في الدراسة الصارمة ، قامت منازعات عائلية نكلات عليه حياته، فرأى أن ينجو من هذا الجو المعتم بالسفر الى الخارج ، وكان نصيبه في تركة أبيه بدر عليه دخلا يتراوح بين ٢٥ أو ٣٠ جنيها شهريا ، وهو دخل كان بمقياس تلك الأيام غير قليل ، فسافر الى باريس عن طريق استامبول ، وهو لا يقصد دراسة معينة . وقد رأى في استامبول السلطان عبد الحيد ، في موكبه ، من قصره الى المسجد ليؤدى صلاة الجمعة ، والناس مصطفة على على الجانبين والمدافع تطلق قناباها ، والمساجد تدق على غير العادة في بلادنا نواقيس ، ولكن السلطان عبد الحميد نفسه في تلك الأيام كان شيخا هرما ، نواقيس ، ولكن السلطان عبد الحميد نفسه في تلك الأيام كان شيخا هرما ،

اهترت أعطافه لهذا الهتاف التاريخي على الرغم منه . وعاد إلى مصر بعدان قضى سنة في باريس . وقد حاول في أثناء إقامته هناكأن يتقن اللغة الفرنسية وكان أكبر تأثراته الذهنية اثناء إقامته في فرنسا مارآه من خرية للرأة الفرنسية وقراءاته لمسرحيات هنريك ابسن الذي كان نصيرا متحساً لحرية المرأة ، كما رأى سلامه موسى نظافة الريف الفرنسي ، ورقى المجتمع فيه فقد وجد في كل فرية سهما ضؤلت — مطعما وحانة وفندقا وسوقا أسبوعية . ولما قرأ جريدة (الأومانتيه) الاشتراكية ، تم تلقيحه بأول البذور الاشتراكية التي صاحبته لآخر العمر .

وقد جنى سلامه موسى من إقامته فى فرنسا — على حدتعبيره — أنهأصبح أوربى التفكير والنزعة .

وقد كبدته علاقاته بالنساء في فرنسا عناء شديداً، وألما فادحا، فقد كان يحس بالارتباك أو « بالوكس » العاطفي على حد تعبيره ، فقد كانت أية محاولة من جانبه للتعارف الحيم بآنسة تنتهى بخيبة تكوى العقل والبدن معاً ، ولم أستطع أن أتبين حدود التعارف الحيم الذى عناه سلامه موسى بهذه العبارة الجديدة ، أهوالصداقة الحية ، أم هو الاتصال البدني ، ولاما إذا كان يعني بالخيبة والوكسة عند اقترابه من النساء في فرنسا ، أهو الارتباك والخيل الذي يعقد لسانه ، وبعوقه عند محاولة التلطف إليهم ، أم هو المجز العضوى الذي نشأ عن العربدة الجنسية الذاتية ، التي أسرف فيها في مصر ، قبل رحيله إلى الخارج . وسلامه موسى معذور إذ هو التزم الفموض في التحدث عن هذه الناحية الخاصة التي لم موسى معذور إذ هو التزم الفموض في التحدث عن هذه الناحية الخاصة التي لم يحرؤ كاتب مصرى أو عربي من قبل على الخوض فيها ، أو الاقتراب منها ، يحرؤ كاتب مصرى أو عربي من قبل على الخوض فيها ، أو الاقتراب منها ، وقد زاد غموضاً عندما تحدث عن أول تجربة حب له في انجلترا . ففي هذه التجربة استطاع أن يجتاز عقبة هذا العالم الشائق والشائك معاً ولكن الخيبة لازمته ، استطاع أن يجتاز عقبة هذا العالم الشائق والشائك معاً ولكن الخيبة لازمته ،

فقد تعرف على فتاة وهى تصطاف فى إحدى المدن الصغيرة على الشاملى الثرق الإنجلترا ، وكانت إرلندية تكبره فى السرب ، وقد جعهما أول الأم غضبها المشترك على السياسية الاستعمارية البريطانية فى كل من مصر و إرلندا ثم استعالت مداقعها إلى حب والهب الحب فأصبح غراما ، فاستسلمت له ، واستسلم لها ، ولا كنه بنسب إلى جالها أنه من النوع الذى يحدث فيمن يحبها المركب الذى يجد نفسه بسميه فرويد بمركب أوديب . وأوديب قد أحب أمه و تزوجها ، والرجل الذى معامرأة توهما م يتوهم أنها امه لا يستطيع أن يقترب منها كزوجة و لا كمشيقة فيل هذا ما أصاب سلامه موسى بالضبط ؟ الراجح أن هذا ما أصابه فقد قال إنه هذا الاختبار نفسى غما و مرارة و لكنه بعثنى على الاستطلاع والدراسة المشؤن الجنسية ، فعرفت هافلوك أليس و اوجست فوريل قبل ان أعرف فرويد ، بل إن هذا الاستطلاع الجنسية ، فعرفت هافلوك أليس و اوجست فوريل قبل ان أعرف فرويد ، بل

وفى بربطانيا اختلط بالجمية (الفابية)، وهى الجميسة الرائدة في ميدان الاشتراكية في بربطانيا، وقد عرف عن طريقها برناردشو، وويلز، كا عرف الأدب الروسى، وزاد معرفته لابسن، وقد تحدث إليه (شو) في إحدى الناسبات، فلما عرف أنه قبطى سأله أأنت (مونوفيزيت)؟ أى أأنت من السيحيين الذين يؤمنون بان للمسيح طبيعة واحدة فى الأرض والسهاء، وهى عقيدة الأقباط، ولى سلامه موسى لم يكن يعرف معنى كلة (مونوفيزيت) فقال له: لا. نحن نأ كل اللحم فى مصر» فانفجر برناردشو ضاحكا. وقد أجمل سلامه موسى أثر اتصاله بالجمية الفابية والثقافة البريطانية بعامة فى أنه (الشكفى القيم الأخلاقية والروحية) وكان من أثر هذا الشك أنه راح يسير فى شوارع لندن بلا قبعة، كتحد للا وضاع التى كانت سائدة وقتذاك فى عاصمة البريطانيين والتى لم تكن تسمح للناس بأن يسيروا عراة

الر ،وس. وقد قادته هذه التا ثرات جميعا إلى تأليف أول رسسالة له بعنوان (مقدمة السبرمان) وأرسلها إلى جورجى زيدان فى سنة ١٩٠٩ ، فطبعها له بعد أن حذف منها بعض فقرات جريئة . وقد أعاد طبع هذه الرسالة كفصل من فصول كتابه « اليوم والفد » .

وقد تردد سلامه موسى على المتحف البريطانى الذى يضم قدرا عظيا من الآثار القديمة من بينها الآثار الفرعونية ، ومكتبة كان بهاو قتذاك اربعة ملايين مجلا، وقد قرا في هذه المكتبة كثيرا من الكتب منها بعض الكتب العربية ، وفي الراجح أن تكون هذه الكتب العربية من السكتب النادرة أو المخطوطات .

اما ريف بريطانيا فيراه سلامه موسى اجمل ريف فى العالم كله لأن الإنجليز لا يعنون بالزراعة ، فبقى الجبل والسهل والبحيرة والغابة بكرا لم تمسها يد الإصلاح الصناعية ، ولقد ذكره هذا الريف الجيل ، بريف بلاده الكالح الحزين .

ولم يمض عام على سلامه موسى فى لندن حتى انجسه الى اليسار فا صبح اشتراكياً قبل أن يقرأ ماركس وكان يرى فى الاشتراكيين طليمة مجددة لا فى الاقتصاد وحده بل فى العلم والأدب فهم يدعون الى (اليوجنيه) أى إصلاح النسل، ويعجبون بالأدب الروسى، كا يعجبون بنتشه وأبسن، وقد كان الأدب الروسى فى تلك الفترة، هوسا اصاب البريطانيين، ويذكر سلامه موسى انه سم محاضرة عن تلستوى فى لندن، رأى فيها الناس خاشمين كا نماهم فى معبد. وكا احب عمالقة الأدب الروسى « دوستيفسكى و تولستوى وجوركى » هام بنشه الذى وصفه با نه لم يكن يخطو و لا يعدو، بل يقتحم ويثب.

ولكن استاذ اساتذته هو برناردشو ويقول عنه : ﴿ لَقَدَ الْمُضْبِّ مِنْ

حباتی نمو أربمین سنة وأنا أتعلم علی یدی هذا الحسكیم الذی أعد حیاته نی عصر نا نورا و نارا لجمیع الذین یعرفونه ، ولا أظن أنه فاتنی شی مساكتب، وكتاباته هی إلى الآن هورمونات ذهنیة توقظنی و تحركنی » ثم قال:

« ولم أر رؤيا واحدة فى برناردشو بل رأيت ثلاثة أو اربعة ، والرؤيا. الأولى هى الاشتراكية الإنسانية ، وهى بالطبع تختلف عن اشتراكية ماركس الملمة.

والرؤيا الثانية هي ديانة برناردشو ، فإن مشاجر انه مع داروين ينتهي مغزاها إلى أنها مشاجرة دينية إذ كيف يمكن أن نسكن إلى كون يكون محوره ومغزاه تنازع البقاء وبقاء الأصلح .

أما الرؤيا الثالثة فهى الإيمان بالعلم بل بالسلوك العلمى لكن مع الدين، وعلم بلادين هو القنبلة الذرية، وبقاء الأصلح كما يفهم هذا الأصلح تجار منشستر ونيويورك، ولكن العلم مع الدين هو السعادة البشرية والتطور إلى السبرمان».

وقد تأثر سلامه موسى أيضابولز وهو يقارن بينه وبين شو فيقول:

« فإن شو يتجاوز الأعمال والآفاق إلى ما وراءهما . وويلز يتعمق ولكنه لا ينظر إلى ما وراء الآفاق ، يعيش على الأرض فى حين يعيش شو فى السهاء ، حتى لنحس ونحن نقرأ ويلز أننا نختنق بهواء المدينة ، ولو أننا نتحلث مع رجل يعرف كل ما فيها ولكفا نحس حين نقرأ شو أننا نتسم أوزون البحر المعقم » .

والمفزى فى شو أن الانسان سيتغير ، جسما ونفسا ، لأن التطور
 يقضى بذلك والمفزى فى ويلز أن المجتمع سيتغير ، فى نظمه وأخلاقه ،

لأن الآلاتقد احدثت قوات اقتصادية جديدة سوف تضطر أمم العالم إلى أن تكون أمة واحدة . ورسالته هي أن يبعث في قرائه وجدانا هو هو أن هذا العالم هو قريتنا الكبرى .

وويلز هو بلا شك الأب الروحى للمالم الجديدة فإنه يدعو إلى لفة واحدة وثقافة واحدة » .

ولقد لخص سلامه موسى نفسه فقال:

« صرت أوصف بأنى كاتب اجماعى ، وكأن هؤلاء الواصفين أرادوا أن بميزوا بينى وبين الأدباء الذين ما زالوا يفصلون بين الأدب وبين الاجماع ، ولكنى مع ذلك أجد فرقا اسما الساسا آخر بينى وبين الأدباء فى مصر ، وهو أنى أمارس طرازاً من البلاغة يمارسون هم غيره . ذلك أن طرازى أو روبى وطرازه عربى » .

وقد أضاف سلامهموسى إلى قائمة الذين اثروا فيه ، وكونوه كارل ماركس الذى جاء بعد هربرت سبنسر ، فهو يعد إن كان معجبا بهربرت سبنسر ، حول إعجابه إلى ماركس الذى وصفه بأنه يزداد بمرور السنين قوة بل حياة ، والذى تحيا نظرياته فى كل مكان فى العالم ثم قال إنه لا يمكن لا حد أن يصف نفسه بأنه مثقف إذا كان يجهل الماركسية ولوكان يكرهها .

فأساتذة سلامه موسى إذن هم: داروين ، وماركس، فرويد ، وبر ناردشو ، وويلز ، والأدباء المفضلون عنده هم تولستوى ودوستيفسكى وجوركى ، ونيتشه والفكرون الذين أحبهم يوما ثم حول نظره عنهم هم هربرت سبنسر وكارليل وروى سلامه موسى حياته الصحفية فقال أنه أخرج مجلة للستقبل فى سنة وروى سلامه موسى حياته الصحفية عشر أسبوعا ، ثم توقفت لما ١٩١٤ ، وأنه استمر يصدرها حتى أتمت ستة عشر أسبوعا ، ثم توقفت لما

فرضت الرقابة على الصحف بمناسبة إعلان الحرب، وكان شبلي شميل من كتاب الستقبل ثم عمل سلامه بالهلال من سنة ١٩٢٣ حتى سنة ١٩٣٩ وكان من شروط علمه فيه أن يؤاف كتاب أشهر قصم الحب التاريخية، وهو كتاب يصفه مؤلفه بأنه أصدره للتسلية، ثم أصدر كتاب حرية الفكر و تاريخ أبطالها، والعقل الباطن.

وكان قد اشتفل فى سنة ١٩٠٩ فى جريدة اللواء لمدة أربعةأشهر ، وكان يعمل معه فى نفس الجريدة فرح انطون ، وقد يقى فرح انطون معتقداً طوال هذه المدة أن سلامه موسى مسلم .

ثم أخرج المجلة الجديدة سنة ١٩٢٩ وكانت شهرية، ثم أصدر مجلة المعرى في سنة ١٩٣٠ وكانت أسبوعية ، حتى ألغيت في هذه السنة في عهد إسماعيل صدق ويقول سلامه موسى أنه انغمس في السياسة عند تحريره في جريدة البلاغ. وأعاد سلامه مجلة ( المجلة الجديدة ) بضمان عامل من عمال مطبعة بدون أن بدفع تأميناً نقدياً .

وفى بداية الحرب الثانية أنشئت وزارة الشئون الاجتماعية ، وأصدرت هذه الوزارة مجلة ، فأسند إليه تحرير هما ، وكان يتقاضى عن ذلك العمل عشرين جنيها فى الشهر وكان بعض كبار الموظفين إذا أعجبهم مقال من إنشاء سلامه موسى ، وضع عليه إمضاءه كأنه كاتبه . ثم أصبح يدفع له عن الصفحة الواحدة أربعون قرشا فهبط دخله من تحرير مجلة الوزارة إلى جنيهين ، فترك العمل بها . وكان طوال عمله فيها ، يصدر مجلة المجلة المجديدة وكان يتولى تحريرها بعض أصدقائه الذين تطرفوا فى الدعسوة الديمقر اطية فعطلها أمر عسكرى فى سنة ١٩٤٢ .

وكان ينوى إصدار جريدة يومية ، واستعد أن يدفع ضمانًا نقديًا قدره

٣٠٠ جنيها حسب أحكام قانون المطبوعات ولكن وزارة الوفد مقطت في ٨ من اكتوبر سنة ١٩٤٤ ، فأخطر في اليوم التالى أن الجربدة التي يؤذن له بإصدارها هي شهرية .

وكان سلامه موسى قد اشتغل فى سنة ١٩١٩ فترة بالتعليم فى المدارس ، فأصبحواحداً من كبار أدبائنا العديدين الذين اشتغلوا بالتعليم وفى مقدمة هؤلا. المازنى والعقاد وشكرى وصادق عنبر .

وقد لخص سلامه موسى أهدافه فى الصحافة والعمل الأدبى فقال إنه كان بسمى جهده ليكون للمصريين أدب مصرى عصرى لا يرتكن إلى الأدب العربى القديم ، وأن يكون لنا أسلوب عصرى فى التعبير لا يمت إلى الجاحظ أو غيره مع مداعبة مستحيية للغة العامية ، أن يا خذ الأدباء المصريون بالأوزان والقيم الأوربية فى النقد الأدبى دون أوزان الناقدين القدماء وقيمهم كالجرجانى أو ابن الأثير أو ابن رشيق ، وأن نجعل الأدب متصلا بالمجتمع ويمالج شئونه ويندغم فى مشكلاته ، وأن توجد القصة والروايه المصريتين ، وأن نجعل الأدب أنسانى الغابة عالى المشكلات .

فلننظر ماذا فعل الأستاذ سلامه فى سبيل هذه الأهداف ، وماذا كانت همومه الحقيقية ، وما هى المركبات الذهنية التى كونته، وحوافزه الثابتة فى أكثر ما قال وما دعا إليه .

• • •

كان سلامه موسى ، من بين جبيع كتابنا ، هو الكاتب الذى استطاع أن بهج منهجاً فكريا واضح المعالم . وقد كون هذا للنهج وأعلنه منذ بدأ بكتب، وقد قال كثيراً إن ما كتبه وقاله وهو بعد فى مراحله الأولى يدرج إلى الشهرة، هو ما دأب على الكتابة فيه حتى آخراً يامه . وماقاله صحيح تمام الصحة،

مطابق للواقع لا يبعد عنه قيد أنملة ، وإذا قلنا أيضا أن سلامه موسى ، هوالداعية الوحيد بين كبار كتابنا ، كنا صادقين فقد كنت بحس أنه كا نما يشكو من حكة ذهنية ، وأنه لا يطيب له بال ، ولا يهدأ له خاطر ، إلا إذ استمر بمرر قلمه فوقها وحولها بل إذا أغس سن قلمه فيها . فالآخرون ابتعدوا عن خطوطهم التى رسموها لا نفسهم ، واصطنعو الأنفسهم أهدافا جديدة المرة بعد المرة . فالذين قرأوا العقاد وطه حسين في أول حياتهما ، لم يكونوا قادرين على التنبو عبا تهما سيكتبان عن الإسلام ما كتبوه . وأنت إذا أردت أن تستخلص لا كثر كتابنا فلسفة واضعة المعالم في الادب أو في الحياة ، لم تجد شيئا ذا بال إلا مع القسامع والاغضاء .

وقد كان أكثر كتابنا وسائط لنقل الثقافة الفربية إلى بلادنا ، لذلك ترجموا لنا ، ولخصوا وعلقوا على ماكان يقع فى أيديهم من كتب وآثار مفكرى الفرب . وقد يترجم الواحد منهم لواحد من مفكرى الفرب كجان جاكروسو مثلا \_ كافعل هيكل \_ أو لبيكون \_ كا فعل العقاد \_ ثم لا تجد لهذا الكاتب الأوروبى أثرا ثابتاً فيما انتجه هيكل أو العقاد ، بل لعلك لاتقع على مجرد إسم ايهما فيما كتباه بعد ذلك .

ونقل الفكر الغربى الحديث والمعاصر إلى لغتنا بالترجمة الكاملة أو بالتلخيص بالتعليق، عمل نافع ومفيد لأنه فتح لنا طاقات أطللنا منها على ما وصل إليه الغريبون ، بما كان لابد لنهضتنا أن تتصل به ، وتسمع عنه وتفكر فيه ، لتراجع أساليبها القديمة وتطورها وتغير آنها . وقد كان الأفضل أن يتم فلل الفكر الغربي بناء على خطة ومنهج ، محتى ينتقل إلينا أكثر الآثار الغربية مقدمين الأهم على المهم ، ومستكلين بناء عقليا يقوم على قاعدة ، ويرتفع دورا بعد دور ، وطابقا فوق طابق ، على هذه القاعدة . ولكن هذا النقل الاعتباطى كان لحساب بعض الاتجاهات الفكرية الغربية على حساب البعض الآخر ،

فيرفنا مثلا الفكر الفرنسي في مرحلة أكثر مما عرفنا الفكر الانجليزي، وعرفنا الأدب الفرنسي في ناحية واحدة منه دون سائر نواحيه ، وعرفناه في حقبة دون باتى حقبة ، ولم نعرف الأدب الألماني تقريبا ، فيما عدا قصة لجيته ومسرحية لشيلر \_ ترجمتا في فترة متأخرة ، ولم نتصل بالأدب الروسي تقريباً ، أما الأدب الإيطالي والأسباني ، وأدب الشمال كله ، والمسرح عموماً فيما خلا شكسبير ، فقد جهلناه جميعا ، كا جهلنا الأدب الأمريكي .

\* \* \*

ومن مزايا سلامه موسى أنه تصدى للعلاقة بين المسلمين والاقباط ، فقال كلاما عبر قليل في هذا الصدد ، وصور لنا موقف الأقباط من المجتمع المصرى ، ومن مشكلاته الوطنية ، والاجتماعية . وقد بدأ كلامه بالمراحل الأولى للحركة الوطنية المصرية المعاصرة عقب الاحتلال البريطاني . وهو كلام جدير بالناقشة .

وأول سمات تحليله للمشكلة القبطية ، أنه يتأرجح بين الإعجاب بمصطنى كامل ودوره في الحركة الوطنية ، وانتقاصه لقدره ، وهو يتوهم أن الاقباط لم ينخرطوا في سلك الحركة الوطنية المصرية لأن الحزب الوطني كان يدعو إلى الولاء للدولة العمانية . ونحن نقول أنه يتوهم ، لأن الاقباط لم يشتركوا في الحركه الوطنية في عهد مصطفى كامل وحزب الأمة الذي كان يتحدث باسمه أحمد لطفى السيه.

وحزب الإصلاح على المبادىء الدستورية الذى كان يرأسه ويتعدث باسمه الشيخ على يوسف لهذا السبب ، بل لأسباب أخرى نفصلها حالا .

قال سلامه موسى فى كتابه عن تربية نفسه فى الصفحة ٤٣ عن العزب الوطنى وجريدة اللواء:

« كان اللواء جريدة الحزب الوطنى يستهوى النفوس، وكنا نسارع إلى شرائه عقب الانصراف من المدرسة ولكن الشبان الأقباط كانوا يجدون بعض الاستياء من الدعوة الدينية فى الحزب الوطنى وكذلك الدعوة العثمانية أى المتركية، وكان منطقهم يقول:

« إذا كنتم تدعون إلى جامعة إسلامية وإلى تأييد العكومة العثمانية فى مصر ، مع أن الأتراك ليسوا فقط أجانب بل أن تاريخهم يحفسل بالمظالم فى مصر ، فان لنا الحق فى الاتجاه نحو جامعة مسيحية والاعتماد على الاحتلال البريطانى » .

« وقد انتهى موقفهم إلى أن حمل مصطفى كامل عليهم وأثار تعصباً دينياً ساءت عواقبه واستغله الانجليز أيام كرومر وجورست » .

ولكنه بعد أن يقول هذا الكلام الذى ينطوى على خطأ تاريخى فلدح بنسبة الحلة على الأقباط إلى مصطفى كامل ، قال فى نفس الكتاب فى الصفحة السادسة والأربعين :

« وبفضل الحزب الوطنى ، بل بفضل الشاب مصطنى كامـــل تزايلت الحركة الوطنية وأخذت موجاتها تعلو و تزيد . ورأى كروم عجزه عن مكافحتها على العنف الأحمق بل على التوحش الإجرامى فانتهز حوالى سنة غمله النيظ على العنف الأحمق بل على التوحش الإجرامى فانتهز حوالى سنة ١٩٠٧ فرصة التقاء الجنود ببعض الريفيين في دنشواى إحدى القرى في للنوفية ،

وكانوا يصيدون الحام الذى كان هؤلاء الفلاحون يربونه ، فاشتبك الريفيون مع الإنجليز في مشاجرة انتهت بقتل بعض الانجليز أو بالأخرى وفاته . وعندأذ عينت محمة مخصوصة كان رئيسها المرحوم بطرس غالى باشا ، ومن أعضاعها المرحوم فتحى زغلول . وكان المحامى عن الإنجليز المرحوم الملباوى الذى صار بعد ذلك عضوا في حزب الأحر ار الدستوريين ، وشرع في محاكمة الدنشو ائيين وعم الأمة توتر نفسي وغلت المواطف . وكتب المقطم بأن المشنقة أرسلت إلى دنشواى قبل أن تنتهى المحاكمة فخجلت الحكومة وكذبت الخبر ، ولكن المرجح أن المقطم كان صادقا » .

#### ثم قال:

وقد وجدت تعزيتي في شيء واحد هو أن الوجدان الوطني أصبح عاما وتنبهت الأمة كأنها استيقظت من نوم. فكنت أجد بعض الشبان يشترون المقطم ويمزقونه حتى لا يقرأه أحد، وحتى الأقباط الذين كانوا متوجسين من حركات الحزب الوطني الدينية أصبحوا وطنيين بكرهون الإنجليز ولكن اختلاط الحركة الوطنية بالدعوة الإسسسلامية من ناحية وبالرغبة في السيادة العثمانية من ناحية أخرى عرقل الاندماج التام للأقباط في الحركة الوطنية ».

## ثم عاد فقال عن مصطفى كامل في صفحة ٤٩:

« أما مصطفى كامل فكان يفزو قلوب الشبان . وكان إذا أعلن عن خطبة يلقبها تجمع الألوف لسهاعه ، وكان في شبابه وحماسته إغراء للشبان » .

#### وقال في صفحة ٥٠ :

و كان الخديو عباس محبوباً إلى سنة ١٩٠٧ ، يجد فيه الشباب رمزا المكفاح وكان الخديو عباس محبوباً إلى سنة ١٩٠٧ ، يجد فيه الشباب رمزا المكفاح وكانت شراسة كروم الذي كان يرغب في معاملته كا لو كان أحد

مهراجات الهند، تنبه فيه هذا الكفاح، وتعلق به الجمهور وشاعت عنه مواقف وطنية، ومما سمعناه في تلك السنين أن ويصا واصف ومرقس حنا وعددا آخر معظمهم من المحامين، قصدوا إلى سراى عابدين وانتظروا إلى أن هم الخديو بركوب عربته فأصروا على أن يحلوا خيولها، ويجروها هم .

ثم تحدث عن سياسة الوفاق التي جاء دون جورست يمثلها في مصر ، ساعيا إلى كسب الخديو لصف الانجليز ، و إبعاده عن الحركه الوطنية بدلا من سياسة المشاكسة والتضييق التي كان يتبعها كرومر مع عباس وقال :

« وكانت ساسية الوفاق هذه سيباً في انقلاب مصطفى كامل ، إذ أنه أبي أن يسير مع الخديو ، وأصر على الكفاح » .

وخلاصة هذه المقتطفات التي نقلناها بأمانة عن كتاب سلامه موسى نفسه أنه كان يحاول يؤول التاريخ ، بغير أسلوب المؤرخ العالم ، إلى حد أنه قال أن حادثة دنشواى وقعت نحو سنة ١٩٠٧ مع أن تلاميذ المدارس يعلمون أن تلاميذ المدارس يعلمون أنها وقعت قبل ذلك بسنة ، وهو أمر يبدو تافها ، ولكنه يدل على أن الأستاذ بلغ كسله إلى حداً نه صعب عليه أن يمد يده إلى كتاب عن تاريخ مصر الحديثة ، يحقق معه تاريخ هذه الواقعة الهامة التي لا يجوز لكاتب كبير مثله إلا أن يذكره على وجه التحقيق لا التقريب .

ومع ذلك فقد ارتكب خطأ أكبر اذ زعم أن مصطنى كامل هاجم الأقباط، وهو خطأ يلام عليه أعظم اللوم ، إذ أن إلقاء مثل هذا القول على عواهنة في حق رجل لعب الدور الخطير الذي لعبه مصطنى كامل في حياة أمته الوطنية الأدبية والصحفية والسياسية ، يشكك في أمانة سلامه موسى الذي نميل إلى الاعتراف له بها . فان مصطنى كامل لم يقل حرفا واحداً يمكن تفسيره بأنه

يممل الإساءة ، إلى الأقباط أو الفض منهم ، أو إثارة الكراهية ضدم . كانت مبادىء الحزب الوطنى داعية إلى الحرص على الوحدة الوطنية .

فقد جاء فى برنامج الحزب أن من أهدافه: تقارب عنصرى الأمة المسلمين والمسيحيين ، وقد سبق الحزب الوطنى إلى الوجود أحزاب وهيئات تشبة الأحزاب تجوزا ، وبمراجعة برامج تلك الأحزاب والهيئات كحزب الأمة ، والحزب الوطنى الحر ، وحزب حافظ عوض الذى اندمج هو وحزبه فى حزب الإصلاح برياسة على يوسف ، لانجد إشارة إلى وحدة عنصرى الأمة كانجد تلك الاشارة الواضحة الصريحة فى برنامج الحزب الوطنى ، الذى انشأه مصطنى كامل — مضطرا — بعد نشوء تلك الأحزاب جميعاً .

بل إن حزب الوفد الذي أعلن برنامجه في ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٨ خلا من النص على وحدة عنصرى الأمة . ولو راجعنا أسماء أعضاء مجالس إدارات حزب الأمة وحزب الاصلاح ، لما وجدنا بينها أحدا من كبار الأقباط ، بينما كان الأستاذ ويصا واصف عضوا في مجلس إدارة أول لجنة إدارية للحزب الوطنى الذي أذبع برنامجه وتشكيل لجنته هذه في ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٠٧. وقد كان الأستاذ ويصا واصف رجلا حصيفا ورصينا ، فلو علم عن اتجاهات الحزب ما نسب إليه زورا لما قبل أن يجلس مع زعماء هذا الحزب وأن يحتمل معهم تبعة سياستهم .

ولقد كانت في حياة مصطفى كامل الزعيم وحياة حزبه أكثر من قرينة تنفى عنه هذه النهمة البعائرة ، فقد كان مصطفى كامل الزعيم السياسى الوحيد بين جميع المشتغلبن بالسياسة في عهده ، والذين سبقوه إلى تأليف الأحزاب ليسدوا في وجهه باب التقدم والاتساع ، الذي تعلم في أوروبا ، الذي اتسمت صداقاته واتصالاته بعدد غير قليل من رجال السياسة والأدب في أوروبا عوما ، وفرنسا

À.,

خصوصاً، وكان دائم الكتابة إليهم، وتحرير المقالات الضافية في صعفهم ومجلابهم، وإقامة الدعوات لهم في بلادهم، وتوجيه الدعوة إليهم ايزوروا بلادنا. وهذا وحده كان يدعوه إلى أن يلتزم - ولو في الظاهر - البعد عما بلادنا. وهذا وحده كان يدعوه إلى أن يلتزم - ولو في الظاهر - البعد عما يلصق به بهمة التعصب. ولو لاحظهؤلاء شيئامن ذلك - وهم من ذوى المكانة يلصق به بهمة التعصب. ولو لاحظهؤلاء شيئامن ذلك - وهم من ذوى المكانة في أوطانهم كالكاتب بيرلوتي، والكاتبة جوليت آدم، والنائب ديلونكل في أوطانهم كالكاتب بيرلوتي، والكاتبة جوليت آدم، والنائب ديلونكل لبعدوا عنه، أو للفتوا نظره إلى سوء مغبة هذا المسلك من جانبه.

وقد كان كافيا أن تكون علاقته بمدام جولييت آدم إلى الحد الذي نعرفه ، والذي قالت معه أنها اعتبرت نفسها الأم الروحية لمصطفى كامل ، وأنه اعتبر نفسه إبنا لها ، حتى يبعد عن كل موطن من مواطن التعصب ، لأن الجو الذي تنمو فيه هذه العلاقة ، ليس هو الجو الذي يصلح لأن تفرخ فيه جراثيم التعصب الذميم .

وقد استوقفنى أمر فى خطب ومقالات مصطفى كامل غاب عنى زمنا طويلا ذلك هو خلو تلك الخطب والمقالات من الاستشهاد بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه السلام ، على كثرة ما كان يستشهد الخطباء والكتاب فى ذلك العهد ، بل وبعده بسنين طويلة بآيات القرآن وأحاديث النبى ، ولو فعل مصطفى كامل كافعل سواه من كتاب وخطباء أيامه ، واستعان بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، لما كان ذلك دليلا على تعصبه ، وما صلح بحال من الأحوال كمطمن فيه ، ولكن عدم استشهاده بالقرآن والأحاديث قرينة على أن ذهنه كان ملتفتا إلى استقراء الحوادث الجارية ، واستنباط الحجج منها ذاتها ، وتزيد الغاية منه وضوحا .

وقد تناول مصطنى كامل فى خطبته التى ألفاها فى ٢٢ من أكتوبر سعة ١٩٠٧ التى كانت بمثابة خطبة الوداع جميع ما نسب إليه وإلى الحزب الوطني

من مهم ، ومن بينها تهمة التعصب الدينى ، فقال : قال أعـــداؤنا أننا نخلط الإسلام بالوطنية ، ونتـكام دائما عن المسلمين ونطلب إدخال الدين في التعليم ، وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم » .

ومن هذه العبارة تنضح عناصر النهمة التي أقيمت ضد مصطفى كامل ، وليس منها تهجمه على الأقباط أو طعنه فيهم . بل إن النهمة اقتصرت على اهتمامه بالمسلمين وبالدعوة إلى إدخال الدين في مناهج التعليم ولذلك كانت حجة مصطفى كامل في الرد على هذه النهمة هي : «كيف لا تكون انجلترا وألمانيا متعصبتين وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم الديني في مدارسهما ونهم نحن بالتعصب الديني ».

## نم قـــمال:

على أن بث الحقيقة الاسلامية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجبة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى ، إذ لا تعصب مع علم ، ولا نفرة مع نور ورشاد ، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون ديبهم على حقيقته وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات بينهم » .

وعلينا أن نسأل ما إذا كان الأقباط الذين أخافتهم ميول الحزب الوطنى الاسلامية وتعلقه بتركيا ، هل دخلوا في حزب آخر كحزب الأمة الذي كان يدعو إلى المصرية الخالصة ، الواقع أنهم لم ينضموا في تلك الآونة إلى أي حرب من الأحزاب ، ولم يشاركوا بنصيب كبير في السياسة والحركة الوطنية . ذلك لأن الشعور الوطنى كان عند المصريين كافة راكداً بعد كارثة الاحتلال . وكان مظهر ركوده عند المسلمين ، اتقاء مخاطر المشاركة في العمل العام وعواقبه . أما مظهره عند الأقباط ، فهو الاخلاد إلى شهيمور الطمأنينة إلى الاحتلال البريطاني ، الذي حاول أن يبدو في ثوب حامى حمى الاقباط والأقليات . ولكن

هذه المحاولة لم تلبث أن انكشف طلاؤها الكاذب ، وأدرك الأقباط، بعد أن تدفقت وتتابعت تيارات الحركة الوطنية ، أن الأمن الوحيد هو الأمن في ظل الوطن الذي يشمل الجميع بظله الظليل .

هذا هو التفسير الصحيح لارتباك سلامه موسى واضطرابه فى تاريخ هده الحقبة من تاريخه وتاريخ البلاد ، ولذلك يبدو غريباً أنه يحمل حملات شديدة جدا على كرومر فى كتابه الذى روى فيه قصة حياته ، ثم يبدى إعجابا بسمد زغلول صديق كروم، هذا .

ويبدو هذا التناقض على أوضح صورة حينها ينقل سلامه موسى فقرة من خطبة كروم التي ألقاها في حفلة تكريمه بمناسبة مفادرته لمصر (١) ، وهي فقرة قال فيها كروم للمصريين إن الاحتلال البريطاني دائم ، وينسى أن هذه الفقرة ألتى بها في وجه زعيمه المحبوب سعد زغلول ، وأن سعد زغلول خطب في الحفلة التي ألتي فيها كروم هذه الخطبة القبيحة ، وأنه أثنى على كروم ، فرد كروم على هذا المديح والثناء بمثله . أى أن سعد زغلول وكروم وقفا يتقارضان الثناء ، مع أن كروم كان قد تورط في الحماقة الوحشية التي وصفها سلامه موسى ، وهي مذبحة دنشواى . لكن استحق سعد زغلول أن ينال احتر امه وإعجابه ، في حين مذبحة دنشواى . لكن استحق سعد زغلول أن ينال احتر امه وإعجابه ، في حين بتهم مصطنى كامل بالتفريط في حق مصر ، لأنه يستغل علاقة قديمة ضعيفة بتركيا لإحراج الاحتلال البريطاني الجائم فوق صدر مصر .

أن هذه نقطة ضعف في موقف كل الذين تقضى عليهم اعتبارات عاطفية

<sup>(</sup>۱) قال كروم : ما هى حقائق الحال المصرية الآن ؟ أولها أن الإحتلال البريطاني سيدوم إلى ما شاء الله وقد قالت لنا حكومة صاحب الجلالة الملك ذلك رسميا ، والثاني أنه مادام الإحتلال البريطاني باقيا فالحكومة البريطانية تسكون بالضرورة مسئولة عن الحطة التي تجرى عليها الحكومةالمصرية – ولايكون عندأحد أقل ريب في هذه الحقيقة الثابتة – والنتيجة التي استخلصها من هذه المقدمة أن نظام الحكم الحاضر دائم » .

أو مصلحية بالوقوف مع سعد وضد مصطفى كامل ، سواء فى ذلك المقاد وسلامه موسى .

ولكنى أعود فأكرر أن سلامه موسى جدير بالثناء لأنه ناقش هذه المسائل بصراحة ، فلم يلف ولم يدر ، فأعان على تأريخ حقبة من حقب تاريخنا الحديث ، كان يجبأن نعرف فيها رأى كاتب قبطى كبير ، وقد قرأنا هذا الرأى وناقشناه، ونحن نحمد الله أن هذه الفتنة قد انتهت ، وأن وحدة الأمة خرجت منها أقوى وأسلم مما كانت .

. . .

وقد نقلنا فيما سبق الأهداف الستة التي جملها سلامه موسى غاياته الفكرية فلنر ماذا حقق منها . كانت اللغة البسيطة العصرية التي لا تلتزم أسلوب اللغة المربية القديمة وقوالبها التقليدية ، هي هدفه الأول ، فهل حقق سلامه موسى شيئا في اصطناع هذه اللغة أكثر مما حقق مثلا الدكتور مجمد حسين هيكل أو محمود عزمي أو العقاد أو المازني .

الواقع أنه لم يضف شيئا إلى اللغة العربية التي كانت قد تحررت من السجع ومن المحسنات اللفظية على يد كتابوخطباء سبقوه وعاصروه. فخطب مصطفى كامل ومقالاته كانت سهلا ممتنعا ، فلم يكن القارىء أو السامع في حاجة إلى أن يكد ذهنه ليفهم شيئا بما يقوله ، وما كانت هذه الخطب والمقالات لتدع شيئا بما يتصل محياة المصريين في مجالات السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد ، إلا وتخوض فيه ، وتبدأ القول و تعيد ، ولم يكن أسلوب على يوسف وأحمد لطني السيد من أسلوب المقامات ، ثم جاءت مقالات وخطب محد فريد ، فكانت مثلا عاليا في الكتابة التي لا يزيد حرف فيها على وخطب محد فريد ، فكانت مثلا عاليا في الكتابة التي لا يزيد حرف فيها على وخطب محد فريد ، فكانت مثلا عاليا في الكتابة التي لا يزيد حرف فيها على

غرض الكاتب. فحمد فريد كان يتجه إلى ما يريده فى يسر وبساطة ، وبأقل الألفاظ. وجاء كتاب بعد ذلك كعبد القادر حمزه ، فذهبوا فى الإقتصاد فى اللفظ والإيجاز فى العرض بما لا مزيد عليه ولقد بتى سلامه موسى إلى آخر حياته يتعدث عن اللغة التلفر افية ، دون أن نتبين مقصوده منها ، لأنه كان يكتب كا يكتب سواه من معاصريه ، وقال أنه كان يفازل اللغة العامية فى استحياء ، والواقع أن ما من أحد بمن دعوا إلى اللغة العامية استطاع أن يكتب مقالا أو كتاباً باللغة العامية لا خلوفه من الجاهير بل لأن اللغة العامة بطبيعتها لا تصلح لمناقشة المشكلات للكبيرة ، والموضوعات الجدية ، ومع ذلك وجد كتاب ممتازون استطاعوا أن يطوعوا اللغة العامية فيا تصلح له كالدكتور سعيد عبده ، وبيرم التونسى ، يطوعوا اللغة العامية فيا تصلح له كالدكتور سعيد عبده ، وبيرم التونسى ، ولاسخرية من شخصيات المجتمع أو عيوب فيه — كاكتب آخرون للمسرح وللسخرية من شخصيات المجتمع أو عيوب فيه — كاكتب آخرون للمسرح باللغة العامية في نجاح — ولم يشارك سلامه موسى فى شىء من هذا ، وبيد أن يستبدل بها اللغة العامية ، ليرضى فى نفسه نرعة المجدد أو الثائر .

وفى كتاب « تربية سلامه موسى » يجد القارى، محاولة ظاهرة بالمنابة بأسلوبه ، واختيار ألفاظه ، فجاءت بعض قطع فى هذا الكتاب أدنى إلى الشعر المنثور ، بما فيها من موسيقى وطلاوة .

أما الأخذ بالأوزان والقيم الأوربية في النقد الأدبى ، فقد تم بالفعل دون أن يشارك فيها سلامه موسى فكان من أسبق الذين اصطنعوا هذه الأوزان والقيم عبدالرحمن شكرى ، ولم تلبث المدرسة الحديثة في النقد أن نشأت باتجاهامها المختلفة فوجد من أقام نقده للعمل الأدبى ، على أساس من قيمه الجالية ، ومن

أقامها على أسس نفسية ، ومن أقامها على أسس مذهبية ، ووجد دعاة الشكل ، ودعاة الشكل ، ودعاة المشكل ،

أما الدعوة إلى إنشاء القصة والدرامة، فلا نذكر أن سلامه موسى بذل في سبيلها شيئًا يذكر ، وها هو ذا الهلال تحت أيدينًا في الفترة التي أشرف فيها على تحريره سلامه موسى فانه لايقع نظرنا على أكثر من قصة واحدة لسلامه ولا نكاد نجد لغيره من الكتاب المصريين قصصاً ، كذلك بين أيدينا المجلة الحديدة والصرى ، فقد خلت تقريباً من بحث في أصول القصة أو الدراما ولم ينشأ في حجرها قصاص ولا مؤلف مسرحي وإن لم ننكر أن نجيب محفوظ وجد من سلامه موسى احتفالا ومعاونه . فقد نشأت القصة المصرية الكبيرة والقصة الصغيرة والمسرح كله بعيداعن سلامه موسى الذى لأنجد في كل ما خلفه نقدالقصة أو مسرحية . وعلى كثرة ماقرأ لبرناردشو ولأبسن ، لم يتفضل على الأدب المصرى بترجمة بل حتى بتلخيص مسرحية من مسرحياتهما ، وبيان السات الميزة لمسرح أي منهما . فقد قنع بنقل أفكارهما بعيدة عن شكلها المسرحي . كأن االمسرح ليس هما من هموم سلامه موسى ولا شعبة من شعب غرامه . ولو كان حقا مؤمنا بأسلوب القصة والمسرح كما ادعى لنفسه ، لأغرقنا في طوفان من الحديث عنهما وعن كبار الكتاب فيهما ، ولأسمعنا الكثير عن أصول الكتابة فيهما . بل إنه بتى مصرا على كرهه لشوق مع أن شوق كان أولشاعر عربى يكتب للمسرح ولقد أخبرنا سلامه موسى أنه مشغول بالريف المصرى ، ولكن لا نجد صدى هذا الحب في كل ما كتب ، مثلما نجد في كتابات حيكل مثلا فسلامه ابن المدينة عاش فيها ، وتحدث عن مشكلاتها، ولم يعرض بإلحاحه المعهود صور الحياة الفلاح المصرى، ومشكلات حیاته، ثم یمکن أن نقول أن اشتراکیة سلامة موسی ، کانت اشتراکیة إرهاصات ، اكنني منها بالتعميم دون التخصيص ، وبالإشارات العابرة ، دون الخطات ، اكنني منها بالتعميم دون التخصيص ، وبالإشارات العابرة ، دون الخطة ، الخوض في التفاصيل ، وإظهار التحمس لها دون تحمل مشقة رسم الخطة ، ولا بيان النهاج .

ولكن سلامه موسى ، كان مرحلة هامة من مراحل التفكير المصرى ولكن سلامه موسى ، كان مرحلة هامة من مراحل التفكير المعرى بلاجدال ، وكان واحداً من معالم الطريق المباشر ، ومقدمة للحياة الجديدة التي تعللم إليها المصريون ، وعملوا لها ، وشقوا في سبيلها .

هو لم يعلمنا شيئا ولكنه شوقنا لأن نتعلم ، لم يعننا على أن نحيط ببر ناردشو ولا بويلز ولا بنيتشه ، ولا بعمالقة الأدب الروسى ، ولكنه نجح فى أن يجعلنا نشعر بوجودهم ، وبعظم الدور الذى لعبوه فى حياة الإنسائية والفكر البشرى، وبالفائدة التى سنجنيها حيا نقرؤهم ونستمع بما خلفوه لنا ، ولم يدعنا إلى منهج واضح من مناهج الاشتراكية ، ولكنه حببنا فيها ، وأغرانا بها . وهذا كله ليس بالقليل .

\* \* \*

على أن سلامه موسى أضاف إلى أياديه الأدبية بدا إذ أنه أورد فى الفصل الأخير أو قبل الأخير المعنون « الأدب للشعب» آراء الكتاب المعاصرين فيه ، وقد كانت هذه الآراء كلهاقد حافى أدبه، وذما عنيفا، فقد أثار هؤلاء عليه لأنه أفضى إلى سكرتير تحرير مجلة الرسالة الجديدة بحديث قال فيه : أنه لا يوجد بين أدباء مصر ، أدبب واحد يستحق أن يحمل التاريخ آثاره إلى الأجيال القادمة ، ولم أجد من أدبائنا من يستحق أن يحمل الولادنا وأحفادنا بعد عشرة أعوام .

فلما سئل العقاد عن هذا الرأى قال: إنى لا أستطيع أن أبدى رأيى في غير رأى، وما قاله سلامه موسى ليس تعبيرا عن رأى، ولكنه تعبير عن حقد وضغينة وشعور بالفشل والتقهقر، وكل ما يهدف إليه سلامه موسى من حملاته على الأدب العربى هو تشويه للا دب العربى عامة، ورميه بالقصور والجهل

والأنحلال والذنب الأكبر للأدب العربى عند سلامه موسى ، هو أن هذا الأدب عربى ، وسلامه موسى ليس بعربى .

ولما سئل العقاد عن مكان سلمه موسى بين أدباء العصر الحديث وعلمائه قال:

إن الأدباء يحسبون سلامه موسى على العلماء ، والعلماء يحسبونه على الأدباء والواقع أنه ليس أديبا ولا عالما ، ولكنه قارىء لبعض العلم ، وبعض الأدب، في بعض الأوقات ، وما يفهمه أتفه مما لا يفهمه .

أما الأستاذ توفيق الحكيم فقال: إن سلامه موسى يتصدى لله لله الهيم على قضايا لا يملك أسباب التصدى لها ، ويخيل إلى أنه قد انقطع عن القراءة منذربع جيل على الأقل . فإنى كلا قرأت له لمحت أثر تفكير القرن التاسع عشر فى انجاهات فكره ، والتفاتات ذهنه . أنه لا يزال يقيم فلسفته إن كانت له فلسفة ، على الاعتراف بالمادة وإنكار الروح ، ويحسبأن هذا أقصى ما وصل إليه الفكر الحديث . كان ابنشتين يقول أن الكون فى إطار ، وأن الله ) خارج هذا الإطار ، وقد قرأت له أخيرا كلاما عن الله جنح فيه إلى الاعتراف بالله ، وتحدث عنه فى حذر وتهيب خشية ، وما قرأته لسلامه موسى منذ ثلاثين عاما لا يختلف عما أقرؤه اليوم نزعة وأسلوبا ، واتجاها حادا إلى انكاركل شى و والاستخفاف بكل شى و .

ثم نقل سلامه موسى ما قاله عنه الأستاذ حبيب زحلاوى فى كتابه شيوخ الأدب ، و نص هذا الهجوم ·

ه من الذرائع التى تذرع بها ولكوكس إلى تعميم اللهجة العامية ونشرها بين أبناء الطائفة أن استمان بالأستاذين سلامه موسى ونصيف المنقبادى على وضع تسابيح وأدعية وابتهالات وتضرعات يتضرع بها أبناء الطائفة القبطية إلى الله، وقد وضع أبونا سلامه كا قال لى زميله نصيف المنقبادى الأدعية التالية وهذا بعضها:

« يارب أنت الوابور وحنا العربيات جرنا بقــــــدرتك الإلمية إلى ملكوت الساء.

« يارب أنت الحنفية وحنا الجرادل املاً نا من نعمتك » .

وقد رأى سلامه خير ردعلى هذه الحملات التى جرها على نفسه باتهام كبار الأدباء ، بأنه لن يبقى من آثارهم شىء بعد موتهم ، وأن أبناء الجيل القادم لن يقرأوا بعد عشر سنوات ، حرفا بما كتبوه ، أن ينشر محاضرة ألقاها الدكتور الراهيم ناجى في جمعية الشبان المسيحيين عن سلامه موسى . والحق أن سلامه موسى كان خليقا أن يفهم ويتوقع أن مثل هذا الهجوم ، سيقابل بمثله أو بأعنف منه ، فإن الإنسان حساس إلى أقصى الحد ، في كل ما يتصل به وهو أكثر حساسية ، لما يتصل بتاريخه ، وذكراه بعد الموت ، ولعله قادر على أن يحتمل ويصبر عن نقد عل من أعماله ، أو بعض أعماله ، أما إصدار الحكم على علم كله ، من ألغه إلى يائه ، بأنه لاشىء ، وبأنه صائر إلى العدم ، فأمر يهول كل آدمى ، دع عنك الأدباء الذين يعملون في ظل شعور دائم ، بأنهم يتركون أعمالم للأجيال القادمة ، وأن نصيبهم من الشهرة والذيوع إن قل في حيابهم فإن المستقبل سينصفهم ، كاأنصف غيرهم من المفمورين أثناء الحياة ، المشهورين

بعد الموت . ونحن لانرى بأسا من أن ننهى هذا الفصل عن سلامه موسى بنقل فقرات من هذه المحاضرة :

#### فسال:

( إنى لو صورت سلامه موسى على حقيقته، وأعتقداً لى استطيع . فسكا أنى أصور رجلا يدور حول نفسه يبحث عن شيئين :

ه الأول عن عيب فيا صنع لعله يستطيع تلافيه في المستقبل.

والثانى الذى يبحث عنه ، عن ناقد عالم مخلص يستطيع أن يستزيد منه علما ومعرفة .

### ثم قــال:

هذا هو سلامه موسى فى صورة مجملة ، أما التفاصيل فتذكرنى بتفاصيل ج ولز قطعة قطعة . حتى لقد قلت حين علمت أن سلامه موسى فى بده حياته تتلذ على عالم من علماء إنجلترا ، وكان يلازمه ملازمة الظل أن هذا العالم ليس إلا ولز . ولز بدأ حياته عالما فى البيولوجية وهكذا فعل سلامه ولز أخذ يوجه نفسه شطر التاريخ . وهكذا فعل سلامه . ويلز أخذ يبنى الكوارث على أسباب اقتصادية ، كا يتضح لنا من كتاب سعادة البشر ومالهم ورخاؤهم . وسلامه موسى هو أول مصرى تكلم عن أهمية الأرقام الاقتصادية فى تاريخ مصر والمصريين .

« أجل يا سادتى . لقد كنت أقرأ له بعض الأحايين مقالات عن القطن المصرى أو العامل المصرى ، والتعطل المصرى ، فيعترينى دوار ، يعترينى شى مكن عاش فى حلم فأفاق على حقيقة ، فأقطع المقال وقد خيل إلى أن عليه أثر العرق والتعب والدموع . أقطع المقال وأحتفظ به كما أحتفظ بتصيدة جميلة سأعود إلها مرة و اثنتين .

ثم فـــال:

أما أسلوب الحياة، فهو أول من جاء بهذا التعبير العجيب، أن الإنسان عليه أن يمارس حياته.

والواقع أن سلامه مارس حياته كما مارسها سقراط من قديم وأكاد أتخيله في الأزمنة الطاحنة التي يجتازها بهدوئه الممتاز، يتذوق كاسا مريرة ولكنها عذبة لنقسه مستساغة في يقينه ».

# الغفتل السادس

# على الغــاياتي

\_\_\_\_

اسم على الفاياتي و تاريخة جزء من تاريخ مصر الحديثة ، ومن هنا عرفت اسم، منذ شببت عن الطوق . فقد كان الفاياتي صاحب ديوان ه وطنيتي » و « ديوان وطنيتي » لم يكن مجرد ديوان شعر ، بل كان وثيقة من و ثاثق الحركة الوطنية ، فقد ضمنه ناظمه قصائد قالها في المناسبات السياسية الكبرى التي وقعت والحزب الوطني في أوجه ، و تأييد المصريين له ، في أعلى مراتبه . و قد كان الديوان بهذا وحده خليقا أن يثير من الاهمام الشيء الكثير ، ولكن محد فريد رئيس الحزب الوطني و خليفة مصطفى كامل كتب له مقدمة ، كما قدم له الشيخ عبد العريز شاويش بكلمة فزادت قيمته السياسية ، ثم رأت النيابة العامة أن في المقدمتين تحسينا لما في الديوان من الشعر ، وأن في شعر الديوان تحسينا لجرأتم بعاقب عليها القانون ، فقدمت مؤلف الديوان ، وكاتبي المقدمتين الى الحاكمة ، فحكم على محمد فريد في ٣٠ من يناير سنة ١٩١١ بالحبس ستة أشهر وحكم على الشيخ عبد العريز شاويش بالحبس ثلاثة أشهر ، أما الفاياتي ، فقد قرر أن بهاجر من مصر ، فحوكم غيابياً وقضى عليه بالحبس سنة .

ولما اتهم محمد فريد بعد ذلك فى قضية سياسية ثانية ، أدرك أصدقاؤه أن سلطات الاحتلال قررت أن تتعقبه بالأحكام: حكم وراء حكم ، حتى تحرمه من حربته وتحول بينه وبين الحياة السياسية ، فقرر أن يهاجر كذلك من بلاده . وتغير مجرى الأمور فى مصر بسبب هذه الهجرة تغيرا كاملا.

ولكنى لم أعرف على الغالمانى حتى عاد إلى مصر بعد أن اغترب عنها سبعة وعشرين عاما قضاها فى سويسرا و تزوج خلالها بسيدة سويسرية فاضلة ورزق منها بولد، وخمس بنات، وقد عادوا جميعاً إلى بلاده، بعد أن قبلت مصر فى عصبة الأمم فى يوم الأربعاء ٢٦ من مايو سنة ١٩٣٧، إذ خيل للغاياتى أن دوره فى أوروبا قد انتهى، وأن بلاده قد تكون فى حاجة إليه بعد تحربة طويلة شاقة فى الصحافة والسياسة، وبعد صلات واسعة مع زعماء العرب وزعماء الغرب، وبعد أن شهد أحداث الحرب العظمى الأولى العسكرية والسياسية، ثم ما تلاها من مؤتمرات ومعاهدات، كارأى نشوء عصبة الأمم وحضر مداولاتها، وسمع بأذنى رأسه أشهر خطبائها.

وفي هذه الأيام - أى في سنة ١٩٣٨ - فقط عرفت الغاياتي فأ دهشي أي رأيت مصريا قماً ، أو قل أزهريا نقياً خالصا ، لم يمح إقامته ربع قرن من الزمان بعيدا عن مصر في وسط أوربي ، ومع زوجة أجنبية ، شيئاً من سماته أو خصاله المصرية . فلا هو لوى لسانه بلكنة أجنبية ، ولا هو حرص على أن يدس في حديثه كلة فرنسية واحدة ، ولا هو انقطع عن الاستشهاد بالشعر العربي القديم والحديث ،حيما يقضي سياق الكلام . ولم يكن ذلك عن جمود أو يحجر ، فالغاياتي قبل أن يهاجر من وطنه ، كان شابا متقدما هاجم الرجميين من الأزهريين هجوما شديدا ، ودعا إلى تطوير الشعر ، وأظهر إنجابه بالأدب الفرنسي وترجم المارسين النشيد الوطني لفرنسا في مقدمة ديوانه ، كما ترجم شعرا وطنيا لفيكتور هيجو وعلق على هذا كله تعليقات ملؤها الإعجاب بالأدب الوطني الفرنسي . وملا هو امش هذا الديوان بكثير من الحقائق التاريخية التي تدل على سعة اطلاعه على التاريخ الأوربي ، ولكنه كان مواطنا بموذجيا ، يحب وطنه ، وبتعصب له ، ولكن لا يتعصب ضد غيره من الأوطان ، ويحرص وطنه ، وبتعصب له ، ولكن لا يتعصب ضد غيره من الأوطان ، ويحرص

على تقاليد أمنه حرصا لا يحول بينه وبين أن يفتح عقله وقلبه ، لتقافات الأمم الأخرى ، يغترف منها وينهل ، ولكن دون أن يفنى فيها ، أو يذوب .

وقد حدثنا الأستاذ أحد حسين الذي من في سسنة ١٩٣٥ بجنيف عن مكانة الأستاذ على الغاياتي في هذه المدينة التي كانت بحق عاصمة العالم الدولية فقد كانت مقر عصبة الأمم ، وكانت مدينة المؤتمرات العالمية ، لا ينفض فيها موتمر حتى ينعقد موتمر ، ولا يغادرها عظيم من رؤساء الحكومات أو وزراء الخارجية أو كبار الكتاب الدوليين ، حتى يفد عليها عشرات من هذا الطراز .

وكان الأستاذ احد قد أعد رسالة ليقدمها إلى سكرتارية عصبة الأمم ، فصحبه الأستاذ الفاياتي إلى مقر العصبة . فكان الغاياتي موضع الترحيب والإجلال من كل موظف كبير هناك ، وكان الناس يحيونه في الطريق تحية الحب والتقدير ... وما أن سلم الأستاذ الغاياتي هذه الرسالة إلى مندوبي وكالات الأنباء حتى نشرت في عشرات الصحف والجلات .

وقد حدثنا الكثيرون عن الغاياتي كيفكان يلتي المصريين في داره في جنيف، فيحتني بهم، ويسرف في الحفاوة، ويخدمهم ويتفاني في الخدمة، ثم لا ينفك يتحدث معهم عن مصر، ونيل مصر، وجو مصر، فإذا سمم غناء مصريا هطلت الدموع من عينيه على خديه كأنه طفل ذكر أمه، فاجتاحته نوبات الحنين.

وقد بدأ الفاياتي في ٢٣ من مايو سنة ١٩٥٢ ينشر ذكرياته في جريدة (منبر الشرق) التي أصدرها بعد عودته إلى مصر، في حلقات أسبوعية بلفت ستا وعشرين حلقة . وقارىء هذه الحلقات يحس كيف أن الفاياتي كانب خفيف الظل، تسرى في أسلوبه روح دهابة رقيقة ، قد تبدو للناس غريبة من رجل كان ديوانه يتفجر نارا وحما ، وهو يتحدث عن الاحتلال وأعوان الاحتلال وقد تبدو أغرب ، في أدب رجل كابد من الحياة ، أشد ما كابده الرجال في حياتهم العامة من وحشة الفربة ، وضيق الرزق ، وتجدد الأخطار ، وخيبة الأمل في الرجال والزمان و تقلب الصحب والإخوان .

والحق أنك كنت تلمح الحزن العميق في قسمات وجه على الفاياتي ، وتحس أنه يكظم ألمه ، ويحفى ضيقه وبرمه بالأيام ، ولكن ما يكاد يتكلم حتى ترى هذا الوجه الريفى بتقاطيعه الفليظة نوعا ، قد تكسرت جهامته إلى رقة ، فإذا سمعت قهقهاته القصيرة المتوالية ، أدركت أن وجهه لا يحسن التعبير عن إبحـان صاحبه ، وبعده عن اليأس ، وامتلاء قلبه بالأمل . وأنى لأشهد أنى رأيت الفاياتي ، بعد أن فقد ابنه الوحيد ، بعد إصابته برصاصة من بندقية طاشت من أحد زملائه في رحلة صيد في ناحية السويس ، فوجدته صابرا هادئا لا تدمع له عين ولا تصدر عنه آهة ، أو حركة واحدة من حركات الألم الذي لابد أنه كان يعتصره اعتصاراً ، ومضت الأيام تجمعنا سويا و نتعدث في الصغير والكبير من الأمور ، و نتبادل الشكوى من الصحب والزمان ، فلا يذكر ابنه لأنه لا يحب أن يظهر بمظهر الضعف ، ولا أن يجرح نفس صاحبه يذكر ابنه لأنه لا يحب أن يظهر بمظهر الضعف ، ولا أن يجرح نفس صاحبه وصديقه ، بكلمة شكوى لا يحتملها أو بدمعة لا يقوى على رؤيتها .

\* \* \*

قال الغاياتي في ذكريانه ، أنه ترك (دمياط) مسقط رأسه ، في أبريل سنة ٧٠٠ ا بعد أن بلغ الثانية والعشرين فقد ولد سنة ١٨٨٥، فاشتغل في جريدة أو مجلة الجوائب المصرية التي كان يصدرها الشاعر خليل مطران .

ولم ينقض على عمله في ( الجوائب ) إلا شهر أو بعض شهر حتى قامت فتنة

دبنية فى دمياط ، فلم يتردد الغاياتى الأزهرى الشاب، وهو بعد فى مطلع شبابه ، وفي المرحلة الأولى لعمله فى الصحافة ، فى أن يقف إلى جانب الرأى الحر ، الذى رآه على صواب ، دون أن يحفل أو يقيم وزناً لسلطان خصوم هذا الرأى .

وكان محور هذه الفتنة ، أن عالما أزهرياً في دمياط ، لعله كان مدرساً في معهدها الديني أعلن رأيه في صناديق النذور ، والتوسل بأرباب التبور ، ونني قول القائلين بالخطوة للأولياء ، أي نغي أن يكون ولى الله ، قادرا على أن يقطع المسافات في ثوان أو لحظات ، بين أقصى الدنيا وأدناها ، بلا طائرة أو صاروخ ويقول الفاياتي في هامش إحدى صفحات ديوان وطنيتي ، أن هذه الفتنة كاد يستفعل خطبها لتحريض العلماء الذين يصفهم هو ( بذوى الأفكار العتيقة البالية الجهلة ، والسفلة ) والذين يقول عنهم أنهم كانوا يعملون لإبذاء مخالفيهم من المصلحين . وأن هذه الفتنة رفع أمرها إلى مشيخة الأزهر ، وإلى الخديو ، فاستدعى العالم الحر من دمياط ، وحوكم أمام مجلس إدارة الأزهر ، وأصدر فاستدعى العالم الحر من دمياط ، وحوكم أمام مجلس إدارة الأزهر ، وأصدر من التحرر في التحرر من وبقطع مرتبه وجرايته سنة كاملة يقدم شيخ علماء دمياط في آخرها من التدريس وبقطع مرتبه وجرايته سنة كاملة يقدم شيخ علماء دمياط في آخرها شهادة المشيخة بحسن سلوكه .

### ثم يقول الغاياتى :

« وقد كنت إذ ذاك محرراً بجريدة الجوائب المصرية ، فقد تتبعت هذه الفتنة الشعواء ، وأخذت أكتب ، واستكتب غيرى من الكتاب منتصرين للحق محاربين الباطل فكان قولى ثقيلا على المبطلين فدبروا لى مكيدة تربحهم من سماع صوتى ، وتكون انتقاما منى ، وعقابا لى على حملتى التى شاركنى فيها كثيرون من مصلحى الأمة وفضلاً هما وأيدونى فى موقفى تأييدا عظيا ، أما هذه المكيدة فهى إدخالى الجيش بدعوى أننى عوفيت من القرعة العسكرية

لطلب العلم ولم أقض المدة القانونية بعد المعافاة بدون اشتفالى بحرفة سسواه ، فقدموا إلى الحربية مطاعمهم وأمطروا على إدارة القرعة رسائلهم ، وأخذ التحقيق دوراً يعرفه من يعرف قانون القرعة واستبداد رجالها وغلظتهم فكانت النتيجة أنى سجنت بقشلاق العباسية ( القشلاق الأحمر ) اثنى عشر يوماً من المنتجة ألى سجنت بقشلاق العباسية ( القشلاق الأحمر ) اثنى عشر يوماً من المنتجة ألى عمر سنة ١٩٠٧ تحت التحقيق ثم أطلق سراحى لأسباب قانونية بعد أن عرفت سوء الإقامة في الجيش المصرى وأسباب الفرار من وجهه ».

وقد نظم قصيدة فى هذه الفتنة لا تخلو من خفة روح على الغاياتى وميله إلى الدعابة ، فقد تحدث عن نفسه ، إذ سجن فى قشلاق العباسية ، بوصفه بطلا من أبطال الحرب فقال :

# أصبحت ( رب السيف والقلم ) الذى هزم العمـــاثم يوم أضحت لا تعى

ولكن روح الدعابة لم تحل بينه وبين أن يكون جريئًا وقاسيًا على دعاة الرجعية وإن كانوا من علماء الأزهر فى ذلك الحين الذى عمل الاحتلال والملكية ، على عزله عنسير الحياة ، وعن أداء رسالة الدين الإسلامى الصحيحة فقد قال فى موضع من قصيدته :

یاویل من عبدواالقبور وأشرکوا ورأوا من العلماء تآییدا لهم یا قوم إن أولئك العلماء فإذا أرادوا فالحلال ممنع فهلم ننبذ رأیهم ونری لنا ونشن غارتنا علیهم کلا

بالله بين توسل وتضرع فضوا وما فطنوا لغى مبدع قدجعلوا الشريعة سلما للمطمع أما الحرم فهو غير ممنع رأياً تنزه عن فساد المنزع شنوا علينا غارة المتجشع

حتى نردهمو إلى الإسلام أو نذر العمائم بالمقام الأشنع وهناك يصبح دين أحمد خالصا الله لا للأولياء الأربع ويشرح الغاياتي المقصود من ( الأولياء الأربع ) في الهامش فيقول مانصه :

« الأولياء الأربع هم السيد أحمد الرفاعى ، والسيد عبد القادر الجيلانى ، والسيد أحمد البدوى ، والسيد ابراهيم الدسوق رضى الله عنهم ، وهم الأربعة الأقطاب الذى يرجع إليهم الكون والتصرف فيه وكل ولى يستظل بلوائهم ، كذلك قال الجهلاء » .

وبهذه الصفحة المبكرة في حياة على الفاياتي ، يطالعنا على حقيقته ، ثائراً صادقاً لا تتفجر ثورته حيث تكسبه عطف العامة أو تأييدهم ، أو حيث يكون الصدام والصراع مع جهة حكم ، أو سلطان مكروه ، لا سند له إلا سلاحه وماله وهيلمانه . فليس أقسى على المجددين والثوار ، من أن ينازلوا قوة كساها الزمن وانحلال الخلق ، وفساد المقيدة قدسية زائفة عند عامة الناس . ففي معركة كهذه ، لا يضيع صوت الثائر فحسب ، بل يعتبر مارقا خارجاً على الأمة ، ويستباح دمه ، دون أن يظفر بكلمة إشفاق واحدة ، فيجتمع عليه ظلم صاحب السلطة ، وظلم العامة والشعب . ولذلك كان من الطبيعي ، أن يكون الحزب الوطني ، هو الحزب الذي يكسب ثقة على الفاياتي الشاب ، فلم يكن ممكناً لشاب في مثل الحزب الذي يكسب ثقة على الفاياتي الشاب ، فلم يكن ممكناً لشاب في مثل حاسته التي أغر ته بدخول معركة نحوفة ، كمركة فتنة دمياط الدينية ، أن يجد في أحزاب مصر في تبلك الأيام ، ما يشبع ميله الثوري ، وطاقته الإنفمالية بحد في أحزاب مصر في تبلك الأيام ، ما يشبع ميله الثوري ، وطاقته الإنفمالية ما يفوق الحزب الوطني في تطرفه ، بل إن العيب الذي كان يؤخذ عليه عند خصومه ، أنه يبالغ في التطرف إلى حد يعمي معه عن حقائق الحياة ، والواقع خصومه ، أنه يبالغ في التطرف إلى حد يعمي معه عن حقائق الحياة ، والواقع الذي لا سبيل إلى الغرار منه .

وقد عجل مزاج الفاياتي الثورى بالنتيجة الحتمية التي يقود إليها مسذا المزاج . فقد بدأ ينشر في اللواء – جريدة الحزب الوطنى – ثم في العلم بعد أن طوى اللواء ، قصائد نارية ، لا يهاب فيها لا جانب الاحتلال ، ولا يقيم وزنا لقام الحاكم أو القضاة . ولا يجامل فيها أصحاب المقامات الأدبية كشوق شاعر الأمير في ذلك الحين ،، قبل أن تعقد له إمامة الشعر ، ولا شيوخ الأزهر هو منهم .

والأشعار والأقوال حيمًا تأتى متفرقة ، يخف وقعها أما إذا جمت في كتاب ، أيدت بعضها بعضا ، وخرجت منها جميعاً صورة أقوى في النفس ، ولذلك ما كادت قصائد الغاياتي تجمع في ديوان ( وطنيتي ) حتى بدا للعكومة أنها أمام قذيفة مركزة من التحريض على الاحتلال ، وأنها حملة إثارة وإهاجة ، إن لم تعالج في بدايتها استشرى خطرها ، واستحال القضاء عليها ، ولذلك بدأت الحملة على ديوان وطنيتي وكل ما اتصل بهذا الديوان كأعنف ما تكون الحملة في على محمد فريد والشيخ شاويش وعلى الغاياتي بالمبس مددا تتراوح بين السنة وثلاثة شهور ، ولعل هذا أول كتاب في مصر بحر ثلاثة ألى السجن ، وبؤدى إلى هجرة اثنين منهما ، عن الوطن ، هجرة طالت حتى مات خلالها أحد الإثنين المهاجرين ، دون أن يرى وطنه ولا أهله ، وبني فيها الثاني حياة جديدة كاملة خارج بلده ، تكلم فيها لغة غير لغته ، وتزوج سيدة من غير جنسه ودينه ، ونشأ أولاده وكبروا ، دون أن يتحلملها لغة غربية عنهم مستعصة إذاعادوا إليها عادوا كبارا ، فتعلموها كما يتعلم الأجانب لغة غريبة عنهم مستعصة على ألسنتهم .

ويروى الغاياتي قصة ديوان وطنيتي فيقول أنه فرغ من آخر قصائد هذا الديوان في يوم الجمعة ٢٤ من يونية سنة ١٩١٠ ــ ولما كان طبع هذا الديوان

في مطبعة مصرية ، يعرضه للمصادرة ، وهو بعد أصولًا لم تجمع حروفها ، فقد فهد مطبعة يملكها فرنسي اسمه (كستيولا). وقد كان الأجانب يومذاك غير خاضمين لتفتيش البوليس المصرى ، إلا إذا أذنت القنصلية التي يتبعها هؤلا. الأجانب ، وكان استصدار الأذن من القنصلية يسمح باخفاء جسم الجريمة وأثرها وتم طبع الديوان دون أن يصادر ، وكان عدد النسخ المطبوعة ألف نسخة . وقد حدث أن رأى الأستاذ سليان فوزى الذي أصدر مجلة الكشكول، بعد ثُورة ١٩١٩ ، الديوان في يد الغاياتي ، فسأله لماذا لم يهد نسخة منه إلى الشيخ على بوسف صاحب جريدة المؤيد ليقرظه ويعلق عليه ، وكان الأستاذ سلمان بمل في المؤيد، ثم صحبه إلى مكتب الشيخ على يوسف، حيث أهدى الفاياتي إليه نسخة ، ولكن ما كاد الشيخ يطلع على الديوان حتى جرد عليه حملةضا, ية وكأنه كان يكتب قرار الاتهام ضد الديوان وصاحبه . وكانت المؤيد ، تنافس اللواء جريدة الحزب الوطني ، وتتهم الحزب والجريدة بالتطرف المجنون ،وتلقت الحكومة هذه الحملة بصدر رحب، فأخذت تبحث عن الديوان في كل مكان تعلم أنه موجود فيه وعلم الغاياتي أن أمرا باعتقاله قد صدر ، ونصحه بعض الأصدقاء، بان يفر إلى تركيا، فاستمع إلى نصيحتهم ، وهاجر هـذه الهجرة الطويلة التي حدثتك عنها . عقد الغاياتي عزمه على السفر إلى تركيا ، ولم يكن يحمل جواز سفر يا ذن له ممفادرة مصر ، ولا بدخول تركيا ، ولـكن لم يكن مثل هذا الجواز ضروريًا في تلك الأيام . وساقت الأيام للغاياتي ضابطا تركيا ، كان في رحلة صيد في السودان ، عاد منها ، بعدد من النسانيس ، فلزم صحبته حتى وصل إلى استنابول ، ودخلها في حمايته .

وصف أحد أصدقاء الغاياتي اليوم الأخير له في القاهرة قبل الهجرة وهويوم من يولية سنة ١٩١٠ فقال أن الفاياتي ذهب إلى شقته بالمنزل رقم ٨ بحارة (م ٢٠ \_ عصر ورجال) سليم بك للتفرعة من شارع الشيخ ريحان بعابدين ، فجمع أثاثه منها ، وأخذ ما يلزمه من ملابس ، وكتب ، ولكنه بدل أن يأخذ الخفيف من المتاع الذي لاغنى عنة أخذيكوم كل ما فيها من أشياء لا قيمة لها ، متمهلا متا أنيا وكأنه ذاهب إلى رحلة للاستجام والترويح ، وكانت نفسه تنازعه فى أن يحمل معه كل ما فى الشقة حتى الحصيرة والمرتبة ، وصديقه يستحثه ، ويحذره من الخطر الذي ينتظره إن لم يسرع بالنزول والغاياتي لا يلتفت إلى هذا التحذير إذ لم يخرجه من هذا التلكؤ ، إلا أن صديقه لمح مأمور قسم عابدين قادما من بعيد فى عربة (حنطور) ، متجا إلى حيث منزل الغاياتي ، فأسرع الغاياتي يحمل فى يده (صرة) ثقيلة حوت من الملابس والكتب ما فوق الحاجة ، ورأتهما صاحبة النزل ، وها يهرولان ، فسألت عن الخبر ، فقالا لها ، أنهما مسافران الى دمياط فاخذت تشيعهما بالدعوات الصالحات .

وقطع أحد أصدقاء الفاياتي تذكرة سفر الى الأسكندرية ودخل بها الى القطار ، بينا دخل الفاياتي بتذكرة مقابلة ، وركب الفاياتي القطار فإذا به يجد في نفس الديوان الضابط التركي الذي تحدثنا عنه ، وقد نزل معه في فندق واحد بالأسكندرية قبل أن تقلع الباخرة ، وركباها سويا ، ولما وصلت الى استانبول هبط منها الضابط التركي والفاياتي في أعقابه ، فلم يعترضهما الموظفون المكلفون بحراسة الميناء ، وكان الفاياتي قد قال للضابط التركي أن اسمه (على محمود) ولكن هذا الأخير كان يناديه طو ال الرحلة بمحمود صالح أفندي ، فلما وصلا الى استانبول قال الفاياتي للضابط ، أنه أخفى عنه حقيقة أسمه لأنه كان فاراً من وجه السلطات البريطانية ، وأن أسمه هو على الفاياتي فضحك الضابط طويلا وأخذ يتحاذب معه اطراف العديث فلما استا ذن منه للانصراف وقف يودع الفاياتي وهو يقول له : « مع السلامة محمود صالح افندى ! ».

ترك الغاياتي مصر ، والحكومة لاتدع مكانا نظن أن فيه نسخة من دبوان وطنيتي ألا وتقلبه رأساً على عقب ، فارتفع لذلك ثمن النسخة من خسة فروش الى مائة قرش ، ومع ذلك لم يصل الى يد الغاياتي الاستة جنيهات حملها إليه في استانبول أحد أصدقائه الذين وفدوا إليها من القاهرة .

ولما استقر به المقام في استانبول سمع أن محكمة الجنايات حددت لحجا كمته ومحاكة زميليه محمد فريد وشاويش يوم ٢٠ من يونيه سنة ١٩١١ ، وكانت جنح النشر والصحافة تنظر أمام محكمة الجنح ، إلا أن الحكومة عدلت القانون وجملت الاختصاص في نظر قضايا الصحف جميعا ولوكانت جنحا لحكة الجنايات، وكان أول تطبيق لهذا التعديل في قضية ديوان وطنيتي . ولما كان فريد بك غائبًا في أوروبا أثناء نظر الدعوى ، فقد قرر أن بعود إلى مصر ليواجه المحاكمة ، فمر باستانبول في طريقه إليها ، فذهب الغاياتي لقابلته ، وعرض عليه أن يعود معه ، لو رأى أن حضوره المحاكمة بما يحسن مركزه ، أو يخفف مسئوليته ولكن فريد رفض هذه الفكرة ، فبقى الغاياتي في استانبول . ويذكر أنه كان في زيارة لفريد بك بنندق ( تاكوتليان ) الشهير باستانبول فدخل بعض الضباط الشبان في الجيش التركي ، فقدم فريد بك أحدهم إلى الغاياتي وهو يقول: « عزيز على المصرى » . وكانت هذه أول مرة يرى فيها الغاياتي الضابط المصرى عزيز المصرى ، الذي عاد إلى مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وأسند إليه قبيل الحرب العالمية الثانية منصب رئيس أركان حرب الجيش المصرى.

ومن ذكريات الفاياتي في استانبول أن أحد نواب البرلمان التركى كان بصدر جريد يملؤها بالطمن المرعلى المرب، وقد كان الشاعر المربي المراق ممروف الرصافي من كتاب هذه الجريدة ، وقد وقع نظر الفاياتي على قصيدة لمعروف

في هجاء العرب يقول فيها عنهم : « فما يبالون إن قالوا ، وإن ضرطوا » وأغلب الظن أن الرصافي حينًا عاد إلى العراق ، كتب القصائد الطوال في مدح العرب وهجاء الترك .

وقد طابت الاقامة للفاياتي في استانبول واشتفل في احدى صحفها العربية ، ولكنه اعتزم السفر الى جنيف ، لأنه سمع من محمد فريد ، أن بها عدداً غير قليل من شباب العرب وفدوا اليها من أقطار عربية مختلفة وأمهم في حاجة الى من يدرس لهم اللغة العربية ، ولما تهيأ للسفر الى جنيف اهتم بتملم اللفة الفرنسية وكان قد بدأ يتلقى بعض دروس فيها في مصر ، في مدرسة أنشأها الشيخ شاويش ليتعلم فيها الشبان الأزهريون هذه اللغة ويلموا بشيء من ااثقافة الحديثة فلما هاجر الفاياتي إلى استانبول استأنف دروسه في الفرنسية على بد اللافتات ، وفي هذه الفتره وصل محمود عزمي الصحفي المصري المعروف إلى استانبول والتق بالفاياتي وغيره من الشبان المصريين اللاجئين إلى استانبول ويذكر الفاياتي أن عزمي — وكان إذ ذاك طالباً في باريس — أطلعه واخوانه في قهوة مسرة باستانبول على خطاب بالفرنسية ورد له من خطيبته التي تزوج منها فيا بعد ، واعتبر الفاياتي الاستماع إلى هذا الخطاب درساً في الفرنسية .

وفى يوم ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩١١ غادر الغاياتي استانبول إلى جنيف ، مارا بفيينا .

ومن طريف ذكرياته الأولى فى جنيف أنه بعد أن خلع الزى العربى ، وارتدى القبعة والبذلة ، أراد أن يسجل لنفسه صورة بالعامة والجبة والقفطان توديعاً لزيه ، فذهب إلى أحد المصورين بهذا الزى ، وتصادف أن السويسريين كانوا يحتفلون بأحد أعيادهم القومية ، ويسمى عيد النسلق ، وهو عيد بلبس

فيه السويسريون ملابس تنكرية ، فظن أطفال جنيف ، أن الفاياتي يشارك في هذا العيد بهذا الزى الغريب، فالتفوا حوله ، وأخذوا يشيرون إليه مبتهجين ضاحكين ، وهو يحسب أنهم يضحكون من عمامته ، وجبته ، وهم في واقع الأمر ، معجبين باختياره زيا لم يفطن أحد إلى ارتدائه .

وكان أول ما انجه إليه اهتمام الفاياتي هو البحث عن الشبان العرب الذين قال عنهم فريد أنهم كثيرون في لجنيف وأنهم في حاجة إلى مدرس في اللغة العربية ، فلم يجد لهم أثرا ، فاضطر إلى عرض نفسه على إدارة معهد (لانس) لتعليم اللغات ليعلم به العربية لمن يحب أن يتعلمها من السويسريين والأوربيين الآخرين . وفي هذا الوقت ، كان الخديو عباس قد عزل عن عرش مصر ، ونشر في الصحف أن ولديه عبد المنعم وعبد القادر سيفدان إلى جنيف وسيلحقان بمعهد (لانس) فيها . وفي ذات يوم كان الفاياتي في أحد أبها . هذا المعهد ، فلقي شابين مصريين فوقف يتجاذب معهما الحديث فقال أنه سمع أن ولدي الخديو سينخرطان في سلك هذا المعهد . فأمن الشابان على هذا القول فتساءل : الخديو سينخرطان في سلك هذا المعهد . فأمن الشابان على هذا القول فتساءل : متى ياترى سيحضران ؟ فقال أحدها ، : أنهما حضرا إلى المعهد بالفعل . فقال الفاياتي وأين هما الآن لأراهما ؟ فقال الشاب « أنهما معك ، يتحدثان إليك » .

\* \* \*

بدأ الغاياتي منذ إقامته في جنيف في مراسلة جريدة الحزب الوطني منها ، مقابل ثلاثة جنيهات في الشهر كانت تعينه \_ لو استمرت \_ على تكاليف الحياة هناك حتى يجد عملا ، ولكنه لم يتلق سوى مرتب شهرين اثنين ، انقطع بعدها وروده إليه . فلما علم سبب ذلك ، حزن حزناً شديدا فقد عرف فيما بعد أن أحد الأشخاص اقترح للدفاع عن محمد فريد أن يقال أن الغاياتي كان مدسوساً عليه

من الحكومة . والظاهر أن هذا الاقتراح الطائش ، وإن كان قد رفض إلا أن الألسن تداولته ، وفى ظل هذه البلبلة التي أحدثها ، رؤى أن يقطع ملة جريدة الحزب الوطنى بالغاياتي . وهكذا يساء إلى الأبرياء ، برعونة البلهاء .

إلا أن الفاياني استطاع أن يحصل على قوت يومه بندريس اللغة العربية لبعض الشبان المصريين والعرب القليلين الذين كانوا يطلبون العلم في جنيف ، ثم بدأ يعمل في الصحف السويسرية مترجما ثم كاتبا . فعمل في أكبر صحفها مثل (تربيون دى جنيف) و (جورنال دى جنيف) و (لاسويس) ثم راسل جريدة (جازيت دى نوزان) وقد انتهى به الأمر إلى أنه أصبح يتقاضى من التربيون دى جنيف مرتباً شهرياً قدره ٣٠٠٠ فرنكا ، بعد أن كان يتقاضى مكافآت عن القطع التى يقدمها

ولكن لما قامت الثورة المصرية في سنة ١٩١٩، وأخذ الغاياتي يدافع عنها ويدعو لها ، قل ما كانت تنشره الصحف السويسرية له ، فاضطر إلى إصدار جريدة لحسابه الخاص اسماها (لا تربيون دوريان) أي (منبر الشرق)، وكان المرحوم رياض الصلح رئيس وزراء لبنان بعد الحرب العالمية الثانية قد اقترح عليه أن يسميها (الترببور آراب) أي (منبر العرب) ، ولكن الغاياتي آثر أن تكون جريدته لسان حال حركات التحرر في الشرق كله .

وقد كانت جريدة (تربيون دوريان) تجربة فريدة فى تاريخ الصحافة ، فكانت تصدر فى أربع صفحات: ثلاث منها باللغة الفرنسية ، والرابعة بالعربية ولما لم تكن هناك فى جنيف مطبعة عربية فقد كان للفاياتى يكتب هذه الصفحة من أولها إلى آخرها بخطه ثم تحفر على الزنكوغراف ، فاذا وقع فيها خطأ واحد ، لم يشطبه بل يعيد كتابه الصفحة من أولها إلى آخرها ثانية ، ولكن هذا المجهود أضناه ، فاشترى حروف مطبعة عربية ، وتعلم صف الحروف ،

وتولى بنعسه جمع حروف هذه الصفحة ، ولكنه لم يجد لهذه الصفحة العربية التي كانت تتقاضاه من الجهد ، مالا تتقاضاه الصفحات الثلاث الأخرى ، صدى عند العرب ، فمدل عن تضمين جريدته هذه الصفحة العربية ، وأخذت الجريدة تصدر بالفرنسية كلها .

وقد صدرت جريدة (تربيون دو دوربان) في يوم الأحد ٢٥ من فبراير سنة ١٩٣٧، واستمرت تصدر في انتظام عجيب حتى يوم الأربعاء ٢٩ من مايو سنة ١٩٣٧، وسط صعوبات مالية وسياسية فوق كل تصور، صد لما الفاياتي في استبسال وصبر جديرين بكل إعجاب، وإن لم يظهر من مواطنيه بالتأييد والمعونة، في وقت كانت البلاد في أشد الحاجة إلى مثل هذه الجريدة التي سما بها صاحبها فوق الحلافات الحزبية، لتبقى خالصة للوطن، لا تعرف إلا مصر، ومصلحة مصر.

ولما انقضت ثلاث سنوات على الحكم الصادر ضد الفاياتي وسقط بانقضائها ، بدا له أنه يستطيع أن يسافر إلى مصر ، فعرض على بعض الصحف السويسرية أن يكتب لها تحقيقا صحفياً عن الحالة في منطقة قناة السويس ، وكانت ميدانا هاما من ميادين القتال في الحرب العالمي الأولى ، فرحبت تلك الصحف بذلك الاقتراح ، فاستأذن الفاياتي في الدخول إلى مصر ، فأذنت له السلطات بذلك . فسافر إليها في ١٥ من يوليو سنة ١٩١٥ ولما وصلها ، زار من يعرف من كبار الشخصيات وكانوا آنذاك يقضون الصيف في الاسكندرية ومن هؤلاء محمود باشا شكرى رئيس ديوان السلطان حسين كامل الذي ارتقى عرش مصر ، بعد عزل الخديو عباس ، كا زار أحمد زكى باشا الذي عرف فيا بعد مصر ، بعد عزل الخديو عباس ، كا زار أحمد زكى باشا الذي عرف فيا بعد باسم (شيخ العروبة ) وكان سكر تيرا عاماً لمجلس الوزراء ، ولكن الفاياتي بعد أن استمتع بالحرية سبعة أيام ، ملا خلالها صدره من هواء بلاده ، ورأى

مواطنيه ، صدر أمر باعتقاله وإرساله مقبوصا عليه من الأسكندرية إلى القاهرة ليقابل رئيس الوزراء حسين رشدى باشا ووضعوه فى حراسة نحبر من رجال البوليس السرى ، لم يكن يعرف القاهرة ، فتولى الغاياتي ارشاده الى ديوان المحافظة . ولما قابل رئيس الحكومة فهم منه أن المعلومات التى وصلت إليه تؤكد أن الغاياتي جاء الى مصر ليدبر دسائس لحساب الخديو ، فأخرج من مصر ، وهو لا يدرى لماذا سمحت له السلطات البريطانية بدخول مصر اذا كانت تشك فى نواياه ، ولماذا أبقته طليقاً سبعة أيام ، ثم اعتقلته ، ثم رحلته الى الخارج . والطريف أنه حيا أعيد الى الأسكندرية توطئة لترحيله منها ، أودع أيضاً فى حراسة بوليس سرى لم يكن قد عرف الأسكندرية من قبل ، فتولى الغاياتي مهمة ارشاده فيها، كا تولى ارشاد زميلا له من قبل عندما أرسل الى العجيبة ، وكنا نظنها وقفا على أيامنا ، فاذا ذكريات الغاياتي تثبت أن البوليس المصرى تقع فى أيامنا فى مثل هذه الحاقات المعجيبة ، وكنا نظنها وقفا على أيامنا ، فاذا ذكريات الغاياتي الى جنيف حل على حسين في مصر كان هو هو فى كل عهد . ولما عاد الغاياتي الى جنيف حل على حسين رشدى رئيس الحكومة حملات شديدة ، فأرسل اليه يقول له : « ان صدرى معرض للرصاص ، فلا تهمنى حملات الأقلام » .

ولما قابل الفاياتي حسين رشدى قال له أن المصريين يتهمونه بأنه خان ولى نعبته الخديو عباس ، فقد تعاون مع الإنجليز الذين خلعوا هذا الخديو ، وهو غائب عن البلاد ، يبنا كان هو قائمقام هذا الخديو ، أى نائبه ووكيله ، وأنه أوعز للخديو بعدم العودة الى مصر من مصيفه فى استانبول حتى يضع فى يد الإنجليز سبباً لعزله باتهامه بأنه انحاز للاتراك خصوم الإنجليز ، فنفى حسين رشدى عن نفسه هذا الاتهام ، وقال أن الخديو رفض من تلقاء نفسه العودة الى مصر بغير ايعاز منه فقال له الفاياتى : ها أنت ذا ترى أنك نتهم بالباطل ، فنغضب لهذا الاتهام ، وأنت تصدق ماينسب الى من تهم بلا سند ولا دليل .

عاد الغاياتي إلى مصر ، فاتصلت بيني وبينه الأسباب ، وقد كانت أولي للناسبات لاتصالى به،أنه احتاج إلىمشورتى ومعونتي كمحام في شأن نزاع قضائي، قام بينه وبين تاجر الأثاث الذي اشترى منه ما احتاج إليه ليؤسس به شقته في عارة عرى الكائنة في ميدان الاسماعيلية ( التحرير ). ولست أنسي أن محامی تاجر الموبیلیات ، کان بقلبه مع الغایانی ، وفعل کل ما یستطع لیریحه ويطيب خاطره ، وبدا الغاياتي في الجلسة التي أتممنا فيها الصلح في هذا النزاع البسيط، كأطيب ما يكون الرجل، وكأكثر ما يكون سذاجة ، فقد أخرجه الفضب لحظة فهدد التاجر بأنه سيتجه إلى الله ، ويدعــو عليه ، لأنه لا يراعي ظروفه . وقد نظرت ساعتها إلى وجه الغاياتي ، وأنا أعجب أن يكون هــذا كلام رجل عاش كل هذه السنين في أوربا ، وأن تعجز تجاربه السياسية والأدبية خصائصه وصفاته . نظرت إلى وحهه ، فكا نى أمام طالب أزهرى قادم لتوه من الريف . ولما استقر به المقام في وطنه ، وأخرج جريدة ( منبر الشرق ) بالعربية في السادس من مايو سنة ١٩٣٨ ، كانت هذه الجريدة نموذجا فريدا بين الصحف كزميلتها «لاتربيون دو وريان الفرنسية». فقد احتلت شقة رطبة معتمة نوعاً ، وكانت أرضيتها من البـــلاط الذي يبعث في الشتاء برودة قارصة تسرى في جسم الإنسان فيتثلج لها. ولكن مع ذلك كانت هذه الشقة نظيفة منظمة ، فقلم الغاياتي على الحبرة في وضع ثابت ، والحبرة فوق المكتب الصغير في مكان محدد ، والكرسي من المكتب على مسافة لا تتغير . والمكتب م تب، لا تجد فيه ورقة ، ولا حتى رماد سيجارة ، ولا تراب تخلف من حذاء إلا أن يكون من حذاء ضيف لم يتأدب بأدب ندوة الغاياتي ، فينظف نعليه على المسعة الوضوعة على العتبة. في هذا المسكتب الصغير، استقبل الغاياتي عدداً كبيراً من زعماء الشرق: عرب ومسلمبن ، من الهند والمغرب ، من أندو نيسيا والصين ، وكان سكرتير الغاياتي الذي يعينه في عمله ، ويفتح له بريده ، ويرد على مكالمات النليفون ، ويفتح الباب للضيوف ، ويقفل الباب وراءم همو الغاياتي نفسه . فلم يعنه في كل مهام الصحيفة إلا شاب سوداني اسمه (ميرغني) أخلص للغاياتي ولكن كان أكثر عمله خارج المكتب في تحصيل الاشتراكات وإرسال البريد .

أما جريدة منبر الشرق فقد كانت آية من آيات الصحافة . لم تتأخر عن الصدور يوماً ، ظهرت في موعدها من كل أسبوع ، وكان هذا معجزة من معجزات الغاياتي . فقد كانت ضائقته المالية منذ عاد إلى مصر ، مستحكمة متصلة ، لم تنفرج يوماً . وكان يتوقع في كل أسبوع ، بل كل يوم من كل أسبوع أن تتوقف الجريدة عن الصدور ، وكان بعلن عن ذلك في أكثر الأعداد ، ولكن رحة الله لم تتخل عته قط ، فواصلت منسبر الشرق حياتها حتى أنهت حياة صاحبها .

فإذا تصفحت الجريدة راعك أنها لم تحو خطأ مطبعياً واحداً ، أو خطأ نحوياً واحداً ، أو خطأ نحوياً واحداً ، أو خطأ خلقياً واحداً : لم تسب أحداً ، ولم تنهجم على أحد ، ثم لم تنحز إلى زعيم ولا إلى حزب ، ولا إلى جماعة وقد كان الضيق المالى الذى تعيش فيه ، يدفع صاحبها دفعا إلى أحضان ذوى النفوذ وأصحاب الأموال ولكنه لم يفعل .

وضع الغاياتي تحت اسم الجريدة هذين البيتين :

باسم الكنانة واسم شعب ناهض لا بلمسم أحزاب ولا زعاء كل يزول وينقضى إلا الحى فوديعة الآباء للا بناء وقد التزم معنى هذين البيتين نصاً وحرفاً ، روحاً ومعنى .

فاذا ذهبت الى الفاياتى فى يبته ، وجدت شقة أنيقة نظيفة ، بسيطة الأثاث ووجدت الفاياتى هو الذى يفتح الباب ، وهو الذى يحضر اليك القهوة أو الرطبات بيده . وقد حدث أن اتصلت به تليفونيا فى ثلاثة آحاد متوالية بطريق الصدفة ، فلما انتبهت إلى تلك المصادفة ، آليت على نفسى أن يكون الأحد من كل أسبوع موعدا لحديث معه فى التليفون أو زيارة فى البيت، وكثيرا ماتناولت طمام الغداء عنده على ماثدته فى أيام الأحاد ، وقل أن تناول عندى غداء ، أو شرب كوبة ماء .

لاأذكر أنى رأيت الغايانى ثائرا يوماً ، ولا غاضبا ، ولا متذمراً ، ولامتخمما ، ولا أذكر أنى سمعت منه كلة نابية ، وعلى كثرة ما اجتمعت عليه أزمات كانت خليقة بأن تتحدى حلم الحليم وتفسد طبعه .

وفى أخريات أيامه ، أراد ان يصل ما انقطع ، وأن ينتهى من حيث بدأ فعاد الى العامة، وعاد يتشدد معزوجته السويسرية تشددا فات أوانه ، فاضطر الى الزواج من سيدة مصرية ، فأغضب ذلك بناته وأحزنهن غاية الحزن .

وقد عوض هذا الرجل الصابر خير عوض عما لقيه من شظف الحياة وضيق الرزق، فقد حقق له أمنيته، اذ تزوجت كل بناته بمصريين نابهين موفقين، منهم من وصل الى منصب الوزارة، ومنهم من أفاء الله عليه رزقاعيما، وقد كان رجل في مثل فقر الغاياتي و ابتعاده عن المجتمعات، وقلة صلاته بالناس، خليقا بألا يوفق الى مثل هذا الحظ السعيد، الذي يفرح به كل والد مهما كان جاهه و حظه من المال.

حرر الفاياتي مقالاته بالدربية والفرنسية ما يملا كتبا ، تفيض بعلمه ، وتنضح بأدبه ، وتزدان بأسلوبه الأنيق ، وعبارته الرشيقة المحكمة ، التي لا تعرف الإسراف في شيء : لا في اللفظ ، ولا في الزخرف ، ولا في العاطفة . فهذا الثائر في شبابه ، اعتدل في كهولته وشيخوخته وأن بقى كأكثر ما يكون الثائرون وفاء للعقيدة ، وإخلاصا للمبدأ .

والذي يفرأ ديوان (وطنيتي) قد لايجده كله شعرا من طراز رفيع، ولكنه يحد فيه إلى جانب ذلك وطنية يحد فيه إلى جانب ذلك وطنية نقية ، وعقلا متحررا ويجد في هوامشه و تعليقاته الكثير من الحقائق التي تؤرخ المصر الذي ظهر فيه « وطنيتي » .

فنى ديوان وطنيتى مديح لمصطفى كامل وهو على قيد الحياة ، ورثاء له له حيمًا لحق بالرفيق الأعلى ، ومديح وثناء على محمد فريد ، بعد انتخابه رئيسا للحزب الوطنى ، ومديح للشيح شاريش بمناسبة اتهامه فى إحسدى القضايا ثم عند الحسم عليه ، ثم عند الافراج عنه ، ثم عند منحه (وسام الشعب) الذى اكتتب المصريون بثمنه ، وقلدوه إياه عندما خرج من السجن .

ترى وصف هذا الوسام فى أحد هو امش الكتاب جاء فى هذا الوصف: « جاء هذا الوسام آية من آيات الوطنية الدالة على فضل الأستاذ بأجمل معنى وألطف شارة . وهو مولف من ثلاث قطع ذهبية نقش على الأولى رسم الأهرام ، وكتبت تحت الرسم هــــــذه العبارة تذكار الشعب إلى الشيخ عبد العزيز جاويش اعترافا بوطنيته الصادقة » والثانية وهى أكبرها حجما رسم عليها نبات كان يتخذه القدماء رمزا للفوز والنصر ، ونقشت فيها هذه الآية الكريمة « ولنبلون محتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » والثالثة هلال فى وسطه ثلاثة نجوم وقد شبكت هذه القطع الثلاث بوشاح

من الحرير الأحمر والأبيض مرصعة كل واحدة منها بالأحجار الكريمة ترصيما جيلا. »

وقد قلد الشيخ شاويش هذا الوسام فى حفلة كبيرة أقيمت له بفندق شبرد في يوم الأفراج عنه في ٢٦ من توفير سنة ١٩٠٥، فنظم الفاياتي في هذه المناسبة قصيدة بعنوان ( الوسام بعد السجن ) قال في مطلعها :

عاد إلى القلم المشهود سيرته

ولاح بدر اللوا من بعدما احتجبا تجلو بشاشته الآلام والكربا

وهكذا إذا تابعت قصائد الديوان ، قصيدة قصيدة ، وقرأت هوامشه ، هامشا بعد هامش، اكتملت لديك صورة كاملة للعهد الذى ظهر فيه هذا الديوان صورة شعب يناضل من أجل إجلاء الانجليز عن أرضه ، بقله ولسانه ، ويتحفز لقتال أشد ضراوة في سبيل نفس الفاية ، ومن أجل الدستور ومن أجل مزيد من الحريات الداخلية ، وإصلاح الحكم ، والضرب على يد المفسدين والحكام الذي يبعثرون أموال الدولة على أنفسهم ويفترفون منها بلا حساب ، ومن أجل نشر التعليم والعناية بالصحة ، ورفع مستوى التلاميذ والعال ، وإشراكهم في شئون بلادهم إشراكا فعلياً .

وقد يطول بنا الحديث إذا وقفنا أمام قصائد الديوان وهوامشه، على الرغم من أنه ديوان صغيرا لم تزد صفحاته عن ١٣٥ صفحة من القطع الصغير، ولم تزد قصائده عن مائة بعضها لا تزيد أبيانه عن الأربعة .

ولكن في مقدورنا أن نمر سريعاً على القصائد والهوامش ، لنعرف ماذا كان يساور وجدانه ، بوصفه شابا من شباب عصره . وقدأحس هو بدوره في

صوغ هذه القصائد وفي تجميعها فقال :

ه أرانى فيا نظمت ناطقا فى أكثر المواضع بلسان الرأى العام ، ممثلا شعور الأمة أقرب تمثيل ، بيد أنه قد يدفعنى شعورى الخاص فى بعض المواقف إلى الجمر بما لا يحب الجمر به بعض الناس وذلك لأننى لا أستطيع حكم عواطنى كثيرا فى مثل هذه الشئون المثيرة للوجد الكين للعلنة للسر المكنون ٤٠.

وقد أعلن الغاياتي في مقدمة ديوانه أنه شغل في أول عهده بنظم الشعر بموضوعات لا خير فيها للبلاد ولا ذكر للأمة والوطن ، وقد علل ذلك بأنه ولا في مدينة دمياط ونشأ فيها بين قوم كرام غير أنهم (محافظون) « يعبدون الحكام كانهم آلمة يحيون ويميتون ، ثم لا يكادون يذكرون الوطن والوطنية على الإطلاق ، لقد بقيت فيهم حتى ناهزت الثانية والعشرين من العمر ثم غادرتهم آمغا مسرورا ميما القاهرة (يوم الجيس ٤ أبريل ١٩٠٧) على أنهم لا يزالون إلا قليلا من نشئهم المأمول من أبعد العباد عن ذكر البلاد » .

فالفاياتي لا يرى في الشعر إلا أداة من أدوات الكفاح الوطني ، ولذلك ترى استجابته للا حداث استجابة برقية ، فلا يكاد الحدث الوطني يقع حتى يفيض شعره . أعلن الدستور العثماني في يوم ٢٤ من يولية سنة ١٩٠٨ فنظم في الحال قصدة :

ويصرح شوقى الشاعر ، بلسان الخديو عباس ، فى حديث له مع جربدة المؤيد ، بأن الخديو لا يستطيع أن يعلن الدستو إلا بإذن الإنجليز ، فيعاجله بقصيدة يقول له فيها :

يا شاعر الأمير ويحك هل ترى في النثر ما في النظم من خطرات إلى رأيتك في حديثك شاعرا لكن خيالك زائغ النظرات

ويتورط أحد زكى باشا (شيخ العروبة) فى كلة يغمز بها الحزب الوطنى فيحمل عليه الوطنيون فيمتذر عن هذا الخطأ ويصفه أنه من فلتات اللسان، فيمرك الغاياتي أذنه فى نفس القصيدة التي يعاتب فيها شوقى ، ويختتمها ببيت يقول فيه.

فعلیك إصلاح الحدیث فانه عندی أشد أذی من الفلتات و یعنی بالفلتات هنا ، فلتات لسان أحمد زکی .

ويضرب طلبة الأزهر احتجاجا على عدم قبول بعض طلباتهم ويستقيل الشيخ حسونه النواوى شيخ الجامع الأزهر من منصبه لما لقيه الطابة الأزهر بون من سوء معاملة بلغت حد جلد بعضهم فى قبلة مسجد الأزهر بأمر من رئيس ديوان الأوقاف خليل حماد باشا فيكتب قصيدة نارية يقول فيها:

ويصدر قانون المطبوعات المفيد للحرية ، في عهد وزير الحقانية سمد زغلول فيقول:

لئن قيدوا من اليراع وأوثقوا لسانى فقلبى كيفها شئت ينطق فلا يأمنوا تلك القلوب فانها دماء أراها أوشكت تتدفق

ويميل الخديو عباس إلى الإحتلال بعد سياسة الوفاق التى أقامها السير ( الدون جورست )بمدسياسة الشدة التي كان ينتهجها اللورد كرومر ، فلا يتردد

الفاياتي في أن يوجه إليه قوارص المتاب قائلا:

أعباس هذا آخر العهد بيننا فلا تخشى منا بعد ذاك عتابا

وعزل السلطان عبد الحميد سلطان تركيا في ١٣ أبريل سنة ١٩٠٩ على يد الثوار الأتراك، فينظم في هذا قصيدة يقول في مطلعها :

لم يدرك السلطان في قصره ما أدرك المسكر من أمره ولم يهب من دهره سطوة حتى دهاه الخطب من دهره

ثم تعلو حماستة ، فتنسيه كل دواعى القانون ومقتضياته ، فيوجه التعيات إلى الشاب الهندى (دنجرا) الذى أطلق رصاصة على السير كيرزون ويللى فى أحد شوارع لندن فأراده قتيلا . وكان الشاب عضوا فى جمعية وطنية هندية سرية ، فلما قبض عليه ، لم يجزع ، ولم ينكر تهمته ، ولما صدر عليه الحم بالموت ، وقف فى قفص الاتهام محييا الحسكم تحية عسكرية . ويقول الغاياتي فى قصيدته إلى دنجرا (قبل الأعدام):

هنيئًا فقيد الهند نلت مدى المجد وخلاك التاريخ في مصر والهند ولما صدر حكم الموت قال الفاياتي :

كيف أرثيك دنحرا بمقال يدعى القوم أنه إجرام ثم قال:

فسلام عليك والدمع جار وسلام وفي القلوب ضرام وكتب الشيخ شاريش مقالا في ذكرى تنفيذ حكم دنشواى ، فاعتبرته النيابة قذفا في حق قضاة الححكمة وقدمته للمحكمة ، فسألت إحدى الصحف حسين رشدى وكان وزير الحقانية ( العدل ) رأيه فيا عساه يكون الحكم ، فقال إنه يؤكد أنه سيكون بإدانة كاتب المقال فأسرع الفاياتي إلى شعره يوجه فيه

إلى رشدى لوما يستحقه وقال :

حكمت فلم تنصف \* وقلت فلم تصب \* ورمت مراما \* دونه الله والناس

واضطر حسين رشدى إلى تصحيح تصريحه وقال أنه لم يؤكد مسدور حكم الإدانة بل رجح ذلك ، وصدر الحكم بالإدانة فعلا ، إذ قضت الحكة الابتدائية بالغرامة فلما استأنفت النيابة الحكم قضت الحكمة الاستثنافية برياسة قاض أجنبى (أرمنى) أسمه باغوص أوغوبيان بحبس الشيخ شاويش ثلاثة أشهر ، فصاح الفاياتي يوقظ النوام في مصر ويسألهم هل تحركوا:

ومضوا إلى أهل الضلال فأعدموا من أعــــدموا وقضوا على باغى المظا لم ثم لم يتأتمـــوا واســـتفتحوا له باب الجعـــيم ولم يترحمــوا فضـــي بلعنة ربه واســـتقبلته جهــــم

وقد ضاف صدر العقاد بهذه الأبيات ، وتساءل ، أيمكن أن تلام الحكومة إذا هى ضيقت من حرية الصحافة ، بعد أن استفاضت الدعوة إلى ارتكاب الجرأثم هكذا ، وجرؤ غير المسئولين على إرسال الكلام الطائش بغير تقدير ولا محاسنة من النفس .

ولما امتنع الوزراء عن حضور جلسات الجمعية التشريمية — وكانت الهيئة التشريمية لمصر في تلك الأيام أرسل الفاياتي إلى صدورهم سهام نقده قائلا:

يأيها الوزراء ماذا نابكم حتى هجرتم ندوة النواب؟

ثم يروح الغاياتي ، يحرك الهمم ، ويحرض على القتال، والفداء ،والتضحية ، في شعر سهل جار ، يحمل فيه على الحسكام الذين كباهم الخوف ، والمواطنين الذين يترددون في الاستجابة لدعاء الكفاح فيقول :

(م ۲۱ - عصر ورجال )

انی ألمح الجبن فی قلوب الحاة ماء يوم يدوى بمصر صوت الدعاة وا فاطرحهم فانهم أمسوات

بافتی النیل أدرك النیل أنی لیس فیهم فتی یجیب د<sup>ےاء</sup> الفـــوا الذل واستماتوا

فإذا فاض نهر (السين) وأغرق جانب من باريس، انتهز الفرصة، وواسى شعب فرنسا، وأدار الكلام في الشئون السياسية ، وكانت فرنسا آنذاك ، تتظاهر بتأييد الكفاح المصرى ضد الاحتلال البريطاني ثم جاءت القضية الكبرى قضية مد امتياز قناة السويس إلى سنة ٢٠٠٨ بدلا من انتهائه في سنة ١٩٦٩ ، وقد أمرا لخديو بعرض هذا الموضوع على الجمية العمومية في يوم في منابر سنة ١٩٦٠ ، وقد أثارت هذه القضية مشاعر المصريين ، فاحتفلوا بها احتفالا شديدا ، وناقشتها الصحف حتى المعتدلة في خصومتها كجريدة ( الجريدة) وانتهت المنافشة إلى رفضها ، وقد ألممت هذه المعركة الفاياتي بالكثير من قصائده .

وفي خلال نظر مشروع مدقناة السويس، قتل المرحوم بطرس غالى باشا برصاصات ابراهيم ناصف الورداني ، فطاش صواب الحكومة لهذا الحادث ، وأخذت تقبض على جميع من ينتسب إلى الحزب الوطني لأن الورداني كان من شباب الحزب الوطني ، فقبضت ضمن حملات القبض على ثمانية من الشبان كانوا قد وقموا مع الورداني على القانون النظامي لجمعية اسمها ( جمعية التضامن الأخوى ) ثم قدمتهم إلى قاض الإحالة ( متولى غنيم ) فلم يجد في مواد القانون ما يأذن بإدانتهم إذ لم يكن في مواده آنذاك ما يعاقب على الإتفاق الجنائي ، وقد ذاع صيت القاضي متولى غنيم بسبب هذا الحكم ، و نظم فيه الشعراء الوطنيون القصائد العلوال . كما نظم الفاياتي قصيدة مطلعها :

حكمت فأرضيت البلاد وأهلها وحياك عيسى بعد موسى وأحمد وقد أراد الله لمؤلاء الشبان الثمانية أن يطول عرم ، وأن يسام أكثرم ف

الخدمة الوطنية بأساليب شتى فقد كان منهم المهندس على مراد الذى اشتغل بالخبرة بعد أن طرد من الوظيفة الحكومية ، وعرف بالأمانة والكفاية ، وكان منهم عبد الخالق عطية الذى انتخب في البرلمان سنة ١٩٢٤، وشفيق منصور المحلمي الذى حكم عليه بالإعدام في قضية السردار بعد حياة حافلة بالعمل الوطني السرى وعبده البرقوقي المحلمي ، الذي أصبح مستشارا.

ولما وقع حادث اغتيال بطرس غالى باشا انتهزه خصوم الحركة الوطنية ، وأسرفوا فى القول بأن باعث الوردانى على القتل كان باعثا دينيا ، وكان هذا أبعد الأشياء عن الحقيقة ، وقد وقف الحامى الذائع الصيت مرقص فهمى ، بدافع عن الحركة الوطنية هذا الاتهام الظالم فتأثر الغاياتى لهذا الموقف النبيل بدافع عن الحركة الوطنية هذا الاتهام عنوانها « إلى خطيب السلام » وقال فيها :

خطبت فلم تجنح إلى شرعة الهوى ولم تتخذ نهج الخصام سبيلا وقال فمها أيضا:

وما أمة القرآن في مصر أمة ترى أمة الإنجيل أبغض جيلا فإنا وأنتم أخوة في بلادنا أقمنا على دين السلام طويلا

وفى مارس سنة ١٩١٠ نزل تيودور روزفلت ضيفا بمصر وكان رئيسا سابقاللولايات المتحدة ، فألقى خطابا بها ، أشاد فيها بالاحتلال البريطاني وأياديه على مصر ، فأزعجت هذه الخطب خواطر المصريين ، فأصلوه نارا حامية ، ونظم في خطبته هذه شوقى قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

أيها المنتحى بأسوان دارا والتي ختمها بقوله :

خطبت فسكنت خطبا لاخطيبا

أضيف إلى مصائبنا الجسام

أما الفاياتي فقد نظم قصيدة مطلعها:

لعمرك لست بالرجل الممام إذا عد الممسسام من الكرام كرام الناس أصدقهم حديثا وأبعد عن أكاذيب اللئام وذكر الغاباتي روزفلت في هذه القصيدة بأن الإنجليز كانوا حكامهم وأن

وذكر الفاياتي روزفلت في هذه القصيدة بان الإيجبير عاوا حجامهم وان واشنجتون تار على الإنجليز ، لأن الانجليز ساموا الشعب الأمريكي الغسف ، وأشاد ببطولة واشنجتون وجفرسون وملاً هو امشه حقائق تاريخية عن تاريخ النضال الأمريكي .

ثم نظم قصيدة ثانية فى الحملة على روزفلت لما خطب فى قاعة ( جيلد هول ) بلندن ، وحمل على المصريين من جديد .

ولما رفض مشروع مد امتياز قناة السويس ، هنأ النواب المصريين بمواقفهم الباهرة التي أحبطت هذه المحاولة الاستعارية المفضوحة .

ولما أفضى الخديو عباس بحديث إلى جريدة « الكان » الفرنسية ، ولام الوطنيين ، والمهمهم بالتسرع ، وأثنى على مندوب الاحتلال البريطانى فى مصر الدون جورست ، سدد إليه الغاياتي سهام نقده حامية .

وهكذا كان ديوان وطنيتى ، ديوان الوطنية المصرية فى الفترة ما بين سنة ١٩٠٧ حتى سنة ١٩١١ .

ولكن ديوان الغاباتى ، لم يخل من القيمة الأدبية ، فقد رأيناه يملن أنه من المؤمنين بأن الأدب ، لايكون للأدب ذاته ، بل أن الحياة هى غاية الأدب وأن من يكتب الشعر وينظمه فى وساوس نفسه وشو اغلها منفصلا عن الجاعة ، مبتعدا عن هموم وأحزان وآلام قومه ، شاعر محافظ ، وقد هجر قومه فى دمياط وإن كانوا من أفاصل الناس ، لأنهم منصر فون عن ذكر البلاد .

إلا أن قيمة ديوان الغاياتي لا تقتصر على أنه يؤمن بأن الشعر سلاح من أسلحة الوطن ، وأن قيمة الشعر هي فيما يقدمه للناس من خواطر ، تزيدهم قوة على الحياة ، وتحبب إليهم النضال ، بل لأن الغاياتي حاول أن مجدد في الشعر الد, بي ، بأكثر من أسلوب .

فهو فى القصيدة التى مطلعها « رب ذكرى هيجت شجنا » لا يلتزم رويا واحدا ، ولا قافية واحدة ، بل إنه يغير القافية كل سبعة أبيات ، فخرجت القصيدة التى انتظمت خمسا وثلاثين بيتا ، سبعة قطع .

وقال فى بيان أسلوبه الجديد :

« وقد اقتفيت في قصيدتي هذه طريقة جديدة ، هي جعل القصيدة قطعا . كل قط.ة ذات روى خاص ، وبذلك تسهل على الشاعر بعض الصعاب التي يصادفها في سبيل القافية والنزام الروى في جميع القصيدة وهي طريقة وسطى بين طريقة الشعر المرسل والطريقة القديمة . وقد اخترت أن تكون القطعة سبعة أبيات اتباعا لإصطلاح علماء العروض المعتمد في أن القصيدة سبعة أبيات فصاعدا من الباعا لإصطلاح علماء العروض المعتمد في أن القصيدة سبعة أبيات فصاعدا من بحر وضرب وروى واحد . وبهذا يصح أن تكون كل قطعة قصيدة قائمة بذاتها ، وإن شئت فهي متعددة في قصيدة واحدة فعسى أن يرى ذلك لشعر اثنا فيقدموا على القريض ليكون خيارهم بعد أحجامه وضعفه شاعرا مقداما قادرا ويتسنى لكبيرهم أن يتحدى شعراء أوروبا ويباريهم في الشئون الاجتماعية العصرية ، فيصبح له في كل معنى قول مأثور وأثر مشكور »

ولم يقنع الغاياتي بإرسال هذه الدعوة ، بل أنه راح يبشر بها عند حافظ ابراهيم ، وإسماعيل صبرى وقال في هذا الصدد :

لا حادثت حضرة الشاعر السكبير حافظ أفندى ابراهيم في ،مذا النهج من الشعر ، فاستحسنه قبل أن أبدأ بسلوكه في هذه القصيدة ووعد بالسير فيها ، ثم

حادثت أخيرا سعادة إسماعيل باشا صبرى في ذلك ، فاستحسن أن يسكون الشمر بيتين بيتين ووعد بإتباع هذه الطريقة في نظمه ، ولكني لم أر لسعادته بعد ذلك إلا قصيدة في رثاء بطرس باشا غالى اتبع فيها الطريقة القديمة ونشرها على غير انتظار كا أن حافظا لم يف بوعده . ولا أرى لماذا لا تهذب طرق الشم العربي حتى يجارى شعر اؤنا شعراء الأمم الراقية ، ولا يكون لشكواهم من معوبة الطريقة القديمة وجه حسن ، ولا لإحجامهم عن الوطنيات والإجماعيات عذر مقبول .

فأنت ترى من هذا ، أن الفاياتي ، وإن كان مشغولا بأحداث الوطن السياسية ، وأنه وقف قلمه ونفسه للمعركة الوطنية ، إلا أنه لم يكن أديباً محافظا ولو اتسع له الوقت في مصر ، ولم يهاجر إلى سويسرا ، لأ كل العمل الذى بدأه بهذه المحاولة المبكرة في وقت لم يكن بجرؤ فيه أحد على التفكير في الغروج على الشعر العمودى ، ولا في التجديد في طرق الشعر وقوالبه — ولو صدق الشاعر ان الكبير إن وحافظ وصبرى فياوعدا به الغاياتي من نناول هذا الأسلوب الذى اقترحه الفاياتي لهما ووافقا عليه وأقراه ، لتحرر الشعر العربي تحررا كان يفتح له آ فاقا جديدة في الشكل والموضوع ، ولما تأخرت المسرحية الشعربة في أدبنا عن الظهور هذه الحقبة العلم ملة .

وقد حاول الغایاتی مرة أخری أن یجدد فی شعره ، فحاکی شوقی فی قصیدته التی مطلعها « مال واحتجب ، وادعی الغضب » فنظم قصیدة فی ذکری مصطفی کامل جری مطلعها :

ولكن المحاولتين ذهبتا بلا أثر يذكر ، فقد استغرقت السياسة والجهاد، ومتاعب الهجرة ومشاق الصحافة في الخارج، جهد الشاعر الشاب.

. . .

وقد احتفظ الغاياتي بالشرارة الثورية في نفسه إلى آخر العمر ، ففي سنة ١٩٤٧ سافر لأداء فريضة الحج والسفر للحج كان في عهد الملك عبد العزيز آل سعود، فرصة للصحفيين الذين يعرفون كيف تؤكل الكتف لجم بمض المال، والعودة بالهدايا الفاخرة من سيوف أو خناجر مذهبة عدا العباءات والشيلان الصوفية الغالية . وظنت السلطات السمودية أن الغاياتي واحد من هؤلاء ، ولكنه فر من مقابلة الملك ، وأسرع بالسفر إلى المدينة المنورة بعدانتهاء مناسك الحج، ثم عاد منها إلى مصر فكتب أول بحثُ صريح صادق عن حالة البلاد المقدسة ، وعما يلاقيه الحجاج من متاعب وسوء معاملة ، للاهمال الشديد الذي تغرق فيه الأماكن التي يؤدي فيها الحجاج فرائضهم ، ولما يتعرضون له من استفلال فاحش، وإهانات بالغة . وقد وصف مرافق الحياة في مكة والمدينة وصفا دامياً ، ثم روى أنه عرض عليه أن يشترى جارية وابنها وابنتها بأربعة جنيهات مصرية ، لو أن غير الغاياتي انضم إليه في حملته هذه ، وأعلى صوته بطلب تغيير الأمور على الوجه الذي اقترحه ، لأصاب المسلمين من وراء ذلك خيرًا عميًا ولكن ماكل الكتاب الغاياتي فقدكان نسيج وحده شجاعة ، وإيمانا وزهدا.

• • •

عاد الغاياتي إلى بلاده سنة ١٩٣٧ ، وتوفاه الله في سنة ١٩٥٦ ،

فيكا أنه قضى بعد العودة من المنفى نحو عشرين عاما ، وكان فيها أشبه شيء المنمور ، وهو فى القمة من التمكن من اللغتين العربية والفرنسية ، ومن الغبرة الطويلة بالصحافة والسياسة ، وهو بعد فى السن التى تسمح بالانتفاع به ، ولكن شيئا ما ، حرمنا عن الانتفاع به ، فمضى إلى لقاء ربه ، مفعوط الحق ، لينصفه التاريخ ، الذى يصدر حكمه فى تمهل وأناة ...

## الفصل السابع

## الآنسة ومي،

ذهبت فى خريف سنة ١٩٣١ إلى الآنسة « مى » أطلب منها كلة للمدد الخاص من مجلة المصور ، عن « مشروع القرش » فأصبحت من رواد ندوتها التى تعقد أصيل كل ثلاثاء من كل أسبوع .

وببدو أنى أدركت هذه الندوة ، وهى فى آخر أدوار حياتها ، إذ لم تلبث « مى » أن فضت ( الندوة ) وأقفلت على نفسها باب بيتها ولم تعد ترى أحداً ، ولم نسمع عنها بعد ذلك ، إلا ما يتعلق بمرضها ، ثم استفحاله ، ثم فترة صمت طويلة موحشة مقبضة ، انتهت بنبأ وفاتها الذى وصل إلى أسماعنا كأنه الإشاعة التى نتردد فى تصديقها ، ثم التى لا نعرف كيف محقق نصيبها من الصحة أو الكذب ، حتى أصبحت يقينا لاشك فيه ..

وإذ أستعيد الآن ذكرياتي عن « مي » وندوتها ، وزوار بيتها في يوم هذه الندوة ، في ضوء ما قرأته عنها ، وما سممته من آخرين كان لهم نفس حظى في الاتصال « بمي » أو أكثر منه ، أدرك أن « مي » كانت ظاهرة اجماعية ، أكثر منها « ظاهرة أدبية » .

فقد كانت « مى » آنسة لبنانية ، تكتب العربية والفرنسية ، وتقابل الرجال ، وتتحدث إلى الأدباء وأهل الفكر ، ويتحدثون إليها ، وفيهم أكثر من أعزب عاش حياته بلا زوجة ، وهم جميعاً بين متزوج وأعزب ، يضطربون

في مجتمع لاتبدو فيه المرأة إلا كالطيف، وإذا أسفرت واحدة من النساء ، كانت كالمحجبة تماما ، لأنها لا تحسن حديثًا يشوق الرجل المثقف أو يمتعه ، أو ينير خياله ، أو يوحى إليه أو يلهمه بفكرة أو عاطفة أو خاطره . ولذلك فقد تجميم مطران وداود بركات وانطون الجميل وشبلي شميل، ونجيب هواويني، وبعضهم من مصر كلطني السيد وعباس العقاد ومصطني عبد الرازق ومصطني صارق الرافعي وأمين واصف . وكانت تتبادل مع بعض هؤلاء الرسائل ، ومن هذه الرسائل، ومما نشر عن أحاديث النهدوة، تحس أن هذه الأحاديث تكاو تكون غزلا مستوراً بين صاحبة الندوة وزائريها ، فالجيع بحاولون كسب ودها في تحفظ واحة اط ، وهي تستثير عواطفهم ، إذ تتلطف معهم ، وتقترب وتبتعد من الواحد منهم بعد الآخر ، وفي حضور الآخرين ، فيكون لهذه اللعبة ، لعبة الحب المستور ، نشوة في نفوس هؤلاء المحرومين من المرأة في الصورة التي تمثلها « مي » ، ويخرج كل منهم من الندوة ، وهو أسعد حالا ، وأطيب نفساً . ولعل بعضهم كان يخرج منهذه الندوة وهو يحسب أنه ظفر منودها والتفاتها، بأكثر مما ظفر سواه ، وأنه بات أقرب ما يكون من عتبة الحب المنشود . ثم لايجد بعد ذلك مما ظن وتوهم شيئًا . ولعل سميدالمريان كان موفقًا غاية التوفيق حینا قال أن « می » قد ( ألهمت ) جبران خلیل جبران ، و ( أوهمت ) مصطنی صادق الرافعي ، إذ الواضح أنه وقع في حبها ، وظن أنها تبادله حبا بحب . والعقاد ومؤرخو حياته ، يقولون أنه أحبها فعلا ، وأنها أحبته كذلك ، ثم وقعت الجفوة بينهما ، فزارته في جريدة البلاغ حيث كان يعمل ، وانهى حبهما ، وإن لم تنقطع صلتهما والمفهوم أن ﴿ مِي ﴾ هي إحــــدي بطلتي قصة (سارة) التي كتبها المقاد ، حكاية لوقائع هذا الحب، ولحب آخر ، كان جديا عنيفًا ، تمده الغيرة والشكوك بالحرارة والعنف، الذي كان يعوز الحبالأفلاطوني حب المقاد ومى ــ وقد اعترف المقاد بالحبين إذ قال ﴿ لقد أُحببت في حياتى مرتين ﴿ سارة ﴾ و « مى » ، كانت الأولى مثالًا للأنوثة الدافقة ناعمة رقيقة لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها وأنوثتها ، ولكنها كانت مثقة أيضاً .

« والثانية – وهي مي – كانت مثقفة قوية الحجة تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية، كاكان فيها بمض صفات الرجال منحيثأنها جليسة علم وفن وأدب ، وزميلة في حياة الفكر ، أي أن اهتمامهاكان موزعا بين العلم والأنوثة » .

وقد أحبها العقاد حباً روحياً وتحدث عنها في آخر كتاب سارة وسماها باسم هند وكان يزورها ويجالسها ويتناولان من الحب ما يتنساوله العاشقان العذريان ، وكان يكتب إليها ، فيفيض ويسترسل ويذكر الوجد والشوق والأمل . وكانت مى تحبه حباً شديداً ولم تكن تعلم بحبه لسارة ، وإنما كانت تزعم بينها وبين نفسها أنه معزول عن عالم النساء غير أنها لم تحفل باتصاله بالنساء ، ما دام اسمهن نساء ، لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة ، وشبع غرام واحد . .

فلما شعرت بأنه يحب فتاة أخرى، وكان هذا الحب قبل أن تقع في حبه ، زارته على حين غرة في مكتب عسله \_ وهي الزيارة الأولى والأخيرة \_ فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارتها المفاجئة ، وابتهاجه بسؤالها عنه ، وأنصت لها فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج \_ لست زائرة ولا سائلة . .

فقال – إذن . ؟

فلم تتكلم بل نظرت إليه كمن يستحلفه ألا يتكلم ، وانحدرت من عيفيها دمعتان فما تمالك نفسه ، وتناول يدها ورفعها إلى فمه يقبلها وبعيد تقبيلها فمانعته

ولم تكف عن النظر إليه ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة وهي تتمتم هامسة : « دع يدى ودعني » .

ونشرت مجلة الهلال في عدد شهر يناير ١٩٦٢ قصة حب أخرى بين لطني السيد وبين مى ، يرجع تاريخها إلى سنة ١٩١١ ، فقد لقيها في لبنان ، في فندق (بسول) ببيروت وسمعها تتحدث عن المرأة الشرقية ، وتدافع عنها ، فاستوقف سمعه هذا الدفاع ، فأل عنها فعرف أنها مارى زيادة بنت الصحفي اللبناني الياس زيادة الذي كان يصدر جريدة المحروسة اليوسية في القاهرة فنشأت بينهما علاقة ، وكانت إذ ذاك دون العشرين من عمرها - إذ ولدت سنة ١٨٩٥ وكان هو في مرحلة الرجولة الناضجة - فقد ولد في سنة ١٨٧٧ وقد استمرت الملاقة بينهما ، كأقوى ما تكون - على الأقل من جانب لطني السيد - نحو عشر سنوات ، تولى خلالها ، رعاية ذوقها الأدبى ، فقد أهدى إليها القرآن ، بعد أن كانت تكتب الشعر بالفرنسية بتوقيع مستمار هو « ايزيس كوبيا » .

وقارى هذه الخطابات ، يحس أن عواطفها تجرى تحت ستار من الوقار المتكلف ، فنى الرسالة الأولى المؤرخة ١٥ يوليو سنة ١٩١٢ يوجه لطفى السيد كلامه إلى مى ، مناديا إياها : «سيدتى » .

ثم يقول: مضى أسبوع كامل من يوم كنت عندكم ، استأذن فى السفر إلى الاسكندرية ، وما كان من عادتى أن أغيب عنك أكثر من أسبوع ، إذا مضى كان يدفعنى الشوق إلى حديثك الحلو ، وأفكارك ( للتينة ) المهتمة إلى زيارتك . فلا غرو أن أستعيض عن الزيارة غير المستطاعة بهذه الرسالة السهلة الكلفة . كتابى يلقى اليك فى صحة وسلامة وجد على هدا الحر الذى ربما شبهه بعض أصحابنا الشعراء بشوق المحبين . يقص عليك أننى أذكرك دائماً كلما هبت نسهات البحر وقابلت بينها وبين لوافح القاهرة ، وكلما تجلى دائماً

علينا البدر يضى البر والبحر . . أذكرك كلا خطر ببالى النظر فى حال المرأة الشرقية ومستقبلها . . وكلا قرأت من الشعر والنثر أفكاراً تتناسب مع أفكارك و تختلف معها ، وأذكرك كلا هاج البحر »

ويظهر أن لطفي السيدكان يعاني من نوبات الغضب عند مي فقد قال :

أما هي فأنها غضبي يلذ لنا غضبها في كل أطواره ، كما يطيب لنا احتماله في كل مظاهره : عبس في الوجه لا يقل في جماله عن الابتسامة الفاتنة ، وأعراض كالدلال في الإقبال ، وتوقد في العينين كأنه في حلاوة لين النظر ، فما أشبه نظرها الشزر بلحظها الرحيم في اللعب بقلوب الحكيم ثم قطع للرسائل وهجر جيل ».

ـ وكان لطفى السيد يود أن يسترسل مع هواه ، ولكنه يتذكر أن هناك حدوداً مرسومة لايحق لها تجاوزها فيقول :

« فاعذرى قلما حساساً ، غيوراً طماعاً يجرى إلى مايحب كالسيل المتدفق لايبالى صادف سهلا أو اصطدم فى وعر ، أو حبس فى حيز . إنه لايعبد إلا ما يحب من غير أن يفكر . ليس له عذر إلا فى صدقه وكفى بالصدق عاذرا ، وكفى بالصدق شفيعاً » .

## وفى خطاب آخر يقول :

« جاءنی کتابك فشممته ملیا ، وقرأته هنیاً مریا » ثم قال « جاءنی ولا اکذبك أنی کنت فی انتظاره ، فقرأته ثم قرأته ، وذكرت تلك اللیلة التی لها فی حیاتی تاریخ ومركز خاص » . ثم یمزج عبارات الحب بالفلسفة فیقول :

« ذلك هو شغلى طول النهار يا هانم أخشى أن تكون عصاك أو نفثاتك
 قد لعبت بعقلى أيضاً ، فاحكم على شوبنهاور ونيتشه حكمك القاسى عليهما » .

ویضیق لطفی السید ، ونفسه تجیش بماطفة حب حقیقیة ، ویود ان منطلق فیقول

و أجناية منى أن أتحدث بهذه النفمة السابقة: إلا أن للأرواح أيضاً غذاء يتنزل عليها من مكان أسمى من مكانها العادى ، وهزة تأخذها حين تتقابل جاذبيتها ، لعل ذلك هو مر العادة الإنسانية التي يلمسها الناس فلا يعرفون طرفها » . .

ثم ينفجر فيقول:

« ألقيود الاصطلاح! إنى كاسرها وملق بها عنى لأقول ماذا ؟ لاشى، بل لأقول أنه لا ذنب على أن صرحت بأنى اليوم سميد، وربما كنته بعد اليوم وهذا مالا أعرفه » .

والحق أنه لشيء يثير الدهشة أن تكون « مي » قادرة على إلزام عشاقها ومحبيها حدودا لا يتجاوزونها ، وقيوداً لا يكسرونها ، وإن كان سر هذا عندى مفضوحا ، فهى بلا جدال لم تقع فى حب واحد من هؤلاء الأدباء الذين كانوا يحيطون بها - إلا إذا صدقنا قصة حبها الفاشل للمقاد - ولذلك كانت تتلهى وتتسلى وتستعيض بالحب الصادق ، بهذه الباقة من العواطف يقدمها لما أكبر رجال الفكر الذي يحفون بها ، ويسارعون إلى إهداء أرق العبارات إليها ، متنافسين على خطب ودها ، وكسب رضاها ، فى معركة صامتة ، لا يظهر فيها أحد منهم سيفه ، إذ لا أمل فى الكسب ، فراحت أجمل وأغرب معركة فى تاريخ الحب .. ولا عجب فقد كانت فى الشرق العربى ، وكانت قيود المحافظة ومراسمها مرعية للغامة !

ولما أتيح لى أن أنضم إلى هذه الزمرة الرفيعة ، زمرة ندوة الآنسة مى ، خيل إلى أننى أدخل عالما سحريا . ذهبت إلى شقتها التى كانت في عارة ملاصة

لجريدة الأهرام ومملوكة لأصحاب الجريدة ، وهي شقة فسيحة ، يصل الإنسان فيها إلى حجرة الاستقبال ، من خلال طرقة معتمة نوعا ويخيل إلى الآن أنى حيا دققت جرس الباب ، فتحت لى الآنسة مي نفسها ، فلاحظت لأول وهاة أن لها عينين ضيقتين ، تبدوان للناظر ، كأن بهما أثرا من رمد قديم ، فليس فيهما شيء من الجال . أما « مي » نفسها ، فمتلئة غير مترهة ، وأظنها أقرب إلى القصر منها إلى الطول ، فإذا أنت استبعدتها من الحسناوات ، لم تكن متجنياً عليها ، ولكنك تحس مند اللحظة الأولى ، بفيض أنوتها يشملك متجنياً عليها ، ولكنك تحس مند اللحظة الأولى ، بفيض أنوتها يشملك ويشمل المكان كله ، فهي ليست من الكاتبات المسترجلات ، اللوائى ، استعضن عن الجال النسوى ، وفتنة الأنوثة ، بعقل الرجل ، ورطانة الأدباء . بل أنها على النقيض ، تخاطب فيك الرجل ، وتستحثه بإيماءات رأسها ، وصوتها اللي ، بنبرات الدلال ، بإقبالها عليك ، على أن تخاطب فيها بدورك «مي» المرأة ، وألا تمادى في الحسديث عن الأدب والفن ، ناسياً أنك في صالون سيدة شابة .

وصوت « می » تشو به ر نة حزن لا أدری إذا كانت طبیعیة أم مصطنعة ، وهی تقطع عباراتها ، وكأنها تلحنها و توقعها كأغنیة .

وقد كانت زيارتى الأولى « لمى » فى غير اليوم المحدد لانعقاد ندوتها ، وقد كانت زيارة فى الصباح ، وطالت الجلسة أكثر مما توقعت ، وخرجت وقد خيل إلى أننى نجحت فى أن أظفر لنفسى عندها بمكانة خاصة ، وبقيت على هذا الوهم ، حتى تبينت فيما بعد أن أكثر الذين تتاح لهم فرصة زيارتها والجلوس معا ، يخرجون بنفس الشعور .

ولما ترددت على صالونها أو ندوتها ، لم أر هناك فى أكثر المرات أدباء نوى شأن ، ولكن وجدت فى جميع زياراتى سيدة تركية مجوزاً وابنها الذى فهت أنه موظف من موظفی الحکومة غیر البارزین، ولم یکونا بت کلمان بطبیعة الحال فی أی شأن من شئون الأدب أو الفکر، ولکنهما کانالا محسان أنهما نابیان عن المجلس، أو غریبان عن جوه وقد ذکرت للی و ولضیوفها فی إحدی زیاراتی حدیثاً دار بینی و بین لطنی السید، فلم تعلق علیه و می بشی، ثم انقضی علی ذلك سنون طویلة عرفت بعدها أن لطفی السید كان أكثر من صدیق بالنسبة لها.

وفى إحدى زياراتى لمى — وكنا يومها وحيدين — جاء ذكر موسولينى وحياته ، فقالت شيئًا ما عن علاقته بزوجته ، قبل زواجهما ، فسألتها مستفسراً أكانت خليلته واستعملت كلة Maitress ، فتظاهرت « مى » بأن الكلمة آذتها كثيرا ، ولكن لست أدرى لماذا لم يحرجنى موقفها هذا ، فقد أحسست أنه متكلف ، وأنه لايليق بأديبة تقرأ الكتب بما فيها من أفكار مكشوفة ، وآراء متحدية للأوضاع المألوفة ، ولم تلبث حتى قالت ، وكأنما تعتذر عنى : الحامون لهم لفتهم التى لا تعرف المداراة .

وفى جلسة أخرى جاء ذكر زوجة أحد وزراء المعارف ، فوصفها أحدم بأنها صخمة ضخامة لا تليق بامرأة فقالت مدافعة : والله انها ( نفشه ) فوقعت هذه العبارة على سمعى موقعاً غريباً.

ولقد أحست على أوضح صورة ، بالأثر الذي كان لمى في مجتمعنا وقتماك في محاضرة ألقتها في قاعة الجمية الجغرافية . لقد كانت القاعة ممتلئة فلم يبق مكان لواقف أو جالس ، ولما ظهرت « مى » على المنصة وفي يدها منديل ، ورأسها مميل في دلال لطيف يميناً ويساراً راحت الأنظار تتابعها ، وتلاحق حركاتها في شفف باد ، ولم تدخر « مى » بدورها وسماً في أن تحرك شجون السامعين بنبرات صونها ، وطريقة أدلها ، فكأ نها مطربة . والحق أنى لا أذكر هذه

المحاضرة حتى آرانى أخلط بينها وبين أم كلثوم، فى حفلاتها الغنائية . وهناك شه بينهما من حيث تكوين جسميهما .

وقد كانت المحاضرة عن الكاتب الإيطالي « مارنيتي » ، ومذهب « الستقبلية » Futurism ، وعلى الرغم من الأفكار الفلسفية التي كانت تدور حولها المحاضرة ، فقد أحسن المحاضرون الاستماع ، وقاطعوا الخطيبة بالتصفيق وخرجوا ، وكأنهم قد سمعوا غناء شجيا ، أو موسيقي جميلة .

وشغلت عن ندوة (مى) فترة من الزمن ، ثم أردتأن أزورها ، فاتصلت بها تليفونيا فردت على (مى) نفسها ، فطلبت موعدا ، فاعتذرت بأنها لاتقابل أحدامنذ توفيت أمها ، وكأن وقت غيرقصيرقد انقضى على هذه الوفاة ،ولست أدرى ما الذى دهانى ، فقد ألححت – على غيرعادتى – في طلب المقابلة ، وكلا تذكرت هذه الواقعة ، شعرت بالحجل ، وحرت في تفسيرها ، ولا تفسير لما عندى الآن سوى أنه خيل إلى أن واجب المواساة كان يتتضيني أن أبذل جهدا لإخراج (مى) من عزلها ، وأن تركها مع خسواطر الحزن ، من قبيل علم الأكة اث لها .

وانقطعت أخبار (مى) منذذلك اليوم فلم أعد أسمع شيئا عنها ، وكانت قد انقطعت مى قبل ذلك بكثير عن الكتابة فى الصحف ، و فجأة أسمع من الأستاذ مصطفى مرعى ، أنه أصبح من أصدقائها وأنه يتردد عليها مع السيدة زوجته ، وكان آنذاك يلقى دورساً فى كلية الحقوق بجامعة القاهر ، بوصفه أستاذا غير متفرغ ، فدعاها لحضور أحد دروسه فى الكلية ، وكان الدروس فى المساء فلبت دعوته و ذهبت معها السيدة حرمه ، ولما أخذت مكانها فى الصف الأول كتب على السبورة « نرحب بالكاتبة الكبيرة مى » أو شيئا من هذا القبيل فأحسن الطلمة تحتيا .

ثم لم ألبث حتى سمعت أن قضية رفعت من بعض أقاربها ، لتوقيع الحجر عليها ، وأبها تعانى اضطرابا عصبياً ، فسألت الأستاذ مصطفى مرعى عن هذا النبأ فأكد لى صحته ، ولما تحدثنا عنها مليا قال إن عزلها الشديدة وإنكارها القاسى لحاجيات جسمها العاطفية ، أورثها هذا المرض ، ثم علمت بعد ذلك أنها تعالج فى مصحة بلبنان ، ثم نقل إلينا بعد حين ، أنها لحقت بالرفيق الأعلى .

ويذلك أنطوت صفحة كاتبة من ألم كتاب العربية ، كانت آثارها على اختلافها ، آية من آيات الرقة ، تنضح بالانفعال الوجدانى ، وتقسم بالحزن الهادى ، وتمتاز عن غيرها من الكاتبين بموسيقية وشاعرية ، تدل عليها . فلم تكن (مي) تصطنع أسلوب الرجال ولا تقلدهم ولم تسكن رجلا في ثياب إمرأة بل كانت امرأة حتى أطراف أصابعها ، وقد استطاعت بأنو تها الناضجة ، ولطفها الأخاذ ، وأسلوبها الفريد في الحياة ، إن تكون مصدر الهام رجال كثيرين ، أحبوها ، وأسرفوا في الحب ، وظنوا جميعا أنها أحبتهم ، فأسعدهم هذا ، وحرك وجدانهم ، فأسدوا إلى الأدب العربي أيادى بيضا ، وأضافوا إليه صحفاً باهرة الفضل فيهاراجع إلى (مي) التي عاشت وحيدة ، وماتت في عزلة موحشة . وقد أشار سلامه موسى إلى علاقته بمي فقال أنها دعته إلى أن يشترك في تحرير جريدة أشار سلامه موسى إلى علاقته بمي فقال أنها دعته إلى أن يشترك في تحرير جريدة الحروسة اليومية التي كان يصدرها والدها اليساس زيادة ، وقد لي الدعوة واستمر يحررها بضعة أشهر ، ولكنه لم يلبث حتى سمّ هذا العمل في ظل الرقابة الشديدة التي كانت مفروضة أثناء الحرب الأولى ، ثم قال « ولم يكن يخفض من هذا السأم سوى زيارات مى ومؤانستها لنا من وقت لآخر فقد كانت حلاوتها تمتزج بظرف ورقة » .

ثم عاد فأسهب فى ذكر أطوار علاقته بها ، وأثرها فى نفسه فقال: « من الشخصيات الفذة التى عرفتها قبل الحرب الكبرى شخصيةالأديبه

الكانبة مي ، وقد بقينا صديقين ، إلى يوم وفاتها عقب عودتها من مستشفى الأمراض العقلية في لبنان . ولم تكن « مي » جميلة ولكنها كانت « حلوة » وكانت تعرف الآداب الانجليزية والفرنسية ، وتقــــــرأ كثيرا . وقفت على الاتجاهات المصرية في أوروبا وأمريكا والشرق. وكانت أيضا متحدثة من حيث اكتمال وسائل التمدن في المعيشة . وكان تمدنها وثقافتها يكسوان وجهها وتمبيرها ظرفة ورقة . وقد استطاعت « مي » أن تجمل احتراف الأدب عند الفتاة المصرية والسورية زينة أنثوية لا استرجالا كريهاً . وكانت فحياة أنوبها تعقد بمنزلها اجتماعات ( صالونية ) حيث يكون السياسي والأديب والوجيه بعض ضيوفها ، وكانت تشترك في جميم المناقشات بلكانت أحياناً تديرها، ولم بكن هناك موضوع تعجز عن الاشتراك في معالجته ، وتفعل كل ذلك في رقة وجمال وتمدن . ومات أبوها فلم يتأثر « الصالون » ولكن عقاب وفاة والدتها تزعزعت « مي » ولم يكن ذلك في ظنى لحزنها على والدتها التي مانت بعد أن أسنت وبعدأن كان موتمها منتظراً وإنكانت الفرقة بين الأم وابنتهاقد تركت أثرها ، وخاصة عندما تمرف أن مي لم تتزوج وأن رفقتها لأمها كانت تمزيتها وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوما وهي منفردة مقطوعة في منزلها ، وخاصة في وسط ، مهما قلنا أنه متمدن ، لا يزال شرقيًا .

« على أنى أظن أن السبب للترعزع النفسى الذى أمساب «مى» كان انقالها الفسيولوجى من الشباب إلى الكهولة . وهذا الانتقال كثيرا ما يخل بالاتزان الفسيولوجى عند بعض النسوة وقد ماتت « مى » منذ أكثر من سنتين بعد سنوات قضتها في مستشفى الأمراض العقلية في لبنان ، ولما عادت زرتها مع صديقى الأستاذ أسعد حسنى ، وفتحت لنا الباب . فرأيت شخصاً لا أعرف : رأيت سيدة بيضاء الشعر كأنها في السبعين . فسددت عينى ، ففمزنى أسعد

وهمس: الآنسة مى الآنسة مى إ فسلت و تضاحكت . ولكنها أدركت كل شى، واستولى على اكتئاب و خجل و جمود وار تسمت فى ذهنى صورة لمذاب النفس الذى لقيته هذه المسكينة فى مرضها . ولكن سرعان مازال عنى الأكتئاب والخجل والجمود ، إذ شملنى أسف . فإن مى قعدت إلينا وشرعت تقص عليناما قاسته فى المستشفى وكيف ألبسوها « الجاكسة » التى تمنع العربدة عند المجانين ، وكيف أضربت هى عن العلمام ، ثم — وهنا الأسف والحزن — كانت وهى تروى لنا ما وقع تذكر كيف أن أدباء مصر نسوها و تركوها ولم يسألوا عنها ، كانت تضحك مرة و تبكى أخرى . و تكرر منها هذا كثيرا . وأدركت أنها لا تزال فى حاجة إلى المستشفى .

« وزاد اعتقادی عندما أصرت على أنه كان لها أقربا. ينوون خطفها من القاهرة ، وكانت تذكر أسماءهم ، وأنهم كانو ا يتر بصون بها فى مكان تعينه ، وكانت هى مضطرة إلى المرور بهذا المكان .

«وخرجنا نحن الاثنين ونحن فى أسف وغم لهذه الحال التى كانت عليها مى . ولكن أسفى أنا كان مزدوجا ، فإنى بقيت طوال المساء ، وأنا أفكر فى جمودى ، وكيف أنى لم أتنبه عندما رأبتها بالباب فأحييها تحية اشتياق وتقدير وأنها لابد قد عرفت من جمودى أنها قد تغيرت ، وأن جمالها وحلاوتها وظرفها ورقتها قد زالت ، وملاً تنى هذه الخواطر مرارة بل كراهة لنفسى .

« فلما كان اليوم التالى قصدت إلى منزلما وأنا طوال الطريق أستعد للقاء أرجو أن أقشع به غمامة الأمس . وهو مع ذلك لقاء لفتاة مريضة ، مزعزعة . فلما فتحت لى الباب عانقتها في حنان صادق وحب مصطنع . وتراجعت هي وتأملت وجهى في ابتسام وانشراح واضحين وهي تقول : مرسى . مرسى يا أستاذ » .

وشعرت أنى كفرت عن جمودى بالأمس ، وقعدت معها وأنا أتحدث في نشاط ومرح . ولكنها عادت إلى البكاء والضحك . فسكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تتشنج بالضحك . وبعد أسابيع ماتت إذ لم تطق هذه التي رافقتها أكثر من ثلاثين سنة وهي تتلاً لا فيها بالشباب والجال . ثم عادت فتركتها منفردة في شيخو خنها بلا جال وبلا تلاً لؤ .

« ومخلفات مى الأدبية كثيرة ، ولكنها كانت فى حديثها أبرع وأذكى ما كانت فى جميع ما كتبت ، وكنت أقول لها أن السبب لتفوق حديثها على مقالاتها أبها شرقية تخاف فى الكتابة أن نبوح بكل ما تفكر فيه ولكن هذا الخوف يزول عنها فى العديث .

« وقد يسائل القارىء هنا ، ولم لم تتزوج مى مع جالها وثقافتها ؟ فالجواب أنها كانت تعيش في وسط شرقى ، ولو كانت مى قد نشأت في براين أو باريس أو لندن لوجدت الكثيرين ممن ينشدون الشرف والسعادة بالزواج منها والفخر والمجد بانتصاق تاريخهم بتاريخها . ولسكن إخواننا اللبنانبين على الرغم من عصريتهم ، لا يزالون شرقيين ولم يستطيعوا أن يسيغوا زوجة تستقبل ضيوفها في صالون أدبى له حرية الصالونات الأدبية في المناقشة والاختلاط . وبكلمة أخرى نقول : أن مى عاشت عمرها قبل ميعاده بخمسين سنة » .

وقدوصف الدكتور منصور فهمى زيارة ( لمى ) تشبه زيارة سلامه موسى فقـــــــال :

لا طرقت على الأديبة بابها فى أصيل يوم من الأيام ولمل ذلك كان فى سنة المرقت على الأديبة بابها فى أصيل يوم من الأيام ولم ولت إلى الداخل المرت فى دق الجرس وفتح الباب فى مواربة فهرولت إلى الداخل فأذا بالسيدة التى فتحت لى الباب إنسانة نفشاء الشعر ، مشعثة الرأس ، شاحبة الوجه ، مقرحة العين بلف جسمها المترهل ، جلباب أبيض فضفاض ، وتلابسه

أشعة صفراء خافتة يرسله مصباح كهربائى صغير يتدلى من سقف الدهليز أنها « مى » الآفلة ، ولم أنبين منها ومن بقايا شروقها إلا ابتسامة باهتة تتأرجع على شفتين تحاول أن تفزوها طلائع النحيب ووساس الهموم .

وقفت السيدة في مدخل الدهليز دون أن تتكلم والابتسامة الذابلة الحارة تتردد على ثفرعهدته حافلابالسناء ومليئا فيا مضى بأزهر البسمات ولكنه اليوم كاد أن يكون متقلصا من الألم. وكانت الأديبة تغمرنى بكل نظراتها وتصوبها إلى هيكلى وكائنها كانت ترفقها بنيار من عذوبة وحنان . ولكنها لم تشر إلى بالدخول إلى غرفة الاستقبال ولم تستدر جنى إليها حتى ولم تشر إلى بالجلوس على مقعد من للقاعد المبعثرة في المدخل ، وظلت واقفة أمامي ناظرة إلى وهي شبه باسمة وباكية ومتوسلة . على أنني لم أفقد رباطة الجأش وحرصت على أن تصل كماتي المحدودة القصار إلى نفسها و تنفذ إليها في الأعماق ..

« ولكن السيدة التي أوجه إليها كلاتي القاطعة الصادقة لا تجيب ، وتغلل تغمرني بنظرات فيها العطف وفيها الحنان .

« وتطفر الدموع إلى عينيها الجميلتين الذابلتين وتنطق في همس بنحو تلك الكامات المبهمات للتقطمات البعيدات من صوغ العبارة المتصلة والخاليات من المفي المتسلسل الصريح شكرا . شكرا . لا شيء أريد النوم . رب لم كانت الخطيئة » .

« وأدركت أن الأديبة — لا تريد أن يقتحم عزلتها أحد ، فخرجت ورد الباب ورأنى فى رفق ، وأخذت أضرب فى الشارع وفى خبالى صورة للكاتبة الآفلة وفى نفسى تأثر عميق إلى أن استقر بى المقام فى المقسى أو فى مقصف غير مأهول فجلست وأخذت أقول لنفسى : إلا أن الحسنات قد تؤذى أربابها ، وأن النضائل قد تضيع أصحابها »

والحق أن حياة « مى » تعد عملا فنيا رائماً . وقد الفنا القول بأن حياة الكاتب أو الفنان تكون فى بعض الأحيان ، أجمل آثاره الأدبية والفنية ، وهذا القول صحيح بالنسبة لبعض الكتاب والفنانين ، ولكنه لا يمكن أن يكون أعظم نصيبا من الصحة منه فى حالة الآنسة « مى » . فقد عرفت «مى» على البعد جبران خليل جبران وأحبته ، وأحبها ، دون أن يتلاقيا ، ولم يكن الحب عذريا وأن لم يتماسا أو يتلامسا ، أو يقترب جسد أحدها من الآخر ، ودون أن يظفرا من دنياها مخلوة ، يشبعان فيها حاجة كل منهما إلى الفناء فى الآخر ، والالتصاق به ، روحيا وجسمياً ، ويرويان ظمأ النفس الإنسانية إلى أن تتمرى حقيقتها ، وتهبط قليلا أو كثيراً عن إنسانيتها ، مع رفيق من الجنس الآخر ، ليتزودا من هذا الهبوط بنشوة تزيدها تطلما إلى ما هو أسمى من الإنسانية ذاتها ، وأنتى منها جوهرا وأوسم طموحا .

وقد استطاعا مع تناثيهما ، وبعد الواحد منهما عن الآخر بعدا لم يفصل من قبل فى تاريخ المحبين وأهل الهوى ، بين عاشقين ، أى يخلقا عالما خاصاً بهما ، يمتويهما ، وكأنهما فى دار واحدة تضمهما ، يتنقلان فى حجراتها ، ويقترب الواحد منهما من الآخر ، تحت سقفها ، ويبتعد ، ويغضب ويصفح ، ويتدلل ويبكى ويضحك ، ويلتفت إلى صاحبه بكل حواسه ، ثم يشرد بخاطره مع أحلامه وأوهامه ، وبقيا هكذا حتى مأتا ، ولم يسع أحدها لأن يرى صاحبه فقد بقى جبران خليل فى أمريكا ، وبقيت « مى » فى مصر . وقصة هذا الحب كل يرويها الأستاذ جميل ، جبر يبدأ هكذا :

« دار الكلام غير مرة فى تلك الجلسات المنظمة حول آثار جبران وفعلها فى توجيه الفكر العربى المعاصر ، فشاق « مى » التعرف إلى ذاك المجدد الخلاق، وكان أول ما طالعت منه مقاله (فى مثل هذا اليوم ولد تنى أمى) –

فتذوقت نهجه وطالعت سواهو استزادت ، ولما وقع أدب جبران من نفس «مي» موقعًا حسنًا ، أرادت أن تعرف من أنبائه ، مايريدها معرفة بشخصه ، وأسلوب حياته ، بعد أن عرفت طرفا من ذلك عن طريق ما يشي به أدبه ، وتكشفه أثار الكاتب عن منهج الكاتب نفسه في دنياه ، فأخبرها من يعرفون جبران خليل جبران أنه لبناني بائس هاجر إلى بوسطن في الولايات المتحدة مخلفا وراءه قریته ( بشری ) وفیها أمه وأخته . وأنه عاش فی مهجره بأمریکا عمی موبوء قذر ، حيث بدأ يتعلم الانجليزية ، ويرسم ، ثم امتحنه القدر فخطفالموت أمه وأخاه وأخته فعاد إلى بيروت ودرس العربية فيها ثم قصد باريس ودرس على بد (رودان) المثال الشهير أصول الرسم الحديث ثم قفل راجعاً إلى بوسطن، لعبش من أبرة أخته في بيته تعاساً وحرمانا ، وقد أججت صور هذه الحياة الليئة عرارة المعاناة والمكابدة ، شوق «مي » إلى أن تتصل أسبامها بأسبابه فكتبت إليه أولى رسائلها في ٢٩ من مارس سنة ١٩١٢ ، وكان اسم « مي » قد صافح إذن جبران ، ولفته بعض ما قرأه لها إن أسلوب جديد لم يطرقه غيرها من الكاتبين والكاتبات ، ففرح برسالتها ، وأسرع بالرد عليها ، ومعها آخركتبه « الأجنحة المتكسرة » وقرأت الرسالة ، وقرأت الكتاب، وأحست أن ينبوعا دافقاً ، قد انبثق في حياتها ، يحمل إلىها ما لا عهد لهابه من قبل من العواطف والخواطر والمشاعر وصور الفكر . وكتبت إليه في ١٢ من مايو سنة ١٩١٦ ، تعلق على كتابه وتقول :

« إننا لا نتفق في موضوع الزواج ياجبران ، أنا أحترم أفكارك وأجل مبادئك ، لأننى أعرفك صادقا في تعزيزها مخلصاً في الدفاع عنها . وأشاركك أيضا في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة . وكالرجل يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشبان تابعة في ذلك أميالها وألهاماتها

الشخصية ، لا مكيفة حياتها فى الغالب الذى اختاره لهما الجيران والمعارف ، حتى إذا ما انتخبت شريكا لها ، تقيدت بواجبات تلك الشركة العمرانية تقيدا تاما ، أنت تسمى هذه سلاسل ثقيلة حبكتها الأجيال ، وأنا أقول أنها سلاسل ثقيلة ، نعم ولكنها حبكتها الطبيعة التى جعلت المرأة ما هى ، فلن يتوصل الفكر إلى كسر القيود الطبيعية لأن أحكام الطبيعة فوق كل شى . ثم انتقلت إلى بطلة كتاب أو قصة الأجنحة للتكسرة .

«أنى أشعر شعورا بالقيود للقيدة بها للرأة ، تلك القيود الحريرية الدقيقة كنسيج العنكبوت المتينة متانة أسلاك الذهب . ولكن إذا جوزنا لسلى ، ولكل واحدة تماثل سلى عواطف وسموا وذكاء ، الاجتماع بصديق شريف النفس عزيزها ، فهل يصح لسكل إمرأة لم تجد في الزواج السعادة التي حلمت بها ، وهي فتاة أن تختار لها صديقاً غير زوجها ، وأن تجتمع بذلك على غير معرفة من أهلها ! حتى وإن كان القصد من اجتماعهما الصلاة عند فتي الأجيال المصلوب

ثم قالت « مى » في رساتها هذه : « كل واحد من مؤلفاتك يا جبران صديق عزيز على » ثم أقيمت في سنة ١٩١٣ حفلة تكريم للشاعر خليل مطران في مبنى الجامعة القديمة بالقاهرة ، وأرسل جبران خطابا ليشارك به في تكريم ابن بلده ، ووقع الاختيار على « مى » لتلتى هذا الخطاب ، وهي تحسن الأداء ، إذا خطبت ، كأنما تغنى ، وتحسن اختيار وقفتها على المنبر ، وتشكل فيها ، وتنوع ، وكأنها ترقص رقصة لطيفة من رقصات البالية ، فما بالك وهي تلقى خطبة صديقها الذي بدأ حبه يتسرب إلى قلبها ، ويضى ، بنوره حيانها ، وهي في السادسة والعشرين من عرها ، والشباب موشك أن بولى . لقد أبدعت في السادسة والعشرين من عرها ، والشباب موشك أن بولى . لقد أبدعت في السادسة والعشرين من عرها ، والشباب موشك أن بولى . لقد أبدعت في السادسة والعشرين من عرها ، والشباب موشك أن بولى . لقد أبدعت في الشاعر الغائب ، والخطيبة التي نابت عنه وتحدثت باسمه .

ثم تندلع الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ ، وتنقطع الرسائل بين «مح »

في القاهرة ، وجبران في بوسطن ، بعد أن اتصات هذه الرسائل ، وأصبعت قادرة أن تنقل إلى كل من هذين العاشقين وجود الآخر فكائن أدبهما ، قادرة أن تنقل إلى كل من هذابه المحيط الأطلسي ، وما يليه من الأرض وحرارة عبارتهما ، قد نجعت في الغاء المحيط الأطلسي ، وما يليه من الأرض بسهولها وجبالها ، كما الفت مابين القاهرة ، والمحيط من مساحات شاسعة ، ثم وضعت الحرب أوزارها ، وعاد الصاحبان إلى اتصالهما ، أكثر حرارة ، وضعت الحرب أوزارها ، وعاد الصاحبان إلى اتصالهما ، أكثر حرارة ، فذابت اعتبارات التحفظ والاحتياط ، وخرجا إلى التصريح بعد التلميح ، فكتبت له مثلا تقول :

لما كنت أجلس للكتابة كنت أنسى من وأين أنت ، وكثيرا ما أنسى أن هناك رجلا أخاطبه فأكلك كا أكلم نفسى ، وأحيانا كانك رفيقة لى فى المدرسة إنما كانت تطفو على تلك الحالة المعنوية عاطفة احترام خاص لا توجد عادة بين رجل وفتاة ، أتكون المسافة وعدم التعارف الشخصى ، والبحار المنبسطة بيننا هى التى كانت تلبس حقيقة ذلك التراسل ثوب الخيال .

ثم تقول :

« ومرت أسابيع سته أو سبعة دون أن اكتبلاً في كنت أقول لنفسى : يجب أن نقف هنا أنت قيدتنى (مذنبة ) في دفترك وقت تشكو لأبى كلاحدقت في شيء اخفيه وراء القناع وكلا مددت يداً اثقبها بمسهار ، فعلت ذلك متعدة . تعمدت قطع تلك الأسلاك الخفية التي تغزلها يد الغيب وتمدها بين فكرة وفكرة وروح وروح ، وصرت أحرف المعانى وامسح الأسئلة وأضعك عند الكيات التي تملاً العينين دموعا . وهل كان لدى وسيلة أخرى لأحولك عن هذا الموضوع وأذكرك الى وحيدة أبوى ؟ قد لا يكون في العائلة الغربية إلا ولد واحد فيقذفون به من انجلترا إلى الهند ، أو فتاة واحدة فترحل من فرنسا إلى الصين بلا جلبة ولا ضوضاء ولكن أين نحن من هؤلاء ونحن شرقيون ؟

« تعمدت ذلك خصوصاً » لأوفر على نفسى عسدابا هى فى غى عنه ، ولأنجابد كلة تقربنى من هذا الموضوع الذى ملا روحى شوكا وعلقما ، فى هذه الدنوات الماضية . ففهمت ما أريد و إنما فى غير معناه الحقيقى ، فنسيت أن السكوت لايحس بيننا على هذه الصورة نحن الذين تسكاتبنا أبدا كصديقين مفكرين ، نسيت أن الموضوع الآخر جاء عرضا وما دام أنه لم يكن الأصل فقد كان له أن يتلاشى دون أن يؤثر فى علاقتنا الأدبية الفكرية .

«أما صدق القائلين أن صداقة الرجل والمرأة رابع المستحيلات ، آلمني سكوتك من هذا القبيل ، وأرهف انتباهي ، فأعلمني انك لم تشاركني ارتياحي إلى تلك الصداقة الفكرية لأنك لوكنت سعيداً بها مثلي ، لما كنت رميت إلى أبعد منها . علمت أنني كنت وحدى حيث كنت أظننا اثنين . وقدرتك أنك لم تحسب تلك سوى مقدمة وأنا كنت أقدرها لذاتها . . وصار معنى سكوتك عندى : إما ذاك وإما لاشيء . . وأنت أدرى بأثر هذا في نفسى » .

وانقطع جبران فترة عن الكتابة إليها ، بعد هذا الخطاب فظنت أنها آلمته ، فبعثت تعتذر إليه وتدعوه إلى الصفح والرضا ، ويجيبها قائلا :

« أنا المسىء وحدى . وقد اسأت فى سكوتى وفى قنوطى . لذلك استغفرك أن تغفرى لى مافرط منى وأن تسامحينى » .

ولم يقنع الكاتبان الماشقان النائيان بالرسائل يتبادلونها ، بل راح كل سهم يناجى حبيبه ويحدثه فى الكتب التى يؤلفها ، فخاطبت « مى » فى كتاب ظلمات وأشعة جبران بهذه المقطوعة البارعة الجياشة بالعاطفة ، الحارة ، للدافقة ، قالت :

« أنت أيها الغربب .. أنا وأنت سجينان من سجناء الحياة ، وكا يعرف السجنا بأرقامهم ، يعرف كل حى باسمه ، وقد الفنا وسط جماعات المثقفين فيا بينهم على الضحك من سواهم حينا ، والضحك بعضهم من بعض أحياناً أنا منهم وإباك غير أن شبهى بهم يسو . فى لأنى انما أقلدهم لأربك وجها منى جديدا وأنت أتجاريهم بمثل قصدى أم الهزء والاستخفاف منك طوية وسجية ؟ ولكن رغم انقباض للنكتة منك والظروف ، ورغم امتعاض متفائل منك والحبور، أرانى واباك على تفاهم صامت مستديم يتخلله تفاهم آخر يظهر فى لحظات الكمان والعبوس والتأثر بنظرك النافذ الهادى و تذوقت غبطة من له عين ترقبه وتهم به ، فشعرت إذا ما ذكر تك ارتدت نفسى بثوب فضفاض من الصلاح والكرم متمنية أن أثر الخير والسعادة على جميع الخلائق . « لى به ثقة موثوقه ، وقلبى متمنية أن أثر الخير والسعادة على جميع الخلائق . « لى به ثقة موثوقه ، وقلبى الضنى يفيض دموعا . سأفزع إلى رحمتك عند اخفاق الأمانى ، وأبثك شكوى أمزاني طووبة طيارة .

وأحصى من الأثقال التى قوست كتفى وحشت رأسى منذ فجر أيامى . أنا التى أسير محفوفة بجناحين ، متوجة بأكليل ، وسأدعوك أبى وأمى مهيبة منك سطوة الكبر وتأثير الأمر . وسأدعوك قومى وعشيرتى ، أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دواما بالحبين .

وسأدعوك أخى وصديقى ، أنا التي لا أخ لما ولا صديق .

وسأطلمك على ضعفى واحتياجى إلى المعونة ، أنا التي تتخيل في قوة الأبطال ومناعة الصناديد .

وسأبين لك افتقارى إلى العطف والحنــــان ثم أبكى أمامك وأنت لا تدرى .

وسأطلب منك الرأى والنصيحة عند ارتباك فكرى واشتباك السبل. وإذا أسىء التصرف، وارتكبت ذنباً سأسير اليك متواضعة واجفة في انتظار التعنيف والعقوبة.

وقد أتممد الخطأ لأفوز بسخط على وامتثل لأمرك .

« وسأصلح نفسى تحت رقابتك المعنوية مقدمة لك عن أعمال حسابا وأحصل على التحبيذ منك أو الاستنكار ، فأسعد فى الحالين . وسأوقفك على حقيقة ما ينسب إلى من آثام ، فتكون لى وحدك الحكم المنصف .

« وما یحسبه الناس فصلا وحسنات سابسطه أمامك فتنبهنى إلى الفلط فیه والسهو والنسیان وستقومنی و تسامحنی و تشجه نی و تحتقر المحاولین والمتطاولین لأنك تقرأ الحقیقة منقوشة علی لوح جنانی كما اكذب أنا وشایة منافسیك و بهتان حاسدیك ، ولا أصدق سوى نظرتی فیك و هی أبر شاهد .

كل ذلك وأنت لا تعلم .

سأستعيد ذكرك متكلما فى خلوتى لأسمع منك حكاية همومك وأطاعك وآمالك. حكاية البشر المجتمعة فى فرد واحد.

« وسأتبين في جميع الوجوه صور التعبير والممنى لأعلم كم هي شاحبة تافهة لأنها ليست صورة تعبيرك ومعناك.

« وسأبتسم في المرآة ابتسامتك، في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفر إليك سأتصورك عليلا لأشفيك . مصابا لأعزيك ، مطروداً مرذولا لأكون لك وطناً وأهل وطن ، سجيناً لأشهدك بأى تهور يجازف الإخلاص ، ثم أبصرك متفوقا فريداً ، لأفاخر بك وأركن إليك .

« وسأتخيل ألف ألف مرة كيف أنك تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تمرن ، وكيف تعلم ببسالة وحرارة تمزن ، وكيف النبيل . إلى الانفعال النبيل .

« وسأتخيل ألف ألف مرة إلى أى درجة تستطيع أنت أن تقسو وإلى أى درجة تستطيع أن تحب .

وفى أعماق نفسى يتصاعد الشكر لك بخوراً لأنك أوحيت إلى ما عجز دو له الآخرون .

وفى كتاب ظلمات وأشمة نقول أيضاً كلاما يظنه مؤرخوها انها توجهه الى جبران :

« هناك فى تلك الزاوية الضائقة حيث أقام القدر من دواهيه على صدرى جدران الحسديد ومعاقل الرصاص ، هناك قرب حلول الشفق ، برزت فجأة امامى ، واخذت تتكلم عن معان اختفت طى المسانى ، واشياء توارت فى الأشياء ، وممكنات حجبت فى المستحيلات ، وخير حصص وراء الشر، ونور اشرق فى لجج الظلام . وسمو تجلى خلال الحقارة . وكانت يدك متريثه متأنية فبدت فيها الإشارات سعرية ساهية .

ثم تقول: ولكن انى جاء الوجد؟ انت لم تكن تهتم بى ، وانا لم اكن اهتم بك ، ولكن علام تشل أوصال روحى للدنو من مكان حللته ؟ وعلام

اضطرابك وارتعاش بديك إذ تلمح خيالى عن بمسد ؟ انت لم تكن تعبا بوجودى وانا لم اكن اعبا بوجودك . ولكن لماذا كنت اخاشنك متعمله الأعراض وعدم الانتباه .. من انت وماذا كنت ؟ اكنت وحياً من فيض شاعريتى المكتظه ، وطيفا من اطياف شوقى وعذابى ؟ ام انت حقيقة محسوسة مرت فى افق حياتى مرور الشفق ، فى البحر إلى الشواطى و العابية ، لقد كنت وحياً من فيض شاعريثى المكتظه ، وكنت اطيافى شوقى وعذابى . .

ولكن لم يستطع الحبان ، ان يستمر تشبثهما بالفموض والتلميح ، ولم تنفع المقاومة ، فقد انتهى الأمر « بمى » إلى ان تقول صراحة :

« جبران! لقد كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لاتحايد كلة الحب ان الذين لا يتاجرون بمظهر الحب ودعواه فى السهرات والمراقص والاجتماعات ينمى الحب فى أعماقهم قوة ديناميتية رهيبة قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم فى اللائلاء السطحى لأنهم لا يقاسون ضفط المواطف التى لم تنفجر ، ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون أن يتمنوها لنفوسهم ، ويفضلون وحدتهم، ويفضلون السكوت ، ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها ، والتلهى بما لا علاقة له بالعاطفة ، يفضلون أى غربة واى شقاء ، وهل من شقاء وغربة فى غير وحدة القلب ؟ على الا كتفاء بالقطرات الشحيحة .

ما معنى هذا الذى أكتبه ؟ أنى لاأعرف ماذا أعنى به ، ولكنى أعرف أنك محبوبى ، وأنى أخاف الحب ، أنى أنتظر من الحب كثيراً فاخاف ألا يأتينى بكل ما أنتظر . أقول هذا مع على يأن القليل من الحب كثير . الجفاف والقعط واللاشى، بالحب خير من النذر اليسير . كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا ، وكيف أفرط فيه ؟ لا أدرى الحد لله ، إننى أكتبه على الورق

ولا أتلفظ به لأنك لوكنت الآن حاضراً بالجسد لهربت خجلا بعد هذا الكلام ولا أتلفظ به لأنك لوكنت الآن حاضراً بالجسد لهربت خجلا بعد هذا الكلام ولاختفيت زمناً طويلا. فما أدعك ترانى إلا بعد أن تنسى — حتى الكتابة الوم نفسى عليها أحياناً لأنى بها حرة كل هذه الحريه . أنذ كر قول القدماء من الشرقيين : أنه خير للبنت ألا تقرأ ولا تكتب .

ه أن القديس توما يظهر هنا . وليس ما أبدى هنا أثر الوراثه فحسب . بل هو شيء أبعد من الوراثة ماهو ؟ قل لى أنت ماهو هذا . وقل لى ما إذا كنت على ضلال أو هدى فإنى أثق بك وأصدق بالبداهة كل ما تقول : سواء كنت مخطئة أو غير مخطئة . فان قلبى يسير إليك . وخير مايفعل هو أن مجلس حائماً حواليك ويحنو عليك .

«غابت الشمس وراء الأفق. ومن خلال السحب المجيبة الأشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة واحدة هي الزهرة آلهة الحب. أترى بسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوقون ؟ ربما وجد فيها من هي مثلي ، لها واحد جبران حلو بعيد هو القريب ، تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء ، وتعلم أن أن الظلام يخلف الشفق ، وأن النور يتبع الظلام ، وأن الليل سيخلف النهار ، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل أن ترى الذي تحبه فتتسرب إليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل فتلقي بالقلم جانباً لتحتمي من الوحشة في اسم واحد : جبران » .

هذا الخطاب، وتلك المقطوعتان — لاشك عندى — فى انهما من أنفس وثائق الأدب، لا لأن بلاغتهما الوجدانية ، تفيض صدقا وتنبض انفعالا ، وتكشف فى عبارات سهلة بسيطة آلاما عميقة ، وترسم أحلاما بعيدة ، وتصور اوهاماً رهيبة ، بل لأنها جزء من مجموعة من أوراق تبادلها الماشقان أو كتبها كل منهما لنفسه ، ليبثها لواعجه وأشواقه ، واضطرامه بالعب ، واضطرامه بالعب ،

وانعاله به ، بالخيال ، وفي الخيال ، فقامت مقام الاتصال الجسدى بكل آثاره وفي » وجبران كانا يتقابلان في هذه الرسائل ، كا يتلاقي العاشقان في حديقة مهجورة أو مكان غير مطروق ، أو في دار مغلقة ، ليلتي الواحد منهما بنفسه في أحضان صاحبه ، ليتعلق بعنقه ، وليملأ رثتيه من عطر انفاسه . . ولو امتد بهما العمر ، لسعدا بهذه الرسائل ولما في كرا في شيء آخر سواها ، لاعن زهد ، ولا عن رهبانية ، ولا نزولا على مقتضيات البعد المادى ، ولا احتراما لمواطف والدى «مي» بل لأنهذه الرسائل كانت في ذاتها إشباعا لهما، وإن كان جبران لم يكف عن التطلع إلى لمس مي ، واحتواثها ، والوصول بحبه لها ، إلى الفاية التي لا يقنع الرجل الصحيح البدن ، بالوقوف دونها . ولكن لأن الظروف خلقت حبها بهذه الصورة غير المألوفة ، ولأن خيال كل منهما قوى ومديد ، فقد عوضهما هذا الخيال عن التلاق ، فاستعذبا هذا الطراز من الحب ، ولم يفكر أحدها في أن يذهب إلى الآخر ، ولا أن يتلاقيا في منتصف الطريق ، في محت عزيمة أيهما على ذلك لما حالت دونه الحوائل .

ولكن جبران يصاب بالمرض ، فيكافحه فى غربته ، وهو يكتب ويرسم ، وبناجى فى رسائله وكتبه من بوسطن ومن نيويورك حبيبة قلبه المقيمة فى فى القاهرة . وتعلم ( مى ) بحقيقة العلة وتعلم أن البرء منها كالمستحيل إن لم يكن المستحيل ذاته ، ولم يبق أمامها إلا أن تسليه وتخفف عنه شعوره بالوحدة فتكتب إليه :

« لقد توزع هذا الأسبوع بريد أوروبا وأمريكا \_ وهو الثانى من نوعه في هذا الأسبوع \_ وقد فشل أملى بأن تصلنى فيه كلة منك ، نعم أنى تلقيت منك في الأسبوع الماضى بطاقة عليها وجه القديسة حنه الجميل ولكن هل تكنى الكلمة الواحدة على صورة تقوم مقام سكوت شهر كامل .

(م ٢٣ – عصر ورجال)

ولا أريد أن تكتب إلى إلا عندما تشعر بحاجة إلى ذلك أو عندما تنيلك الكتابة سروراً ، ولكن أليس من الطبيعي أن اشرئب إلى أخبارك كلا دار موزع البريد على الصناديق يفرغ فيها حقيبته ! أيمكن أن أرى العلوابع البريدية من مختلف البلدان على الرسائل ، حتى طوابع الولايات المتحدة وعلى البيدية من مختلف البلدان على الرسائل ، حتى طوابع الولايات المتحدة وعلى بعضها اسم نيويورك واضح ، فأذكر صديقى ، ولا أصبو إلى مشاهدة خط بعضها اسم نيويورك واضح ، فأذكر صديقى ، ولا أصبو إلى مشاهدة خط يده ولس قرطاسه ؟ ولتحمل إليك رقعتى هذه عواطنى فخفف من كابتك إن كنت كثيباً وتواسيك إن كنت في حاجة إلى المواساة . ولتقوك إذا كنت عاكفاً على عمل ولتزد في رغدك وانشر احك إذا كنت منشرحاً سعيداً » .

## ويرد جبران على هذا ، بقوله :

« صحتى الآن أرداً نوعا بما كانت عليه فى بدء الصيف ، فالشهور العلويلة التى صرفتها بين البحر والغاب قد وسعت الجال بين روحى وجسدى أما هذا الطائر الغريب الذى كان يختلج أكثر من مائة مرة فى الدقيقة فقد أبطأ قليلا بل أخذ يمود إلى نظامه الاعتيادى غير أنه لم يتماهل إلا بعد أن هد أركانى وقطع أوصالى . ان الراحة تنفعنى من جهة أخرى . أما الأطباء والأدوية فهى بمقام الزيت من السراج . لا لست بحاجة الى الأطباء والأدوية ، ولست بحاجة إلى الراحة والسكون أنا بحاجة موجعة إلى من يأخذ منى ويخة ف عنى \_ أنا بحاجة الى فصادة معنوية . إلى يد تتناول مما ازدحم فى نفسى ، إلى ريح شديدة تسقط أعارى وأوراقى .

«أنايا (مى) بركان صغير سدت فوهته ، فلو تمكنت اليوم من كتابة شيء كبير أو جميل لشفيت تماماً . لو كان بإمكانى أن أصرخ عالياً لمادت عافيتى . قد تقولين لماذا لا تكتب فتشفى ؟ وأنا أجيبك لا أدرى ، لا أدرى لا أستطيع المراخ . هذه هي علتي . هي علة في النفس ظهرت أعراضها

في الجمد \_ وتسألين الآن إذن، ما أنت فاعل؟ وماذا عسى أن تكون النتيجة ، وإلى متى تبقى في هذه الحالة ؟ أقول أنني سأشفى ، أقول أنني سأنشد أغنيتي فاستربح ، أقول أنني سأصرخ من أعماق سكينتي صوتًا عاليًا . بالله عليك لا تقولي أنشدت كثيراً ، وما أنشدته كان حسناً . لا تذكري أعمالي اللَّضية لأن ذكرها يؤلمني لأن تفاهتها تحول دمي إلى نار محرقة ، لأن نشوفتها تولد عطشي ، لأن سخافتها تقيمني وتقعدبي ألف مرة ومرة في كل يوم . لماذا كتبت تلك المقالات ، و تلك الحكايات ؟ لماذا لم أصبر ؟ لماذا لم أضن بالقطرات فأدخرها وأجمعها ساقية ؟ لقد ولدت وعشت لأضع كتابًا واحداً صغيرًا\_ لا أكثر ولا أقل \_ لقد ولدت وعشت و تألمت لأقول كلمة واحدة حية مجنعة، ولكن لم أصبر ، لم أبق صامتاً حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتي ؟ لم أفعل ذلك بلكنت ثرثارا، فياللا سف ويا للخجل! وبقيت ثرثارا حتى أنهكت الثرثرة قواي . وعندما صرت قادراً على لفظ أول حرف من كلتي وجدتني ملقي على ظهرى وفى فمى حجر صلد . لا بأس . إن كلتي لم تزل في قلبي . وهي كلة حية مجنحة . ولابد من قولها لنزيل بوقعها كل ما أوجدته بثرثرة من الذنوب. لابد من إخراج الشعلة » .

وفى سنة ١٩٣٥ سافرت مى إلى إيطاليا، ولو كان تلاقى الحبيبين فى حساب أيهما أو فى حسابهما، لأسرع جبران إلى إيطاليا، أو لأكلت مى رحلتها إلى أمريكا، ولكنها لم تفعل، ولم يفعل، وأرسل إليها يقول:

« حبذا لو كنت مريضاً في مصر . حبذا لو كنت مريضا في بلادى قريباً من الذين أحبهم . أتعلمين يا مى أنى في كل صباح ومساء أرانى في منزل في ضواحى القاهرة وأراك جالسة قبالى تقرأين آخر مقالة كتبتها أو آخر مقالة من مقالاتك وهي لم تنشر بعد . أتعلمين يا مى أنى ما فكرت في الإنصراف الذى

يسميه الناس موتاً إلا وجدت في التفكير لذة غريبة وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل؟ولكني أعود فأذكر أن كلة لابد من قولها فأحار بين عجزى واضطرارى وتغلق أمامي الأبواب . لا . لم أقل كلتي بعد ، ولم يظهر من هذه الشعلة غير الدخان . وهذا ما يجعل الوقوف عن العمل مراً كالعلقم ، أقول لك « يامي » ولا أقول لسواك . أنى إذا انصرفت قبل تهجئة كلتي ولفظها فاني ساعود لأقول الكلمة التي تتماثل الآن كالضباب في سكينة روحي . أتستغربين هذا الكلم ؟ إن أغرب الأشياء أقربها للحقائق الثابتة ، وفي الإرادة البشرية قوة اشتياق تحول السديم فينا إلى شموس » .

بينما تزداد حالة جبران سوء، تنبت فكرة إقامة عيد له ، إذ دعت الرابطة القلمية لمذا العيد، وتجد ه مى » في هذه الفسكرة ، ما يرضى عاطفتها ، فتبذل في سبيل تنفيذها و توفير أسباب النجاح لها كل ما تملك ، ولكن العلة التي تأكل الأيام الباقية من حياة جبران لا تحفل بما يبديه الحجبون ، والمعجبون ، فقبل أن تنتهى سنة ١٩٣٠، تكون حياة جبران قد انتهت ، وتكون الوحشة الحيطة بمي قد زادت إحكاماً ، فقد فقدت أباها ، ثم فقدت الصديق الحبيب ، الذي لم تره ، ثم فقدت شبابها ، إذ كانت قد تجاوزت الحامسة الأربعين وهي بعد عزباء لم تتزوج، تواجه المحدارها من قمة الحياة إلى سفيها وحيدة، فوقعت فريسة حالة من المرض النفسي زادت مع الأيام ، وقد التمست منها علاجا ، في السفر فسافرت في سنة ١٩٣٠ إلى فرنسا و انجلترا ، ثم عادت إلى السفر في سنة ١٩٣٤ إلى لبنان ، ولكن هذه الأسفار كلها لا تنجح في التخفيف من في سنة ١٩٣٥ إلى لبنان ، ولكن هذه الأسفار كلها لا تنجح في التخفيف من إحساسها بالفراغ و الجدب والوحدة و الخوف .

وقد أبت مى إلا أن تتصل بقاب أو بماطفة كل الذين لممت أسماؤهم،

في عالم الأدب في مصر ، وفي البلاد الشامية ، ممن وفدوا إلى مصر ، فنهم كا قلنا - من أسعده القرب منها ، والتحدث إليها ، قانعاً بتذوق واسترواح هذا العطر الذي تنشره المرأة في مجلسها ، هو عصر أشد نفاذاً ، وأجمل رائحة إذا ما صدر عن المرأة التي تتجمل للرجل ، فتبدى له زينة عقلها وبدنها معاً ، وتخلبه محلاوة وجهها ، ورشات اقة جسمها ، معززين بلطف حديثها ، طرافة أفكارها .

ولقد كان من بين من استمتع بندوة مى ، وما تحركه هذه الندوة فىقلوب روادها ، من الخواطر والأوهام طه حسين فقال :(١)

وقدأتيح لى أن أكوت من خاصة « مى » بفضل الأستاذ لطنى السيد فكنت أتا خر فى الصالون حتى ينصرف الزائرون ، وما أكثر الليالى التى انصرف فيها الزائرون جميعاً ولم يبق مهم إلا الأستاذ لطفئ السيد ومحد حسن نئل المرصفى رحمهما الله وأنا .. وفى ذلك الوقت كانت « مى » تفرغ لنا حرة سمحة ، فنسمع من حديثها ومن إنشائها ومن عزفها ومن غنائها ويظهر أبى لن أنسى صوت « مى » حين تغنينا أغنية لبنانية مشهورة « يا حنيئة » وتغنيها فى اللهجات المختلفة أيضا » .

أما مصطفى الرافعي فقد كان أعمق تأثراً بالدنو من « مي » وأشد انفعالا بحديثها ويقول الأستاذ محمد سعيد المريان في هذا :

« لمسة الحب ، لمسة ساحر جعلت فى لسانه حديثاً ولمينيه حديثاً ، وطال انفراد « مى » به عن ضيوفها فما تركته إلا لتعتذر إليهم فتعود إليه ثم قامت تودعه إلى الباب وهى تقول متى الزيارة الثانية ؟ » ووقع من نفسها كا وقعت من نفسه فما افترقا بعدها إلا على ميعاد . وكان الرافعي أول من يعشى مجلسها

<sup>(</sup>١) عن كتاب « مي أديبة الشرق » للاستاذ عبد الغني حسن

يوم الثلاثاء وآخر من ينصرف فإن منعه شيء عن شهود مجاسها في القاهرة كتبلما من طنطاعلى أن يكون له عوض مما فاته يوم وحده كان يحبها حباً عنيفا جارفا لا يقف في سبيله شيء ، ولسكن حبه ليس من حب الناس ، حب فوق الشهوات ، وفوق الفايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية . لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر ، وصفاء الروح ، وقد وجدها ولسكن في نفسه ، لا في لمسانه وقله ، وأحس وشعر و تنورت نفسه الأفاق البعيدة » .

ويقول الأستاذ العربان أن مصطنى الرافعى ، طافت به لفسترة ،أمنية أن تكون ه مى » له زوجة ثم صرف هذه الخاطرة ، أولعالها انصرفت على الرغم منه ، فما أحسب أن « مى » كانت تقبل أن تتزوجه وهو زوج وصاحب أولاد وقد رفضت أن تتزوج من أبناء جنسها ودينها ، وهم فى مثل شهرة الرافعى ، ومن يفوقونه وسامة إلا أن يشاء آله الحب ، فيزيل كل عائق ، ويتجاوز كل حساب ، ويهدم كل قاعدة ، ولسكن حدث ما يرويه سعيد العربان بقولسه :

وراح الرافعي يوما إلى ميعاده وكان في مجلسها شاعر جلست إليه ، محدثه ويحدثها ، ودخل الرافعي فوقفت له حتى جلس ، ثم عادت إلى شاعرها لتم حديثاً بدأته ، وجلس الرافعي مسترببا ينظر وابطأت به الوحدة ، وثقل عليه أن تكون لغيره أحوج ما يكون لها ، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبه ، وقالت له نفسه «ما أنت هنا وهي لا توليك من عنايتها بعض ما تولى الضيف » فاحر وجهه وغلى دمه ورمى إليها نظرة أو نظرتين ، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب .. واستمهلته فما تلبث ، وكتب إليها كتاب القطيعة ، وعاد إليه البريد برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب في أسطر ثلاثة ، ولكن الرافعي حين وجد كبرياءه نسى حبه ، وكان هو الفراق الأخه » .

هلكانت مى تحب الرافعى ، يذكر مؤرخوه الذين يذهبون إلى هـذا ، خطابًا أرسلته مى إلى الرافعى تقول له فيه :

و أنذكر إذ التقينا وليس بناشابكة ، فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئا في أساليب الحديث ، غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيا بين قلبيهما ؟ .

« وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا في التلاقي بعد فراق طويل ، كأن في كلينا قلبا ، ينتظر قلبا من زمن بعيد . ولم تكد العين تكتحل بالعين حتى أخذت كلتاهما أسلحتها ، وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب . وقلت لى بعينيك : أنا . . وقلت لك بعيني : وأنا . . وتكاشفنا بأن تكاتمنا ، وتعارفنا بأعزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض ببثها . وجذبتني سحنتك الفكرية بأعزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض ببثها . وجذبتني سحنتك الفكرية النبيلة التي تضع الحزن في نفس من يراها ، فإذا هو إمجاب فإذا هو إكبار ، فإذا هو حب » .

« وعودت عيني من تلك الساعة كيف تنظران إليك . وجملت أراك تشعر عاحولك شعورا مضاعفاً كأن فيه زيادة لم تزد . وكان الجوجوقلبينا . و تكاشفنا مرة ثانية ، بأن تكاتمنا مرة ثانية » . وفي الرسالة إن كان صحيحاً أن الرافعي تلقاها من «مي» من الفموض والرموز ، ما لاتصلح معه دليلا إلا على أن «مي» كانت بارعة في جذب حبال القلوب وارخائها ، وأن أحسن ما ينطبق عليها من الأوصاف في هذا المجتمع (الرجولي) الذي كان يطوف حولها ، ويشر ثب بأعناقه وحرمانه إليها الكامة الإنجليزية (Tantalizing) والتي ترجمتها العامية أنها كانت (تحنس) (١) هؤلاء الرجال : تقترب منهم ، و تبتمد عنهم ، و تسرف أحيانا في استعمال كلمات تثير شجوتهم ، و تلهب عواطفهم ، ثم تصطلع الوقار ، و تلتزم الشدة ، وقد أحسنت إليهم جميعاً بهذا ، فقد ألممتهم ، وحركت مشاعره وأخرجتهم من دنيا جامدة خامدة إلى عالم متحرك حر ، تشم فيه رائحة القلوب وهي تشوى على نار الحرمان ، ثم نار الزمل .

<sup>(</sup>١) قال عنها الرافعي . حتى ليظنها كل من حادثها أنها تحبه وما بها إلا أنها تفتنه ·

. . -

ولكن يبدو أن (للازنى) لم يقع فى شباك (صالون) مى ، فقد كتبأنه تلقى دعوة « مى » إلى صالونها فى يوم ثلاثاء من شهر وسنة لا يذكرها ، وأنه لم يعتذر عن تلبية الدعوة ، ولم يعتزم اجابتها ، إلا أن المقاد ، هون عليه الأمر ، وحمله على الذهاب فى الموعد المحدد . وكان مما نفر المازنى من هذه الدعوة أن بطاقة الدعوة كانت مكتوبة بخط جميل خيل إليه أنه خط خطاط استكتبته « مى » ورأى فى ذلك تكلفا ضايقه . وكان من بواعث تردده فى الذهاب إلى (صالون) مى أنه كان قد تلقى بعض كتبها ومنها كتاب ( ظلمات وأشمة ) فلم يكتب عنها شيئا فيا كان يكتبه فى صفحته الأدبية بجريدة الأخبار عن الكتب ، ويقول لهل كلة ( ظلمات ) قد ساء وقعها فى نفسه .

ولما وصل إلى (الصالون) فى الموعد دخل مستحييا ووقف على الباب مترددا، متهيباً لقاءها: مستحييا أن يحشر نفسه بين زوارها الذين قيل له أنهم من كل طبقة، ومتردداً لأنه لم يعتد هذه المجالس وندعه يكمل وصف حالته بقلمه فقال:

فإنى أعرف من نفسى شدة النفور من هذه الطبقات التي تعد نفسها ممتازة أو عالية أو لا أدرى ماذا أيضا ، على انى دخلت بسلام واستقبلتنى هاشة باشة (شاكرة) فتعجبت ولا أظن انى نطقت بحرف وقعدت حيث أومأت وكان هناك الأساتذة ، ومعذرة إذا لم اذكر الألقاب لطفى السيد وخليل مطران ومصطفى عبد الرازق والمرحوم السيد رشيد رضا وابن اخييه محى الدبن رضا والأستاذ العقاد وآخرون كثيرون امتلات بهم حجرات الدار ، وكانت المرحومة أمها تساعدها على الترحيب بالضيوف و إكرامهم ، ولا أذكر أنه دار بينى وبينها حديث ، وكانت كلا مرت بي تلقى لى كلة تحية او تكتفى بالابتسام بينى وبينها حديث ، وكانت كلا مرت بي تلقى لى كلة تحية او تكتفى بالابتسام وأنا كالأخرس لا انبث ببنت شفه ، وإذا بهذا الجمع الحاشد يخرج من الحجرات

الى الردهة النسيحة وإذا بها تقف لتخطب فارتمت ووجمت فما أكره شمئا كر اهتى للخطب ، وقالت شيئًا سمعت منه اسم ماكس ( نورداو ) فانطلق لطني السيد يصفق ، فعجبت لهذا الرجل ولما عددته يومئذ إسرافا في التلطف والمعاملة ، ولم أصغ لشيء مما قالت ورأيت كثيرين ينهضون شاكرين مثنين ، وصار هذا يدعو ذاك لإلقاء كلة فخطبة ، وزادني رعبا ان السيد محى الدين رضا همس في أذني أنه سيدعوني إلى السكلام ، فقلت والله لأن فعلت لأقولن ما يسوء فا أنا من رجال الصالونات ، ولست أحسن هذا الضرب من الكلام ، وما جننا هنا ليثني بمضنا على بغض ، على اني لا اعرف لماذا جئنا أو دعينا . واتفق في هذه اللحظة أن مرت بي الآنسة مي فحاولت أن أنهض لما فنهتني عن ذلك ، وعرفتني انه غير لازم ، فوجدت لساني وقلت لها معتذرا من جهلي بأني من عامة أبناء الشعب ولستمن رواد الصالونات فأرجو أن تتجاوزي عن اغلاطي فقالت بابتسامة وديعة: لا تقل هذا الكلام. قلت . ألا تحبين أن تعرفيني على حقيقتى ؟ قالت : طبعاً . قلت ثقى إذن انى من أبناء الشعب ، ولا أستطيع ولأ أحب أن أرتقي عن هذ المنزلة ، فتبسمت وهزت رأسها ، ولا أدرى إلى هذه الساعة اكان هذا منها أسفا أم رفضا للتصديق ، وإنما الذي أدريه اني كنت جاداً جداً. وبدأ الناس ينصرفون وهم الأستاذ العقاد وهمت بالخروج فأخرتنا ، واستبقتنا \_ استغفر الله بل استبقت أيضا الأستاذ خليل مطران و جلسنا نحن الأربعة في حجرة الاستقبال الكبرى ، وكان نصيبي منه الإصفاء مطرقا حينا ، وناظراً إلىها حينا آخر ، ومعجبا بها في الحالين ، وإن كنت قد شعرت أني غير فاهم شيئا مما يقال لفرط اعتفالي بما في نفسي .

و خلوت بنفسى فى تلك الليلة ورحت أفكر فيا رأيت وسمعت فأ مجبنى من الآنسة مى أن احتفالها برجال الأدب كان أبين

من احتفالها بغيرهم ، وسرنى على الخصوص رقتها وتلطفها حين أخرتنا واستبقتنا كأنما كان همها كله هو أن تجالسنا نحن لا سسوانا ، وتذكرت (ماكس نورداه) وتصفيق لطنى السيد الذى أسخطنى فراجعت نفسسى فى سخطى عليه ، وراجعت (ماكس نورداو) فإذا السكلمة التى استلهمت بها كلامها معناها أن الاعتراف بالجميل ينطوى على الأمل فى دوام هذا الخير ، ولو انقطع الأمل لكان الأرجع ألا يكون شكر أو اعتراف بمعروف ، فهى أى الآنسة مى \_ تشكر الذين لبوا دعوتها شكراً فيه معنى الأمل فى مواظبتهم على الخصور ، وكانت هذه براعة منها ، ولم يكن تصفيق لطنى السيد إذن فى غير الخور ، ولقد كنت خليقا أن أصفق مثله لو أنه كانت لى مثل فطنته ، أو على الأقل لو كنت ساعتئذ معنياً بإصفاء .

ولا أدرى هل عدت بمد ذلك إلى زيارتها أم لم أعد ، فإن كنت عدت فقد كان ذلك ولاشك بدافع من الإعجاب والإكبار ، وإن كنت كففت فهما فالعلة لابد أن تكون نفورى ما بسمى ( الصالون ) !» . (١)

وكلام المازني مهم جدا ، وذو قيمة كبيرة ، فكل الذين كتبواعن همي وصالونها ، غرقوا إلى الأذنين في مجاملتها ، صوروا هذه الندوات ، في أبهى الألوان ، وأجلها ، ولم يفطن أحدهم إلى ما في هذا الاجتماع من تكلف ، فقد كان الجميع يتجاوزونه ، ويغضون عنه ، فرحا مجلوسهم إلى سيدة مثقفة ذات دلال ، توزع الابتسامات ، والتحيات ، وتهمس لهذا بكلمة مجاملة ، وتوجه لذاك تحية تقدير ، وتستبقى البعض ، وتحسن توديع البعض الآخر ، وتتظاهر بالإهال والإنصراف عن شخص بذاته كالرافعي مثلا لتثير غيرته ، أو لتتخلص منه حسب الأحوال .

<sup>(</sup>١) عن كتاب ﴿ من أديبة الشرق ﴾ للا ستاذ عبد الغني حسن

فقال ، بعد أن ذكر ثلاثين من مشاهير الكتاب والأدباء والفكرين المنتسبين إلى عالم الفكرين المنتسبين

«أكل هؤلاء عشاق » .

« وعلى كل من هؤلاء ينبغى « لمى » إذا أجابت أن تجيب جواب الحبوبة التي تتقبل العشق ممن يدعيه ؟ .

« هذا هو الخاطر العاجل الذي يسبق إلى الوهم كلما ذكرت تحيات الرسائل أو القصائد أحياناً من غير واحد في هذه الزمرة المختارة . وهذا هو الخاطر الذي تصححه لحجة سريعة أيضاً إلى طبيعة الندوة وطبيعة التحية العرفية ، التي تناسبها بل تستوجبها بقانون الشعر والفن ، إن لم تقسسل بقانون الجنتلانية والفروسية .

«فتاة جميلة أديبة ، يزورها أدباء وشعراء وكتاب قصة وأصحاب ذوق فى جمال الكلمة وجمال الطلعة . إن فات أحداً من هؤلاء واجب التحية المناسبة للمقام فما هو بزائر صالح لمثل همذه الزيارة ، ولو لم تكن زيارة عشق ومناجهاة .

« وإن فات « ميا » أن تتقبل هذه التحيات ، أو وجب عليها — كما قد يخطر على بال الأقدمين — أن تصدها بالعبوس والغضب ، فليست هى زيارة ندوة إذن . . ولكنها زيارة واحدة قد تنتهى كما تبتدىء عند باب الدار .

« وهذا هو تأويل الرسائل على أسلوب الفن الماطني أو الماطفة الفنية بين صاحبة الندوة ، وأكثر من زائر من نخبة هؤلاء الزوار .

« ولكل منهم أسلوبه في تعبيره داخل هذا الإطار من النخبة . »

لطني السيد وأسلوب الجنتلمان الفيلسوف ، وعبد العزيز فهمى وأسلوب

الصمت والخجل، كأنه الصبى فى مجلس الفتيات القريبات ، وأنطون الجميل وأسلوب باثع الجواهر فى العرض على الهوانم . وشبلى شميل وأسلوب المصارع فى حلبة الفكر والشعور . وخليل مطران وأسلوب موليير على غسير مسرح التمثيل . وسليم سركيس وأسلوب الدعابة للبيوتات فى صالون من أشهر صالونات البيوتات .

« ومصطنى صادق الرافعي وأسلوب المفاجأة بالكتابة التي يغنى الإطلاع عليها عن السماع .

« واسماعيل صبرى وأسلوب الشاعر الذى يعلم أن حق الغزل الصريح أولى بالرعاية من حق الكتابة والتلميح قبل يوم الزيارة مستئذناً في الحضور .

« إن لم أمتع بمي ناظري غدا

لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء »

« وأحمد شوقى وأسلوب الإيماء من بعيد ، وعليه تعليق الفيلسوف المعجب بالطرفين » .

ما أسعد مى ، وهؤلاء جميعاً ، يلتمسون حبها أو عطفها ، كل بأسلوبه ، وهم جميعاً كواكب ساطعة فى سماء الفكر والأدب ، وندوتها فى أوجها . يلمحون ويصرحون، ويعرضون مواهبهم ، ويستعينون ببراعة الحديث، وحلاوة العبارة ليستوقفو سمعها و نظرها ، وليطرقوا باب قلبها .

ويروى العقاد شيئا بما كان يجرى فى هذا الصالون على ألسن رواده من من فكاهات فقال:

« كثيراً ما كان شميل يحمل على الأدباء في عصره حملاته المنكرة ، ويصبح بهم كأنهم حاضرون أمامه يخاطبهم ويخاطبو نه .

- فضونا من غلبتكم يا أدباتيه يا أولاد الكلب.

وكانت الآنسة تجيبه ضاحكة كلما صاح هـذه الصيحة: قلمك يقول أننا أولاد السكلب .. فمن من الوالدين السكريمين تستقر نسبتنا إليه » .

وكان شبلى شميل من أوائل الأدباء العرب الذين شرحوا نظرية داروين ودعو إليها.

## \* \* \*

ولكن هذا (الصالون) ينفض سامره ، وتنفرق رواده ، وتحيط الوحدة الموحشة بمى ، فلا يبقى لها إلا أن تكتب عن محنتها لأقربائها وأصدقائها ، من ذلك ما كتبته إلى ابن عم لها يدعى (جوزيف):

« لم أعد أكتب وكلا حاولت ذلك شعرت بشيء غريب يجمد حركة يدى ووثبة الفكر لدى . انى أتعذب شديد العذاب يا جوزيف ولا أدرى السبب فأنا أكثر من مريضة وينبغى خلق تعبير جديد لتفسير ما أحسه فى وحولى . أنى لم أتألم أبداً فى حياتى كاأتألم اليوم ، ولم أقرأ فى كتاب من الكتب أن فى طاقة بشرى أن يتحمل ما أتحمل . ووددت لو علمت السبب على الأقل ، ولكنى لم أسأل أحداً إلا وكان جوابه لاشىء ، انه وهم شعورى تمكن منى.

« لا . لا ! يا جوزيف ان هناك أمرا يمزق أحشائي ويميتني كليوم بل وفي كل دقيقة . لقد تراكت على المصائب في السنوات الأخيرة ، وانقضت على وحدتي الرهيبة التي هي معنوية أكثر منها جسدية فجعلتني أتساءل كيف يمكن عقلي أن يقاوم عذاباً كهذا . وكان عزائي الأوحد في محنتي هذه مكتبتي وحدتي الشعرية ، فكنت أعمل كالحكومة بالأشغال الشاقة لعلى أنسي فراغ يكني ؛ أنسي غصة نفسي ، بل أنسي كل ذاتي . . انه ليدهشني حقا كيف ني استطعت أن أكتب هذه الرقعة . ولعل الفضل في هذا يعود جزئيا إلى

اللفائف التي أدخنها ليل نهار – أنا التي لا عهد لى بذلك – أدخنها لتضعف قلبي هذا القلب السليم المتسين الذي لا يزال يقاوم . واسلم لابنة عمك مارى » .

\* \* \*

وجاءت وفاة والدة «مى» ، لتجعل الظلام الذى يحيط بها ، ليلا متصلا ، وجميا ممتداً ، تنقلت فيه من مستشنى الدكتور نقولا بهز ببيروت فى سنة بمها ، زارها فيها السكاتب اللبنانى أمين الريحانى ، ولسكنه لم يستطع أن يحملها على التفتح والاستجابة له ، مع أنه استعان بإحدى صديقاتها الآنسة بدربه عطا الأبوبى . ثم انتقلت إلى منزل خاص برأس ببيروت تطل شرفاته على قم الجبال المسكللة بالتلوج ، ويتردد عليمافيه بعض أصدقائها ، ثم إلى منزل بقرية (الفريكة) بجوار منزل أمين الريحانى . ثم بدا لفترة أن العلة انجابت عنها وعادت إلى القاهرة ، ويروى الدكتور منصور فهمى أنه كان يوما فى مكتبه بدار الكتب حيث كان يشغل منصب مديرها ، فإذا بالباب يفتح ، و تدخل «مى» ومعها إحدى صواحبها ، و تقع من نفسه هذه المفاجأة أحسن موقع ، فيهش ويبش ، ويرحب ويؤهل ، ولكن «مى » لا تتكلم ، و نجلس معه بعض الوقت ، و تخرج فى و تفهرة و ثيدة مع ابتسامة مشرقة ، ويرافقها حتى باب المكتب ، و تومى م برأسها خطوة و ثيدة مع ابتسامة حانية ، ثم تختفى دموعها ولا يعرف أن هذه الدموع و تلمح على شفتها ابتسامة حانية ، ثم تختفى دموعها ولا يعرف أن هذه الدموع آخر ما سبراه منها .

\* \* \*

ويذ كر صحفى لبناني أنه سمع من زميل صحفى في سنة ١٩٣٦ أن « مي » ببيروت في مستشفى الجامعة الأمريكية وكان قد سمع أنها في مستشفى المجانين ،

فنها إلى الستشفى مما ، و دخل زميله الصحفى إلى غرفة بها مى ، ورآها من ميث كان واقفا فى الطرقة ، فأدرك من اشارات « مى » أنها غضبت لقدوم هذا الصحفى ، واستان من زيارته ، ولم يرد الصحفى الثانى إضاعة الفرصة ، فلا عليها فى غرفتها ، فوجدها على سريرها ، وقد أسندت ظهرها إلى وسادة ، فلما رأته هدأت وقالت أنها كانت ترفض مقابلته لأنها عاتبة على الصحافة اللبنانية لأنها عادت إلى لبنان موطنها الأصلى تنشد الراحة والاستجمام ، فوجدت نفسها تقيد وتساق إلى مستشفى المجانين ظلما وبهتانا فلاير تفعصوت الصحافة اللبنانية من أجلها وهى صحفية ومن بيت أركانه من الصحفيين ، ثم بدأت تروى قصتها بأسلوب ساحر ، على حد فول الصحفى ، وعلى الرغم من أنها كانت جريحة النفس ، فإنها لم تستعمل لفظا واحدا نابيا فى حتى ابن عمها الدكتور جوزيف زيادة الذى اتهمها بالجنون بعد أن أخذ منها توكيلا ، بالاستيلاء على ممتلكاتها وصفت كيف ألبسوها قيص المجانين ، وكيف شهدها عشاقها فى لبنان وهى تسير باكية فى موكب رهيب .

ولما كانت « مى » قد رفعت دعوى أمام القضاء لإطلاق سراحها ، فقد دبر المعجبون بها ، حفلة لتخطب فيها « مى » وحضرها النائب العام وكان سيبدى رأيه فى هذه الدعوة ، فأفاضت فى الحديث ، ولم تشر إلى قضيتها ومحنتها بشىء فلما نظرت الدعوة تكلم النائب العام مؤيداً إطلاق سراحها ، فأطلقت من القيد . .

ولكن استمر جحيمها تتلظى فيه ، وتتقلب على الجر ، حتى تعود ثانية إلى المستشفى غير أن هذه المستشفى كانت هذه المرة فى ( المعادى ) قريبا من القاهرة حيث بقيت فيه إلى الثلث الأخير من شهر أكتوبر سنة ١٩٤١ ، وفي إحدى

ليالى هذه الأيام من ذلك الشهر تسرع المعرضة على صوت شهقة ، تصدر عن مى، وتعلن المعرضة أن المريضة تنفسها يضيق ، ويحاول الطب عبثاً إنقاذها، ثم تنطوى آخر صفحة من هذه الحياة العجيبة لأديبة عربية ، أرادت أن تكون غربية بعقلها ، شرقية بوجدانها ، فدفعت ثمن هذا التمزق آلاما ، كانت ثمن صدقها مع نفسها ، وحيرتها بين عالمين .

## محنويات الكناب

صفحة	الموضوع
١	مقدمة
٥	تمهــــــــــــــــــــــــــــــــــــ
۸٧	الفصـــل الأول : أحمد شوقى الشاعر
17.	الفصـــل الثاني : حافظ إبراهيم
171	الفصل الثاث : إبراهيم عبد القادر المازني
۲.,	الفصـــل الرابع : عباس محمود العقاد
7 2 9	الفصل الخامس : سلامه موسى
797	الفصل السادس: على الغاياتي
739	الفصــل السابع: الآنسة مي

